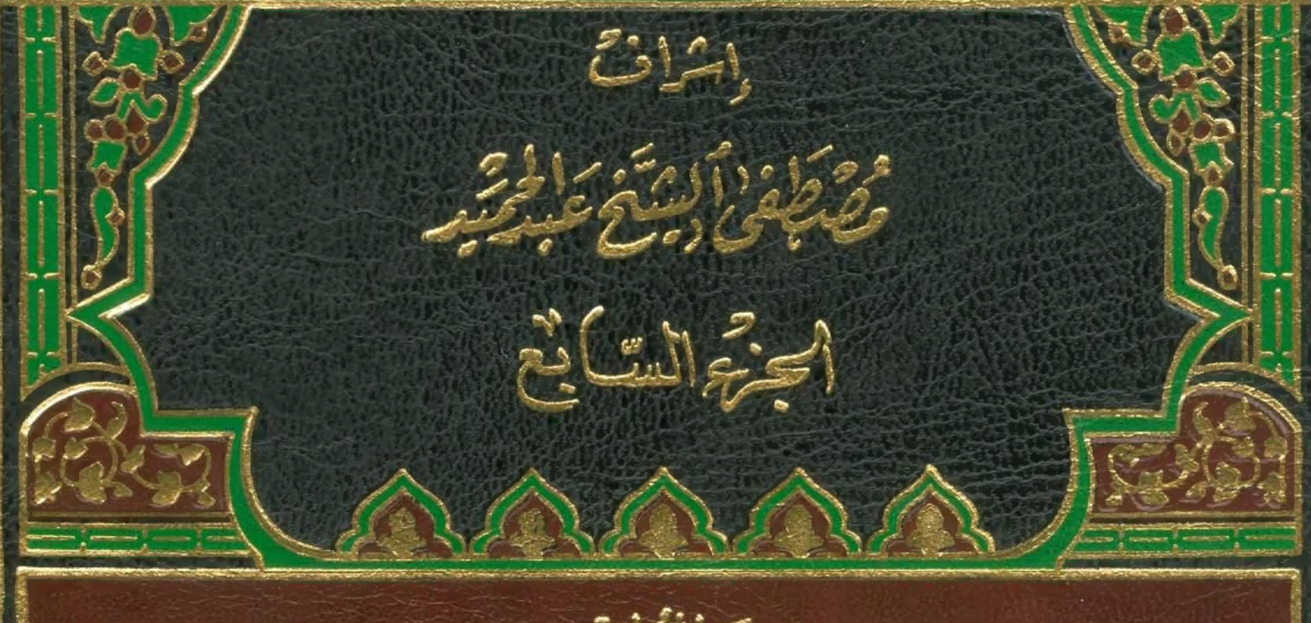
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء السابع

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث


مصورات
حسين الخزاعي لعام 2012م
مدينة العلم والعلماء قم المقدسة


محاضرات الوائلي
رحمه الله



محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء السابع

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مصطفى الشيخ عبد الحميد آل مرهون

الطبعة الثانية

في بيروت

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

يطلب من:

لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ

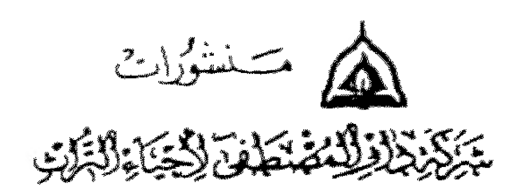
هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢ ـ ٠٠٩٦١ ـ ٧٠٠٦٦٦٩١

سوريا ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤

مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤

تلفاكس: ٠٠٩٨٢٥١ ـ ٧٧٣٨٨٥٥

البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿١٢٩﴾

أمير المؤمنين عليه السلام وكتابة التاريخ

أَأَبَـا الحُسَـينِ وتِـلكَ أروعُ كـنيةٍ   وكِـلاكُـما بـالرّائـعات قَـمِينُ
لكَ فـي خَـيال الدَّهـرِ أيُّ مَـلامحٍ   تَـروي السَّـنا ويُـتَرجِـمُ النَّسـرينُ
في الصبح أنت المُستَجِمُّ مـنَ اللَّـظىٰ   واللَّـيل فـي المـحرابِ أنتَ أنـينُ
تكسـو وأنتَ قـطيفةٌ مَـرقوعةٌ   وتَـموتُ مـن جـوعٍ وأنت بَـطينُ
آلاؤك البـيضاءُ طـوَّقتِ الدُّنَـا   فَـلها عـلىٰ ذِمـمِ الأَنـامِ دُيـونُ[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: أمير المؤمنين عليه السلام في مرآة التاريخ

ويشتمل هذا المبحث على عدّة مقدمات توطئةً لما سيأتي من بحوث إن شاء الله تعالىٰ:

المقدّمة الأُولى: عظمة أمير المؤمنين عليه السلام

عندما يقدم أي باحث على ترجمة هذا الرجل العظيم فإنه يحار من أين يبدأ وأين ينتهي؛ فليس في حياته عليه السلام لحظة لا تستحقّ التوقف عـندها، وليس فـيها حركة لا ينبغي تسجيلها والتأمّل فيها، وليس منها موقف لا ينبغي الانحناء أمامه

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

إجلالاً وإكباراً؛ فكل ما في كيانه ووجوده وحياته ألقٌ مشرق يأخذ بالأبصار. إن من يدخل بستاناً أو حتى جنة فيمكن أن يلفت نظره فيها زهرة جميلة شذيّة، أو شجرة وارفة نديّة، فيكتفي بهذه أو تلك وينشغل بها عمّا في البستان من أوراد وأشجار، أمّا من يدخل حقل حياة الإمام علي عليه السلام فإنه سيجد نفسه مشدوداً إلى كلّ ما فيه ـ وكلّ ما فيه معجب ـ وحائراً فيما ينبغي أن يبدأ به، فما من زهرة إلّا ومجاورها يعبق مثلها وما من شجرة إلّا وتؤتي أكلها حالها في ذلك حال أي شجرة أُخرى، وما من شيء إلّا وهو من نتاج الإرادة الإلهية التي أحنت على هذا الوجود ومنحته هذه العظمة.

ومن هذا أنه عليه السلام قد تساوت فيه جميع الميزات والكمالات، وهذا ما لا يمكن أن يكون لغيره ـ سوى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن سبقه من الأنبياء ـ فمن ينبغ من الناس في البلاغة أو الشعر أو الشجاعة أو الكرم أو غيرها نجد عنده نقصاً في الجوانب الأُخرى ممّا ذكرنا وغيره، أمّا أمير المؤمنين عليه السلام فخلاف ذلك؛ فقد نبغ في الجميع، وبزّ الناس جميعاً في كل ما أُوتي من فضائل ومناقب كان له فيها الحظّ الأوفر والكعب العالي والقدح المعلّى من بينهم، مع تساويها عنده في بلوغه القمّة فيها. وهكذا كان هذا الرجل العظيم.. لقد كانت كلّ حياته عطاءً وعنفواناً ومثاراً للإعجاب والحسد ممن عاصروه ومن جاؤوا بعده.

المقدمة الثانية: عطاؤه المتجدّد ومناقبه التي لا تنفد

إن بيننا وبين أمير المؤمنين عليه السلام أربعة عشر قرناً من الزمان تناولت فيها شخصيته وحياته ومواقفه الأقلامُ من مختلف الفئات والمشارب والأذواق؛ فبين محبّ موادّ، وبين مبغض شانئ، وبين متوقّف محايد. وقد كتبت هذه الأقلام ما حلا لها وما لم يحلُ، من واقع الحياة ومن وهم مخيلات أصحابها غير أنه عليه السلام بقي

من بين كل الكتابات وهذه الأقلام إشعاعاً حضارياً وهّاجاً في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الدنيا أجمعه. لقد كان يعطي جديداً كلّما شرع أحد في الكتابة عنه؛ فلم تنفد مناقبه، ولم تفنَ محامده.

وسرّ هذه الظاهرة هو أن عناية الله تعالى به لم ولن تنقطع عنه أبداً منذ مجيئه إلى الحياة وولوجه فيها وحتى قيام الساعة. وربما يرد في ذهن البعض أن هذا يتنافى مع واقع حياته عليه السلام؛ ذلك أنه لو كان محطّ عناية السماء لما مرّت به في حياته مصائب عظيمة ونكبات جمّة جعلته يتمنّى الموت [1]. لكن هذا غير صحيح من ناحية مبدئية؛ لأن هذه المصائب والنكبات هي بعض ما أعطته السماء ووهبته الإرادة الإلهية؛ لترفع بها كعبه فوق من سواه ولتبرز للدنيا أجمع مقدار إيمان علي بن أبي طالب عليه السلام وصبره وتحمّله؛ وبهذا كان ألقاً، وبقي نجمه يسطع في سماء الإيمان والصبر، وكوكبه يلمع في دنيا الخلود، وبقي هو يتألق بين كل من هم سواه. ودليل هذا أننا حينما ندرس ما مرّ به من هذه المصائب المذكورة دراسة موضوعية فسنجد أنها كافية في القضاء على غيره وكفيلة بأن تأتي عليه، لكن هذا لم يحصل مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يدري بأنه حتى بعد الموت لم يسلم من أذى مدّعي الإسلام، فكان يعلم أنه لو دفن علناً لأُخرجت جثته الطاهرة ومثّل

---

(١) فقال عليه السلام يصف حاله وحال من معه: «لا أرىٰ هؤلاء القوم إلّا ظاهرين عليكم؛ لاجتماعهم علىٰ باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم وطاعتهم لإمامهم ومعصيتكم لإمامكم، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم إياي. إني ولّيت فلاناً فخان وغدر، واحتمل فيء المسلمين إلى معاوية، وولّيت فلاناً فخان وغدر وفعل مثله، فصرت لا آتمنكم على علاقة سوط. وإن ندبتكم إلى عدوّكم في الصيف قلتم: أمهلنا ينسلخ الحرّ عنّا، وإن ندبتكم في الشتاء قلتم: أمهلنا ينسلخ القرّ عنا. اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء». ثم نزل. الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

بها؛ فكان يوصي ولده الحسن عليه السلام عند وفاته بقوله: «**لا تشهدوا أحداً جنازتي ومكان دفني**».

وهذا الحذر لم يكن خوفاً من أن يمثّل به، بل إنه كان خوفاً من أن تنتهك حرمة الإسلام بالتمثيل بجسده؛ لأنه عليه السلام كان يعلم مدى حقد السلطة الأُموية وبطشها واعتدائها على حرمات الإسلام؛ وإلّا فأليسوا هم أبناء وأحفاد هند آكلة الأكباد، التي بقرت بطن حمزة ﷺ وأكلت كبده نيئاً؟ مع أن المفروض أنه قد قتل وانتهى أمره بالنسبة لها ولجيش زوجها جيش الكفر والشرك؟ وأليسوا هم أبناء وأحفاد قائد جيش الشرك والنفاق أبي سفيان الذي كان يضع رمحه في خدّ الحمزة ويتّكئ عليه حتى تخرج من خدّه الآخر؟ فهذا المقدار من الحقد الكامن والدفين في صدر هؤلاء كافٍ لأن يدفعهم لفعل ما لا يجرؤ غيرهم على فعله مما يدفعهم إلى إخراج الجثمان الطاهر لأمير المؤمنين عليه السلام والتمثيل به.

إن هؤلاء كانوا إذا عزم خطيب على أن يرقى أعواد المنبر أفهموه وأوهموه أنهم لا يريدون أن يذكر لعلي بن أبي طالب عليه السلام منقبة، وأنه غير مرغوب، فيه وأنه ليس أهلاً لأن تكون له مناقب يذكر بها بين الملأ، وأن عليه (الخطيب) [1] أن يحدّث الناس بفضائل الصحابة دون ذكر هذا الرجل. سئل أحدهم يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كلهم كأنهم أبناء لأمّ واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن عَلة؟ فقال: ولم لا يكون كذلك، وقد سبقهم سلماً، وتقدّمهم علماً، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟

---

(١) روى الطبري أن المغيرة دعا صعصعة، فقال له: إيّاك أن يبلغني عنك أنك تظهر من فضل علي شيئاً علانية، فإنك لست بذاكر من فضل علي شيئاً أجهله، بل أنا أعلم بذلك، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد أُخذنا بإظهار عيبه للناس، فنحن ندع كثيرا ممّا أُمرنا به، ونذكر الشيء الذي لا نجد بدّاً منه، ندافع به هؤلاء القوم عن أنفسنا. فإن كنت ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك. تاريخ الطبري ٥: ١٨٨ ـ ١٨٩.

والجنس لجنسه أميل[١].

فهذا الرجل قد تميّز فأصبح محسوداً.. تميّز عن غيره بالتحلّي بكل الفضائل والتخلّي عن جميع الرذائل؛ فكان طاهراً نقيّاً[٢]؛ ولذا فإن هؤلاء لم يتوقوا له ولم يميلوا إلى جانبه ولم يسلكوا مسلكه[٣].

محاولات أعدائه للنيل منه

وهؤلاء حينما وجدوا أنفسهم لا يستطيعون أن يرقوا مراقيه، ولا أن يصلوا إلى منزلته في الشجاعة والإيمان والسابقة والمناقب والجهاد في سبيل الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله ودينه الحنيف راحوا يشكّكون الناس به وبكلّ ما يمتّ إليه بصلة، وهي محاولات كثيرة نذكر منها:

الأولى: نفي نسبة (نهج البلاغة) إليه

فحتّى (نهج البلاغة) لم يسلم من حقدهم الذي وصل إليه، وسمّهم الذي أرادوا أن ينفثوه حوله، وكانت هناك محاولات لنفي صحة نسبته إليه عليه السلام لأن فيه عطاءً

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، والمسؤول هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي.

(٢) ورد في زيارة أبي عبد الله عليه السلام: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهليّة بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها». مصباح المتهجّد: ٧٢١.

(٣) مع أن مسلكه القرآن ومع القرآن بنصّ قول الرسول الأكرم فيه صلى الله عليه وآله: «علي مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض». المعجم الأوسط ٥: ١٣٥، المعجم الصغير ١: ٢٥٥. وفي المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٩ أنه عليه السلام، حينما جاء يودّع أُم المؤمنين أُم سلمة (رضي الله تعالى عنها) عند خروجه إلى الجمل، قالت له: «سر في حفظ الله وفي كنفه، فوالله، إنك لعلى الحقّ والحقّ معك، ولولا أني أكره أن أعصي الله ورسوله فإنه أمرنا صلى الله عليه وآله أن نقرّ في بيوتنا لسرت معك».

أكبر من مستوى العصر الذي يعيش فيه[١]. كما أن البعض من المفسّرين أو المؤرّخين حينما يمرّ بمنقبة أثبتتها له آية كريمة أو حديث شريف يغفلها ويعمد إلى إهمال ذكرها أو نفيها عنه[٢]؛ لأنّه لا يقوى على الوصول إلى مثلها.

الثانية: هدم داره التي ترك النبي ﷺ بابها مفتوحاً على المسجد

وكذلك بيت الإمام عليه السلام في المدينة، والذي بناه له رسول الله ﷺ ضمن الدور العشرة التي بناها حيث إنه ﷺ خصّص تسعة منها لنسائه وأعطى العاشرة لأمير المؤمنين عليه السلام، وهي الدار الوحيدة التي لم يغلق بابها الذي يطلّ على المسجد بعد أن أوصى بإغلاق الأبواب كلّها[٣].

لكن الأُمويين هدموا هذه الدار عن عمد؛ لأن فيها إيحاءً بحقيقة ساطعة أرادوا وأدها وتضييعها؛ فعدم إغلاق باب هذه الدار يشكّل علامة فارقة، كما أن وقوف الرسول ﷺ منادياً: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[٤] كلّ يوم صباحاً عند صلاة الفجر لهو صورة حيّة تبيّن أهمية هذه الدار وساكنيها. وهذه الصورة طبعاً ظلت ماثلة طيلة الوقت في أذهان صحابة الرسول ﷺ، كما أن بقاءها في أذهان الناس يؤذي الأُمويين، وإبقاءها وتركها

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) انظر حول تفسير سورة الدهر: تفسير ابن كثير ٤: ٤٨٤ ـ ٤٨٥، تفسير الجلالين: ٧٨١ ـ ٧٨٢، منهاج السنة ٥: ٧ ـ ٥. وقد ذكرنا هناك ما نقله كلّ من ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١، والشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٢ في مكان نزول هذه السورة ممّا فيه دحض لهذا القول السخيف ورفع له. انظر ج٣ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ من كتابنا هذا.

(٣) السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١١٩ / ٨٤٢٧ ـ ٨٤٢٨، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ٧٥ ـ ٧٦، المعجم الكبير ٢: ٢٤٦.

(٤) الأحزاب: ٣٣.

كذلك يقضّ مضاجعهم؛ لأن ذلك يفشل مخطّطاتهم في إرجاع الناس القهقرى [١] عن الدين إلى شريعة الجاهلية عبر محاولاتهم المتكرّرة لتحقيق ذلك، إلى أن جاء عهد الملك عبد الملك بن مروان الذي هدم هذا البيت مع كل البيوت التي حول المسجد بذريعة توسيعه [٢].

على أية حال فإن ولد أمير المؤمنين عليه السلام لم يزالوا في بيته إلى أيام عبد الملك بن مروان الذي ما إن عرف الخبر حتى حسدهم على ذلك واغتاض، وأمر بهدم الدار متظاهراً أنه يريد أن يوسّع في المسجد. وكان فيها الحسن بن الحسن عليه السلام، فقال: لا أخرج، ولا أُمكّن من هدمها. فضرب بالسياط، وتصايح الناس، وأُخرج عند ذلك وهدمت الدار [٣].

فهناك محاولة لإقصائه عن أذهان الناس، وإبعاد دائرة النور عنه، وعدم تسليط الضوء عليه، وهذا هو حال كل ما أُثر عنه مع التاريخ الجائر والحكّام الحاقدين، فهؤلاء حاولوا جهد إمكانهم إلقاء ظلال من التشكيك حوله.

الثالثة: أكذوبة خطبة بنت أبي جهل

وهكذا ما أثبت الحقّ ميزة له عليه السلام إلّا تحولت عند أهل الحقد إلى مثلبة، ومن

---

(١) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «رأيت بني أُميّة ينزون على منبري نزو القردة، يردّون الناس عن الدين القهقرىٰ». فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر. جامع البيان ١٥ : ١٤، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨.

(٢) مع أنها لا ضرر من بقائها داخل المسجد لو أُريد توسيعه؛ لأنها محراب رسول الله صلى الله عليه وآله ومحراب الإمام علي عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، فيكون بذلك شأنها شأن مقام إسماعيل عليه السلام وغيره؛ فهي لا تقلّ عنها شأناً.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢ : ٣٨، بحار الأنوار ٣٩: ٢٩ ـ ٣٠.

هذا أن معظم الصحابة خطبوا فاطمة الزهراء عليها السلام، وكان النبي صلى الله عليه وآله يردّهم مبيّناً لهم أن أمرها ليس إليه بل إنه راجع إلى السماء، حتى أمرته السماء بأن يزوّج علياً عليه السلام منها، وهنا جاء علي عليه السلام فابتدأه رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: «**ارفع رأسك وقل لي عما جئت به**». فقال عليه السلام: «**الحياء يمنعني**». قال صلى الله عليه وآله: «**لعلّك جئت خاطباً فاطمة؟**». فقال عليه السلام: «**إي والله**». فقال صلى الله عليه وآله: «**الله أكبر، الآن خرج من عندي جبرئيل، وقد أمرني أن أُزوّج النور من النور، فقلت: مَن ممّن؟ قال: زوّج علياً من فاطمة. وأنا زوّجتك ابنتي**».

ثم قال صلى الله عليه وآله: «**يا علي ما عندك تسوقه لأهلك؟**». فقال عليه السلام: «**الله ورسوله أعلم بحالي، ليس لي نقد، وليس عندي إلّا الدرع والناضح**». فقال صلى الله عليه وآله: «**اذهب فقد زوّجتك ابنتي بالدرع**»(١).

وهذه البشرى استغلّها أعداء أمير المؤمنين عليه السلام ليحوّلوها إلى مثلبه ضده، يقول المؤرّخون: إن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلّق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء عليها السلام خرجت وبيدها الحسن والحسين وهي غضبى(٢).

وبقيت هذه الأكذوبة مروية في الصحاح يقرؤها المسلم المغرّر فينحرف عن نهج علي ويتحامل عليه. وهذا واقعاً يؤلمني، لأنه يوجع قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وقلب السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام باعتقاده صحّة هذه الفرية، وبإثباتها في كتب

---

(١) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣.

(٢) السنن الكبرىٰ (النسائي) ٥: ١٤٧ / ٨٥١٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٢٧.

الحديث. وهكذا حوّل أعداؤه عليه السلام منقبة هبة السماء له بتزويجه من سيدة نساء العالمين عليها السلام إلى مثلبة بقرية لم تحصل أبداً[١].

الرابعة: محاولة تفضيل الزهراء عليها السلام عليه

ومن هذه المحاولات ما أثبته بعض المفسّرين في كتبهم حول قوله تعالى: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ**﴾[٢]، فيقول هؤلاء: إن كلّ الناس يوم القيامة يدعون بأسماء اُمّهاتهم؛ وذلك لثلاثة[٣] أسباب أحدها تشريف الحسنين عليهما السلام بنسبتهما إلى اُمّهما وإشعار بشرفها هي عليها السلام. فهل إن فاطمة الزهراء عليها السلام أفضل من علي بن أبي طالب عليه السلام الذي نذر حياته للإسلام، فكانت عطاء ثرّاً في سبيل إعلاء كلمته. ثم إن فاطمة عليها السلام قد تشرّفت بالزواج من أمير المؤمنين عليه السلام، أليس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قال لها: «**زوّجتك خير الناس من بعدي**»[٤]؟ لكن بما أن هذا الحديث

---

(١) قال الشاعر:

ومـا مـن كـاتبٍ إلا سـتبقىٰ ... كـتابتُه وإن فَـنِيَت يَـداهُ
فلا تكتُبْ بكـفِّكَ غـيرَ شـيء ... يَسُـرُّكَ فـي القـيامة أن تَـراهُ

تأويل مختلف الحديث ١: ٥٩، كتاب الغرباء: ١٦.

(٢) الأحزاب: ٥.

(٣) ستأتي الأسباب الثلاثة في ج ٨ ص ٢٨٣ من كتابنا هذا، وفيه أن صاحب هذا الرأي هو القرطبي وإن كنّا لم نعثر عليه في تفسيره.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢، وفيه: «خير من أعلم»، الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٢٦، كنز العمّال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦، ١٣: ١٣٥ / ٣٦٤٢٣، وفيها: «خير أهلي».

وفي الأمالي (الصدوق): ٤٣٤ / ٥٧٤ عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ذات يوم في منزل أم إبراهيم، وعنده نفر من أصحابه، إذ أقبل علي بن أبي طالب عليه السلام، فلمّا بصر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا معشر الناس، أقبل إليكم خير الناس بعدي، وهو مولاكم؛ طاعته مفروضة كطاعتي، ومعصيته محرمة كمعصيتي».

وغيره (١) في جانب أمير المؤمنين، ويعدّ أعظم منقبة له حيث إنه ﷺ فضّله فيه على صحابته كافّة، فإن المحاولات الحاقدة راحت تعمل معاولها في هدمه ووضع قباله ما يمسخه بأكاذيب ليتحوّل من فضيلة إلى رذيلة.

وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلت في هذا السبيل وموررست في هذا المجال ممّا ذكرنا أو لم نذكر فإن قدح أمير المؤمنين بقي هو المعلّى وسهمه هو الصائب وحظّه هو الأوفر، وبقي علي عليه السلام مفخرة الدهر بما ترك من آثار حسده عليها الحاسدون وأبغضه عليها المبغضون الحاقدون. إن المعاول التي رفعوها للقضاء عليه ارتدّت خائبة خاسئة (٢)، وشيّد له الحق قبال كل خلية من نسيج محاولاتهم البائسة بناءً يتسامى في النفوس وفي الدنيا. وهكذا رفعته السماء فلم يؤثر فيه الشتم ولا الهدم (٣)، ولم تنحسر عنه الأضواء؛ فكم حاولوا عزله عن

☚ وفي بشارة المصطفى (الطبري): ٤٢٠ ـ ٤٢١ / ٢٨: «يا علي أنت خير الناس بعدي، وأنت أوّل الناس تصدّراً، من أطاعك فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاك فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أحبّك فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، يا علي لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق أو كافر».

(١) مع أن ابن حجر العسقلاني يقول: «قال أحمد وإسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حقّ أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي». الصواعق المحرقة: ١٢٥.

(٢) قال الشاعر:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها … فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

(٣) قال حمزة بن عبد الله بن الزبير بعد أن انتقص ابنه الإمام علياً عليه السلام: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا. أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ ونسي

إسهاماته مع رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث إنه عليه السلام شاركه صلى الله عليه وآله في أربع وثمانين غزوة من غزواته لم ينكل عليه السلام ولم يفرّ في واحدة منها أبداً، وكان يحمل لواء الإسلام فيها كلّها، ومع ذلك فإن هؤلاء كانوا يصوّرونه على أنه كأي جندي عادي في جيش الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

نعم، لقد بقي علي عليه السلام شاخصاً كالعلم يرقب المعاول وهي تتحطم على سفحه بعد أن ترتدّ خاسئة صاغرة، وما تهدّم في هذا المضمار إلا تلك المحاولات وأصحابها حيث أتت عليهم عفونة التاريخ.

المقدمة الثالثة: في حجم علي عليه السلام الذي منحته إياه السماء

هناك من يطعن فيما حُبي به أمير المؤمنين عليه السلام من فضائل ومناقب وكرامات ومعاجز، وما حبته بها إلّا السماء، وما حبته به إلّا لِما أعطى للإسلام وقدّمه في سبيل إعلاء كلمته. وهذا الطعن يستند إلى القول بأننا بالغنا في تضخيم علي عليه السلام وتضخيم مناقبه ومواقفه؛ لأننا ننظر إليه بعين تختلف عن العين التي تنظر بها للآخرين، ونراه بنظرة غير تلك التي نرى بها غيره. فنحن نلوّنه بعيوننا، وعيون الوراثة التي عشنا نحملها هي التي تجعلنا نقول هذا ونراه فيه، وبأننا نقول فيه كما قال الشاعر:

لا عذب الله أمّي إنها شربت ... حبّ الوصي وغذّتنيه باللبنِ

وكان لي والد يهوى أبا حسن ... فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسنِ[1]

أما غيركم فيراه بالعين الطبيعية، وبالتالي فهو يراه بحجمه الطبيعي، دون أن

☚ لعبد العزيز بن مروان. انظر: جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

(١) نور البراهين ١: ٣٦.

يمنحه ما تمنحونه إياه من ألقاب وكرامات وغيرها.

حديث عبادة الثقلين

ونقول لهذا المعترض: ألم تسمع أو تقرأ عن نبيّنا الأكرم ﷺ عندما برز أمير المؤمنين إلى قتال عمرو بن ودّ العامري حيث رفعه فوق الثقلين بقوله: **«والله لضربة علي عليه السلام لعمرو ابن عبد ودّ تعدل عبادة أُمّتي إلى يوم القيامة»**[(١)]؟ فعندما يقرأ امرؤ هذه العبارة أو يسمعها من الرسول ﷺ في علي عليه السلام يجد أن هذا تقييم موضوعي لم ينبع من عاطفة أبداً؛ لأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى[(٢)] أبداً. فكيف يمكن أن يفسّر هذا المعنى إلّا بما نعطيه لعليّ عليه السلام وهو عين ما أعطته إيّاه السماء على لسان أمينها في الأرض نبيّنا الأكرم محمد ﷺ[(٣)]؟ وهذا الحديث ترويه كتب المسلمين عامّة.

حديث برز الإيمان كله

وكذلك ألم يسمع هذا القائل قول رسولنا الأكرم ﷺ فيه: **«برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»**[(٤)] حينما برز لقتال مرحب؟ فالمشرّع الأعظم ورسول السماء ﷺ حينما يجعله عليه السلام هو الإسلام والإيمان، فما يكون عليه موقفنا من علي عليه السلام بعد كلّ هذا؟ والرسول الأكرم ﷺ لم ينطق من نفسه ولا من هواه وعاطفته بل إنه يترجم

---

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧، عوالي اللآلي ٤: ٨٦ / ١٠٢، ينابيع المودّة ١: ٤١٢ / ٥.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم: ٣ ـ ٤.

(٣) قال رسولنا الأكرم ﷺ مخاطباً أمير المؤمنين عليه السلام: «من مات يحبّك بعد موتك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهليّة وحوسب بما عمل في الإسلام». مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، كنز العمّال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦١، ٢٨٥، ١٩: ٦١، ينابيع المودّة ١: ٢٨١، ٢٨٤.

قول السماء؟ فهل بعد هذا يقال: إن أعيننا أعين ملوّنة أم إنها أعين طبيعية؟

القرآن يمدح علياً في أكثر من سبعين موطناً

وكذلك ألم يسمع هذا المعترض أو يقرأ ما ورد فيه في كتابنا الكريم حيث إنه ذكره في سبعين آية على أقل الروايات، وإلّا فإنها ثلاثمئة آية [١]. وهذه الآيات تحيط بجوانب أمير المؤمنين عليه السلام حياطة كاملة بعضها بشكل مباشر وبعضها بشكل غير مباشر. وكيف لنا أن نقف بعيدين عن هذا، ونكتفي بموقف المتفرّج الذي لا يطيع القرآن بعد أن نعرف أن القرآن قد أعطاه كلّ هذه المساحة الواسعة؟ وهل يعدّ هذا النظر إليه نظراً بمنظار ملوّن وخاصّ؟ وهل من موقف له لم يمجّده الإسلام؟ وأي موقف لا يمكن أن يمجّد؟ أعبادته، أم شجاعته، أم تواضعه، أم كرمه، أم علمه، أم غير هذا من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة التي ارتضتها له السماء؟

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزل في علي ثلاثمئة آية». الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ٢٣١، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧٢، نور الأبصار: ٧٣، إسعاف الراغبين: ١٦٠.

وقال رضي الله عنه: «ما في القرآن آية إلّا وعلي رأسها وقائدها وشريفها وأميرها. ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وماذكر علياً إلا بخير». تفسير ابن أبي حاتم الرازي ٣: ٩٠١ ـ ٩٠٢/ ٥٠٢٥، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٦٣، الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ١٤٠، شواهد التنزيل ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، نظم درر السمطين: ٨٩، نور الأبصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، الرياض النضرة ٢: ٢٧٤.

وقال رضي الله عنه: «ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي». الصواعق المحرقة: ١٢٥، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، شواهد التنزيل ١: ٣٩، نور الأبصار: ٣٧.

وقال رضي الله عنه: «ما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا وعلي أميرها وشريفها». الصواعق المحرقة: ٢٥، ١١٨، شواهد التنزيل ١: ٤٩، ذخائر العقبى: ٨٩، كفاية الطالب: ١٤٠، نظم درر السمطين: ٨٩، نور الأبصار: ٧٣، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧١، الرياض النضرة ٢: ٢٧٤.

إذن فالقرآن الكريم يذكر الحقائق كما هي، ولسنا نحن من ننظر إليه بعين ملوّنة ولا غيرنا من ينظر إليه بعين طبيعية، بل العكس هو الصحيح، فنحن ننظر إليه بالعين التي رأته فيها السماء متمثّلة برسولها الكريم ﷺ، وغيرنا ينظر إليه بعين محوّلة كلها بغض وحقد وشنآن له لما وهبه الله تعالى من مزايا وصفات وكرامات أعيا أهل عصره فيها.

إننا لا نريد أن نعطي أمير المؤمنين ؑ حجماً أكبر من حجمه، ولا أن ننظر إليه على أنه فوق ماهو عليه. والدليل على هذا أننا نكفّر الغلاة فيه وفي أبنائه المعصومين [1]. وهو ؑ قد أعطانا دستوراً بهذا، فقد مرّ ؑ في شهر رمضان، فرأىٰ جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «**أنتم علىٰ سفر فتستعملون هذه الرخصة؟**». قالوا: لا. قال لهم: «**مرضىٰ؟**». قالوا: لا. قال: «**لماذا تأكلون في شهر رمضان؟**». فقالوا له: أنت.. أنت. فقال: «**من أنا؟**». قالوا: أنت إله (والعياذ بالله). فنزل الإمام من علىٰ راحلته، ومرّغ خدّه علىٰ التراب، وقال لهم: «**أنا عبد من عبيد الله، والله إن لم ترتدعوا لأضرمن عليكم ناراً**». ثم أنشد:

لما رأيت الأمر أمراً منكرا ... أجّجت ناري ودعوت قنبرا [2]

---

(١) فنحن لا نزوّج المغالي، ولا نغسله ولا ندفنه إذا مات، ولا نورّثه، ونحكم بنجاسته، وبعدم جواز أكل ما يذكّيه، بل نخرجه من حضيرة الإسلام. انظر: شرائع الإسلام ١: ١١ ـ ١٢، المعتبر شرح المختصر ١: ١٩٨، منتهىٰ المطلب ١: ١٥٢، قواعد الأحكام ٣: ٣١٨، تحرير الأحكام ٢: ١٧١ (حجري)، إيضاح الفوائد ١: ٢٦، ٤: ١٢٧، البيان: ٢٤، ٢٨، ذخيرة المعاد ٢: ٣٢٧ (حجري).

(٢) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، المبسوط (الشيخ الطوسي) ٧: ٢٨١، نيل الأوطار ٨: ٦، وفيه: قال الحافظ: إن إسناده صحيح. فتح الباري ٦: ١٠٦، ١٢: ٢٣٨، تأويل مختلف الحديث: ٧٠، دستور معالم الحكم (ابن سلامة): ١٩٦، التمهيد ٥: ٣١٨،

فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة من الغلوّ عمد إلى حرقهم، فقد فهو عليه السلام وضع لنا هذا الدستور بشكل عملي، وأمرنا بفعله اقتداءً بسنته الفعلية والقولية الشريفة.

ونحن كما نرفض الغلاة نرفض العيون التي يكون ملؤها الحقد، والتي تحاول أن تضع حجاباً بينها وبين الواقع، فكل ما نريده هو أن يأخذ هذا الرجل حقّه في الحياة التاريخ ويتربّع على كامل مساحته التي أعطاه إياها الرسول صلى الله عليه وآله مترجماً لأوامر السماء[1]. ولماذا لا يعطىٰ حجمه الحقيقي هذا؟ إن التاريخ الذي كتب بأيدٍ ملطّخة بالحقد على أهل البيت عليهم السلام وبدمائهم أو مشتركة في إراقتها يتناسى ويتغاضى عن الكثير ممّا له عليه السلام، وكأنه يستكثر ويستنكر عليه أن يكون له عليه السلام ذلك أو أن يذكره له؛ فمثلاً قتلى أُحد كان عددهم ثمانية وعشرين قتيلاً ثمانية عشر منهم كانوا بسيف علي بن أبي طالب، فلماذا لا يذكر له هذا؟ وهل هي إلا الأحقاد الكامنة والضغائن الدفينة؟

المقدمة الرابعة: أنه عليه السلام ليس لفئة بعينها

إن من يرد أن يلج في حياة الرجل العظيم فمن الخطأ أن يحتسبه على جهة معينه أو فئة ما، وأفدح من هذا أنه يُصرّ على كونه عليه السلام كذلك. إنه عليه السلام ليس ملكاً

☚ ميزان الاعتدال ١: ٦٢٦، الأنساب ٥: ٤٩٩، شرح نهج البلاغة ٨: ١١٩، كنز العمّال ١١: ٣٠٣ / ٣١٥٧٨.

(١) قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة: ٦٧. انظر حول هذه الآية، وإلى كونها في بيعة خمّ: عمدة القاري ١٨: ٢٠٦، تفسير الثعلبي ٤: ٩٢، شواهد التنزيل ١: ٢٣٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢: ٣٩٢، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الخوارزمي): ٧، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ٩٤، ٩٥، ينابيع المودّة ٢: ٢٤٩، ٢٨٤، الملل والنحل ١: ١٦٣.

لطائفة أو طبقة في المجتمع الإسلامي، وليس هذا شأنه فقط، بل شأن كل صحابي خدم الإسلام وله إنجازات بحقّه[1]. ونحن نفخر ونعتز به لما قدّم في سبيل الإسلام؛ لأنه يمثل رصيداً له في حياة المسلمين. فعلي﵇ للمسلمين كافة؛ لأنه وقف كل ذرة من كيانه للإسلام والمسلمين، ووهب كل جارحة من جوارحه في خدمة رسول الله ﷺ ودينه القويم. فكل جزء من كيان أمير المؤمنين﵇ موقوف للإسلام ليفنيه من أجله؛ وبهذا كان ﵇ عطاءً للإسلام وكياناً موقوفاً عليه؛ فيجب ألّا يُنظر إليه من زاوية خاصّة. والقلم السليم هو القلم الذي ينظر إليه﵇ على أنه باب من الأبواب المفضية إلى الإسلام، ونافذة من نوافذ عطائه الثرّ. فإن كان هذا الرجل قد اتّصف بسمات تميّزه عن غيره فيجب ألّا يثير هذا الأمر في نفوس البعض البغض، ويقدح في صدورهم كوامن الحقد والشنآن، يقول أحد الأُدباء:

لو رأى مثله النبيّ لآخا ... ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ[2]

المقدمة الخامسة: أن تاريخ علي﵇ كتب بأيد غير محايدة

إن هذه المساحة الزمنية الواسعة التي تفصلنا عن أمير المؤمنين﵇ تحتاج إلى ألف عين موضوعية فاحصة لكتابته بشكل علمي ومنهجي صحيح. والواقع أنه يصعب القول بأن هذا التاريخ يمكن أخذه عن طريق محايد، أو أنه كتب بأقلام

---

(١) ولهذا فإننا لا يمكن أن ننسى عبد الله بن رواحة، وعثمان بن مظعون، وحنظلة غسيل الملائكة، وعاصماً حميّ الدبر، وغيرهم من الأبطال الأفذاذ والمجاهدين في سبيل اللّه والإسلام.

(٢) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠. وقد قال له رسولنا الأكرم ﷺ في حديث المؤاخاة: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة». الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

تقف على الحياد. وببالغ الأسف نقول: هذا هو الذي حدث. إننا يمكن أن نقسم فترات كتابة التاريخ آنذاك إلى قسمين يعود كل قسم منهما إلى عصر، كالآتي:

١ ـ العهد الأموي

فالأُمويون حينما جاؤوا حاولوا صياغة التاريخ وإعادة كتابته بشكل يتلاءم تماماً مع مآربهم وأهدافهم الجاهلية، سيما ما حصل في زمن معاوية الذي سخّر بيت المال، ووظّف كل الإمكانات للقضاء على كل ذكر يخصّ علي بن أبي طالب. ثم جاء من بعده عبد الملك بن مروان وأبناؤه، وواصلوا المسيرة نفسها[1]. وخلال هذا اتخذت هذه الحرب صفة دمويّة؛ حيث انتهى الأمر بمجزرة دموية تناولت البيت الهاشمي كلّه.

٢ ـ العهد العباسي

ثم جاء دور العباسيين الذين تسنّموا سدّة الحكم باسم البيت العلوي، لكن عهدهم كان أشدّ وأنكى على الهاشميين، حيث حاربوهم بكل ما استطاعوا وما

(١) ومن ذلك محاولة الوليد تعمية الأمر على من سأله عن الإمام السجاد عليه السلام في قصة تناول للحجر الأسعد بعد أن عجز عن تناوله، لولا أن الفرزدق فضحه، فقال:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ
هـذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهِمُ ... هذا التقيُّ النّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
وليس قولُك مَن هذا بضائره ... العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ
في كفه خَيزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ ... من كفِّ أروعَ في عِرنينِه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغضَىٰ من مَهابَتِهِ ... فلا يُكَلَّمُ إلّا حينَ يبتسمُ
يكادُ يُمسِكُهُ عِرفانُ رَاحَتِهِ ... رُكنَ الحطيمِ إذا ما جَاءَ يَستَلِمُ

إلى آخر ميميّته الرائعة. مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦.

ومن ذلك أن أحد كتّاب الوالي الأُمويّ خالد بن عبد اللّه القسريّ علىٰ الكوفة سأله عن مصير الروايات التي فيها مدح لأمير المؤمنين عليه السلام؛ فهل يذكرها، أم لا؟ فقال له خالد: لا تذكرها إلّا أن تجده في قعر جهنم.

أُوتوا من قوة وقدرات وطاقات. ثم أعقبهم ذيـولهم وصـنائعهم مـن السـلاجقة والأتراك الذين انقلبوا عليهم، وهؤلاء فعلوا كفعلهم في أهل البيت عليهم السلام. وكـذلك فعل التتر ما فعل غيرهم.

بل إن الأمر تجاوزه وامتدّ إلى الآن، حيث لا زلنا نجد من يكتب بحقد وعداء لعلي بن أبي طالب عليه السلام. وهذا كلّه يحتاج لإعادة نظر؛ لأنّه لا بدّ من تصحيح الوضع الخطأ، كما يجب ألا تضيّع هذه الثروة التي غطّاها التاريخ بالضباب. فـعلينا أن ندرسه عليه السلام كما هو؛ كي تأخذ دنيا الإسلام حقّها الواجب لها من عطائه الثّر الضخم؛ لأنه عطاء للمسلمين كافّة.

وبعد هذه المقدمات نرجع إلى سيرة هذا الرجل العظيم لنتناولها ناحية ناحية، كل ناحية بمبحث إن شاء الله تعالىٰ:

المبحث الثاني: في أنه عليه السلام أكبر من الوعاء الذي احتواه

لقد اختار الله تعالى لهذا الرجل العظيم أوعية احتوته، وعادة ما تكون الأوعية (الظروف) أكبر من المظروف، غير أن هذا الأمر على العكس مع علي بـن أبـي طالب عليه السلام فهو دوماً وأبداً أكبر من الظرف الذي احتواه إلّا صدر رسول الله صلى الله عليه وآله. والأوعية التي اختارها الله تعالى لهذا الرجل على نوعين: مادية ومعنوية، وهي أوعية تتناسب مع أمير المؤمنين عليه السلام من حيث طهارته وألقه.

وهنا نقطة ابتلي بها علي بن أبي طالب عليه السلام كما ابتلي بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث يروي غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية أن أبوي الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ماتا مشركين. فهم يروون عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله نزل على قبر أُمّه فناجى ربه طويلاً ثم بكى، حتى اشتدّ بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه وقالوا: ما بكـى نـبي الله صلى الله عليه وآله بهذا المكان إلّا وقد حدث في أُمّته شيء لا نطيقه. فقال صلى الله عليه وآله لهم: «ما

يبكيكم؟». قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك. فقال: «**نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أُمي فبكيت. واستأذنت ربّي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي. ثم جاءني جبريل عليه السلام فقال: تبرّأ من أُمّك كما تبرّأ إبراهيم عليه السلام من أبيه.**»[1].

ويعلّق بعض علمائهم على هذا بالقول: هذا أمر عظيم. وفعلاً لهو أمر عظيم أن نتصوّر أن أبوي الرسول صلى الله عليه وآله مشركان نجسان، وأن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد وصل إلى الدنيا بوعاء نجس؛ ذلك أن المشركين نجس[2]. وهذا ظلم للرسول صلى الله عليه وآله وافتراء عليه.

الوعاء الأول: صلب النبي إبراهيم عليه السلام

الواقع أن رسول الله صلى الله عليه وآله طاهر من طاهر[3]، وهؤلاء الأطهار بعضهم من بعض، وهو صلى الله عليه وآله الذي يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: «**أنت مني وأنا منك**»[4].

ويروي ابن سيرين أنه صلى الله عليه وآله قال له: «**أنت ختني وأبو ولدي**»[5]. أي أنك يا علي

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١، صحيح مسلم ٣: ٦٥، سنن ابن ماجة ١: ٥٠١، المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٤، ٣٧٥، ٢: ٦٠٥، صحيح مسلم بشرح النووي ٧: ٤٥، مجمع الزوائد ١: ١١٧.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ التوبة: ٢٨.

(٣) فنحن نخاطبهم بما وصفوا به أنفسهم في زيارتهم فنقول: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسكم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمّات ثيابها» مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٧.

(٤) مسند أحمد ١: ١٠٨، ٤: ١٦٤ ـ ١٦٥، ٥: ٣٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٢.

(٥) مسند أحمد ٥: ٢٠٤، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٤٩، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ١٢٢، كنز العمّال ١١: ٦٩٣ / ٣٣١٠٩، ١٢: ٢٥٥ / ٣٦٧٥٥.

من سنخي ومن طينتي نفسها. فعلي ﵇ في خطّ الإمامة، وهو امتداد لخطّ النبوّة.

ثم إنه ينبغي التنبيه إلى أن بيت عبد المطّلب ﵁ لم يعرف الشرك أبداً، وهو ابن نبي الله ابراهيم الخليل ﵇، فعلي ﵇ ابن إبراهيم الخليل ﵉ ومن وعاء النبي إبراهيم الخليل ﵇.

الوعاء الثاني: الكعبة المشرّفة

وبعد أن اختار الله تعالى لأمير المؤمنين ﵇ الوعاء الذي ولد منه، جاء دور اختيار الوعاء الذي يولد فيه، فكان أمر الله تعالى أن اختار له الكعبة المشرّفة موضع ولادة، وهو ما لم يكن لأحد قبله ولا لأحد بعده مطلقاً. واختيار الكعبة المقدّسة وعاءً لولادته ﵇ له دلالات إيجابية عدّة؛ لأن الكعبة وعاء مشرّف في نظر المسلمين عامّة، فهي أشرف البيوت عند الله وأكرمها عليه، لكن لا بد من بيان أن الظرف هنا لم يكن أشرف من المظروف البتّة كما ذكرنا في صدر هذا المبحث. والدليل على هذا أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب حينما مرّ على الحجر الأسعد نظر إليه ثم خاطبه بقوله: «أما والله، لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك». ثم قبّله [1].

فالله تعبّدنا بإكرام الحجر والبيت لكن لا على أساس أنهما أشرف من رسول الله ﷺ أو من علي أمير المؤمنين ﵇ [2]، فالنبي ﷺ أشرف الموجودات

---

(١) مسند أحمد ١: ١٦ ـ ١٧، ٢٦، ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٥١، ٥٣ ـ ٥٤، صحيح البخاري ٢: ١٥٩ ـ ١٦٠، ٢: ١٦٢، صحيح مسلم ٤: ٦٦ ـ ٦٧، سنن ابن ماجة ٢: ٩٨١ ـ ٩٨٢ / ٢٩٤٣.

(٢) بل ورد أن المؤمن عامّة له حرمة عند الله أعظم من حرمة بيت الله الحرام أو مثلها، قال رسولنا الأكرم ﷺ في إحدى حجّاته: «إن الله عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه». الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠،

الممكنة، والإمام علي عليه السلام جزء من رسول الله صلى الله عليه وآله بنصّ القرآن الكريم: **﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾**[1]؛ ولذا فإنه عليه السلام يأخذ حكم رسول الله صلى الله عليه وآله هنا.

إذن اختيار الكعبة وعاءً له عليه السلام يعدّ من المناقب الشريفة والفضائل العظيمة، لكنه عليه السلام يبقى أشرف من الكعبة كما رسول الله صلى الله عليه وآله أشرف منها.

الوعاء الثالث: صدر نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله

وهذا الوعاء من الأوعية المعنوية، وقد جاءت هذه الحالة نتيجة تخطيط السماء، فترعرع أمير المؤمنين عليه السلام ونما في رعاية أشرف موجود وأعظم مخلوق. لقد كان صلى الله عليه وآله يوجره اللبن في فمه، ويهزّ له مهده، ويضجعه إلى جانبه، ويحمله على صدره ويطوف به شعاب مكّة المكرّمة إلى أن كبر. فلم يكن صلى الله عليه وآله يفارقه، وبعد أن كبر راح صلى الله عليه وآله يصحبه معه إلى غار حراء. قالت للنبي صلى الله عليه وآله إحدى نسائه: إن لي ليلة من تسع ليالٍ، ثم يأتي علي وتخلو به فيها وتتركني؟ فقال صلى الله عليه وآله لها: **«إياك أن تغضبيه، والله لا يغضبه أحد إلا ويكبّه الله على منخريه في نار جهنم»**.

وهكذا استلهم عليه السلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فيوضاته وآدابه، يقول عليه السلام: **«وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة؛ وضعني في حجره وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمُنيه»**[2].

☚ صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.
وقال الصادق عليه السلام: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة... إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلي أقبلت». الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، ينابيع المودّة ١: ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

فأي وعاء أشرف من هذا الوعاء؟ وهكذا فإن الله تعالى اختار لعلي عليه السلام البيوت الطاهرة والأمكنة الطاهرة. وكل وعاء مرّ به علي بن أبي طالب عليه السلام فهو من اختيار الله تعالى له، حيث إنه تعالى أراد له ذلك.

الوعاء الرابع: الوادي المقدّس الذي دفن فيه

ثم اختار له تعالى الوعاء الذي حلّ فيه جسده الطاهر، وهذا الوعاء والتربة التي حلّ فيها هو عبارة عن وادٍ مقدّس. وعند بعض المفسرين أن الوادي المذكور في قوله تعالى: **﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾**[١] هو التربة التي دفن فيها علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد أشار عبد الباقي العمري إلى هذا المعنى في قوله:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها ... يفوح لنا كالعَنبر المتنفّسِ
ونمشي حفاةً في ثَراها تَقدُّساً ... نَرى أننا نمشي بوادٍ مُقدسِ[٢]

المبحث الثالث: أنه عليه السلام شهيد موقف

لقد سقط عليه السلام ليلة التاسعة عشرة من رمضان شهيد مبادئ عاش من أجلها واستشهد من أجلها، وكرس كل حياته لها. إن بإمكانه عليه السلام أن يحتوي المقدمات التي أدّت إلى قتله، وبوسعه أن يمنع حدوث هذا الأمر، لكنه إن فعل فعلى حساب المبادئ يفعل، وهو عليه السلام ليس من هذا النمط الذي يبيع مبادئه. ولتوضيح ذلك نقول: أليس بإمكان الإمام علي عليه السلام أن يقتل الأشعث بن قيس وعبد الرحمن بن ملجم وغيرهما وينحّيهم عن الساحة، ويخلّص الأُمّة من شرورهم؟ لكنه لم يشأ أن يفعل.. كان عليه السلام يردّد: «**وقد عاتبتكم بدرّتي التي أُعاتب بها أهلي فلم تبالوا، وضربتكم بسوطي الذي أُقيم به حدود ربّي فلم ترعووا، أتريدون أن أضربكم**

---

(١) طه: ١٢.

(٢) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

بسيفي؟ أما إني أعلم الذي تريدون ويقيم إودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي» [١].

ومعنى هذا أنه عليه السلام لا يريد أن يفسد مبادئه من أجلهم.

وحينما بايعه ابن ملجم ثم أدبر عنه، دعاه أمير المؤمنين عليه السلام فتوثّق منه ألّا يغدر ولا ينكث ففعل، ثم أدبر عنه فدعاه عليه السلام ثانية فتوثّق منه ألّا يغدر ولا ينكث ففعل، ثم أدبر عنه فدعاه عليه السلام ثالثة فتوثّق منه كذلك، فقال ابن ملجم: والله يا أمير المؤمنين، ما رأيتك فعلت هذا بأحد غيري. فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أريد حياءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مرادِ

امضِ يابن ملجم، فوالله ما أرى أن تفي بما قلت» [٢].

فكان عليه السلام يقول بعد ذلك: **«ما ينتظر أشقاها أن يخضّب هذه من هذه؛ شوقاً إلى ربّي عزّ وجلّ وتصديقاً. إني إلى لقاء ربّي لمشتاق، ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ، وإني لعلى الصراط المستقيم في يقين من أمري وبيّنة من ربّي»** [٣].

وكان عليه السلام يعرف أن هناك عناصر من الخوارج تتربّص به، لكنه لم يرد أن يثلم مبدأً من مبادئ الإسلام، فيقتص قبل الجناية. وهو عليه السلام بهذا لم يشأ أن يحاسب على النوايا أو يعاقب عليها، فصمد وصبر، فالذي انتهى به إلى القتل هو موقفه

---

(١) الكافي ٨: ٣٦١ / ٥٥١، أنساب الأشراف: ٤٥٨ ـ ٤٥٩ / ٤٩٨.

(٢) الإرشاد ١: ١٢، أنساب الأشراف: ٥٠٢ / ٥٥١. والبيت لعمرو بن معدي كرب، وقد تمثّل به عليه السلام. انظر أُسد الغابة ٤: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣) المسترشد في الإمامة: ٣٦٦ ـ ٣٦٧، مقاتل الطالبيّين: ١٨، الآحاد والمثاني (الضحّاك) ١: ١٤٨ / ١٧٦، المعجم الكبير ١: ١٠٥، تاريخ الإسلام ٣: ٦٤٧، شرح نهج البلاغة ٦: ١١٤، كنز العمّال ١٣: ١٨٧ / ٣٦٥٥٧، وفي بعضها أنه عليه السلام أنشد: اشدد..

حيازيمك للموت فإن الموت لاقيك

ولا تجزع من الموت إذا حلّ بواديك

الذي وقفه من أجل الإسلام، فقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين [١]. يقول العقاد مناقشاً مواقف علي بن أبي طالب عليه السلام: لماذا نحّىٰ علي معاوية ولم يبقِه في الحكم؟ ولماذا ساوى في العطاء بين عامّة الناس والرؤساء، مع أنه كان بوسعه أن يمايز في العطاء؟ ثم يعلّق قائلاً: إن هؤلاء يريدون من علي عليه السلام أن يكون معاوية؛ وعلي لا يكون إلّا علياً، ومعاوية لا يكون إلّا معاوية.

وقد كلّمه أكثر من شخص في مهادنة معاوية، وعدم الإلحاح في المساواة في العطاء، فقال عليه السلام لهم: **«أتريدونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، لا أفعل ذلك ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم»** [٢].

فهذا ليس نصراً وإنما هو ضياع وانهزام. وهكذا نجد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام في مثل هذه الليلة كان صريع مبدأ وشهيد موقف، وقد شعر بأن مجتمعه بدأ يضيق به، فكان عليه السلام يردّد:

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني ... فلا وربك ما ضرّوا وما ظفروا

---

(١) قال عليه السلام: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أُقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين». المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلىٰ ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

(٢) الأمالي (الطوسي): ١٩٤ / ٣٣١، ونسب العتاب فيه لجماعة من أصحابه عليه السلام، وفي نهج البلاغة / الكلام: ١٢٦ ما نصّه: «والله، ما أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وإن إعطاء المال في غير حقّه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع امرؤ ماله في غير حقّه ولا عند غير أهله إلّا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم. فإن زلّت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خدين وألأم خليل».
وكما مرّ من محاولات المغيرة، انظر: بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، مروج الذهب ٢: ٣٩١، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

إن يـقتلوني فـرهن ذمّـتي لهُـمُ بذاتِ ودقينِ لا يعفو لها أثـرُ [١]

وكان عليه السلام يردّد هذه الأبيات ثم يضع يده الكريمة على شيبته الشريفة، ثمّ يصعد المنبر ويقول: **«اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء»** [٢].

لقد كان المجتمع المحيط به يتسلّل إلى معاوية، وكلّما حاول عليه السلام أن يـروّضه على قبول الصلاح استعصى على الترويض والإصلاح، حتى وصل به الأمـر أن أصبح في حالة من التعفّن والفساد يصعب بل يتعذّر معها العلاج إلّا بالسيف، وقد أبى أن يورد سيفه هذا المورد.

ثم إن المتتبع للتاريخ لا بدّ أنه وجد أن الخوارج ليسوا وحدهم من قتل أمير المؤمنين عليه السلام، بل إن هناك عناصر كانت تعيش في قلب الكوفة، شركت في قتل علي عليه السلام وخطّطت له، وغاية مافي الأمر أن الخوارج كانوا الأداة المـنفذّة لهـذه الجريمة البشعة. يقول أرباب التواريخ: وعندما دخل هذا الشهر المـبارك كـان علي عليه السلام يوزّع إفطاره بين بيت عبد اللّه بن جعفر وبيت ابنه الحسن عليه السلام وبيت ابنه الحسين عليه السلام، فكان كلّ ليلة يفطر عند أحدهم على شيء من الخبز والملح، وإن زاد فبشيء من اللبن. وهكذا كان ديدنه عليه السلام في هذا الشهر الكريم، ثم يقصد المسجد ليتنفّل فيه.

وكان عليه السلام على هذا الحال حتى الليلة التاسعة عشرة، تقول أُم كلثوم: دخل أبي

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٦٦ ـ روق، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٧٩ ـ روق، ٥: ١٦٨ ـ ودق.

(٢) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

الدار وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي أمير المؤمنين‌عليه‌السلام طبقاً فيه إفطاره، وكان فيه إدامان، فالتفت إلي قائلاً: **«بنية، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟»**.

تقول أُمّ كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: **«لا، ارفعي اللبن»**. ثم أكل شيئاً من ذلك وقال: **«من أدخله بطنه النار فأبعده الله»**[(١)].

تقول: ثم رمق‌عليه‌السلام السماء بطرفه ثم قال: **«يامن قصده الضالون فأصابوه مرشداً، وأمَّ إليه الخائفون فرأوه موئلاً، ولجأ إليه العائذون فرأوه معقلاً»**[(٢)].

ثم دخل حجرته وراح يتنفّل بركعات، وكان يخرج بين آونة وأُخرى ويطيل النظر إلى السماء، فقلت: أبه، أراك تطيل النظر إلى السماء؟ فقال: **«هي هي والله الليلة التي وُعدت بها، والله ما كَذبت ولا كُذبت»**. ثم يعود إلى حجرته، إلى أن انبلج عمود الفجر، فقام‌عليه‌السلام ونزل إلى الدار، وكان فيها إوزّ أُهديت للإمام الحسن‌عليه‌السلام، فرفرفن في وجهه، فذدت عنه تلك الطيور، فقال: **«دعيهن فإنهن صوائح ونوائح، وفي غداة الغد ينزل القدر المحتوم»**.

تقول أُم كلثوم: فقلت له: «يا أبتاه، أراك تتطيّر هذه الليلة؟ فقال‌عليه‌السلام: **«لا يا بنيتي، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال، فما دخل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتطيّر، ولكن للموت علامات ودلالات يتبع بعضها بعضاً»**[(٣)].

---

(١) الدعوات: ١٣٧ ـ ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين‌عليه‌السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧، باختلاف.

فاختنقت بعبرتها، ثم فتح باب الدار فتعلّق مئزره بـه فـانحلّ، فأخـذ يشـدّه ويقول: «اشدد..

حيازيمك للموتِ فإن الموتَ لاقيكا

ولا تغترّ بالدهر إذا كان يواسيكا

كما أضحكك الدهرُ كذاك الدهرُ يبكيكا»

﴿١٣٠﴾

الأُخوّة في التشريع الإلهي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: معنى الأخوّة والمراد منها

إن لفظ «إخوة» في اللغة العربية يطلق على من تربط بينهم علاقة الدم، أي أنهم من صلب واحد أو من بطن واحدة، أما الذين يجمعهم عامل الصداقة فإنهم يعبّر عنهم بأنهم «إخوان». وعليه فإن تعبير الآية بـ﴿**إنما المؤمنون اخوة**﴾، مع أن المؤمنين ليسوا كلّهم من صلب واحد أو بطن واحدة يظهر منه أنها تريد أن ننزلهم منزلة الإخوة، فكأن الآية في معرض بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون من شدّة التصاق بعضهم بالبعض الآخر.

مفهوم الوصف

هناك قاعدة تنصّ على أنه إذا جاء حكم على صفة، فإنّ هذه الصفة تعتبر علة

---

(١) الحجرات: ١٠.

له، فمثلاً إذا قلنا لأحد: أطعم العمال. فإن لفظة (العمال) مشتقّة من العمل، وهي هنا صفة، ومن هنا نعرف أن العلة في إطعامهم هي كونهم عمالاً. فالحكم مترتّب علىٰ الوصف. وكذلك الحال هنا، إذ يقال: علة الأُخوّة الإيمان، فإذا وجد الإيمان وجدت الأُخوّة وإذا لم يوجد الإيمان لن توجد الأُخوّة.

وهنا تعترضنا مشكلة لا تكون نابعة إلّا من وجود خلل أخلاقي يحكم حياتنا، فلو رأينا شخصين منا يتنازعان فنحن نعرف أنهما إما أن يكون إما كلاهما لا إيمان له، أو أن أحدهما كذلك. وبالنتيجة فإننا نحكم بوجود خلل في التزكية، وإلّا فإن الذي عنده إيمان لايتقاطع ولا يتدابر، ولو كان عنده شبهة على أخيه فإن عليه ألّا يقاطعه، بل يجب عليه البحث والفحص، وتتبّع الطرق الطبيعية، فربما أدّى هذا إلى أن تنتهي هذه الشبهة وتنجلي، فإن تأكد من شبهته عليه وقاطعه من أجل الإيمان، فهذا هو المؤمن؛ لأن المقاطعة حينئذٍ تعدّ ضرورية.

إن الإيمان الحقيقي هو الذي يوجب التلاؤم ولايوجب التقاطع، فهو يقرّب المؤمن من أخيه المؤمن. وهنا أودّ أن أُنبّه إلى أن المسلم الذي يفهم النص شيئاً خلاف ما يفهمه الآخر ـ كما هو شأن الكثير من النصوص في القرآن، فكلّ شخص يفهمها بشكل مغاير لما يفهمه غيره ـ يجب ألّا يُشنّع عليه، وذلك في مثل قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[1]، فالقرآن يأمرنا بأن نمتنع عن الطعام والشراب إلى الليل، لكن الليل متىٰ يبدأ؟ فيذهب بعض إلى أن الليل يبدأ بمغيب الشمس، أما غيره فيقول: إن الليل معنى عرفي، وهو دخول الظلام. فينبغي هنا ألّا يكفّر أو يسبّ بسبب هذا؛ لأنهما كليهما قد فهما شيئاً مغايراً للآخر.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

الاختلاف في القراءات

إن هذا الأمر ينبغي ألّا يثير خلافاً بين المسلمين، ومعلوم أن عندهم اختلافاً في قراءات القرآن الكريم في بعض ألفاظه. فكما أن هذا لا يوجب المعاداة بين المؤمنين فكذلك هذه الأُمور.

ومن موارد الاختلاف في القراءات اختلافهم في لفظ كلمة ﴿**مَالِكِ**﴾ من قوله تعالىٰ: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[1] فهو يقرأ ﴿**مَالِكِ**﴾ و(ملك)، وكلاهما يعطي معنىٰ الهيمنة، أي أنه تعالى يهيمن على القيامة ومن فيها، فهو المالك وهو المتصرف. وهذا اللون لا يوجب الاختلاف، فعندما تقرأ (مِلك يوم الدين) فإن القارى يكون قد أشار إلى سبب الملكية، وهو أن الملك هو الحاكم والمهيمن، وعندما أقول: ﴿**مَالِكِ**﴾ أنه ملك إضافة إلى أنه يمتلك.

وكذلك اختلافهم في فهم كون القبر حرزاً أو لا من قوله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ كِفَاتاً**﴾[2]. فالكفت: هو الجمع والضم، وكفت الشيء أي جمعه وضمه. يقول الفقهاء: إن الله جعل الأرض حرزاً، فحينما نضع الميت في الأرض، ويأتي سارق وينبش القبر ويسرق كفن الميت، فهل يعدّ سارقاً من حرز أم لا؟ فإذا كان سارقاً من حرز قطعت يده، وإن لم يكن من حرز كما يذهب إليه البعض فإن يده لا تقطع. وكل له دليله؛ فالقائل بأن الأرض حرز، والقبر حرز يستدل بالآية.

ومن هذا ما لو روى أحد الرواة خبراً فيثق به أحد ويعتبره عدلاً، والآخر يقول عنه: لم تثبت لي عدالته؛ لذلك فإنّ هذا الحكم الشرعي لا آخذه عن طريقه. وهذا أيضاً يجب ألّا يخلق التباغض بينهما.

ونقول بصراحة: إن هناك مجموعة من صحابة الرسول ﷺ، للمسلمين فيهم

---

(١) الفاتحة: ٤.
(٢) المرسلات: ٢٥.

آراؤهم، فمن قائل: أنا أرىٰ أن الإمام علي افضل، وآخر يقول: إن أبا بكر أفضل، وهذا ينبغي ألّا يكون مصدر عداء؛ فلكل رأيه.

فالذي يظهر العداء والحقد في مثل هذه المواطن إما أنه لايعي ما يفعل، أو أنه مُرتشٍ من قبل الآخرين، فنحن أهل «**لا إله إلّا الله**»، والإيمان الواقعي لايبعث على الخلاف. والقرآن يصدح ويقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ وعند تبديل العبارة تصبح: الأُخوّة للمؤمن.

المبحث الثاني: الآثار المترتّبة على أُخوّة الإيمان

وربما يقول أحد ما: إن ﴿**إِنَّمَا**﴾ تفيد الحصر، كأن تقول مثلاً: إنما الأحمر هذا اللون، أي أنه لا أحمر إلّا هذا اللون. وعليه فإن المعنى يكون هنا أنه لاتوجد أُخوّة إلّا أُخوّة الإيمان. وتترتّب على هذه الأُخوة آثار عدّة منها:

الأثر الأول: أن الأُخوّة ليست للدم

فبعض الإخوة وإن كانوا من صلب واحد أو من بطن واحد لكن هذه ليس علة للإخوة؛ لأن المعلول لايتخلّف عن العلّة، كشعاع الشمس الذي لا يتخلف عنها إذا طلعت. فالإخوة الذين يكونون من صلب واحد وبطن واحد قد لا يتحقّق معنىٰ الأُخوّة فيما بينهم، كأنها تُرى بينهم العداوة والبغضاء. ونستنتج من هذا أن الانحدار من صلب واحد أو بطن واحد لا يمكن أن يكون علّة للأُخوّة.

وكمثال على هذا قصّة الأمين والمأمون فهما أخوان كما هو معروف، وقد عاشا في ظروف موحدة، لكن كان لكل واحد منهما اتجاهه في الحياة، وقد وصل الأمر بينهما إلى درجة أن دخلت جيوش المأمون على الأمين وقتلوه وشدّوا الحبل به، وجرّوه في الشارع. لقد قتله المأمون مع أنه أخوه، وهذا يدل على انعدام الإيمان فيما بينهما الأمر الذي أوصلهما إلى أن يصبغا مياه دجلة باللون الأحمر، وتضطر

مجموعة من عائلة الأمين إلى التشرّد. وهكذا انتهىٰ الأمر إلى هذا الحال على الرغم من كونهما أخوين.

فمجرد الانتماء إلى الأب أو الأُم ليس علّة للأُخوّة. ثمّ إن المشرّع الإسلامي يرتّب آثاراً على أُخوّة الإيمان أكثر ممّا يرتبها على أُخوّة الدم. فالإمام الرضاﷺ مثلاً كان له إخوة، لكن لما توفي الإمام موسى بن جعفرﷺ، فإن أول من خاصمه إخوته، فرفعوا عليه دعوى مفادها أنه قد أخذ ميراث أبيهم واستبدّ به. وهذه تهمة خطيرة لإمام مفترض الطاعة، مع أن الإمام الرضاﷺ كان يوصل الأموال إليهم ويتعاهدهم واحداً واحداً.

وكان أحدهم ـ ويسمى العباس ـ أشدّ خصومة للإمام الرضاﷺ من غيره؛ بحيث إنه لا يتورّع عن اتّهام الإمامﷺ في أي مجلس. وهؤلاء كانوا يعيشون محنة من المفروض أن تجمعهم، ولكنهم لم يراعوا ظرف الإمامﷺ. ومن مظاهر هذه المحنة ـ ومحن أهل البيتﷺ كثيرة ـ أنه حينما سجن الإمام موسىٰ بن جعفرﷺ حصل تحرّك شيعي في بعض المناطق الموالية لأهل البيتﷺ، وقد أخذ هذا التحرّك صبغة ثورات ضد الرشيد والمأمون من بعده، وكان الجلودي قائد المنطقة الشرقية في خراسان للرشيد، وثم انتقل إلى المدينة، فأرسل إليه الرشيد وقال له: إني آمرك أن تكبس دار موسىٰ بن جعفر وتحرقها بالنار، وتأخذ الملابس والحلي من العلويات. وفعلاً جاء الجلودي ووضع الحطب وأشعل النار، فأحرق دار الإمامﷺ، فخرج الإمام الرضاﷺ من الدار وهو يردّد: **«أنا ابن إسماعيل ذبيح الله، أنا ابن إبراهيم خليل الله»**، فأطفأ النار. فقال له الجلودي، أنا مأمور بأخذ الحلي والحلل من النساء. فقال له الإمام الرضاﷺ: **«أما هذا فلا سبيل إليه، ودونه رقبتي. وأنا آتيك بالحلي بيدي وأعطيك الضمان بذلك على ألّا**

تتعرض لعائلتي». وفعلاً دخل الإمامؑ وانتزع ماعند النساء من الحلي فأعطاه إيّاه[١].

ومرت أيام وليالٍ، وجاء المأمون للحكم ونصب الإمام الرضاؑ ولياً للعهد، وجاء بالجلودي، فلما رآه الإمام الرضا شاهد أن وجه المأمون قد تغيّر؛ فقد كان يعرف ما الذي فعله الجلودي مع عائلة الإمام وفي داره، لكن الإمامؑ التفت إليه وقال: «**هب لي هذا الشيخ**». فهوؑ يتشفّع له ويرجو المأمون ألّا يعاقبه مع ما له من موقف شائن معه، لكنه ظن أن الإمامؑ إنما يحرّض المأمون ضدّه، فالتفت إلى المأمون وقال: أُقسم عليك بالله ألّا تسمع كلام هذا فيّ. فقال المأمون: أنا فعلاً سوف لن أسمع كلامه فيك، اطرحوه واضربوا عنقه. فقتله[٢].

فالإمام الرضاؑ وإخوته عاشوا هذه الأجواء المشحونة، وتعرّضوا إلى محنة، وكانؑ يعول عوائلهم لكنهم مع هذا وقفوا منه موقفاً غاية في الشدّة، ولاحقوه مع أنهم إخوة من أب واحد. فالانتماء إذن من أُم أو أب ليس علّة للحب والأُلفة والأُخوّة، أمّا الإيمان الواقعي فهو علّة للأُخوّة، فأُخوّة الإيمان أُخوّة ثابتة تجمع بين القلوب، والمؤمن ينصر المؤمن ويراعيه. وهذا هو السبب الذي من أجله يحرص الإسلام علىٰ غرس الإيمان في النفوس، فهدفه هو أن تتحقق الحياة الكريمة القائمة على الحبّ والمودّة. وكلّ شيء ينافي الأُخوّة يحاربه الإسلام.

والإسلام يحث على التكافل بين المؤمن وأخيه المؤمن: «**أ أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ؟**»[٣]. فليس من الإسلام من يبيت مبطاناً وإلى جانبه جار

---

(١) عيون أخبار الرضاؑ ١: ١٧١ ـ ١٧٣. (٢) المصدر نفسه.

(٣) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

يتضوّر جوعاً. فالإنسان لو يخرج ما عليه من حق شرعي لما جاع جاره، فإن لم يفعل لم يكن هناك جوّ إيماني. وهناك نوعان من الجوع، نذكر رواية يرويها صاحب (الوسائل) الحرّ العاملي في وسائله فيقول: عن معتب قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام وقد تزيّد السعر بالمدينة: **«كم عندنا من طعام؟»**. فقلت: عندنا ما يكفينا أشهراً كثيرة. فقال عليه السلام: **«أخرجهُ وبعه»**. قال: فقلت له: وليس بالمدينة طعام؟ قال: **«بعه»**.

يقول: فلمّا بعته قال: **«اشترِ مع الناس يوماً بيوم»**. وقال: **«يا معتب، اجعل قوت عيالي نصفاً شعيراً ونصفاً حنطة، فإن الله يعلم أني واجد أن أطعمهم الحنطة على وجهها، ولكني أُحب أن يراني الله قد أحسنت تقدير المعيشة»**[1].

فهذه خطوة عظيمة من الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وتصرفه هذا تشريع، فهناك الآن من يعتبر عمل الصحابي سنّة، وكذلك أهل البيت عليهم السلام فإن فعلهم يعدّ تشريعاً. وفي الكتاب نفسه يروي العاملي رواية أُخرى فيقول: أصاب أهل المدينة غلاء وقحط، حتى أقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير ويأكله ويشتري ببعض الطعام، وكان عند أبي عبد الله عليه السلام طعام جيّد قد اشتراه أوّل السنة، فقال لبعض مواليه: **«اشترِ لنا شعيراً فاخلطه بهذا الطعام، أو بعه؛ فإنا نكره أن نأكل جيّداً ويأكل الناس رديئاً»**[2].

فنحن مسلمون، وهذا اللون يحقّق معنى الإخاء فيما بيننا، ولهذا فإننا نجد في باب الحكرة أن الرجل المحتكر (والاحتكار ليس في الطعام فقط، بل هو في كل شيء يسبب ضرراً للمسلمين ويختصّ به رجل واحد) مخالف للإيمان.

---

(١) وسائل الشيعة ١٧: ٤٣٦ ـ ٤٣٧ / ٢٢٩٣٢، وانظر الكافي ٥: ١٦٦ / ٢.
(٢) وسائل الشيعة ١٧: ٤٣٦ / ٢٢٩٣١، وانظر الكافي ٥: ١٦٦ / ١.

أقسام الناس في التشريع الروماني

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يشكّل مبدأ حضاريّاً يتناغم مع كل النظم الدولية الحديثة، وهو مبدأ أعلنه الإسلام، في وقت كان يسود العالم فكر فلاسفة اليونان (أرسطو وافلاطون)، ونظرياتهم في التمييز بين الناس لا زالت موجودة وتعيش إلى الآن بيننا، وقد أثّرت سلباً على الفكر الاجتماعي. وكان أرسطو يقول: إن نظام الرقّ نظام طبيعي. أي أن الله خلق البعض ليكون عبداً، فبعض الناس مخلوقون ليكونوا عبيداً، وبعضهم مخلوقون ليكونوا أحراراً. فكل جنس له مخّ ودم معيّنان، وهذا معلم الإسكندر وسيد فلاسفة اليونان، ومع ذلك يقسم الآلة إلى قسمين: آلة صامتة وآله ناطقة، فالآلة الصامتة مثل الفأس والمسحاة وغيرهما من أدوات الزراعة والصناعة، والآلة الناطقة هي الفلاح والحارس والعامل، فحكمهم حكم الفأس. فهل يوجد إجحاف بالإنسانية أكثر من هذا؟ بل والأنكى من هذا أنهم يسموننا الوحوش، وفكرهم هذا يقتل الإنسان والإنسانية في حين أن الجزيرة العربية مهد البداوة قد انطلق منها فكر عظيم لبناء الإنسان ومجتمعه على أساس المساواة والمؤاخاة.

إن فلسفة روما تقسم الناس حسب التشريع إلى قسمين:

الأوّل: الأحرار

وهم نوعان: الأُصلاء وهم الرومانيون، وغير الأُصلاء وهم اللاتينيون.

الثاني: السفلة

وهم أربعة أقسام: الأرقّاء وهم العبيد، والمعتقون، ونصف الأحرار، والأقنان وهم الذين يتبعون الأرض عند بيعها وشرائها.

ووفق هذا التشريع والتقسيم فإن حقوق المواطنة تكون للأحرار (الرومان) فقط، أما الباقون فليس لهم حقّ المواطنة. وهذا الأمر الغريب له مثيل في حضارة

العرب أيّام الجاهليّة، فعند بعض القبائل في الجزيرة نوعان من الولاء: ولاء عتاقة، وولاء اتّباعة؛ فمولى عتاقة هو المأخوذ من الحرب ويصبح أسيراً ثم يعتقونه فيتبع القبيلة التي أعتقته، لكن لا يعطونه حقوق الفرد من القبيلة، أي ليس له حقّ المواطن. أما مولى اتّباعة فهو الشخص الذي تنفيه قبيلته، فيأتي إلى قبيلة ثانية فتقبله عضواً فيها ويكون تابعاً لها، لكنها لا تعطيه حقّ المواطنة كذلك.

وهكذا نجد أن الغرب والشرق كانا على هذه الشاكلة من التمييز العرقي أو الطبقي أو ما شاكل، لكن حينما جاء الإسلام غيّر كلّ هذا، كان عقبة بن عامر صاحب بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، وكان مرّة يقود بغلة النبي ﷺ في سفر له، يقول: قدت برسول الله ﷺ وهو على راحلته رتوة من الليل ـ والرتوة: نحو من ميل، أو رمية سهم[1] ـ ثم قال لي: **«أنخ»**. فأنخت، فنزل عن راحلته ثم قال: **«اركب يا عقبة»**. فقلت: سبحان الله! على راحلتك؟ فأمرني فقال: **«اركب»**. فقلت أيضا مثل ذلك وردّدت ذلك مراراً، حتى خفت أن أعصي رسول الله ﷺ، فركبت راحلته ثم زجر ناقته فقامت، ثم قاد بي[2].

وهذا اللون من التعامل والتكريم لا يمكن أن يجده أحد في أي تشريع، فهذا المكان الذي يقولون عنه: إنه مركز البداوة، وإنه المركز الذي أعدّ هذه الهجمة البدوية، إنه لم يكن كذلك مطلقاً، بل إنه مركز لهجمة حضارية غيّرت وجه الدنيا، وعبّرت عن أن الإنسان أخو الإنسان، وأن الإيمان يلغي كلّ الفوارق: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾**. فهل هناك في غير الإسلام رئيس يعتق عبداً، ثم يجلس إلى جانبه ويتزوّج من قومه ويأكل معه؟ لقد آخى النبي ﷺ بين عظماء من العرب وبين خباب بن الأرتّ، وبلال الحبشي. وكان بنو بياضة أرقى أُسرة في الأنصار،

---

(١) لسان العرب ١٤: ٣٠٨ ـ رتا.

(٢) المعجم الكبير ١٧: ٣٣٥ ـ ٣٣٦. إمتاع الأسماع ٧: ٢٢٣.

لكن النبي ﷺ أمرهم بأن يزوجوا غلاماً منهم وهذا التكريم للإنسان يحقّق معنى الآية من أن الإيمان هو علّة الإخاء، فقد أعلن النبي ﷺ الإخاء في هذه الفترة التي تموج الأرض بها بالتفرقة.

المبحث الثالث: الصلح أساس الأخوّة والتقوى

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فإذا تقاتل مؤمنان فإما أن يكونا كلاهما ذوي انحراف أو أن أحدهما كذلك، ولذا يتوجب علينا إصلاحهم وإرجاعهم إلى حضيرة الإيمان الحقيقي حتى ينتهي النزاع ويتحقق معنى الأُخوّة. إذن الواجب يقتضي حصار حالة العداوة هذه، وعدم ترك المجال أمامها لتستفحل. فهدي الإسلام يريد الاستقرار لكل فرد، والمشرع الإسلامي يبيح الكذب في مثل هذا الموطن (الاصلاح)؛ لأن الحال هنا تعارض بين أهمّ ومهمّ؟

فحينما تصل شرارة الحرب إلى أن تفني المجتمع، يبيح الإسلام الكذب لنا لحقن الدماء، «**صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام**»[1]؛ لأنه يترتب عليه حفظ الدم، ونشر معنى الأُخوّة.

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿واتقوا الله﴾، ولهذا نجد أن الحروب التي حدثت في عهد الإمام علي عليه السلام لم يكن يبدأ بها بقتال أبداً، ففي واقعة صفين كان يؤتى في كلّ ساعة للإمام علي عليه السلام برجل قتله معسكر أهل الشام، فيأمرهم بأن يطرحوه مع من قتل وبأن يعطوهم مجالاً لتفادي الحرب[2]، ثم جاءه أصحابه، فقالوا له: لقد منع

---

(١) نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

(٢) ومن ذلك أنه عليه السلام حاول مع معاوية مرّات من أجل تجنّب الحرب فأرسل إليه وفداً وقال لهم: «ايتوا هذا الرجل، وادعوه إلى الله وكتابه، وإلى الجماعة والطاعة». فـفعلوا فـقال معاوية: انصرفوا من عندي؛ فإنه ليس بيني وبينكم إلّا السيف. أنساب الأشراف: ١: ٣٠١ـ ٣٠٢، الكامل في التاريخ ٣: ٢٨٥، الفصول المهمة في معرفة الأيمّة ١: ٤٤٧.

عنا معاوية وأصحابه ماء الفرات، وأوشكنا أن نموت عطشاً.

وهنا ـ بعد أن سالت الدماء ومنع الماء عنهم اضطر الإمام علي عليه السلام بعد إرسال الرسل إليهم، فقال: **«إن القوم قد استطعموكم القتال»**[1] أي يتعين الآن عليكم النزول للحرب.

فنداء القرآن: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾** غاية في الحرارة؛ حيث إن الإنسان سيشعر بأن الله تعالى يراقبه في مراعاة مبدأ الأُخوّة، فليتّقِ الله في هذا؛ لأنّ الله مطّلع تصرّفاته وعلى نوازعه الداخلية.

ثم قالت الآية الكريمة: **﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**؛ لأن النزاع يؤدّي إلى عدم الرحمة، والمراد: اتّقوا الله حتى يرحمكم؛ فإنه تعالى لا يرحمكم إذا لم تكونوا كذلك ويرحم بعضكم بعضاً، وإن الله تعالى لا يرحمكم إذا تقاطعتم وتدابرتم.

لكن أين هي الرحمة التي يصدح بها القرآن؟ لقد مرّت بالأُمّة الإسلامية أحداث عُدمت فيها الرحمة تماماً، مثلاً في مثل هذه الليلة، وبعد أن انتهت واقعة الطف فإنّ عمر بن سعد جمع قتلاه، وترك على الأرض عائلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقتلى آل محمد وأصحابهم ثلاثة أيام تتعاوى العقبان والكواسر على أجسادهم، حتى جاءت نسوة من بني أسد لنقل الماء من المسنّاة، فرأين الطيور صاعدة ونازلة، فقلن ما هناك؟ ثم هرولن إلى المكان فرأين الأجساد صرعى على الأرض تسفي عليها الذاريات، فرجعن إلى أزواجهن، فقلن: رأينا كذا.

فأقبل الرجال إلى أن وصلوا فرأوا الأجساد المصرّعة على الأرض، فأرعبهم الأمر، وما الذي يصنعونه، وهنا أطلّ عليهم راكب، قال: **«مالي أراكم وقوفاً؟»**. قالوا نحن نتفرج على هذه الجثث. قال: **«لا، أخبروني بالذي انطوت عليه**

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٥١، وانظر شرح نعج البلاغة ٣: ٢٤٤.

ضمائركم، وأضمرته سرائركم». قالوا: أو نحن في أمان؟ قال: **«في أمان»**. قالوا: يا هذا، إنا جئنا لندفن هؤلاء القتلى من آل محمد ﷺ. قال: **«إذن ما الذي يمنعكم؟»**. قالوا: إن القوم أجساد بلا رؤوس، وسوف تصبح القبور غير معروفة أصحابها. قال: **«اتبعوني»**.

ثم أقبل كهيئة المنحني إلى أن وصل إلى جسد أبيه الحسين ـ وكان هذا القادم الإمام السجّاد عليه السلام ـ فألقى بنفسه على الجسد واحتضنه وقال: **«أبتاه، أما الدنيا بعدك مظلمة، وأمّا الآخرة فبنور وجهك مشرقة. أما حزني فسرمد. وأمّا ليلي فمسهد، حتى يختار الله لي الدار التي أنت فيها مقيم»**. ثم استدعى بحصير ووضع الجسد عليه ولما أراد أن ينزله إلى القبر، قالوا له: دعنا نعِنك. قال: **«لا، فإنّ معي من يعينني»**. فأنزل أباه إلى القبر.

ثم راح الإمام السجاد بعد ذلك يبحث عن شيء قبل أن يواري جثة أبيه التراب، وذلك بوصية من أبيه حيث أوصاه قائلاً: **«بني علي، وسّد رضيعي إلى جنبي»**. وأقبل بجسد الرضيع وواراه جنب أبيه الحسين عليه السلام وأهال التراب عليهما، ثم حفر حفيرة وارى بها الشهداء من آل محمّد، وحفر حفيرة ووارى بها الشهداء من الصحابة، ثم أخذ يقلّب طرفه ويقول: **«هل بقي أحد؟»**. قالوا: بلى، لقد بقي على المسنّاة بطل، كلّما حملنا منه عضواً سقط العضو الآخر. قال: **«واعمّاه واعبّاساه»**. وأقبل إليه واحتفر حفيرة عنده، ثم التقط شيئاً من التراب، فإذا هو إصبع الحسين عليه السلام المقطوع، فحمله وأنزله إلى القبر.

لهفي على تلك الأنامل قطّعت ... ولوَ انها اتّصلت لكانت أبحرا [1]

---

(١) ديوان ابن معتوق: ٢١٣.

﴿١٣١﴾

شذرات مضيئة من سيرة السجاد عليه السلام

يا راهب الليل في جنح الظلام ومن ... إذا دجا الليل يقضيه على ألمِ

وإن بدا الصبح يهمي من مكارمه ... ما يخجل السحب من نعمى ومن كرمِ

أرومة في بيوت الأنبياء ربت ... آباؤها علم ينمى إلى علمِ

توطئة

يعد اسم زين العابدين علي السجاد عليه السلام اسماً أثيراً ومحبّباً لنفوس كلّ من يتفاعل معه تفاعلاً سليماً، والاسم في حقيقته واجهة وعنوان للمسمّى، وغالباً يقال: إن مضمون الاسم يترشّح على الاسم الذي هو في حقيقته باب موصل إلى المعنى أو المضمون. فاسم السجاد عليه السلام بهذا كان محبّباً لأهل البيت عليهم السلام ولشيعتهم. وهو أمر سبق أن أثبتناه فيما سلف من محاضرات.

المباحث العامة للموضوع

ثم إن هناك عدّة منازل في حياة الإمام السجاد عليه السلام ينبغي الوقوف عند كلّ واحد منها بمبحث مستقلّ.

المبحث الأول: كناه عليه السلام وألقابه

يكنى الإمام عليه السلام بكنى عديدة، ومنها: أبو محمّد، وأبو الحسن، وأبو بكر. وقد سئلت مرّة: لماذا تتجاهلون هذه المظاهر والشكليات وتتجاوزونها، فلا تذكرون

أن لأمير المؤمنين عليه السلام ابنين اسماهما عمر وأبا بكر؟ ولماذا لا تذكرون أن للسجاد عليه السلام كنية هي أبو بكر؟ والحال أن هذا الكلام مغالطة، بل هو غير صحيح البتة؛ لأنه لو رجع إلى كتبنا المختصّة بالتراجم لوجد أن فيها كل هذا، فنحن ليس لدينا عداء مع الأسماء أبداً[1] إلّا ما حرّمت التسمية به، بل وحتى مع الأشخاص، فنحن لا نعادي إلّا على ضوء مقاييس الإسلام، فنحن نخضع لقواعد التقييم، وهناك فرق بين العداء والتقييم.

ومن هذا أننا حينما نمرّ بالفترة التي عاشها أبو بكر مع أهل بيت النبوّة عليهم السلام فإننا نسجّل حولها موقفاً تقييميّاً، وهو الموقف الذي وقفه من سيّدة النساء فاطمة عليها السلام الزهراء في قضيّة فدك، لنستجلي الدليل والقرائن فيما إذا كانت تقف إلى جانب الزهراء عليها السلام أو إلى جانبه هو. فكلّ ما يهمّنا هو الدليل الواقعي لإثبات أي الطرفين أحقّ من غيره.

من يسبّ؟

وخلاصة القول: أنه ليس بيننا وبين أحد عداء، ونحن لا نسبّ ولا نشتم بل غيرنا هو من يفعل ذلك. ولهذا المتسائل وغيره يكفي أن نقول: إن من يقرأ مؤلفات ابن تيمية الذي راح يتجذّر في هذه الساحة سيعرف من الذي يسب ويشتم، ومن الذي يملك لساناً ليس عليه من الله رقيب، أمّا نحن فمهذّبون بتهذيب أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول لنا في مثل هذه المواقف: «**إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا**

(١) كما ادّعاه ابن تيمية، انظر منهاج السنّة النبويّة ٥: ١٧٦.

وبينهم، واهدهم من ضلالتهم؛ حتى يعرف الحقّ من جهله ويرعوي عن الغيّ والعدوان من لهج به»[1].

فهو عليه السلام يأمرنا بأن نترفّع عن هذا المستوى؛ لأنه مستوى لا يحلّ فيه إلّا الضحل الفارغ. وزيادة في التوضيح نقول: إننا حتى في الفترة التي استحكمت فيها هذه الظاهرة لم نكن فيها أكثر من أن نعيش حالة ردّ فعل تجاه ما كان يفعله الأُمويّون وأتباعهم من سبّ لأمير المؤمنين عليه السلام، وهو الأمر الذي استمرّ قرابة القرن من الزمان. فنحن نأبى الشتم، وهو ليس من أخلاقنا ولا من شيمنا.

وخلاصة القول أننا ليس عندنا عداء لا مع الأسماء ولا مع المسميات، وإنما نتّبع الموقف الذي يسنده الدليل فقط؛ فما أدّى إليه الدليل ذهبنا إليه، وما قرّر أن فيه خطأ خطّأناه وقلنا بعدم صحّته، وعدم صحّة الذهاب إليه، وما قرر أنه حرام قلنا بحرمته. أما أن يُطلب منا إلغاء المقاييس التي رسمها القرآن الكريم والسنة النبوية فهذا غير مقبول وغير منطقي؛ لأنه إلغاء لوجودنا.

رجع

وكما أن للإمام علي بن الحسين عليه السلام عدّة كنى له عدّة ألقاب منها الزكي وزين العابدين وذو الثفنات والسجاد. وهذه الألقاب مشتقّة من صفات قائمة بذاته الشريفة؛ بمعنى أنه سجّاد لطول سجوده وقيامه وقعوده، فهو عليه السلام عرف عنه أن السجود ترك في جبهته أثراً لطوله وكثرته؛ ولذلك فقد عُبّر عنه بذي الثفنات الذي صار لقباً مشتهراً له. تقول الرواية: إن الإمام الباقر عليه السلام دخل عليه يوماً فوجده قد اصفر لونه من السهر، ورمصت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته، وانخرم أنفه من

---

(١) وذلك حينما بلغه أن بعض أصحابه يسب أهل الشام أيام حربهم بصفين. نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٦، بحار الأنوار ٣٢: ٥٦١، المعيار والموازنة: ١٣٧.

السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة[١].

بين التجسيم والتنزيه

وهكذا نجد أنه ﷺ ينفرد في محرابه يناجي ربه ويعبده عبادة أقلّ ما يقال فيها: إنها ترتقي إلى مستوى الإمامة. وعبارة المؤرّخين في حقّه، وهي: كان الإمام السجاد ﷺ أثناء صلاته إذا جن عليه الليل ووقف للصلاة لا يتحرّك منه شيء إلّا ما تحرّكه الريح[٢] خير شاهد على هذا. وهي عبارة لا يمكن تقييمها إلّا إذا قيّمنا رافدين من الفكر حول صفات الله تعالىٰ:

الرافد الأول: الصحيفة السجادية

فمن يقرأ الصحيفة السجادية المشرّفة يجد أنها حينما تمرّ بذكر الله جل وعلا تنعته بأشرف النعوت وأدقّها، وتنزّهه عن الصفات الجسميّة، وهي بهذا لا تعدو وصف القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ الصحيحة له تعالىٰ.

الرافد الثاني: أقوال المجسمة

وفي الجانب المقابل نجد نزعة التجسيم واضحة عندهم، وهي نزعة تصفه تعالى بأن عنده رجلاً وبطناً وفرجاً[٣]. وهي نزعة لا تلتقي مع الصورة المشرقة التي نقرؤها في القران الكريم عنه تعالىٰ. أما أن يصوّر على أنه تعالى خلق آدم على صورته؛ طوله ستون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع[٤]، فهذا لون من الفكر لا يمكن أن نقبله أو يقبل العقل به؛ لأنه فكر بعيد عن الرافد الإسلامي، ولا يلتقي

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧٢، الإرشاد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٠.

(٢) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

(٣) انظر: السيف الصقيل: ١٥٤، مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.

(٤) صحيح البخاري ٧: ١٢٥، صحيح مسلم ٨: ١٤٩، إعانة الطالبين ٤: ٢١٣.

معه. ونحن حينما نأباه فإنما نأباه بالدليل، ومن كان عنده دليل على مدّعاه فلا مانع من أن يدلي به في ساحة النقاش النظيف، وحينها تترك الأدلّة تتلاقح حتى تفضي إلى الصواب.

سبب تسميتهعليه السلام بزين العابدين

إذن فكلّ الألقاب التي كانعليه السلام يلقّب بها إنما هي ألقاب منتزعة من أفعاله العبادية في حياته، ومنها لقب زين العابدين. وهناك عدّة روايات تُنقل في هذا المجال حول سبب تلقّبه وتسميتهعليه السلام بهذا اللقب، ومنها:

الأولى: أنها مروية عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم. فهناك رواية تنقل عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم تنصّ على أن هذا التعبير وارد عنهصلى الله عليه وآله وسلم، فقد نصّ أكثر المؤرخين على أنهصلى الله عليه وآله وسلم كان يخبر عن جملة من الملاحم ويحدّث عنها، فقال من ضمن ما قالصلى الله عليه وآله وسلم: **«إذا كان يوم القيامة ينادي منادٍ: أين زين العابدين؟ فكأني انظر إلى ولدي علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يخطو بين الصفوف»** [(١)].

الثانية: أنها عن الزهري عن رسولنا الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم [(٢)].

الثالثة: أنها عن الزهري نفسه. فهناك رواية أُخرى تنسب هذه التسمية للزهري نفسه، فقد كان قاضياً عند الأمويّين، فابتلي بدم خطأ؛ حيث إنه كان قد جيء إليه بشخص فعاقبه حتى مات، فلما عرف أنه مات أصابه يأس وقنوط من الحياة،

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٤١٠ / ٥٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٤.

(٢) علل الشرائع ١: ٢٣٠ / ب ١٦٥، ح ١، وفيه: عن عمران بن سليم قال: كان الزهري إذا حدّث عن علي بن الحسينعليهما السلام قال: حدّثني زين العابدين علي بن الحسين. فقال له سفيان بن عيينة: ولم تقول له زين العابدين؟ قال: لأني سمعت سعيد بن المسيّب يحدّث عن ابن عبّاس أن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم قال. ثم نقل الحديث الآنف.

وحبس نفسه في بيته ولم يخرج منه. ودخل الإمام السجاد عليه السلام المسجد مرّة فسأل عنه، فقيل له: هل لك فيه؟ قال عليه السلام: «**إن لي فيه**». أي أُريد أن أراه، فقال له أحدهم: إنّ من أمره كذا وكذا، وهو يظن نفسه أنه قاتل الرجل.

فدخل عليه الإمام عليه السلام وقال له: «**إنّ ما أخافه عليك من قنوطك من رحمة الله أكثر مما أخافه عليك مما ابتليت به، وقنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك**». فقال الزهري: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[1]، لقد فرّجت عني فرّج الله عنك، أشهد أنك زين العابدين. ثم رجع إلى أهله وماله[2].

الرابعة: أنها منسوبة لهاتف

وفي المقابل نجد أن هناك رواية تنسب هذه التسمية لهاتف، حيث إنها تقول: سمع صوت لم يُرَ شخصه ينعته بهذا النعت[3].

صفة عبادته عليه السلام

وعلى أية حال فمهما كثرت الروايات حول سبب التسمية، فإن منشأ انتزاعها موجود، وهو كثرة عبادته عليه السلام التي كانت تتّصف بالصدق والحرارة والتفاعل مع السماء، والبعد عن الرياء والتصنّع. وقد يشاهَد شخص يقف بين يدي الله تعالىٰ، لكن حينما تلمس مشاعره تجاه السماء تجد أنها خامدة بعيدة عن أي لون من ألوان الانفعال بها، أمّا السجاد عليه السلام فيقع ولده الإمام محمد الباقر عليه السلام في البئر وهو قائم يصلّي وكانت بعيدة القعر، فنظرت إليه أُمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول الله، غرق والله ابنك محمّد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر

---

(١) الأنعام: ١٢٤. (٢) ينابيع المودّة ٢: ٤٦٨.

(٣) علل الشرائع ١: ٢٣٠/ ب ١٦٥، ح ١.

البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعاً على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها ـ وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل ـ فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك، ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء[1].

أو يحترق بيته وهو يصلّي، فيقال له: النار قد التهمت البيت. فلا يلتفت، بل يقول بعد أن يتم صلاته ويسأل عن سبب عدم التفاته: **«كنت مشغولاً عنها بنار الآخرة»**.

ومعنى هذا أنه كان منفعلاً بأجواء أُخرى غير هذه الأجواء التي هو فيها.. أجواء داخلية يعمرها الحب ويغمرها الاتّصال بالله تعالىٰ. أمّا هذه الأجواء الخارجية فلم تكن لتأخذه عن حالة اتّصاله بالله تعالىٰ.

فنمط العبادة عنده عليه السلام لا يقف عند حدود المحراب فقط، بل يتعدّاه إلى الحياة العملية. وهذه نقطة هامّة أودّ أن أسترعي الانتباه إليها وأُلفت الأنظار إلى أهميتها، فالكثير يظن أن العبادة إنما هي في المحراب فقط؛ فيؤدي صلاته وصيامه ثم ينتهي الأمر عند هذا الحدّ. وهذا تصوّر سلبي لها، وغير صحيح للعبادة؛ لأن الدنيا كلّها ميدان لها؛ الشارع والمؤسّسة والمدرسة والبيت والأُسرة والمصنع والسوق وغير ذلك.

فالمرء حينما يستخدم الشارع ضمن الضوابط الشرعية والآداب الإسلامية[2]

---

(١) دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨، بحار الأنوار ٤٦: ٣٤ / ٢٩.

(٢) التي سنّها النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقال «إياكم والجلوس بالطرقات». قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بدّ نتحدث فيها. فقال صلى الله عليه وآله وسلم «إذا أبيتم إلّا المجلس، فأعطوا الطريق حقّه».

فإنما هو في حالة عبادة؛ لأنه حينئذ يحافظ على آداب الشارع وعلى السلام بينه وبين المسلمين الذين يلقاهم، حيث إنه يستقبلهم ببشر وبشاشة وأخلاق ووجه يطفح حباً لهم واحتراماً. وهكذا نجد أن هذا التصرّف عبادة لأنه ضمن الضوابط الإسلامية.

وكذلك معاملاته معهم إذا كانت تتميّز بالعفّة والنزاهة الصدق كالبيع والشراء وغير ذلك من المعاملات، فإنه حينئذ يكون في حالة عبادة؛ لأن من يعفّ يده ولسانه، ولا يعتدي على الآخرين، بل إن المروءة تتملّكه في كلّ معاملاته مع الناس لهو في نطاق الإسلام وضمن حدوده، وبالتالي فهو في حالة عبادة؛ لأنه في حالة قربى إلى الله تعالىٰ.

وهذا الأمر يجري أيضاً مع الأُسرة، فإذا كان تعامله مع زوجته وأطفاله تعاملاً إسلامياً صحيحاً كان في حالة عبادة، كان الإمام السجاد عليه السلام قد رُبي يتيم الأم؛ لأن أُمّه «شاه زنان» قد ماتت وهي نُفساء به، فكفلته جارية لأبيه الإمام الحسين عليه السلام وربّته حتى كبر، فكان عليه السلام يتعامل معها بأرقى ألوان التعامل الإسلامي، بل إنه عليه السلام كان يعاملها كأُمّ له، فهو لم يعرف أُمّاً غيرها، ولذا كان يعبر عنها بقوله: **«أُمّي»**. وكان إذا دخل الدار أولاها فروض الطاعة المترتبة للأُم على ولدها، فكان إذا جلس يؤاكلها انتظرها حتى تمدّ يدها إلى الطعام وتأخذ منه ثم يمدّ يده الكريمة ويأكل، ولما سئل عليه السلام عن ذلك وقيل له: نراك تتوقّى كثيراً عندما تجلس معها يابن رسول الله؟ أجاب عليه السلام بقوله: **«إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها»**[1].

☚ قالوا: وما حقّ الطريق؟ قال صلى الله عليه وآله: «غض البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». مسند أحمد ٣: ٣١، صحيح مسلم ٦: ١٦٥.

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

وهذا اللون من السلوك الأُسروي قطعاً يبعث على خلق جوّ من الاحترام المتبادل والحبّ والودّ والتقدير. وعليه فإننا نجد أن بناء النظام الأُسري هو من صلب العبادة التي رسمها الإسلام الحنيف؛ فإن لم يُراعَ هذا النظام تفكّكت الأُسرة. لقد قرأت إحصائية نشرتها وزارة العدل الكويتية حول عدد المطلّقات خلال فترة أربعة أشهر، فكانت أسباب الطلاق كارثة حقيقية مع أننا نعيش في بلد مسلم يعيش حالة رخاء وخير، وإضافة إلى هذا فإنه يتوفّر على جوانب إيجابية كثيرة. فمقتضى القاعدة أنه ليس هناك ما يوجب الطلاق بهذه الصورة المرعبة، وبالتالي ليس هناك ما يوجب حالة التفكّك الأُسري التي نراها حاصلة اليوم، والأمر لا يستلزم أكثر من أن نتأدّب قليلاً بآداب الإسلام.

إن الواقع الذي نعيشه اليوم هو واقع بداوة يرفضه الإسلام رفضاً تاماً؛ ولذا فإن الواجب أن نقلع عنه ونتحوّل إلى الواقع الإسلامي المتأدّب بكلّ تفاصيله ودقائقه وجزئيّاته، وإلّا فإن بلداً يغترف من الحضارة الحديثة ضروباً وضروباً، ويتفاعل تفاعلاً كاملاً صباح مساء مع نواقل الحضارة، المفروض به أن ينعكس كلّ هذا على سلوكياته وخصوصاً في دنيا الأُسرة.

والطلاق بهذا الشكل المروّع يخلق مجموعة من الأبناء من الممكن أن يصبحوا مجرمين، وهذا كلّه يتوقّف على السلوك الأُسروي، فعندما يدخل الأب بيته يجب عليه أن يحمل وجهاً باشّاً ضاحكاً؛ فهذه المرأة التي أخذ الرجل زمام أمرها بكلمة الله، يجب عليه أن يعاملها بأمر الله وحسب أخلاقيات دينه، وأن يربيها ويقود زمامها. إن المفروض أن الرجل هو من له حق القوامة في الأُسرة، وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: **«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**[1].

(١) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٦ / ١٩٧٧.

فالمفروض بالرجل أن عليه حينما يدخل بيته أن يشيع البسمة فيه، وأن ينشر جوّاً من الوئام والمودّة والتسامح في بعض الأُمور غير الأساسية المشفوعة بالتنازل عن بعض الحقوق الشخصية مقابل استمرار ثبات الأُسرة وعدم تفكّكها، ومن أجل رعاية هذه البذرة التي يجب أن تربّى تربية سليمة وفي جوّ أُسريّ طيّب. وهو أمر نحن جميعاً مسؤولون عنه، فأمر تربيتهم بهذا الشكل منوط بنا أمام الله تعالىٰ، وإن أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هو من سوء الخلق مع العيال[1]. أي أن المرء يعذّب في قبره بسبب سوء خلقه مع عياله.

رجع

وبهذا فإن الإمام ﷺ يضرب لنا مثلاً سامياً في هذا اللون من السلوك الأُسروي؛ فإذا لقّب بزين العابدين فلأن عبادته تمتدّ على مساحة واسعة من الحياة، مساحة أوسع من التصور الذي يتغلغل في رؤوسنا، والذي يوحي لنا بأن العبادة لا تعدو الرقعة الجغرافية للمحراب. إن الدنيا بأجمعها وبأسرها محراب في نظر الإمام ﷺ إذا ما روعي في كلّ شيء فيه وجه الله تعالىٰ، فكل مظهر من مظاهر الحياة محراب تُحارب فيه النفس الأمّارة، ويحارب فيه الشيطان. فالدّكان محراب والمصنع محراب والمدرسة محراب؛ فإذا لم تغشّ في المعاملة في دكّانك ولم تسرق من وقت صاحب العمل، ولم يسرق صاحب العمل أجرك كان كل ذلك عبادة، بل من أحسن العبادات. ثم إن العمل بحدّ ذاته عبادة، والسعي إلى فعل الخير عبادة، ومراعاة وجه الله تعالى فيما نقوم به عبادة.

---

(١) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

الإمامعليه السلام يتعامل مع المجتمع بطهارة

ومن ألقابهعليه السلام أيضاً الزكي. والزكي هو الطاهر؛ لأن الزكاة هي الطهر. والإمامعليه السلام كان يتعامل بطهر ونقاء مع الآخرين. ومما يؤسف له أن البعض حينما يُتعامل معه بنقاء وطهر يظنّ بمن يتعامل معه كذلك البلادة، مع أنها بعيدة كل البعد عن هذا المفهوم، بل هي الذكاء المقرون بالعفّة والنظافة. وكشاهد على هذا أنقل هنا موقفين حدثا أيام الإمام السجادعليه السلام:

الأول: موقفه من الأمويّين

فقد أخرج عبد الله بن الزبير الأُمويين من المدينة، وكذلك فعل ثوّار الحرّة، ثم بعد ذلك هجم الأُمويون على المدينة واستباحوها. ومن هاتين الحادثتين نستطيع أن نرى بوضوح أخلاق الإمامعليه السلام العالية، ففي واقعة الحرّة مثلاً أعالعليه السلام عائلة مروان وكفلهم، وأوصل زوجته عائشة إلى أهلها بحراسة ابنه، وكذلك أعال أربعمئة عائلة من عوائل الأُمويين في المدينة.

الثاني: موقفه من أحد أبناء عمومته

لقد كانعليه السلام يخرج ليلاً يحمل على ظهره جراباً فيه الدقيق والخبز وصرر النقود، ويوزّعها على فقراء المدينة ومحتاجيهم، ويستقي لضعفاء جيرانه[1]، ذلك أن آبار المدينة بعيدة الغور، ولا يمكن للضعفاء وكبار السنّ أن يستقوا منها، فكان عليه السلام يأخذ الحبل والدلو ويستخرج الماء لهم. وكان قبل أن يذهب لبيته يمرّ بجاره ويسدّ حاجته من الطعام والشراب. وهذا الذي كان من الإمام لم يكن جديداً على محيطه ومجتمعه؛ فهذا الشاعر العربي يقول:

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

تـاري ونـار الجار واحدة ... وإليـه قـبلي تـنزل القـدرُ
مـا ضـرَّ جـاراً لي يـجاورني ... ألّا يكـون لبـابه سـترُ
أعمى إذا مـا جـارتي خـرجت ... حتى يواري جارتي الخدرُ[1]

وهذا اللون من الأجواء جسّده الإمام ﷺ إسلاميّاً ووفق خلق الإسلام وآدابه بعد أن عاشه ﷺ بكل تفاصيله وجزئياته، وقد تعمّق هذا عند العرب أكثر بعد أن جاء الإسلام العظيم، ورفد المجتمع بعطائه الثرّ ونبعه الذي لا ينضب، وكان الإمام ﷺ أحد الروافد الإسلامية في كلّ مجالات الخير والمعرفة، وعبر هذا الرافد حدث تفاعل كبير بين الحضارة الإسلامية وبين التراث الاجتماعي.

وضمن هذا الإطار كان للإمام ﷺ موقف مع أحد أبناء عمومته، حيث إنه ﷺ كان يطرق عليه الباب ليلاً ليعطيه الطعام وبدر الدنانير وهو متلثّم، فيأخذها منه ويقول له: جزاك الله خيراً، ولاجزى علي بن الحسين؛ لأنه يصل الناس ولا يصلني. وكان الإمام ﷺ يغض عنه ولا يجيبه، بل ربما طرب لسماع هذا الدعاء. واستمر الحال هكذا إلى أن توفي الإمام ﷺ وانقطع البرّ عنه، فعرف أن الذي كان يأتيه هو الإمام ﷺ نفسه الذي لم يكن يتوخّى في عمل البر هذا رضا المخلوق، وإنما كان يتوخّى رضا الخالق جلّ وعلا.

وهو ﷺ بهذا يؤصّل مفهوم العبادة التي خطّ خطوطها العريضة وأوضحها أمير المؤمنين ﷺ بقوله: **«إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»**[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٣٧، وقال ﷺ: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، ولكنني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك». عوالي اللآلي ١: ٢٠، ٢: ١١ / ١٨.

فكان عليه السلام يعبد الله لأنه أهل للعبادة والخضوع. وبهذا المنظور كان تقييم الإمام عليه السلام للعبادة، وعليه فلا غرابة في أن يلقّب بزين العابدين، وغيره من الألقاب الحميدة؛ لأنه عليه السلام نبع ثرّ للصفات الفاضلة، ومنجم ثري بمعادن الأخلاق الكريمة والآداب القويمة. فكل ألقابه إذن منتزعة من صفاته المنيفة وذاته الشريفة.

المبحث الثاني: البيئة التي عاش فيها السجاد عليه السلام

إن البيئة التي درج فيها الإمام السجاد عليه السلام هي بيئة المدينة المنوّرة التي كانت تخضع لرقابة الأُمويّين ومتابعتهم؛ لأنهم يعتبرونها مهد المعارضة، فهي المدينة الأُولى التي سمعت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول من على منبره: «**رأيت بني أُميّة ينزون علىٰ منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرىٰ**»[1].

والتي سمعته صلى الله عليه وآله كذلك يقول وقد رأىٰ ذات يوم أبا سفيان راكباً ومعاوية يقوده ويزيد بن أبي سفيان يسوقه: «**لعن الله السائق والراكب والقائد**»[2].

فهاتان المقولتان وأمثالهما[3] كانت مختزنة في ذاكرة أهلها وجماهيرها، وهذا

---

(١) جامع البيان: ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٨: ٢١٠٨.
فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر.

وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة.

(٢) المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

(٣) كقوله صلى الله عليه وآله: «إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان». الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩.

ما جعل موقفها متشنّجاً مع الأُمويّين ومنهم؛ ولذا كان موقفهم منها موقفاً إجرامياً اتّسم بكلّ صفات القسوة والظلم والابتعاد عن روح الدين. فهم لم ينسوا أن المدينة مهد الأنصار، فحرموها من رغيف الخبز، وقطعوا عنها حقوق أهلها وجراياتهم، ثم أتبعوا ذلك بأبشع هجمة عرفها التاريخ بعد وقعة كربلاء، وهي وقعة الحرّة التي كان مخططاً لها، وكان الهدف منها القضاء على الإسلام نفسه، ولذا فقد قتل فيها سبعمئة من حملة القرآن الكريم عدا صحابة الرسول الأكرم ﷺ، فكان مجموع ما قتل فيها عشرة آلاف رجل.

والغريب أنه مع هذا الكم الهائل من القتلى نجد الغزالي يصرّح بعدم جواز سبّ يزيد لأنه مسلم وقد تاب، أما نحن فحينما يخطئ شخص منا ويسبّ يزيد وأمثاله ممّن هم على شاكلته فإنه يصبح كافراً، بل تكفّر طائفة بأكملها. مع أنه ربما يكون ردّ فعل طبيعي إزاء هذه المواقف، وإلّا فما الذي يمكن أن يقال في الغزالي؟ مع أن هناك طائفة كبيرة من أبناء المذاهب الإسلامية لا تتوقف عن شتم يزيد[١].

فهذا اللون من المواقف من الغزالي وأمثاله ما الذي يمكن أن يكون قبالته من ردود، سيما أنه يتعلّق بدم رسول الله ﷺ؟ إن هذا الرجل الذي أحرق الكعبة[٢]،

---

(١) قال المناوي ﷺ: «قال أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (الرد على المتعصّب العنيد المانع من ذمّ يزيد): أجاز العلماء الورعون لعنه. وفي فتاوى حافظ الدين الكردي الحنفي: لعن يزيد يجوز، لكن ينبغي ألّا يُفعل، وكذا الحجّاج. قال ابن الكمال. وحكي عن الإمام قوام الدين الصفّاري: ولا بأس بلعن يزيد. وسئل ابن الجوزي عن يزيد ومعاوية فقال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، وعلمنا أن أباه دخلها فصار آمناً، والابن لم يدخلها... قال المولى ابن الكمال: والحقّ أن لعن يزيد على اشتهار كفره وتواتر فظاعته وشرّه على ما عرف بتفاصيله جائز... (فلعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه)...».
فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ ـ

وأوصل الدماء إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، واعتدى على أعراض المسلمين[1]، ونهب الدنيا لا يزال مسلماً في نظر البعض، ثم بعد كل هذا يطالب المسلمون بأن يعتبروه مسلماً وأميراً للمؤمنين، بل ويقابلوا هذا الموقف ببرود دون أي رد فعل.

على أية حال فإن الإمام عليه السلام عاش هذه الأيام بكل تفاصيلها المؤلمة.

ولادته وتجارب من حياته الشريفة

ولد عليه السلام في أُخريات خلافة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام سنة (٣٨) هـ، فقد عاش فيها ثلاث سنوات. وبهذا نجد أنه عاش فترة طفولته وشبابه في أيام معاوية، وهي أيام بدأت فيها عملية كتابة التاريخ، وتحددت فيها المواقف، وفيها أخذت التشنّجات حدّها الأعلى ومداها الأبعد. ومن هذا نجد أن في هذه الفترة مرّ الإمام عليه السلام بعدّة تجارب منها:

الأولى: تعرّض المدينة إلى ضغوط لا حدود لها.

الثانية: موقف المسلمين من عمّه الإمام الحسن عليه السلام.

الثالثة: موقفهم من الحركة الإصلاحية للإمام الحسين عليه السلام، وثورته التصحيحيّة في الطف.

☚ ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

وأليس هو المتمثّل:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزلْ

انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

وهذا الموقف مخزٍ جدّاً؛ لأنه جاء بناء على طلب المسلمين نصرة سيد الشهداء لهم ومكاتبتهم له، ثم هم بعد ذلك يردّدون بأنهم يخضعون لسلطان بني أُميّة؛ لأنهم لم يجدوا من يقودهم أو يأخذ بأيديهم. وهذا من أعجب العجب بعد خذلانهم ابن رسول الله ﷺ وقد دعوه وكاتبوه. وبالتوجّه نحو بعض النصوص الشعرية التي تعدّ مرآة تعكس واقع كلّ أُمّة اجتماعياً أو سياسياً أو دينياً نجدها تفيض حرارة وتمتشق اللهيب لتقرّر به الواقع المرّ، خصوصاً ذلك التي نتكلم عنه. ومن هذه النصوص قول الشاعر:

ولو جاؤوا برملة أو بهندٍ ... نبايعها أمير المؤمنينا
إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ ... نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفا لوَ ان لنا ضيوفاً ... ولكن لا نعود كما عُلينا
إذن لضُربتم حتىٰ تعودوا ... بمكّة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا ... دماء بني أُميّة ما روينا
لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا[1]

وهي أبيات تعكس مشاعر الناس؛ ذلك أن من المفترض أن تهبّ الدنيا بأسرها مع الحسين عليه السلام ولنصرته حينما يتحرّك لتصحيح الوضع الشاذّ آنذاك.

المبحث الثالث: مواقف في بناء الدولة والفرد

وهذا الأمر هو أحد الأسباب التي حدت بالإمام السجاد عليه السلام أن يغيّر جهاده إلى جهاد آخر، كان عليه السلام يطوف، فقال له رجل: تركت الجهاد وخشونته، ولزمت الحجّ

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقّب بالعطّار؛ لجودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا، وقد ذكر بيتين منها فقط، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

ولينه؟ فقال عليه السلام له: «**ويحك، أما بلغك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجّة الوداع أنه لما وقف بعرفة، وهمّت الشمس أن تغيب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا بلال قل للناس فلينصتوا، فلما نصتوا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن ربكم تطوّل عليكم في هذا اليوم، فغفر لمحسنكم، وشفّع محسنكم في مسيئكم، فأفيضوا مغفوراً لكم، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنْ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾**[1]... »[2].

وفي رواية أنه عليه السلام قال له: «**إذا وجدنا من يجاهد معنا جاهدنا**». والحقيقة أن الإمام عليه السلام أخذ من واقعة الطّف درساً معبّراً أفاد به الأجيال من بعده على الرغم من أنه كان مريضاً حينها يغمى عليه ساعة ويفيق أُخرى، ومع هذا فهو عليه السلام في اللحظات الأخيرة من الواقعة امتشق سيفه وخرج لينصر أباه حينما عزّ عليه الناصر.

وحتى في هذا المجال لم يسلم عليه السلام من ألسنة الحاقدين، فقد نجد هناك من يغمزه فيقول: إنه عليه السلام لم يخرج للقتال لأنه تأثر بأُمه وأخواله. وهو كما رأينا غير صحيح ولا يصمد أمام النقد، وإلّا فمن الذي يقول: إن هذا المدّعي أشجع من الأُمّة التي تنتمي إليها أمّ السجاد عليه السلام؟

أنموذج الصحيفة السجادية

على أية حال فالإمام عليه السلام درس ظروف الأُمّة والمجتمع فوجدها غير صالحة لإحداث حركة عسكرية ثانية، ووجد الناس غير مهيئين لأي تحرّك عسكري؛

---

(١) البقرة: ٢٠٣.

(٢) الكافي ٤: ٢٥٧ ـ ٢٥٨ / ٢٤، ثواب الأعمال: ٤٨، تفسير أبي حمزة الثمالي: ١١٥ ـ ١١٦.

فإن حصل وحدث فإن مصيره سيكون الفشل دائماً. وبهذا فإن ميدان الجهاد لم يكن مواتياً، فاتّجه عليه السلام إلى ميدان العلم والدعاء، وهو ميدان جهاد أيضاً، لكن جهاد النفس[١] والهوى، وجهاد العدوّ بسلاح العلم والعقيدة.

وعندما يمعن أحد النظر في الصحيفة السجادية يلمس فيها مكانة الإمام عليه السلام ومستواه الفكري واضحين كلّ الوضوح، ويلمس كذلك الإبداع بيّناً في نقله عليه السلام الجهاد من ساحة السيف إلى ساحة العلم والقلم والعقيدة.. من الساحة التي أصبحت عقيمة إلى ساحة المحراب الذي نسمعه فيه يناجي ربه بقوله: «**اللهم من أنا حتى تغضب علي؟ فوعزّتك ما يزين ملكك إحساني، ولا يقبّحه إساءتي، ولا ينقص من خزائنك غنائي، ولا يزيد فيها فقري**»[٢].

إلى آخر كلماته العظيمة التي إذا تأمّلها المتأمّل وأمعن النظر فيها عرف منها موقع الإمام عليه السلام.. موقع العبد الواعي الذي يخاطب سيده العظيم الذي لا حدود لقدرته ولا انتهاء لعظمته. ومن يسمعْه وهو يبثّ وجده في جذباته الصوفيّة يجدْ جدّه أمير المؤمنين عليه السلام وهو يناجي ربّه في دعائه الذي يقول فيه: «**يا إلهي وسيدي وربي، أتراك معذّبي بنارك بعد توحيدك، وبعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك، ولهج به لساني من ذكرك واعتقده ضميري من حبّك، وبعد صدق اعترافي ودعائي خاضعا لربوبيّتك**»[٣].

وهو معنى رائع يستمدّ منه الخيام صورة جميله في إحدى رباعياته فيقول:

---

(١) وهو الذي عبّر عنه الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله بأنه «الجهاد الأكبر». انظر: الفقه المنسوب للإمام الرضا: ٣٨٠، تخريج الأحاديث والآثار ٢: ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٢) الصحيفة الكاملة السجّادية: ٣٨٨ / ١٦٩ ـ دعاؤه عليه السلام في التذلل.

(٣) مصباح المتهجّد: ٨٤٦.

ربّي أوعدتني بأن جزائي	لذنوبي العقابُ والنيرانُ
فتعجّبت من وعيدك هذا	وأنا باكتناهه حيرانُ
أعذابي بموطن منك يخلو	دلّني أين أين هذا المكانُ
أم مكان تحلّه ومحال	حيثما أنت رحمة وحنانُ

فهذا المعنىٰ أصبح نبعاً يغترف منه الأُدباء وتنتجع فيه الأفكار. وهذا هو الوصف عينه الذي ينطبق على أدعية الصحيفة السجادية عينها.

أُنموذج رسالة الحقوق

وكذلك يمكن استكناه عظمة هذا الإمام الكريم واستجلاء حقيقة مواقفه الواعية والمساهمة في بناء دستور الدولة الإسلامية وقانونها من خلال الرجوع إلى رسالته الحقوقية العظيمة التي تعدّ وثيقة اجتماعية وقانونية وأدبية ضخمة ترسم للإنسان جمع ما له وما عليه من الحقوق والواجبات في هذه الحياة. وهو أيضاً نقل للجهاد من ميدانه إلى الميدان العلمي متّخذاً من مسجد الرسول الأكرم منبراً، ومن منبره صلى الله عليه وآله وسلم وسيلة إعلامية لنشر كل ذلك وإيصاله للناس. والغريب أن الأُمويّين لم يعجبهم حتى هذا الوضع، فأرسلوا له أحد أبناء عمومته ليشتمه وهو على منبر الوعظ والفتيا، فوقف عليه فشتمه وأبلغ في شتمه، ثم عاد إلى بيته، وبعد أن فرغ الإمام عليه السلام من درسه قال لأصحابه: **«قوموا بنا إليه»**.

فشقّ طريقه إلى بيته، وهم يظنّون أنه يريد أن يقابله بالمثل، حتى إذا وقف على باب البيت خرج إليه متوثّباً للشرّ، فقال له الإمام عليه السلام: **«إنك وقفت علي آنفاً وقلت الذي قلت؛ فإن كان الذي قلته فيّ فغفر الله لي، وإن لم يكن فيّ فغفر الله لك»**. قال: سيدي، بل هو فيّ والله وليس فيك. ثم انحنى على رجليه يقبّلهما وهو يقول: الله

أعلم حيث يجعل رسالته[1].

وهكذا نجد أن هذا الرجل العظيم لا يضيره شتم من شتمه، ولا يرفع منه مدح من مدحه، وهذا هو حال الأُفق المتوهّج دوماً في طريق الحبّ والخير والكمال.

إذن اتخذت العبادة عند الإمام عليه السلام بعداً عميقاً، وقد انبسطت عنده على كل أبعاد حياته ومعطياتها..انبسطت عنده على الكرم فكان من أكرم الناس، ويدل على هذا أن عبد الملك بن مروان قد أعاد إليه صدقات جده فراح ينفقها على فقراء المسلمين. هذا مضافاً إلى ما كان ينفقه عليهم من موارد أُخرى. وهكذا كانت يده تباري السحابة المرسلة في الجود والعطاء، وفي الوقت نفسه نجد أنه عليه السلام يكتفي بالقدر القليل من الطعام، فكان يشرف على القدور ويقول: وكان إذا حلّ وقت المغرب يشرف على القدور فيقول: **«ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»**[2].

ثم يعمد إلى رغيف من الخبز أو شيء من النباتات الصحراوية فيتغذى به.

وهذا كان ديدنه، وحتى إذا وجد في مائدته شيئاً من أطايب الطعام فإنه يؤثر به غلمانه الذين يجلسهم معه ليؤاكلوه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: **«إن أبي خرج إلى مال له، ومعنا ناس من مواليه وغيرهم، فوضعت المائدة ليتغدى، وجاء ظبي وكان منه قريباً، فقال له: يا ظبي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأُمّي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، هلمّ إلى هذا الغداء. فجاء الظبي حتى أكل معهم ما شاء الله أن يأكل، ثم تنحّى الظبي، فقال بعض غلمانه: ردّه علينا. فقال لهم: لا تخفروا ذمّتي؟ قالوا: لا. فقال له: يا ظبي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام،**

---

(١) تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٧، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٧.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

وأُمّي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، هلمّ إلى هذا الغداء وأنت آمن في ذمّتي. فجاء الظبي حتى قام على المائدة، فأكل معهم، فأخذ رجل كان يأكل معه حصاة فقذف بها ظهره، فنفر الظبي، فقال علي بن الحسين عليه السلام: أخفرت ذمتي؟ لا كلمتك كلمة أبداً» [١].

فما أعظم هذا الموقف بما فيه من إيجابية ورحمة وعاطفة!

وتكمن إيحائيته في احترام السنن التي تعتبر من القيم الأخلاقية التي يعتز بها كل إنسان، وهو أمر مشهود له في تاريخنا العربي والإسلامي. سيما مسألة الجوار التي اشتهر العرب بها، ومن ذلك ما يروى أن عدي بن حاتم كان إذا رأىٰ قرية من النمل رجع وفتّ لها الخبز ولا يترك النمل جياعاً ويقول: هؤلاء جيراني [٢].

فهو يجد من نفسه أنه مسؤول عن إعالتها وتوفير الطعام لها، وحفظ جوارها. وهذا الموقف فيه الكثير من القيم التي ينبغي الحفاظ عليها واحترامها. فالإمام عليه السلام يقول لهذا الغلام: «**أخفرت ذمتي؟ لا كلمتك كلمة أبداً**»؛ لأنه يرى ضرورة احترام هذه القيم والمحافظة عليها. وكان عليه السلام يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد جمعهم وقال لهم: ارفعوا أيديكم و«**قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا**». فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل، ويقول لمن يعطيه: «**استعن بها علىٰ دهرك، أصلح الله لك أمرك فيها**» [٣].

وبهذا نرى أنه عليه السلام كان يجسّد العبادة في أخلاقه، فكانت عبادته تنبسط على

---

(١) كشف الغمة ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢١، بحار الأنوار ٤٦: ٤٣ ـ ٤٤ / ٤٢.

(٢) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

(٣) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

كل أبعاد حياته في شتى جوانبها.

الإمام﵇ يشجّع الكلمة المقاتلة

وهناك ظاهرة في حياة الإمام﵇ ينبغي التوقف عندها، وهي ظاهرة قد تكررت في حياة آبائه وأبنائه﵈، وهي أن الإمام﵇ في الوقت الذي لم يسلّ فيه سيفاً أو ينتضِ حساماً ويقاتل به نجد أنه قد شجّع الكلمة المقاتلة، ودفع بها إلى ساحة الجهاد، وشجع الفكرة المقاتلة أيضاً. ومن هذا ما رأيناه واضحاً في موقف الفرزدق أمام الوليد في الكعبة المشرفة، فهو لم يكن يقول شعراً وإنما كان يطلق سهاماً تفتك في خاصرة العدو. فالفرزدق وقف أمام الكعبة وراح ينتضي سهاماً يشجب بها أفعال أعداء آل محمد ويجابههم بها، ويمدح آل بيت الرسول﵌، ويعضد قول الإمام﵇. فهو يقول:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيت يعرفه والحلّ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهُمُ ... هذا التقيُّ النَّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
وليس قولُك مَن هذا بضائرِه ... العُربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ
في كفه خَيزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ ... من كفّ أروعَ في عِرنِينِه شَمَمُ
يُغضي حياءً ويُغضَىٰ من مَهابَتِهِ ... فلا يُكَلَّمُ إلّا حينَ يبتسمُ
يكادُ يُمسِكُهُ عِرفانُ رَاحَتِهِ ... رُكنَ الحطيمِ إذا ما جَاءَ يَستَلِمُ

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التي أغضبت هشاماً منه، فمنع جائزته وقال له: ألا قلت فينا مثلها؟ فقال: هات جدّاً كجدّه، وأباً كأبيه، وأُمّاً كأمّه؛ حتى أقول فيكم مثلها. فحبسه بعسفان بين مكة والمدينة. وهي القصيدة التي جعلت الإمام﵇ يُخرج نفقته التي جعلها لأهل بيتِه ـ وقد بلغه حبسه ـ وهي اثنا عشر ألف درهم

ويبعث بها إليه، ويقول له: **«اعذرنا يا أبا فراس، فلو كان عندنا أكثر من هذا لوصلناك به»**. فردّها وقال: يابن رسول اللّه، ما قلت هذا الذي قلت إلّا غضباً لله ولرسوله، وما كنت لأرزأ عليه شيئاً. فردها إليه الإمام عليه السلام وقال: **«بحقي عليك لما قبلتها فقد رأى الله مكانك وعلم نيّتك»**. فقبلها[1].

وهذا الموقف يجب أن نلتفت إليه على أنه ليس ظاهرة تميّز حياة الإمام فقط، بل إنها تمتدّ لتشمل حياة جميع الأيمة عليهم السلام؛ فالإمام الرضا عليه السلام يعقد مجلساً خاصاً لتائية دعبل الخزاعي، ويطلب منه أن يقرأها له. وهذه التائية لم تكن مرثية بقدر ما كانت سيفاً مقاتلاً وكلمة مجاهدة، يقول فيها:

تجاوبن بالأرنان والزفراتِ ... نوائح عجم اللفظ والنطقاتِ

وما جرّأت تلك المهازل بينهم ... على الناس إلّا بيعة الفلتاتِ

فأجازه على ذلك[2].

وهو شعر نلمس فيه فكراً مقاتلاً. وبهذا نجد أن الإمام عليه السلام يعضد هذا الموقف إذ تعذّر عليه أن يستنهض من يريد استنهاضه، أو أن يعبّر عما يوجب النهضة. وهذا الموقف نفسه يتكرر في شعر أبي فراس الحمداني في انتقاد العباسيّين ومجاهدتهم ومناوأتهم، فروح الإمام السامية أوحت بالكثير من الفكر المجاهد لشعراء الشيعة، فتجسد شعراً على ألسنتهم، فنهضوا بالكلمة المقاتلة إذ أعوزهم أن ينهضوا بالسيف. وميمية أبي فراس هي في الواقع أكبر من أن يعطيها الوصف حقّها، يقول

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦.

(٢) كشف الغمّة ٣: ١١٣، بحار الأنوار ٤٩: ٢٤٦. ويريد بـ«بيعة الفلتات» بيعة أبي بكر، حيث قال عمر عنها: ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرّها. مسند أحمد ١: ٥٥، صحيح البخاري ٨: ٢٦ ـ ٢٧.

(رضوان الله تعالى عليه) فيها:

الدين مخترم والحقّ مهتضمُ وفيء آل رسول الله مقتسمُ

فأي قتال أعظم من هذا؟ وأي جهاد أعظم من أن يقول:

يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم لمعشر بيعهم يوم الهياج دمُ
تُنشا التلاوة في أبياتهم سحراً وفي بيوتكم الأوتار والنغم
منكم علية أم منهم وكان لكم شيخ المغنّين إبراهيم أمْ لهمُ(١)

وهذه القصيدة يأخذ فيها الشاعر بأطراف الأهداف التي كانت جميعها تعتمل بداخله؛ ليسكبها في قالب من الشعر.

المبحث الرابع: الآثار الجانبية لواقعة الطف وأثرها على الإمام عليه السلام

إذن فحياة أيّمة أهل البيت عليهم السلام ذات أبعاد عظيمة لا يمكن لمن يخوض فيها أن يوفّيها حقّها، فهي روضة من رياض الجنة، لكنها في الجانب المقابل المعتم لهذه الدنيا تعد مأتماً، وقد جمع الإمام عليه السلام بين هاتين الصفتين المتضادّتين في حياته، فهو عليه السلام من جانب يعد مدرسة وعطاء ثرّاً وميداناً علمياً واسع النطاق بعيد الشأو، يأخذ بيد مرتاده إلى ميدان الخلد وجنة الأمان، ومن جهة ثانية كان يعيش آلام الطفّ لحظة لحظة، فلم تكن لتفارق ذهنه صورها المأساوية والجرائم البشعة والانتهاكات الفظيعة لحقوق الإنسان وحرمات الدين وكرامة الإسلام التي ارتكبها الأمويّون وأزلامهم ضدّ الدين الإسلامي الحنيف وصاحبه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله متمثّلاً بعترته أهل بيته عليهم السلام.. بريحانته من الدنيا ومن كان جزءاً منه.. الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام. لقد كان عليه السلام من جهة ميداناً اجتماعياً رائعاً،

(١) ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

ومصلحاً ومربّياً فذّاً تخرّج منه ثلّة خيّرة استطاعت أن توصل الإسلام الصحيح إلى الناس، ومن جهة أُخرى كان دمعة جارية وهـو يـتذكّر مـصاب سـيد الأحـرار والشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ دخل عليه أبو حمزة الثمالي فقال له: سيدي إن القتل لكم عادة، وكرامتكم من اللّه الشهادة، إن جدّك صلى الله عليه وآله قتل وأباك عليه السلام قـتل. فقال: «**شكر اللّه سعيك يا أبا حمزة، إن يعقوب نبي وابن نبي فقد ولداً واحداً، وهو يعرف أنه حي، لكنه كل يوم يسأل ملك الموت: هل مرّت بك روح يوسف الذي كنت أُوسّـده بـيميني وأُدثّـره بشـمالي؟ وأنـا رأيت أهـل بـيتي مـجزّرين كالأضاحي تسفي عليهم الذاريات.**».

وأكثر من هذا إيلاماً أنه يقول: «**وواللّه ما نظرت عيناي إلى عمّاتي وأخواتي إلّا وذكرت فرارهن يوم عاشوراء من خباء إلى خـباء، ومـن خـيمة إلى خـيمة، والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين**».

وهي مناظر كانت بالفعل تعيش مع الإمام عليه السلام، فكان عليه السلام حينما يوضع الماء أو الطعام بين يديه يطيل النظر إليه، وكانت له قصة أُخرى مع الماء، وهو فصل عتابه مع الفرات حيث مرّ به يوماً، فقال يخاطبه: «**إلى الآن تجري يا فـرات وقـد قـتل عندك ابن بنت رسول اللّه ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول اللّه إلى جانبك؟**»:

يـا مـن إذا ذكـرت لديـه كـربلا	لطم الخـدود ولـلـمدامـع أهـملا
وإذا مررت على الفرات فـقل ألا	بـعداً لشـطّك يـا فـرات فـمرّ لا

ومرّ يوماً فسمع أحد القـصّابين يـقول لغـلامه: أسـقيت هـذا الكـبش مـاء؟ فلفتت العبارة نـظر الإمـام عليه السلام، فـقال له: «**أنـتم مـعاشر القـصّابين لا تـذبحون الكبش حتى تسقوه المـاء؟**». قال: بلى سـيدي. فأدار وجـهه إلى جـهة كـربلاء

وصاح: «أبه يا أبه، الكبش لا يُذبح حتى يُسقى الماء، وقد قتلت إلى جانب الفرات ظمآناً»:

أشـرب لذيـذ المـاي حـاشا ... واهـلي گظوا كلّهم عـطاشى

﴿١٣٢﴾

معالم التربية الإسلامية

باسمه تعالى

إن من البديهيات المفروغ منها في عرف المفكّرين المسلمين أن تقويم شخص ما وتربيته ينبغي أوّل ما ينبغي أن تتمّ عن طريق إشباع الحاجات الأساسيّة له، وأن التربية ليست مجرّد مجموعة من التعاليم أو منظومة من العظات التي لا توفّر للمسلم مناعة عن طريق كفايته ذاتياً.

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: منطقة الفراغ؛ تحديدها وإشباعها

إنّ هذا يعني أنّنا إذا أردنا أن نصنع الإنسان المهذّب المسلم الذي نلزمه بالتأدّب بآداب الإسلام والتخلّق بأخلاقه، وأن تكون تصرّفاته وحركاته وسكناته على ضوء القواعد والضوابط الإسلامية، فيجب أن نعترف أولاً بأن هذا المعنى لا يمكن أن يتمّ إلّا عن طريق إشباع حاجاته الأساسية. فما دامت هناك منطقة فراغ في هذه الحاجات عند الإنسان، فإن هذا الإنسان سيبقى معها عرضة للانحراف والانجراف خلف كلّ ما هو غير إسلامي.

معالجة الإسلام لمشكلة الجوع

وكمثال علىٰ هذا ـ علىٰ سبيل الإيضاح ـ أننا حينما نكلّف الإنسان بأن يكون عفيفاً فينبغي أن نوفّر له مقوّمات العفّة؛ فهي إن كانت فيما يتعلّق بالبطن فينبغي علينا أن نوفّر له الطعام. وليس معنىٰ هذا أن نشجّعه علىٰ أن يظلّ جليس بيته واضعاً يداً علىٰ يد ينتظر أن نبعث له بما يملأ به ذلك البطن، فإن هذا فهم سلبي للمسألة، بل معناه أن نوجد له فرص عمل يستطيع من خلالها كسب قوته من حلال، وأن نوفّر له الجوّ الملائم الذي يتوفّر معه العمل لكلّ عاطل، مضافاً إلىٰ ذلك التربية السليمة التي يجب أن نربّيه عليها، وأن نغذيه بها، والتي يمكن له أن يعرف بها ضرر التكاسل، والقعود عن العمل، والاتّكال علىٰ الغير، والتي يعرف معها كذلك قيمة العمل والمبادرة إليه.

وبهذا فإننا نضمن بأننا قد صنعنا إنساناً سيحصل علىٰ كفايته في سدّ فراغ هذا الجانب عنده، وبالتالي تأمين جانب الشبع له حتىٰ لا ينحرف عن القواعد الشرعية عن طريق الحاجة إلىٰ الطعام. أما كيف يتمّ هذا فسنمرّ به إن شاء الله من خلال إعطاء لمحات موجزة عن الموضوع كي نأخذ عنه فكرة واضحة.

كيف عالج الإسلام مشكلة الزواج

وفي الوقت الذي نطلب من المسلم أن يكون عفيفاً من ناحية ممارساته الأخلاقية، ينبغي علينا هو أن نوفّر فرصاً كثيرة للزواج. والإسلام الحنيف له مخطّط ومنظور في هذا الجانب ـ توفير فرص الزواج ـ فهو يرىٰ أن الذي لا يقوىٰ علىٰ الزواج فعلىٰ بيت المال أن يهيّئ له الأسباب التي توصله إلىٰ هذا الهدف. وهذا يتم عن عدّة طرق منها:

١ ـ توفير الأرضية الصالحة لإزالة الموانع كما مرّ ذكره.

٢ ـ دعوة الناس إلىٰ التعفّف وإلىٰ الابتعاد عن الانحراف.

٣ ـ تربيتهم علىٰ الخلق القويم، ودفعهم إلى إنشاء الأُسرة السليمة القائمة علىٰ الطهارة والتربية الإسلامية وتعاليم السماء.

وعن طريق هذا المخطّط الشامل تتمّ عمليات الزيجة بأوقات معيّنة وأعمار متقاربة ومقبولة إلىٰ حدّ ما، وبهذا نكون قد أمّنّا للإنسان سبل كونه عفيفاً؛ لأنه إذا لم يجد ما يعفّ به فرجه مع وجود المغريات، فإننا لا نأمن عليه من أن ينحرف؛ مع توفّر الفرصة للانحراف. والغريزة بما تتّصف به من عنف تعصف أحياناً ببعض القيم الأخلاقية ما لم يكن هناك حلّ عملي لهذه المشكلة. وهو يتمّ عن طريق إيجاد فرص الزواج كما ذكرنا.

معالجة الإسلام أزمة الأخلاق

وكذلك الأمر مع عفّة النفس، فإننا إذا أردنا أن تنشئ الفرد علىٰ الخلق العالي، والتربية الإسلاميّة الصحيحة، والهمّة العالية بحيث إنه يترفّع معها عن الركوع للدنايا، فلابدّ أوّلاً من توفير جوّ صالح له يستطيع عبره إشباع طموحاته عن طريق إيجاد مشروع تكافؤ الفرص.

أقسام التكافل في الإسلام

إن الإسلام بما يمثّله من حالة شمولية، وما فيه من مجموعة نظم يكفل للفرد المسلم احتياجاته على أصعدة عدّة:

التكافل الاقتصادي

وبطبيعة الأمر فإن هذه الأُمور هي عناوين عامّة، أمّا كيف يمكن لنا أن نرفع الفرد عن مستوىٰ الدنايا فهذا واضح، أي من خلال توفير الفرص المشروعة له، وبالعكس يكون العكس أيضاً؛ فعندما تغلق في وجهه هذه الفرص المشروعة فإنه

سيتحوّل إلىٰ إنسان يسهل عليه أن يركع أمام هذه الدنايا. والمجتمع الذي تكون فيه الفرص منفتحة يكون فيه مضمار ومجال لأن تتبارىٰ فيه قدرات الأشخاص وإمكانياتهم.

ومتىٰ كانت الفرص متساوية ومضمونة للجميع، فإن كل شخص عنده طاقات في مجال ما سينطلق بها ويستثمرها دون أن يحدّها شيء أو يحول دونها حائل، أو أن يمنعها مانع من أن تُستغل في نفع المجتمع. وكل شخص في مثل هذا المجتمع يمكن أن يبدع في مجال تخصّصه وأن يصل إلىٰ مستوىٰ رفيع فيه. أما إذا أُغلقت في وجه هؤلاء أبواب الفرص الشريفة، وأصبحت الفرص منحصرة في الطرق الملتوية والمنحرفة، فإن الإنسان حتماً سيبيع كرامته حينها، وسيسجد علىٰ أعتاب من بيده الحلّ والعقد، وسيتحول إلىٰ «إمّعة» وإلىٰ إنسان مسلوب الإرادة؛ لأنه لا يجد طريقاً مفتوحاً أمامه لاستغلال مواهبه وقدراته وإمكانياته.

وهذا الكائن حينما يجد هذا الواقع أمامه، وأن الفرص متوفّرة لفئة معيّنة من الناس دونه ودون أمثاله، وأنه لا يستطيع أن يستغلّ مواهبه، فإنه سيضطرّ إلىٰ التحوّل إلىٰ الطرق الملتوية حتىٰ يجد فرصة أمامه يستطيع أن يكسب بها قوته. وهو بهذا سيتحوّل إلىٰ كسور إنسان خانع، وليس إلىٰ إنسان كامل ذي قيمة وكرامة.

والإسلام يعمل علىٰ توفير هذه الجوانب بأجمعها للإنسان في إطار عمله علىٰ تقويم الفرد وتهذيبه. ولذا فإن من يتصوّر بأننا نستطيع أن نخلق الإنسان الكامل المهذب ونقوّمه باعتباره لبنة أساسية في بناء المجتمع من غير أن نمسك بأيدينا بزمام توجيهه فهو واهم، وهذا غير متاح وغير ممكن الوقوع أبداً. ولا يقوىٰ علىٰ فعل هذا إلّا الدولة الإسلاميّة؛ فهي الجهاز الوحيد القادر علىٰ تحقيق ذلك من

خلال هذه الأُطر، لا عن طريق الموعظة فقط دون توفير مقوّماتها.

والموعظة من غير مقوّمات هي موعظة جوفاء لا قيمة لها. ومقوّمات الموعظة هي ما تكلمنا عنه أوّل المحاضرة من إشباع حاجات الإنسان الأساسية. وإلّا فإن الموعظة مع عدم توفّر الفرص لانطلاق طاقات الإنسان وإمكانياته تكون غير نافعة وغير مجدية؛ لأن هذا من المعوّقات التي تقف دون هذه المواهب، وتحول بينها وبين انطلاقها.

ثمّ إن صاحب هذه المواهب حينما يجد الأمر بهذا الشكل وهذه التركيبة سيضطر إلى أن يكفر بالمجتمع، وبكل القيم والأخلاق؛ لأنه يرىٰ المجتمع أنموذجاً قائماً علىٰ أساس من الطبقية والاختلال الوظيفي والاستغلال البشع. وحينها فإنه سوف لن يؤمن بهذا المجتمع ولا بأي قيمة من قيمه، ولن يكرّمه أو يحترمه. فهو إنما يؤمن بالمجتمع فيما إذا أحسّ بأن قيمته محفوظة، وأنه لن يغلق أبوابه أمامه، بل يفتحها ويوفّر له جميع مستلزمات تكافؤ الفرص، ويفسح المجال واسعاً أمام الطاقات لتنطلق وتبدع. فلا سبيل إلىٰ إيمان أي فرد بالمجتمع ولا إلىٰ تقديسه لأهداف المجتمع وأخلاقيّاته وآليات تعامله معه ما لم يكن ذلك المجتمع منفتحاً أمامه في مسألة تكافؤ الفرص. وبعبارة أُخرىٰ: يكون مجتمعاً قائماً أساساً علىٰ مبدأ تكافؤ الفرص.

ولتوضيح هذه الفكرة ـ المجتمع القائم علىٰ أساس تكافؤ الفرص ـ نفرض أن هناك مجتمعاً قائماً علىٰ أساس طبقي استغلالي، فهو يرىٰ أن الطبقة الفلانية تختلف عن غيرها من الطبقات، وأنها أعلىٰ منها، وبالتالي فالذي ينبغي هو أن تمنح الفرص دون غيرها في جميع المجالات. مضافاً إلىٰ ذلك أن طبقة العمّال فيه لا تتمتع بالمزايا عينها التي تتمتع بها طبقة الحرفيّين، وطبقة الحرفيّين كذلك

بالنسبة لطبقة العسكريّين. لكن هذا المعنىٰ ملغىً في نظر الإسلام؛ فهو يضع مبدأ تكافؤ الفرص أو الفرص المتكافئة أمام المسلمين علىٰ حدّ سواء؛ فلا نبالي أن يكون فلان مثلاً مزارعاً أو مهندساً أو علىٰ نمط أعلىٰ من المعيشة، فالفرص أمامه واحدة متساوية. يقول الله تعالىٰ في محكم كتابه الكريم: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقاكُمْ**﴾[1].

الإسلام يأخذ بالفوارق الدينية والخلُقية

وهكذا يكون هدف الإسلام هو توفير الفرص أمام مجالات الانطلاق والعمل، وفتحها أمام جميع العوائل لترتبط ببعضها بغض النظر عن وجود عوامل التمايز والتفاوت بالمنازل والمراتب. وهذا ما أكد عليه الرسول الأكرم ﷺ فهو يقول: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه، إلّا تفعلوا تكن فتنة**»[2]. ولنلاحظ التعبير الذي يلغي مبدأ أن هذا ينتمي إلىٰ عرق عالٍ وهذا ينتمي إلىٰ عرق دانٍ، فالكل سواسية، والتكريم إنما يكون بالتقوىٰ والدين والخلق كما هو لسان الحديث: «**دينه وخلقه**» لا العرق أو المال أو المنزلة.

وأُحب أن اُلفت النظر إلىٰ نقطة هامّة هي أن فقهاء المسلمين بصورة عامّة يقولون بجواز زواج الرجل العامي من المرأة العلوية مع أن العلوية بنت رسول الله ﷺ، أي أنها ابنة أرقىٰ اُسرة وأشرف عائلة من ناحيتي الدين والدنيا. ومع ذلك فإن هذه العلوية قد يتزوّج منها رجل عامّي، أو من اُسرة عادية، دون أن يقدح ذلك بالكفاءة ما دام قيد «**دينه وخلقه**» موجوداً.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ ـ ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

الإسلام يأخذ بالفوارق العلمية والثقافية

إذن ليس هناك في الدين الحنيف فوارق ومميزات تخلق طبقة تترفع علىٰ طبقة أُخرىٰ وفق الدم أو العرق أو اللون، من ناحية إيجاد الأُسرة أو العمل، أما من ناحية العلم والثقافة فنجد أن الإسلام يضع في هذا المجال أمام من يطلب العلم قاعدة ينتظم فيها الصغير والكبير، والدنيء والشريف علىٰ حدّ سواء. فالله عزّ وجلّ يأمر بتوفير فرص العلم للناس، وكذلك رسوله الكريم ﷺ الذي جعل **«طلب العلم فريضة علىٰ كلّ مسلم ومسلمة»**[1]. كما أن المؤسسات العلمية الإسلامية تحتضن طالب العلم من أي جنس ومن أي نوع كان، فلا فرق عندها ـ بل لا وجود أصلاً لأي لون من ألوان التفرقة عندها ـ بين أي مسلم وآخر، مهما كانت انتماءاتهم العرقية أو اللونية أو الأُسرية، وكون أُسرهم أُسراً عالية أو دانية[2].

وعليه فيمكن القول علىٰ سبيل الايجاز: إن المجتمع الإسلامي كما ترسمه أُسس التربية الإسلامية يُعنى بخلق المسلم المؤمن المتكامل عن طريق ملء حاجاته الأساسية وسدّها. وهذه الحاجات بطبيعة الحال لا يمكن أن تسدّ إلّا إذا كان المجتمع متكافئاً وكانت جميع الفرص أمام جميع أبنائه متوفّرة ومفتوحة بالتساوي في جميع نواحي الحياة ومجالاتها. وهذا المعنىٰ من أبرز الأُمور

---

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(٢) ممّا تجدر الإشارة إليه أن هذه الفوارق الطبقية التي استزرعها المجتمع هي من صنع المستعمر وزراعته، وفق متطلّبات سياسته القائمة علىٰ مبدأ «فرّق تسد»، ثمّ تلاقفها المسلمون فعملوا بها، وإلّا فإن الإسلام ليس عنده فرق بين عائلة وأُخرىٰ إلّا في الدين والعلم والأخلاق، كما يسعىٰ المحاضر ﷺ إلى بيانه وتوضيحه.

المتصوّرة في التربية الإسلامية، وهي واضحة في هذا المجال، وتجعل مهمّتها الأساسية سدّ حاجات الفرد المسلم علىٰ ألّا يكون علىٰ جوع اقتصادي؛ لأنها تفترض به أن يكون مضموناً من المجتمع، ومضموناً من الدولة. فالتكافل الاقتصادي يعتبر من أبسط وأوّل الأُسس الاقتصادية التي عُني الإسلام بتخطيط مضمونها وتحقيقه من الناحية التشريعية، ثم تطبيقها بين الناس؛ فهي تشريعياً وتطبيقياً ثابتة.

التكافل الأسري

وهو تكافل يتم عن طريق تذويب الحواجز والعقبات بين أُسرة وأُخرىٰ، وجعل كلّ أُسرة منفتحة علىٰ غيرها من الأُسر عن طرق المساواة بينها جميعاً في هذا الحقّ. فهو تكافل إسلامي الغرض منه إزالة عائق الطبقيّات أمام الزواج، فيؤمّن الحاجة الجنسية بذلك لمن يريد الزواج. فإذا عجز هذا الشخص من الناحية الماليّة تدخّل بيت المال ليوفّر له المقوّمات والمقدّمات المالية التي تذلّل له هذه العقبات، وتوصله إلىٰ الزواج.

التكافل النفسي

وهكذا عرفنا أن المشرّع الإسلامي يعني بفتح الفرص المتكافئة أمام الجميع، سواء كانت فرص طلب العمل أو طلب العلم، وأنه ليس فيه نظام يضع أي عقبات في طريق طبقة دون طبقة. ففرص العلم والتوظيف والعمل والتقييم وإعطاء المواهب حقّها والقابليات جزاءها كلّها مفتوحة أمام جميع الناس علىٰ حدّ سواء، وكل هذا مضمون بصورة تفصيلية في التخطيط التربوي والاقتصادي والاجتماعي للبيئة الإسلامية، فهذا الفرد الذي يعيش ضمن المجتمع الإسلامي وفي ظل

التشريع الإسلامي له ما لأي مسلم آخر من حقوق علىٰ حدّ سواء؛ حذو القذّة بالقذّة.

وعليه فلا يمكن أن نجد هناك عوزاً في ظلّ التشريع الإسلامي يؤهّل الفرد للانحراف، أو يساعده علىٰ ذلك. والإسلام يؤمن بأن الفرد المتكامل لا يمكن تخليقه ما لم يتمّ سدّ حاجاته الأساسية من سكن وعمل وزواج وطعام، وهي الحاجات التي يُفتقر إليها في بناء أُسرة سعيدة تعيش حياة مستقرّة دائمة، بعيدة عن العوز والحاجة. فهذا كما قلنا تعنىٰ به الشريعة الإسلامية عناية تامّة.

لكن يبقىٰ علينا كمسلمين أن نتعرّف إلىٰ الوصفة الإسلامية التي وصفها المشرّع الإسلامي لعلاج مثل هذه الحالات، فنحن نعيش حالة من الجهل والأُميّة حيال فهم ذلك، ومعرفة الآلية التي يتمّ بها. وحتىٰ المثقّف المسلم لو سئل عن وجود مخطّط كامل يعنىٰ برسم الهيكل التامّ لصنع الفرد المسلم إسلاميّاً والكامل والمتكامل علىٰ ضوء الشريعة الإسلامية لما عرف ذلك، ولما أمكنه التطرّق حتىٰ إلىٰ هذه الخطوط العامّة العريضة له.

وعليه فالذي ينبغي علىٰ كلّ فرد يمتلك قدراً من الثقافة أن يتعرف علىٰ المدرسة الإسلامية في هذا الباب، وعلىٰ الهيكل التخطيطي العامّ لسدّ حاجات الفرد الاقتصادية والاجتماعية والوظيفية، وكيفية تخليق وإيجاد الفرص المتكافئة له. ومن يرد ذلك فكتب المفكّرين المسلمين أغنت المكتبة الإسلامية بذلك علىٰ صعيد هذه الجوانب كافّة، فلا تجد عوزاً أبداً. وكل فرد يستطيع أن يتناول أي كتاب يشاء؛ سواء في مجال تنظيم الأُسرة، أو في مجال تنظيم العمل والعمّال، أو في مجال تنظيم العلاقات الجنسية والزواج، أو في مجال فتح الفرص أمام الإنسان واستغلالها. فكل هذه الجوانب تناولها الكتّاب المسلمون وخصوصاً

مفكّريهم بشكل شامل، وأشبعوها بحثاً وتنقيباً.

فالفرد المسلم لا يُعفىٰ أبداً من وجوب التعرّف علىٰ هذه الأُمور الأساسية، إذ أن كل واحد من المسلمين يجب عليه السعي لمعرفة ذلك في حدود استطاعته، فربما يعتذر عامل عن ذلك محتجّاً بضيق وقته أو عدم اتّساع دائرة أُفق معرفته عن متابعة هذا أو فهمه. لكن نقول: إن في هذا الأمر مغالطة خصوصاً فيما يتعلّق بضيق الوقت وعدم اتّساع المجال للاطّلاع علىٰ هذا؛ لأننا نعرف أن العمل لا يستغرق من وقت الإنسان أكثر من عشر ساعات في اليوم، وعليه فإنه سيبقىٰ عنده فسحة من الوقت يستطيع فيها أن يتابع ويطالع ويقرأ ويتعرّف على هذا. أو لا أقل من أن يستمع فيها إلىٰ أصحاب الشأن في أحاديثهم حول هذه الجوانب، سيما أن وسائل الإعلام لا تخلو من بعض الجوانب ذات العلاقة بهذا الموضوع.

الدور الخطر والحسّاس لوسائل الإعلام

وعدا هذا فإن وسائل الإعلام تتحمل مسؤولية كبيرة تجاه هذا الجانب الحيوي والهامّ، بل نحن نحمّلها هذه المسؤولية، قبل أن تتحوّل إلى مؤسسة رخيصة المتاع، وتنزل بالإنسان إلىٰ مستوىٰ الغرائز المنحطّة. وهذه الوسائل ـ السلاح ذو الحدين ـ يمكن أن ترقىٰ إلىٰ مستوىٰ مؤسّسة متكاملة، وإن لم تكن متكاملة فلا أقل من أن تكون أقرب إلىٰ الكمال ممّا هي عليه الآن؛ فتعالج هذه المسائل علىٰ أساس من العلم والتخطيط. وبتعبير آخر أكثر صراحة نحن مثلاً كمسلمين نعيش في دولة إسلامية فيجب أن نعرف أن تكاليف الإذاعة والتلفزيون تقوم بها الأُمّة، وتدفعها عن طريق دفع الضرائب، ونحن نريد لهذا الجهاز الحسّاس أن يشبع عندنا الفهم والجوع العقيديّين، وأن يعرفنا علىٰ منظور الإسلام في جانب الاقتصاد أو جانب الاجتماع أو جانب الأُسرة، وفي الوقت نفسه نحن لا نريد أن

نتعرّف علىٰ كلّ هذا من خلال جماعات تفرضها عليّ مؤسسات دينية معيّنة.

فالمسألة ليست مسألة ارتزاق، وليس الأمر مجرّد محاولة إعاشة وإعالة جماعة من الناس عاطلين، عندهم بضع كلمات يلوكونها ويتشدّقون بها. فالفرد المسلم يجب أن يكون أعزّ علينا من هذا، كما أن مهمّتنا لا تبتني علىٰ إشباع حشرة علىٰ حساب جوع الملايين. فيجب ألّا نترك الملايين من الشباب الذين عندهم نهم وجوع إلىٰ المعرفة لأجل أن يعتاش علىٰ فكرهم شخص يكرّر لهم كل سنة أكثر من مرّة أن النبي ﷺ كان جميل الوجه، وأن نور بهاء طلعته يسطع علىٰ جدران المنازل لحظة مروره بالقرب منها، ويصحب هذا ضرب الدفوف وما إلىٰ ذلك من وسائل مشابهة.

فهذا ليس هو الذي يحتاجه الفرد المسلم من وسائل الإعلام، بل إن هذا الفرد يحتاج إلىٰ المعلومة الفكرية والعقيدية التي يستفيد منها في حل مشاكله الشخصية والعامّة، والتي تتماشىٰ مع طبقات المجتمع كافّة، فتشرح للناس علىٰ اختلاف مراتبهم وأعرافهم وأذواقهم منظومة الفكر في ديننا وحضارتنا. كما يجب ألّا يكون طابع الحضارة الذي يعكسه أي فكر مجموعة من التشنّجات القومية، بل الواجب أن يكون الطابع الذي يعكسه هذا الفكر عن حضارتنا هو الطابع الإنساني الذي يشكّل مادّة دسمة في معطياتها. وحضارتنا غنية بهذا الطابع أو الجانب، وكذلك تاريخنا.

وكل واحد منّا يستطيع أن يصوّر ذلك ويعكسه بهذا الأُنموذج الحيّ الرائع، وليس علىٰ أنه عبارة عن مجموعة من مظاهر التشنّج القومي، بل يجب تصويره علىٰ أنه منطلق إنساني بحت كما أسلفنا.

ونحن لدينا أقلام كفوءة تستطيع أن تعطي هذا الجانب حقّه من الشرح

والتحليل الكافيين. فليس كافياً أن نعرف مثلاً أن البيت الذي يدفع الزكاة ستحلّ به بركة الله جلّ وعلا، بل اللازم حنيئذٍ هو أن يذكر هذا الكاتب أو الفرد المسلم علاقة إخراج الزكاة بتوزيع الثروة، وبتطهير النفس الإنسانية ومشاعرها، وبإيصال الغذاء للمحرومين، أو باعتبارها جزءاً من البنية الاقتصادية الإسلامية فيما يتعلّق بعملية إعادة توزيع الثروة داخل المجتمع الإسلامي، ومنع تمركزها في جانب معيّن منه، والعمل علىٰ تفتيتها وفق الضوابط الشرعية.

وهكذا فإن المطلوب هو توفير أقلام تتناول هذه الجوانب الحيوية الهامّة في مسألة إخراج الزكاة، أما أن نُقصر وسائل الإعلام علىٰ جانب البركة أو الثواب، فهو أمر غير صحيح، وتصوّر فجّ لا ينمّ عن عمق في التفكير وشموليّة في التحليل والتنظير. ثمّ إن هذا الأمر يعدّ ثانويّاً قياساً بالجانب الأهم الذي أشرنا إليه؛ لأنه يخصّ الفرد نفسه. أما الجوانب التي أشرنا إلىٰ ضرورة تناولها دراسة وتحليلاً فهي جوانب أولية حيوية تمتاز بأن لها الأولوية في التفكير والتحليل والدراسة؛ لأنها تتناول مشاكل المجتمع ككل وليس خصوصيات الفرد بشكل مستقل.

إذن ينبغي أن نرتقي بوسائل الإعلام عن أن نقصرها علىٰ مجموعة تظل تردّد وتكرّر المعلومات عينها، حتىٰ إن الأسماع ملّتها لكثرة ما سمعتها. فنحن نتوقع ونأمل ونتطلّع إلىٰ وسائل إعلام تقوم بهذا الدور وتضطلع به؛ وتمتاز بكونها وسيلة تربوية ضخمة. وهذا خصوصاً الوسائل المرئية (جهاز التلفاز)، فهو يفعل في النفوس فعله. فإذا توفّرت لدينا مجموعة كفوءة وكان كل همها ودأبها ومهمّتها سدّ حاجات البلد عقيديّاً، وحقنه بجوّ من المناعة، وتحصينه بالفكر، يستطيع هذا المجتمع أن يقف في وجه الغزو الثقافي الوافد.. الغزو الثقافي المنحرف الذي يحاول أن يحرّك رغبات الناس ويستفزّها، وخصوصاً الشباب منهم.

فالجهاز الإعلامي وسيلة تربوية ضخمة، وهو جهاز حساس جداً من هذه الناحية، وهو الجهاز الوحيد الذي يمكن أن يقف حائلاً دون الثقافات الوافدة أن تتسرّب إلىٰ مجتمعاتنا وعقول أبنائنا بما يقوم به من دور إيجابي وفعّال في هذا المجال. فمعلوم أن فراغ البطن يولّد انحرافاً عند الإنسان من ناحية الطعام وتحصيله ما لم يكن هناك توجيه في هذا الباب، وسدّ حاجة ذلك الجائع بما أسلفنا ذكره من مقوّمات النظام الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام، وهي مقومات تقوم أساساً علىٰ مبدأ التكافل والتكافؤ.

وكذلك فراغ الفكر، فإنه يولّد انحرافاً عقيديّاً؛ لأن فراغ الفكر عند الإنسان يضطرّه إلىٰ استيراد أفكار من الخارج. وغير خفي علىٰ الفطن وغيره ما تخفي الأفكار المستوردة بين طياتها من عناصر لهدم الشباب وآليات العمل الذي ترصد له الطاقات الفكرية والإمدادات المادية الضخمة من أجل بلوغه والوصول إليه. وحبذا لو قام الإعلام الإسلامي بملء أفكار الشباب بفكر واضح سليم، ينبع من قوانين الدين ونظمه، مع العلم بأن الإعلام يستطيع أن يوصل هذا الفكر إليهم؛ لأنه يستطيع أن يضع يده علىٰ مادّة دسمة تركها لنا مفكرونا وروّادنا، لها القابلية الكاملة والطاقة الكافية علىٰ ملء ذهن الفرد المسلم، وتغنيه عن التطلّع إلىٰ أي فكر آخر.

إذن فنحن في مسيس الحاجة إلىٰ أن نفهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأن نكون بعيدين عن التشنّج إزاء قضايانا وأبناء ديننا، وأن نشرب من ينبوع الدين ونهر الإسلام الخالد. وكمثال علىٰ ذلك فإننا حينما نقف عند نظرية لأحد فقهاء الخوارج أو لأحد فقهاء الظاهرية أو الإمامية أو الحنابلة أو الأحناف ــ بغضّ النظر عن مذهب صاحبها ــ فإننا يجب ألّا نقف منها موقف المتشنّج، أو نتخذ إزاءها موقف عداء وحقد، بل يجب أن ننطلق من مبدأ أن هذا الفقيه ــ مهما كان مذهبه ــ

إنما يستمدّ نظرياته وأفكاره من ينبوع الإسلام، وإن الجهة التي تغذّيه بهذه الأفكار وهذه النظريات هي الإسلام عبر الكتاب والسنة؛ وبالتالي فيجب أن نحترمها ولا نأخذ منها موقفاً عدائياً.

فالمفروض أننا لا يعنينا أن تكون هذه المسألة التي اقتبسها وشرحها عالم ما للناس من أي مذهب كان ووفق أي مذهب كانت مادام مصدرها الكتاب والسنة.

إن الحق هو أن يكون هذا منطلقنا في الحياة وفي تعاملنا مع الآخرين من علماء ومفكرّين، وألّا نحجر علىٰ أفكار هذا الفقيه أو ذاك، أو نغفل رأيه ونظرياته لأنه ينتمي إلىٰ المذهب الفلاني، فهذه هي الصنمية بعينها.

ونحن بهذا اللون من التعامل البعيد عن التعصّب نفتح الطريق أمام مجتمعاتنا لتفكّر بنا. وعليه فإن الغيور علىٰ الإسلام يجب عليه أن ينهل من الينبوع الإسلامي عبر أي قناة توصله إلىٰ ذلك النبع مهما كانت، ومهما كان المذهب الذي تمثّله ما دام يستمد فكره وقوانينه وتشريعاته من الإسلام.

إذن هناك مهمة مقدّسة وثقيلة تقع مسؤوليتها علىٰ عاتق وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية، وهذه المهمة هي المساهمة في صنع الفرد المسلم الذي أراده الله، ويكون ذلك بمساهمة وجوه المحيط الأُخرىٰ؛ حتىٰ يتسنىٰ لنا ملء جوانب الفراغ عند هذا المسلم عن طريق تأمين وسائل حياته كافّة، وإشباع حاجاته الشخصية الأساسية. فعن طريق هذا المنظور فقط يمكننا صنع الفرد المسلم الذي رسم الله سبحانه وتعالىٰ ملامح شخصيته وبيّنها لنا.

والله سبحانه وتعالىٰ وحده المأمول في أن يعيننا علىٰ سلوك هذا الطريق، والثبات عليه حتىٰ بلوغ الهدف؛ فلقد مرّت بنا تجارب قاسية حتىٰ الآن انحرف البعض فيها بعيداً بعيداً عن الإسلام، وانجرف مع الحياة مبتعدين عن هديه. ولا يصلح آخر هذه الأُمّة إلّا بما يصلح به أوّلها، فالأُمّة التي كانت تتشكّل من بضعة

أشخاص استطاعت أن تدكّ بهم عروش كسرىٰ وقيصر لم تصنع ذلك بـالطلاسم والسحر، وإنما صنعته بعد أن صنعت أولاً الفرد المسلم الذي آمن بالإسلام واندكّ في تعاليمه وقواعده وأهدافه، والذي لم يكـن يـحسّ بأي نـقص أو فـراغ فـي حاجاته، فانطلق يحطّم عروش الطغاة ويصنع المعجزات.

ونحن إن شاء الله علىٰ ذلك الدرب وعلىٰ تلك المسيرة، ولنا ولله الحمد مـن ديننا وسيرة نبيّنا وأيمّتنا ما يعصمنا وما يقوّمنا وما يعيننا علىٰ تقويم اعوجاجنا وانحرافنا، والله وحده هو المسؤول في هذه الليالي المباركة أن يرحمنا برحمته، وأن يجعلنا دائماً في خط **«لا إله إلّا الله»**، وأن يغنينا بما أغنىٰ به سلفنا الصالح من ركوب جادّة الطريق المستقيم، والتحلّي بالإيمان القويم حتىٰ نصل إلىٰ ما أراده الله تعالىٰ لنا من خلافة في الأرض؛ فهو ولي الإعطاء والمنع. والسـلام عـليكم ورحمة الله وبركاته.

المبحث الثاني: أسئلة وإجابات

هذه بضعة أسئلة وردتني من بعض الأُخوة الحضور سأُجيب عنها قدر الإمكان والمستطاع، وبما يتّسع لها المقام إن شاء الله:

السؤال الأوّل: موقف الإمامية من شرع من كان قبلهم

يقول السؤال: ما هو موقف الإمامية من شرع من كان قبلنا من الأُمم، وهـل يعتبر شرعاً لنا؟

الجواب: إن فقهاء المسلمين بصورة عامّة وليس فقهاء الإمامية فقط يقولون: إن أي حكم من أحكام الأُمم التي سبقتنا، وقد ذكره القرآن الكـريم، إذا لم يـنصّ القرآن علىٰ أنه منسوخ فهو حكم لنا أيضاً، أي أنه يبقىٰ جارياً عندنا فنعمل ونتعبّد

به. وهناك الكثير من الأحكام التي كانت معمولاً بها عند الأُمم السابقة وأقرّها الإسلام وأعطاها صفة المشروعية، وأصبحت من الأحكام الإسلامية. وعليه فالواجب علينا التعبّد بشرع من كان قبلنا ما لم يرد دليل شرعي علىٰ نسخه.

السؤال الثاني: دخول ابن الزنا الجنة

يقول السؤال: هل يوجد في الأحاديث أن ابن الزنا يدخل الجنة إن كان مسلماً؟

الجواب: إن كلامنا سينصبّ على ابن الزنا المسلم. وأُحبّ قبل ذلك أن أُنوّه إلىٰ أننا لا نستطيع أن نعبّر عن أحد بأنه مسلم أو غير مسلم إلّا بعد مرحلة التكليف، وكلمة (ابن) تعني أنه لا زال طفلاً غير مكلّف. ثمّ إن هذا المتولّد من غير الوجه الشرعي إن كان مؤمناً صالحاً تقيّاً ملتزماً، هل يقدح بذلك كونه ابن زنا؟ بمقتضىٰ القواعد العامّة أن ذلك لا يقدح، والدليل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾[١]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٢].

فالقرآن الكريم صريح في أن الإنسان يتحمّل تبعة أعماله ومسؤولية أفعاله، فالولد لا يتحمّل جناية الأب والأُم. وبمقتضىٰ القواعد العامّة أن هذا إذا عمل بالتكاليف الشرعية، وسلك طريق الله عزّ وجلّ فلا مانع من شموله برحمة الله ورضوانه. وإذا كانت هناك روايات تنصّ علىٰ أنه لا تجوز الصلاة خلفه[٣] فهي روايات ضعيفة. لأننا نعلم أن زياداً يجمع المسلمون علىٰ أنه ابن أبيه وليس ابن أبي سفيان، وقضية إلحاقه بأبي سفيان فرية معلومة معروفة[٤]، ولذلك فإن أُمّ

---

(١) الأنعام: ١٦٤. (٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) الكافي ٣: ٣٧٥ / ١.

(٤) انظر شرح نهج البلاغة ١٦: ١٨٨، ١٩١، تاريخ مدينة دمشق ٥٦: ١٧٩.

المؤمنين عائشة أرادت ذات يوم أن تكتب له رسالة جواباً على كتاب كان قد كتبه إليها، فتحيّرت ما الذي تكتبه له؛ هل تكتب زياد بن أبي سفيان وهذا كذب، وقد قال رسول الله ﷺ: **«الولد للفراش وللعاهر الحجر»**[١]، فمن لم يولد على فراش شرعي لا يعتبر ولداً شرعيّاً، أم زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه، وأخيراً كتبت: من أُم المؤمنين إلىٰ ولدها زياد.

فلما وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: ضحكت؟ قال: لقد لقيت أُمّ المؤمنين من هذا العنوان نصباً[٢].

ومع هذا فقد ولّاه أمير المؤمنين عليه السلام علىٰ اصطخر، وكان من واجبات الوالي وإدارة الولاية أن يصلّي الوالي بالناس. وعليه فابن الزنا إن كان صالحاً فلا يمنع من الصلاة خلفه[٣] ولا يقدح بهذا كونه متولّداً كذلك.

السؤل الثالث: نكاح الصدق

يقول السؤال: هل يجوز المبادلة في الزواج والنكاح بين أُخت صديق وأُخت صديق آخر من غير مهر؟

الجواب: أن هذا النكاح من الأنكحة الباطلة، وهو من أنكحة الجاهلية؛ فالزواج لابدّ فيه من تسمية المهر وإن كان رمزيّاً، أمّا بغيره فالزواج باطل. فالمبادلة من غير مهر لا ينعقد الزواج بها. ولأجل حل هذه المشكلة يتم زواج

---

(١) الكافي ٥: ٤٩١/٤٩٢، ٧: ١٦٣، كتاب المسند (الشافعي): ١٨٨، مسند أحمد ١: ٢٥، وغيرها.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

(٣) علىٰ رأي علمائنا أن ابن الزنا لا تجوز الصلاة خلفه إن علم يقيناً منه ذلك. انظر كتاب الصلاة (السيّد الخوئي): ٤٠٨.

كلا الصديقين من أُخت الصديق الآخر لكن مع ذكر مهر رمزي في المقام ليصح العقد بذلك وينعقد النكاح.

السؤال الرابع: وجه إحراق أمير المؤمنين عليه السلام من ادّعوا أُلوهيته

يقول السؤال: إن أمير المؤمنين عليه السلام عمد إلىٰ إحراق من ادّعوا أُلوهيته[1]، فلماذا اختار عليه السلام هذه العقوبة مع أن المفروض أنها محصورة بالله تعالىٰ وحده تجاه مخلوقاته؟ وكمثال علىٰ هذا أنه لا يجوز إحراق الحيوان حيّاً.

الجواب: إن الإجابة علىٰ هذا السؤال تكون من وجهين:

الوجه الأوّل: جواز الإحراق وعدمه وتوجيه ذلك

وقبل هذا أودّ أن أقول: إن السائل لو اقتصر علىٰ السؤال لكفىٰ، لكن أن يفتي أو يذكر فتوىٰ بقوله: لا يجوز فالأمر ليس كذلك، وإلّا فإن عند بعض المسلمين أن اللائط يحرق[2]، أمّا مسألة (لا يحرق إلّا الله) فذاك معنىٰ آخر، وأما مسألتنا هذه فهي داخلة تحت عنوان آخر هو ولاية أمر المسلمين، فالنبي ﷺ أو الإمام عليه السلام هو ولي أمر المسلمين[3]، وولي الأمر يتصرف في مثل هذه الأُمور والقضايا علىٰ ضوء العناوين الفقهية التي تقتضيها هذه الأُمور، فهناك عناوين أولية وهناك عناوين ثانوية:

---

(١) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، المبسوط (الشيخ الطوسي) ٧: ٢٨١، نيل الأوطار ٨: ٦، وفيه: قال الحافظ: إن إسناده صحيح. فتح الباري ٦: ١٠٦، ١٢: ٢٣٨، تأويل مختلف الحديث: ٧٠، دستور معالم الحكم (ابن سلامة): ١٩٦، التمهيد ٥: ٣١٨، ميزان الاعتدال ١: ٦٢٦، الأنساب ٥: ٤٩٩، شرح نهج البلاغة ٨: ١١٩، كنز العمّال ١١: ٣٠٣ / ٣١٥٧٨.

(٢) المهذّب ٢: ٥٣٠.

(٣) قال عزّ من قائل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ النساء: ٥٩.

العناوين الأوليّة

وهي مجموعة الأحكام النازلة من السماء مباشرة، ووظيفتها تعيين حكم الواقعة، فمثلاً نحن نعرف أن الله تعالىٰ يحرم الميتة ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾[1]، فهذا حكم أوّلي أفاد حرمة أكل كلّ ميتة.

العناوين الثانويّة

لكن بالحكم الثانوي نجد أن ذلك يحلّ، وهو ما تحدّده دائرة الاضطرار التي تقوم بتبديل العناوين الأوليّة إلىٰ عناوين ثانويّة حسب المصلحة. وهذا يمثّل له بما لو أن ابن سبيل في صحراء وحده، وقد كظّه الجوع، فوجد ميتة أمامه، فالشارع المقدّس يجيز له هنا الأكل من هذه الميتة؛ لأن الاضطرار هنا مبتنٍ علىٰ تزاحم المهم والأهم، فالمهم هو طاعة الله وعدم الولوج في معصيته باستحلال ما حرّم[2]، وأكل الميتة حرام، والأهم هو حفظ النفس التي أمرنا الله بمراعاتها، وهي نفس محترمة. وهكذا يكون في حكم الله تعالىٰ أن حفظ النفس أهم من الالتزام بالامتناع عن أكل الميتة. وهنا يعمد المكلف إلىٰ الأكل من الميتة، وبتعبير آخر: إن

---

(١) البقرة: ١٧٣، النحل: ١١٥.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها». سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدَّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلّفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

ورواه الصدوق رحمه الله وزاد عليه: ثم قال عليه السلام: «حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان أترك. والمعاصي حمى الله عزّ وجلّ، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٣ / ١٩٣.

العنوان الثانوي يحكم علىٰ العنوان الأولي.

فالإمام عليه السلام من الممكن أن يكون قد رأىٰ أن في إحراق هؤلاء حدّاً لانتشار هذه الظاهرة الخطرة، وهي ظاهرة عبادة الأشخاص، فأقدم علىٰ حرق هؤلاء مبالغة في النكال والعقاب. هذا مع ملاحظة أننا لا نوجد للإمام عليه السلام تكليفاً ولا نخلقه له، لكن يمكن توجيه المسألة بهذا الشكل. إذن فالمسألة يجب أن تكون بعيدة عن التفكير بأننا يمكننا أن نرسم تكليف الإمام عليه السلام.

الوجه الثاني: تحقيق حال الرواية

إن هذه الرواية مناقشة، فكونه عليه السلام قد أحرقهم هناك ما يعارضه في روايات أُخرىٰ تقول: إنه عليه السلام هدّدهم بالحرق، أو عذبهم بالحرق ـ أي أوقد ناراً وعذبهم بها ـ ثمّ عاقبهم بالقتل أو غيره.

السؤال الخامس: المنهج العلمي في النقاش مع المعاندين

يقول السؤال: نحن طلبة في جامعة الإمارات نتعرّض دائماً إلىٰ المناقشة ونجرّ إليها من قبل أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ، فما هو الأُسلوب الصحيح والسليم للنقاش خاصة مع الطائفة التي تكفّرنا؟

الجواب: نحن واقعاً نأسف لانتشار هذه الظاهرة، فالمأمول بعد أن تقدم الزمن وتطوّر العلم، وها نحن في أواخر القرن العشرين أن ننزع من رؤوسنا مثل هذه الأفكار المملوءة رجعية وتخلّفاً.

إننا نعرف ونقرّر أن كل من يقول: «**أشهد ألّا إله إلّا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله**» فهو مسلم، هذا في الوقت الذي يختلف كلّ مذهب عن مذهب آخر في الآراء والأدلة والنظريات، لكن هذا الاختلاف لا يستدعي أن تكفّر طائفة طائفة أُخرىٰ. فالخلاف العلمي (الخلاف الذي يكون منشؤه العلم) لا يدعو إلىٰ التنابز

أو الأحقاد، مطلقاً. فمثلاً بعض المفسرين حول قوله تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[١] يقولون: إن تنظيف الثياب قبل الصلاة واجب، أي إزالة النجاسة عنها، أما المالكية فيقولون: المقصود هو: طهّر قلبك من الريب، ومنه قولهم: فلان نقيّ الثوب طاهر الذيل، أي أنه ذو قلب طاهر وأخلاق نظيفة، وليس معناه أن أثوابه وملابسه نظيفة. فطهّر ثيابك: طهّر قلبك من الأخلاق الفاسدة.

إذن فهذا الاختلاف في تفسير الآية الكريمة لا يستدعي أن يقدح هؤلاء بأولئك المخالفين لهم ويرمونهم بالكفر وكذلك يفعل الطرف الثاني، فهذا مرفوض مطلقاً. ثمّ إن كل الاختلاف بالرأي ناشئ من هنا ـ فهم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بشكل يختلف عن فهم الآخرين لها ـ فالمجسّمة وجدوا آيات وأحاديث توحي بذلك فوقفوا عند ظاهرها من قبيل: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[٢]، فهؤلاء يصوّرون الله تعالىٰ علىٰ هيئة جسمية، فابن تيمية مثلاً كان يقول: إن الله تعالىٰ ينزل ليلة الجمعة إلىٰ السماء الدنيا كنزولنا من علىٰ منبركم هذا، ثمّ ينزل من علىٰ المنبر[٣]. في حين أن شريحة كبيرة من المسلمين تعارض هذا المنهج ولا تقول بهذا الفكر ـ فكر التجسيم ـ ونذهب إلىٰ خلافه. فهل معنىٰ هذا أن الاختلاف موجب للتكفير؟

إن علينا أنه إذا جاء أحدما يطلب الحقيقة وهو من أنصار مذهب التكفير، فنحن نقول له: إنك إما أن تكون مجتهداً أو مقلّداً؛ فإن كنت مجتهداً فارجع إلىٰ الكتب ذات العلاقة وابحث عن الأدلة فيها وناقشها بموضوعية وعلمية بعيداً عن الأحكام المسبقة والقوالب الجاهزة، وإن كنت مقلداً فارجع إلىٰ أقوال العلماء الذين

---

(١) المدّثّر: ٤.
(٢) الفجر: ٢٢.
(٣) انظر مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.

يتّسمون بالنظافة والنزاهة. فهناك علماء يباعون ويشترون بفلس واحد، وهم فعلاً لا يساوون عند الله وعند الناس وعند أنفسهم أكثر من هذا المبلغ من المال. ومن هذا أن أحد هؤلاء قبل فترة قصيرة جدّاً ذكر عبر إحدىٰ محطّات التلفزة أن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ**﴾[١] هو أن النبي ﷺ طلب من كل رجل من المسلمين أن يحبّ أرحامه هو، وليس للأمر علاقة بأهل بيت النبي ﷺ.

فياللعجب! لِم كل هذا التشنّج وهذه الحسّاسية ضدّ أهل بيت النبي ﷺ؟ ولم هذه العقدة من أهل هذا البيت الطاهر[٢]؟ هل كان هذا لأجل أنه مُلئ فمه بمبلغ تافه من المال يفعل هذا ويحرّف الحقيقة[٣]؟ وليرجع هذا البائع نفسه إلىٰ تفسير القرطبي[٤] وتفسير الإمام الرازي[٥] وتفاسير المسلمين[٦] فليرَ ما يقول هؤلاء المنصفون في هذه الآية. فالمسلم حينما يكون موضوعيّاً مع مسلم آخر ويتعامل معه علىٰ ضوء قواعد العلم فإننا نفتخر به؛ لأنه فعلاً من مواطن الفخر في مسيرتنا، أما هذا النمط الذي يبيع علمه من أجل حفنة من المال فهذا لا يؤبه له ولا يعتدّ بقوله، وليس له أي وزن أو قيمة في حياتنا.

وعليه فالنقاش العلمي مع هؤلاء هو أن يرشدوا إلىٰ المنابع الصافية للفكر

---

(١) الشورىٰ: ٢٣.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. الأحزاب: ٣٣.

(٣) حول شراء الذمم، وتحريف معاني القرآن الكريم انظر: الصراط المستقيم ١: ١٥٢، النصائح الكافية: ٢٥٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١ ـ ٢٢.

(٥) التفسير الكبير ٢٧: ١٦٥.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ١٠: ٣٢٧٦ / ١٨٤٧٣، ٦: ٣١٠ / ٤.

الإسلامي، وأن يطلب منهم مراجعة تلك المنابع، وأن يتحلّوا برحابة الفكر وسعة الاطلاع. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن النقاش معهم يجب أن يكون مبتنياً علىٰ مبدأ «أني علىٰ صواب يحتمل الخطأ، وأنك علىٰ صواب يحتمل الخطأ»، فلا يأتِ أحدهم للنقاش بقناعة مسبقة بأنه علىٰ صواب وأننا علىٰ خطأ، فآداب الإسلام: هي ﴿**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1]. فهذا إن كان شابّاً موضوعياً فإن النقاش الموضوعي يقنعه، وإن كان غير ذلك فلن يقنعه شيء أبداً، بل إن من الأولىٰ تركه؛ لأن المسألة لا تحتمل أن يتحوّل النقاش العلمي إلىٰ جدال فارغ لا معنىٰ له ولا هدف. وكذلك يجب أن يقتنع هو بأننا كمسلمين يهمّنا أن نكون نحن وهم علىٰ خطّ الإسلام الحنيف.

إن ممّا ينبغي الإشارة إليه أننا لا نريد أن نخلق المناحرات بيننا بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، وأن هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الأُمور عليهم الكثير من علامات الاستفهام، وإلّا فإن المسلمين الآن عبارة عن مجموعة جراح تدمىٰ، فهناك ألف جبهة نذبح فيها ذبح الكباش. ولذا فالواجب أننا ينبغي علينا أن نلتفت لأنفسنا، وأن نعيرها شيئاً من الأهميّة بدلاً من أن نثير هذه الأشياء الجانبية من قبيل أن الله يرىٰ أو لا يرىٰ، أو قضية الزواج المنقطع، وكأن الإسلام قائم علىٰ تحريمه، وأن تحليله يذهب به ويمحقه.

فالحقيقة أن إثارة هذه المشاكل من قبل البعض يوحي بأن علىٰ هؤلاء أكثر من علامة استفهام؛ لانشغالهم بأمثال هذه الأمور في حين أن الأُمور الهامّة والحسّاسة في حياة المسلمين ـ وهي أُمور مصيرية من قبيل المذابح التي يتعرضون لها ـ تترك ولا تثار، وعلىٰ أقل تقدير أن هؤلاء المعنيين لا يثيرونها.

---

(١) النحل: ١٢٥.

ويبقىٰ أن علىٰ المسلم أن يحمل شعار القرآن وشعار الأدب والأخلاق، وأن يدعو إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

السؤال السادس: مقوّمات الشخصية الرسالية

يقول السؤال: ما هي مقوّمات الشخصية الرسالية؟

الجواب: إن بيان هذا يتطلّب الكثير من البيان والشرح، لكن نقول علىٰ نحو الاجمال: إن الشخصية الرسالية هي الشخصية التي تكون علىٰ قناعة تامة بأن الإسلام جاء ليحكم ولينتشر وتعرف ذلك، وأنها يجب أن تحمل تعاليم الإسلام وتنشرها بين الناس، وتتماشىٰ مع مراحل نشرها وتطبيقها بين المسلمين. وهذه المراحل تتمثل بالآتي:

١ـ بثّ الوعي الإسلامي بين المسلمين.

٢ـ العمل علىٰ تطبيق النظام الإسلامي.

٣ـ إنزال النظام الإسلامي إلىٰ الواقع العملي وإزاحة العقبات من أمامه.

وهي مراحل مذكورة في كتب من كتب في هذا المجال.

السؤال السابع: قنوات العمل الإسلامي والدعوة إلىٰ الله

يقول السؤال: إن القنوات التي تصبّ في مجال العمل الإسلامي متنوّعة كما يظهر؛ فما هي أنقىٰ هذه القنوات وأنجحها؟

الجواب: إن كل داعٍ إلىٰ «**لا إله إلّا الله**» وإلىٰ الإسلام يجب أن يحسن الظن به، وأن يساعد علىٰ إنجاح هذه الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ العمل الإسلامي. أما النقي وغير النقي، فهذا مما لا يمكن تحصيله علىٰ وجه اليقين بالنسبة لي علىٰ أقل تقدير، فالأُمور اليوم بدرجة من الغموض ليس من السهل معه معرفتها، لكن أُوضّح شيئاً واحداً هو أن النظيف والنقي من الممكن أن يُعرف وكذلك الملوّث،

وهذا فيما إذا كان الناس يملكون وعياً، وكانت الساحة مفتوحة ومعروفة، فهنا من الممكن ألّا يخفىٰ شيء عليهم أو يضيع عنهم. والذي يبقىٰ أن من يرفع كلمة **«لا إله إلّا الله»** بإخلاص، ويرفع تعاليم الإسلام بإخلاص، فلا شكّ أن هذا هو القناة النظيفة التي تمثل الدعاة إلى الإسلام.

السؤال الثامن: حلية طعام أهل الكتاب

يقول السؤال: ما معنىٰ قوله تعالىٰ: **﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾**[1]؟

الجواب: اختلف المفسرون في المقصود من الطعام هنا علىٰ رأيين:

الأوّل: أنه الطعام الجافّ، كالحبوب وغيرها، فلو أن مزارعاً يهوديّاً أو مسيحيّاً زرع أرضه فإن لنا أن نشتري منه محصوله ذاك. فهذا الرأي يحصره بالجافّ فقط.

الثاني: أنه مطلق الطعام وعمومه، أي السائل والجافّ. وهذا رأي أغلب فقهاء المذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ.

فهنا مدرستان حيال هذا الأمر: مدرسة تقول بأنه الطعام الجاف فقط، وأُخرىٰ تقول بأنه مطلق الطعام؛ الرطب والجاف منه. هذا مع اتفاقهم علىٰ أن اللحم إذا لم يكن مذكّىً علىٰ الطريقة الإسلامية أو بالشكل الذي يقرّه الإسلام فإنه لا يصحّ أكله ولا يجوز[2]؛ لأن الآيات صريحة في ذلك، ومنها قوله تعالىٰ: **﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا**

---

(١) المائدة: ٥.

(٢) إلّا فيما سيجيء في المجلّد الثامن من هذا الكتاب من جواز أكل ذبائح أهل الكتاب وإن ذكروا عليها اسم النبي عيسى عليه السلام أو اسم الصليب، فيما لو كان القصد من ذلك التقرّب إلى الله تعالى لا التقرّب إلى النبي عيسى عليه السلام. انظر: المدونة الكبرى ٢: ٥٦، المغني ١١: ٥٦، الشرح الكبير ١١: ٥٨ المحلى ٧: ٤١١، ٤١٢، فتح الباري ٩: ٥٤٩، المصنف ٦: ١١٩، معرفة السنن والآثار ٧: ٢١٨: الاستذكار ٥: ٢٥٨. بل في المحلى ٧: ٤١٢ عن الحسن وطاووس ومجاهد أنهم كرّهوا ما ذبح للآلهة، أي أنه جائز.

لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾[1]. فمسألة اللحم تختلف هنا.

السؤال التاسع: زواج أولاد النبي آدم عليه السلام

يقول السؤال: هل صحيح أن أولاد النبي آدم عليه السلام تزوّجوا من أخواتهم، مع أن البعض يقول: إنه لم تكن هناك أحكام تشريعيّة تردع هذا الزواج وقت وقوعه؟

الجواب: إن هذا غير صحيح لأسباب عديدة وكثيرة منها:

١ـ أن هذا الزواج لا موجب له.

٢ـ أن هناك نظريات حول زواج أولاد أبينا آدم عليه السلام منها أنهم تزوّجوا من قارات أُخرىٰ. ونحن لا نملك تصوّراً حول آدم عليه السلام إلّا أنه نشأ علىٰ الأرض وحده وفي قارة معينة، وهذا غير صحيح؛ فهناك الكثير من الروايات[2] التي تنصّ علىٰ أن هناك أكثر من آدم ونشؤوا في قارات مختلفة. فمن الجائز أن يكون أبناء كل جماعة قد تزوّجوا من الجماعة الثانية.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن هناك روايات تنصّ علىٰ أن الله عزّ وجلّ أنزل زوجتين لابني آدم عليه السلام إحداهما جميلة والأُخرىٰ غير جميلة، وهذا هو الذي سبب صراعاً بين قابيل وهابيل عليه السلام.

وعليه فمسألة زواجهم من أخواتهم أمر مرفوض وغير صحيح، والرواية الواردة في هذا الخصوص هي رواية إسرائيلية يهودية. ومن أرادالاستيضاح في المسألة والاستزادة منها، فعليه بالرجوع إلىٰ الجزء الخامس من كتاب (الغدير) للأميني، فقد كتب فيه بحثاً كاملاً حول الموضوع.

---

(١) الأنعام: ١٢١. وقبلها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ الأنعام: ١٢٠.

(٢) التوحيد: ٢٧٧، الخصال: ٦٥٢، التفسير الكبير ١٩: ١٧٩، وقد رواه عن الإمام الباقر عليه السلام.

السؤال العاشر: مسألة التوسل والاستعانة

يقول السؤال: يثير البعض إشكالاً حول قضية التوسّل بالنبي ﷺ والأيمة عليهم السلام، والاستعانة بهم عند الدعاء لطلب الحوائج وقضائها، وأنها مسألة غير صحيحة، فعلينا أن ندعو الله مباشرة من غير وسيط.

الجواب: لقد أشبعت هذا الموضوع في أكثر من مناسبة ومحاضرة، وذكرت فيها آراء المسلمين بصورة عامة. إن المسلمين جميعهم يجيزون التوسّل بالنبي ﷺ، لكن أي توسّل هو؟ وعلىٰ أي أساس يقوم؟ إنه توسل قائم علىٰ أساس أن النبي ﷺ له مكانة ومنزلة عند الله تعالىٰ، وأن الله عزّ وجلّ تعبّدنا باتّخاذ الوسيلة إليه، وكان بلال الحبشي رضي الله عنه يأتي في أيام الشدّة إلىٰ قبر النبي ﷺ ويقول له: «يا رسول الله، أدرك أُمتك فقد جاروا». كما أن هناك روايات عن السيدة عائشة أُم المؤمنين وعن أيمّة أهل البيت عليهم السلام بأنهم كانوا يأتون إلىٰ قبر النبي ﷺ ويتوسّلون به. وهذا هو معنىٰ التوسل الصحيح، أما أن يكون بمعنىٰ أن النبي ﷺ ينفع ويضرّ من دون الله فمعاذ الله من هذا؛ لأنه تعالىٰ هو وحده الضارّ والنافع.

وهكذا فكل ولي من أولياء الله تعالىٰ هو عبد محبوب إليه، قريب منه فنحن نتوسل به ونتقرب عن طريقه وعن طريق مكانته ومنزلته عند الله تعالىٰ إليه. وهذا مما لا شائبة شرك فيه أبداً ولم يرد فيه نهي من الشريعة المقدسة. وهذا هو الرأي الصحيح الذي عليه علماء المسلمين، ومن أحبّ أن يتوسّع في المسألة فعليه بمراجعة الجزء الخامس من كتاب (الغدير)، فقد أفرد فيه بحثاً كاملاً حول هذا الموضوع عند المذاهب الإسلامية.

السؤال الحادي عشر: مشروعية التحليلات الجنسية

يقول السؤال: صدرت فتوىٰ مؤخّراً عن السيّد الخوئي تحرّم علىٰ الشخص

الذي يشكو من بعض الأمراض التناسلية أن يذهب إلىٰ الطبيب المختصّ ويحلّل مادّته المنوية.

الجواب: إن المسألة إذا وصلت إلىٰ حدّ الضرورة، وهو ما يسمىٰ بـ«الأحكام الحرجية» أو «الضررية» فإن المنع لا يشمل المكلّف حينها. أما وجهة نظر السيّد فلم أطّلع عليها بعد، لكن ما أعرفه عن الكثير من الفقهاء أنهم يجيزون للمكلّف ويبيحون له أن يراجع الطبيب المختصّ فيما لو وصل الأمر حدّ الحرج، فيأخذ الطبيب منه ما أراد للتحليل. ولعل توقّف السيّد هو في طريقة إخراج المكلّف لمادّته المنوية التي ربما تكون بوسيلة محرّمة، أما إذا كانت بوسيلة مباحة، فالأمر حينئذٍ يختلف ويصبح في حيّز الجواز.

السؤال الثاني عشر: تحقيق أمر الناصبي

يقول السؤال: من هم أعداء أهل البيت عليهم السلام الحقيقيون لكي يمكن أن نطلق عليهم لفظة نواصب؛ هل هم بنو أُميّة وخلفاؤهم وبنو العباس وخلفاؤهم فقط، أم يعتبر غيرهم كذلك؟

الجواب: أن الناصبي هو من يتقرّب إلىٰ الله تعالىٰ بعداء وشتم أهل البيت عليهم السلام. وينبغي التنويه إلىٰ أن بعض هؤلاء ربما كان جاهلاً، لكن لا ننسَ أن هناك قسمين للجاهل: جاهل قاصر، وجاهل مقصّر، فالجاهل القاصر هو المعني في المقام، وهو الذي ينشأ في بيئة لا يعرف فيها عن أهل البيت عليهم السلام شيئاً، فلا كتب ولا وسائل ثقافية ولا معلومات يمكن أن تغنيه في هذا الجانب وتبصّره، وفوق ذلك أن هذه البيئة التي يعيش فيها والجوّ الذي يحيط به يعلّمانه أن أهل البيت عليهم السلام لصوص الفتن كما يروي بعض الرواة[1]. فهذا الجاهل يختلف أمره عن الجاهل المقصّر،

---

(١) يقول أحدهم: سمعت رجلاً من كبار الشاميّين ومن أهل العزم والرأي فيهم يشتم أبا

وإن كان هذا الصنف من الناس غير موجود في هذا الزمان؛ لانتشار وسائل الإعلام والثقافة والتوعية والدعوة وغيرها.

أما الجاهل المقصّر فهو الذي يقعده عجزه وعدم طلبه للحقيقة عن التنقيب عنها والبحث فيها في بطون الكتب، بل يكتفي بما يقول له شيخه ويجعله أمراً مقدّساً لا يمكن النقاش فيه.

وهذا شيء مغلوط؛ لأن الفرد المسلم لابدّ له من أن يبحث عن دينه فـ**«أخوك دينك فاحتط له»**[1]، فلابدّ من الاحتياط في الدين، والبحث فيه والسؤال والتنقيب؛ فإن بحث ثمّ رام أن ينحرف عناداً ـ وأنا لا أعتقد أن أحداً يحب أن يتقرّب إلىٰ الله تعالىٰ بأن يعادي أهل بيت نبيه ﷺ ويسبّهم ويشتمهم إلّا إذا كان منحرفاً ـ ويعاند الحق والقرآن والسنة فهذا ناصبي، والناصبي حكمه حكم الكافر؛ لأنه يعاند القرآن معاندة صريحة. فأن يعاند شخص الباري جلّ وعلا معاندة ظاهرة فيقول: إن كان الله قد فرض علينا الزكاة، وأنزل علينا فيها قرآناً فأنا لا أُومن بها ولا أُؤديها، فهي خرافة، فهذا حتماً كافر لأنه ينكر ضرورة من ضرورات الدين. فإذا أنكر أحد الضرورة التي تدعو إليها النصوص القرآنية وأعلن العناد والبغض والنصب فهذا هو الناصبي دون شكّ.

ونحن إنما تعنينا القاعدة في هذا المجال أما التطبيقات فلها مجال آخر، ومجال الأشخاص لا يعنينا. علىٰ أي حال فإن القرآن الكريم جعل أجر الرسول ﷺ مودّة ذوي قرباه. والرسول الأكرم ﷺ يقول: **«من مات علىٰ بغض**

☚ تراب، فسألته: ويحك من أبو تراب هذا؟ فقال له: أراه لصّاً من لصوص الفتن. مروج الذهب ٣: ٤٢.

(١) الأمالي (المفيد): ٢٨٣، الأمالي (الطوسي): ١١٠ / ١٦٨، بحار الأنوار ٢: ٢٥٨ / ٤.

آل محمّد مات مكتوباً على عينيه: آيس من رحمة الله»(١). ومن أراد الاستزادة فلينظر القرطبي(٢) في تفسيره آية القربىٰ **﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾**(٣). وانظر كذلك تفسير الثعلبي(٤).

إذن فالناصبي هو من يخالف القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة في حبّ أهل بيت النبي ﷺ مع وجود الأدلة والضرورات التي ألحّ على إثباتها القرآن الكريم والسنة النبويّة المطهرة.

السؤال الثالث عشر: تأويل القرآن

يقول السؤال: ذكرتم في بعض الليالي موضوعاً عن التأويل، فما هو رأيكم بتأويل بعض علمائنا لبعض الآيات في بعض الأيمّة الأطهار عليهم السلام كقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾**(٥)، وأن المراد بالكوثر: الزهراء عليها السلام؟

الجواب: أرجو أن يُلتفت إلىٰ أن هذا ليس بتأويل، وإنما هو شرح لمعنىٰ الكوثر، وسأُبين لك لماذا قال هذا البعض من العلماء بهذا القول، فسبب نزول هذه السورة المباركة أن مجموعة من القرشيّين، ومنهم عمرو بن العاص وصفوا الرسول ﷺ بأنه أبتر لا عقب له؛ لأن أولاده ماتوا في حياته، وكان من عادة العرب في تلك الأيّام أن من لم يمت عن ولد ذكر يسمونه أبتر ولو خلف عشرين بنتاً؛ لأنهم لا يعتبرون البنت نسلاً. وكان أولاده ﷺ القاسم والطاهر من خديجة (رضي الله عنها)، وإبراهيم من مارية القبطية (رضي الله عنها)، وكلهم ماتوا في حياته ﷺ كما أسلفنا، فبقي بلا ولد؛ ولذا عيّرته قريش بأنه أبتر؛ كونه لا عقب له؛

---

(١) مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣/ ٥٢٨، كنز العمّال ١١: ٦١١/ ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩/ ٣٦٤٩١، جواهر المطالب ١: ٧٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) الشورى: ٢٣.

(٤) تفسير الثعلبي ٨: ٣١٠.

(٥) الكوثر: ١.

فنزلت هذه السورة: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾.

ويتّضح من هذا أن جوّ السورة المباركة يدور حول أن الكوثر هو الوسيلة التي تناسل فيها رسول الله ﷺ ومنها أعقب. فلوجود هذه المناسبة قال بعض المفسّرين بهذا، أما البعض الآخر فيفسّر الكوثر بمعناه الظاهري، وهو اسم لنبع الماء، وليس للنبع التناسلي الذي هو امتداد النبي ﷺ عبر الحسنين عليهما السلام، وهو نبع ينهل منه الناس علم النبي ورسالته وفكره. فهؤلاء يفسّرونه بنبع الماء. وهذا الرأي طبعاً مخالف لما عليه الجمهور، ولكنه يبقىٰ رأياً له وجه لغوي.

ومن باب أن الشي بالشيء يذكر أن بعض الآراء لا تكون قائمة علىٰ أساس علمي، بل إنها مجردّ تشهٍّ من أصحابها، كقوله تعالىٰ: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾[1] فيفسّر الـ ﴿**ثَمَانِيَةٌ**﴾ بأربعة من المتقدّمين وأربعة من المتأخّرين، ويذكر منهم أبا حنيفة ومالكاً وأحمد بن حنبل. وهذا في واقع الأمر تحكّم، فلا مناسبة بين الحكم والموضوع فيها، بخلاف آيات أُخرىٰ حيث يوجد فيها مناسبة. أما في المقام فالسورة فيها حكم وموضوع؛ لأن قريشاً حينما عيّرته ﷺ بأنه أبتر، نزلت السورة تقول له: إن مبغضك هو الأبتر، وأمّا أنت فقد ﴿**أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ الذي هو امتدادك ونبعك الذي يكون من صلبك، وهو فاطمة الزهراء عليها السلام ثمّ الحسنان عليهما السلام؛ ولهذا كان رسولنا الأكرم ﷺ يقول: «**كلّ بني أمّ ينتمون إلىٰ عصبتهم إلّا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم**»[2]. إذن توجد هنا مناسبة حكم وموضوع.

---

(١) الحاقة: ١٧.

(٢) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

السؤال الرابع عشر: الأخذ برواية غير الشيعي

يقول السؤال: ذكرتم بأنه لا بأس بالأخذ بأقوال فقهاء المذاهب الأُخرىٰ إذا كان مصدرها الكتاب والسنة، فما رأيكم بالاتّجاه الذي يدعو إلىٰ عدم الأخذ بآراء بعض فقهاء كربلاء المقدّسة؟

الجواب: سألفت النظر إلىٰ نقطة أكون فيها صريحاً مع السائل، وهو أننا إذا وردنا حكم مرتبط ومصحوب بدليله الشرعي المستمدّ من الكتاب والسنة، نأخذ به، لكن ليس كلّ رواية تؤخذ مستنداً، بل لابدّ من معرفة أن أحد مرجّحات الأخذ بالرواية هو أن تكون ذات سند غير مخدوش أو مجروح (مضمونة السند) وواضحة المضمون، أي أن تكون نصّاً[1] في الحكم.

أما السند المضمون فنحن نعرف ونعتقد بأن أهل البيت عليهم السلام معصومون، وإنما قلنا بعصمتهم تبعاً للدليل الذي يقول: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾[2]، والرجس كلّ خطأ، ومنه الكذب. إذن يكون طريق أهل البيت عليهم السلام مضموناً بناء علىٰ هذا، فإذا جاءت رواية لأهل البيت عليهم السلام وجاءت رواية أُخرىٰ تعارضها عن غيرهم فنحن نقدّم رواية أهل البيت عليهم السلام؛ لأنها مضمونة لعصمتهم. وهذا ليس تعصّباً أبداً، وإنما هو مبالغة بالدقّة، فيأخذ الحكم من الطريق السليم.

أما إذا لم تكن هذه الرواية معارضة برواية من روايات أهل البيت عليهم السلام، فنحن

☚ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اللّه لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن اللّه جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

(١) المراد هنا: النصّ الاصطلاحي، وهو البالغ في ظهوره ودلالته بحيث إنه لا يقبل التأويل.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

نأخذ بها بشرط كون السند مضموناً من هذه الجهة، وهي الرواية المسمّاة في اصطلاح أصوليّينا «الموثّقة». والرواية الموثّقة هي الرواية التي يرويها العامي الصادق، وهذا ما تنصّ عليه كتبنا؛ فنحن نأخذ بكل رواية يرويها غير الإمامي إذا كان صادقاً مهما كان مذهبه، ونحن نصف حديثه بـ«الموثّق» ونسمي روايته «الموثقة». وهناك باب من الأبواب في كتب الدراية يسمىٰ «باب الموثّق». فإن شذّ أحد عن هذا الرأي فلا قيمة لرأيه.

السؤال الخامس عشر: وسائل منع الحمل

يقول السؤال: ما هو رأي الإسلام باستعمال وسائل منع الحمل في الدول الإسلامية؟

الجواب: إن استعمال وسائل منع الحمل لا ضير فيه، ومسألة تحديد النسل لا مانع منها بالعنوان الأوّلي، لكن إذا تدخّلت العناوين الثانوية، كما في مصر مثلاً حيث يرىٰ البعض أن الدعوة إلىٰ تحديد النسل تعني أن يصبح الأقباط أكثر عدداً من المسلمين، فهو بهذا اللحاظ يثير حساسية معينة، فهنا يحكم العنوان الثانوي كما مرّ، ويؤول الحكم إلىٰ عدم الجواز. لكن هذا في حالات خاصّة ـ وهي الحالات التي يتدخّل فيها العنوان الثانوي فيحكم علىٰ العنوان الأوّلي ـ أما الحالات العامّة فقلنا فيها: إنه لا بأس بذلك. وكل الفقهاء يفتون بجواز تنظيم النسل عن طريق استعمال الموانع.

السؤال السادس عشر: الخيرة والقضاء

يقول السؤال: ما هي الخيرة؟ وهل لها دور في تغيير قضاء الله سبحانه وتعالىٰ؟ والمقصود بالخيرة هنا: خيرة المسبحة والقرآن الكريم.

الجواب: لا؛ فالخيرة ليس لها ذلك الدور، وإنما وضعها المشرّع الإسلامي

كعلاج لحالات التردّد التي تنتاب الإنسان. وهذا التردّد يكون غالباً ناشئاً من ميراث اجتماعي، فمثلاً نحن كعرب بل حتى بعض المسلمين كان أحدنا إذا أراد الخروج من بيته لقضاء حاجة له جاء إلىٰ الطيور فأثارها؛ فإذا طارت إلىٰ جهة اليمين أسماها السوانح وتيمّن بها وتفاءل ومضىٰ لقضاء حاجته، أما إذا طارت إلىٰ جهة اليسار فيسميها البوارح ويرجع إلىٰ بيته متشائماً منها ظانّاً أنه لابدّ أن يكون له شيء مخبأ في المجهول.

وكذلك فيما لو مرّ من أمامه حيوان فإنه ينظر إلىٰ هذا الحيوان فإن كان سليماً تفاءل به وتيمّن ومضىٰ لحاجته، وإن كان غير سليم كأن يكون أعرج أو أعور، فإنه حينئذٍ يتشاءم به ويرجع إلىٰ بيته ظانّاً أن حاجته لن تُقضىٰ ذلك اليوم. يقول الكميت ﷺ:

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيةً ... أمرّ سليمُ القرنِ أم مرّ أعضبُ[1]

فهذا شيء من الميراث الاجتماعي الذي بقيت رواسبه في نفوس الكثير منا، مما يجعله يتردّد عند إقدامه علىٰ قضاء حاجاته وأعماله. ولذا أراد الإسلام الحنيف وضع علاج له واسع الطيف، فكان علاجاً نفسياً من جهة، وكذلك يكون مؤدّاه الاستعانة بالله عند العزم علىٰ قضاء حاجة ما. فالمستخير حينما يستخير الله عزّ وجلّ فإنه يستخير مطّلعاً علىٰ كلّ شيء، فهذا طريق يدفع المستخير إلىٰ ترك التردّد، وإلىٰ التوكّل علىٰ الله. فإذا كانت الاستخارة بالقرآن وكان الآيات الخارجة دالّة علىٰ التفاؤل تفاءل المرء وأقدم علىٰ أمره وقضاء حاجاته، وكذلك إذا كان عدد حبّات المسبحة أو الحصىٰ ـ فقد كان النبي محمّد ﷺ يستخدم الحصىٰ، فيأخذ مجموعة من الحصيّات بيده ثمّ يعدّها، وكل عدد مخصوص له

(١) الأمالي (المرتضى) ١: ٤٧، تاريخ الإسلام ٨: ٢١١.

وجه تفاؤل أو تشاؤم ـ مخصوصاً فإنه يتفاءل به أيضاً.

إذن فالخيرة لاقتلاع جذور التردّد الناشئ من الميراث الاجتماعي، أما أنها تغيّر من قضاء الله وقدره فلا، بل هي لدفعه إلىٰ قضاء حاجاته وعدم تعطيل أعماله من أجل قضايا وهمية.

السؤال السابع عشر: وسائل منع الحمل الدائمة

يقول السؤال: هل يجوز تحديد النسل لدىٰ النساء بإجراء عملية جراحية؟

الجواب: يفتي الفقهاء بأن تحديد النسل بهذا الشكل لا يجوز فيما لو أدّىٰ إلىٰ منع الحمل بصورة دائمية، أما إذا كان بصورة مؤقتة فنعم. ويستثنىٰ من هذا ما إذا كان الحمل يعرّض المرأة إلىٰ الخطر، فحينها يجيز الفقهاء إجراء التداخل الجراحي لمنع الحمل بصورة دائمية؛ لأنه حينئذٍ يكون من باب تعارض المهمّ مع الأهمّ، فيقدم الأهمّ وهو حياة الأُمّ.

السؤال الثامن عشر: الحجاب الإسلامي

يقول السؤال: هل يجوز الصيام من غير حجاب؟ وهل ارتداء الحجاب ضروري مع العلم بأني أُصلّي وختمت القرآن؟

الجواب: إن الصوم لا علاقة له بالحجاب، لكن الله يعاقب علىٰ ترك الحجاب ويرسل فاعلته إلىٰ النار كما أنه يرسل الصائم إلىٰ الجنة. وهذا ما لا كلام فيه، وإنما يعاقب الله تعالىٰ علىٰ ترك الحجاب؛ لأن الحجاب طهارة للنفس وللأُسرة وكفّ للأعين الفاسقة عن التطلّع إلىٰ جسد المرأة المسلمة. وعليه فالحجاب سيرة عالية وصورة راقية من الأدب والخلق قبل أن يكون داخلاً في دائرة الحلال والحرام. والمرأة قطعاً تعاقب علىٰ ترك الحجاب، لكن صومها وصلاتها صحيحان بلا إشكال؛ إذ ليس هناك أيّ ارتباط بينه وبين العبادات الأُخرىٰ.

السؤال التاسع عشر: خروج المرأة من غير إذن زوجها

يقول السؤال: ما رأي الدين في امرأة أُصيب أحد والديها بمرض الموت، وقد غاب عنها زوجها فلم تستطع أن تستأذنه للخروج إليه، فهل يجوز لها أن تزوره دون إذن زوجها؛ لما لَه من حقّ عليها، أم لا؟

الجواب: إن عليها قبل الخروج في هذه الحالة أن تحرز رضا زوجها، وأنه لا يمانع من خروجها في مثل هذا المورد، وهذا ما يسمىٰ بإذن الفحوىٰ الذي إن أحرزته جاز لها الخروج حينئذٍ حتىٰ مع عدم حضوره ساعتها. وكذلك الحال فيما لو لم تكن تعلم عدم رضاه، أي لم تحرز رضاه ولا عدمه، ففي مثل هذه الحالة يتغلّب جانب برّ الوالدين في الأمر؛ ذلك أن الله تعالىٰ أوصىٰ الإنسان بوالديه وأمره ببرّهما[1]. فالذي يظهر لي أن الفقهاء يفتون في مثل هذه الحالة بجواز زيارة والديها. وأنا لا أُحبّ أن ألج حقل الإفتاء، فأُفتي فتوى لست متأكّداً منها، لكن الذي يظهر لي والذي أذكر أنني مررت به هو هذا.

السؤال العشرون: سماع الموسقى

يقول السؤال: هل نستطيع أن نعتبر الموسيقى فناً من الفنون كالأدب وغيره، فنأخذ الجيد منها ونترك الفاسد، أم لا؟ وهل هناك فرق بين الموسيقى الهادئة الهادفة، والموسيقى الخليعة؟

الجواب: الظاهر أن الفقهاء يفرّقون بين نوعين من الموسيقىٰ:

النوع الأوّل: الموسيقىٰ الوطنية

وهو النوع الذي يحقّق معنىٰ وطنياً، وليس هو لاستثارة الغرائز، كالمارش

---

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾. الأحقاف: ١٥، وقال عزّ من قائل: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ العنكبوت: ٨.

العسكري أو غيره من هذا القبيل. فهذا النوع من الموسيقى يجيز الفقهاء سماعه.

النوع الثاني: الموسيقىٰ الداعرة

وهو النوع الذي يهيّج الغرائز عند الإنسان ويتميّز بأنه يصطبغ بصبغة ألحان أهل الفسوق. ولعل أكثر من تعرّض لهذا الأمر من المتأخّرين هو السيّد عبد الأعلىٰ السبزواري في كثير من فتاواه، أو فيما يمكن استفادته من بعض فتاوى السيّد الخوئي من خلال تحديده لمفهوم الغناء بأنه نوع الموسيقى الذي يعدّ من ألحان أهل الفسوق يحرم سماعه، وفي الوقت نفسه في تحديده مادة كلمة (الغناء) بأنها مادة مهيّجة، فما يصاحبها من هذا اللون من الموسيقى يحرم استماعه. وهذا دليل المنطوق، وعليه فيكون بدليل المفهوم (مفهوم المخالفة) ـ أي إذا لم يكن من ألحان أهل الفسوق، وكان ذا صبغة وطنية أو عسكرية أو صبغة فنية كما يعبّر عنه السائل ـ جواز سماعه حسب الظاهر من كلامهما.

السؤال الواحد والعشرون: حدّ قطع اليد

يقول السؤال: يقول علماء السنة بأنه عند تطبيق الحدّ علىٰ السارق تقطع اليد من الرسغ، أما علماء الإمامية فيتّجهون في هذا المجال إلىٰ قطع أصابع اليد، فما هي الحكمة في ذلك؟

الجواب: يتّضح من خلال مراجعة المسألة اختلاف المذاهب فيها على صعيد حدّ القطع أو مقدار الواجب قطعه من اليد. وحينما نأتي إلىٰ فتوىٰ الإمامية فنجد أن دليلهم [1] علىٰ قطع أصابع اليد فقط هو قوله تعالىٰ: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾[2] فالكاتب يمسك القلم بأصابعه وليس باليد كلّها، ومن هذا يستفاد أن الأصابع تسمىٰ يداً أيضاً، ويكفي في قطعها تحقيق مسمىٰ اليد وامتثال الأمر

---

(١) الخلاف ٥: ٤٣٧ / المسألة: ٣١. (٢) البقرة: ٧٩.

الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما﴾[١].

أما من يقول بوجوب قطعها من المرفق فيستند إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[٢]، فأطلق لفظ اليد علىٰ المقدار المحصور بين المرفق وأطراف الأصابع.

في حين أن البعض يستند إلىٰ العرف اللغوي (الانصراف)، فيحكم بأن اليد هي كامل العضو المحصور بين الكتف إلىٰ أطراف الأصابع.

وعليه فإن الاختلاف في مقدارها نشأ من اختلاف الدليل؛ فمن يستند إلىٰ العرف اللغوي يحكم بأن اليد هي من الكتف، ومن يستند إلىٰ النص ويحتط يحكم بأنها من المرفق، كما في آية الوضوء، ومن يستند إلىٰ النصّ أيضاً لكن يغلّب جانب الصدق اللغوي لليد الذي عبّر عنه القرآن بقوله ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، فالقرآن حدّد معنىٰ اليد وجعل الأصابع بمعناها، فهي تحقّق معنىٰ اليد؛ وعليه فإننا نكتفي بالقطع منها، وكلٌّ له دليله.

وأخيراً أتمنّىٰ من الله العلي القدير لكم التوفيق وأسأله تعالىٰ أن ينفعنا بأمثال هذه الجلسات في هذه الليالي المباركة وأمثالها. وباعتبار أننا في ليالي القدر فلنختم مجلسنا بالدعاء إلىٰ الله عزّ وجلّ والتضرّع إليه بأن يطهّر قلوبنا ونفوسنا ومشاعرنا من كل ما لا يرضيه، وأن يفتح علينا أبواب رحمته، وأن يعصمنا بـ« **لا إله إلّا الله** »، وأن يرحمنا بـ« **لا إله إلّا الله** » إنه سميع مجيب وصلّىٰ الله علىٰ محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

---

(١) المائدة: ٣٨. (٢) المائد: ٦.

﴿١٣٣﴾

الزواج وقانون التكافؤ في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الحكمة من سنّ الولادة بهذا الشكل المألوف

من معاني الخلق: التقدير، وبناءً على هذا المعنى فإن الله تعالى يشير إلى حقيقة سنمرّ بها خلال البحث إن شاء الله تعالىٰ، وهي حقيقة تستحقّ الوقوف عندها قليلاً، وهي موضوع الزواج والزوجية.

معنى الزوج

فالزوج يطلق على المشاكل (المشابه) الذي له فرد من جنسه، فكل من له فرد من جنسه يشاكله يقال له «زوج». وهذا معنى المماثلة. وهناك معنى آخر للزوجية هو الذكر والأنثى، وهو المعنى الذي تريده الآية الكريمة، فهي أخرجت المعنى الأوّل وإن كانت المشاكلة موجودة ضمناً. فالمقصود بالزوجين هنا: الذكر والأُنثى كما هو صريح الآية الكريمة، أي من يتكوّن منهما النسل.

---

(١) النجم: ٤٥.

وفي الآية الكريمة إيماءة إلى أن هذا الطريق هو القناة الطبيعية التي جعل الله تعالى منها وسيلة لإيجاد امتداد النوع البشري. وكأن فيها إجابة تساؤل مفروض مفاده أنه إذا كان الله تعالى قادراً على كلّ شيء، فلماذا لا يوجد الإنسان بالطريقة نفسها التي يوجد بها النبات، فيخرج من التراب دون الحاجة إلى اللجوء إلى مشقّة الحمل وعناء الولادة وآلامها ومضاعفاتها، ثم بعد ذلك مرحلة الحضانة وما يصاحبها من ألم ومعاناة؟ إننا نلاحظ أن الكثير من الحيوانات بمجرد أن تخرج من بطون اُمهاتها فإنها تحاول أن تمشي فتحرك أقدامها وتقع، تفعل ذلك مرّات عدة حتى تمشي في ساعتها، وكذلك بعض الطيور غير الطيّارة التي تمشي فراخها بمجرد أن تفقس البيضة عنها فتخرج منها مع ملاحظة أنها تخرج منها مكسوّة بزغبها، أمّا الإنسان فطفولته مرحلة كبيرة وواسعة يحتاج فيها إلى الرعاية المركزة والعناية الفائقة كي يصل إلى مرحلة يتمكّن فيها من الاعتماد على نفسه بشكل أو بآخر. فهي طفولة طويلة تحتاج إلى سنوات عدّة لإكمال الرعاية فيها من حمل وتوفير طعام وكساء. وبهذا فالإنسان يحتاج إلى أن يُلفّ بخرقة أول ولادته كما أنه يحتاج لذلك عند وفاته:

وهزّة المهد في أيدي قوابلنا ... كهزّة النعش عند الحمل أحيانا

والعمر حبّات أسلاك تفرّقها ... أنفاسنا وصفيح اللحد مأوانا

وهذا التساؤل ليس له مورد في واقع الأمر؛ لأن من المفروغ منه أن الإنسان يجب ألّا يقترح على الله تعالى أو يسأله عن الأسباب التي من أجلها كان الشيء الكذائي بالهيئة أو الكيفية الكذائية؛ فهو تعالى أرحم بنا من أنفسنا، كما أنه تعالى حكيم عليم، والحكيم لا يصدر عنه إلّا ما يتناسب مع الحكمة والصواب. ثم إن أفعال الله عزّوجل لا يمكن أن نجعلها عرضة للتساؤل؛ لأنه تعالى كما قلنا عليم،

والعليم معناه أنه أعلم من غيره؛ فهو أعلم بنا وبمصالحنا منّا ومن غيرنا.

ثم إن الحكمة واضحة ظاهرة في عملية ولادة الإنسان بهذا الشكل، ذلك أن بهذه الصورة من دورة الولادة تنشأ علاقة عاطفة وحبّ وحنان بين الأب والأُم من جهة وبين أبنائهما من جهة أُخرى، وهذه العلاقة تكبر مع حجم الألم والمشقّة. وليلعم بأن هذه العلاقة موجودة حتى عند الحيوان؛ لأنه يتوالد بالطريقة عينها لكن لا بالمستوى نفسه من العلاقة الإنسانية؛ لأن العلاقة الإنسانية قائمة على أساس امتزاج العواطف وتبادلها والارتباط والتفاعل المستمرّ، وهي علاقة مبتنية على الوشائج الروحية التي تنشأ بين الأب والأُم والطفل.

وقد ذكرت فيما مضى رأي «سماريو» إحدى عالمات النفس البارزات تقرّر أن العلاقة بين الأُم والرضيع ليست علاقة ثنائية، وإنما هي علاقة ثلاثيّة، فالطفل يرتضع لبن الأُم وحنانها، ومشاعر الأب أيضاً؛ لأن الأُم إذا كانت سعيدة مع الأب فإن ذلك ينعكس علىٰ لبنها وعلاقتها ودفئها ومشاعرها، وإذا كانت غير سعيدة انعكس سلباً علىٰ ذلك أيضاً، وهو بالتالي في كلتا الحالتين ينعكس على الطفل إيجاباً وسلباً. إذن هناك ثلاثيّة تتحكّم بحالة الطفل هي: الأب.. الأُم.. الطفل.

وعليه فإن الطفل إذا فقد أحد الأبوين فإنه ينشأ نشأة غير طبيعية، يتملّكه شعور بالنقص وتذبذب عاطفي مشوب بعدم التلاؤم.

إذن فهذا اللون من الولادة والتربية والطفولة الطويلة أمر حيوي وهام للطفل؛ لأنه ممّا يترتب عليه وجود نوع من التناغم العاطفي والتلاؤم الروحي بين الطفل وأبويه من جهة، ويترتب عليه أيضاً تفجّر ينابيع المودّة والرحمة في قلبي الأبوين للطفل من جهة ثانية. فالطفل لا يمكن أن يجد نبعاً من الحنان والرحمة صافياً لا يشوبه كدر إلّا عند أبويه؛ ولذا فإن الله تعالى أراد أن تقابل هذه الرحمة برحمة

أُخرى مثلها، فقال جل من قائل: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾[١]. فهذا الطفل إذا التصق بصدر اُمّه أو تعلّق برقبتها أو برقبة أبيه فإنه لا يرضى أبداً بأن يؤخذ منهما، بل إنه يتشبّث بهما وكأنه لا يريد أن يفارقهما.

وممّا يصبّ في هذا المجال ما يروى من أن امرأتين ضرّتين كانتا في أيام الخليفة الثاني قد تنازعتا على طفل تحملانه؛ ذلك أن إحداهما كانت قد ولدت أُنثى، والاُخرىٰ ولدت ذكراً، لكن أُمّ البنت ادّعت أن الولد لها وأن البنت للاُخرىٰ، أمّا الاُخرىٰ فقالت: لا، هذا ابني. وطال النزاع، فدخل أمير المؤمنين عليه السلام، فالتفت إليه الخليفة الثاني وقال: احكم بينهما. فكان عليه السلام كلّما حاول أن يجعل اُمّ البنت تعترف بأن البنت لها امتنعت، فوعظهما وخوّفهما فأقامتا على التنازع والاختلاف، فقال عليه السلام: «**ايتوني بمنشار**». فقالت المرأتان: ما تصنع؟ فقال عليه السلام: «**أقدّه نصفين لكلّ واحدة منكما نصفه**».

فسكتت إحداهما وقالت الاُخرى: الله يا أمير المؤمنين، إن كان لابدّ من ذلك فقد سمحت به لها. فقال عليه السلام: «**الله أكبر هذا ابنك دونها، ولو كان ابنها لرقّت وأشفقت**». فاعترفت المرأة الاُخرى أن الحقّ مع صاحبتها وأن الولد لها، فسرّ عمر ودعا لأمير المؤمنين عليه السلام بما فرّج عنه في القضاء[٢].

فهو عليه السلام إنما أعطى الطفل لهذه؛ لأنها انفجرت حناناً ورحمة وعواطف مشبوبة نحو هذا الطفل الذي لو لم يكن طفلها لما انفجرت عندها هذا العاطفة تجاهه، ولما

---

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) الإرشاد ١: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، شجرة طوبى ٢: ٤١٨، ونسبها في المصنف (الصنعاني) ٧: ٣٦٢، والسنن الكبرى (البيهقي) ٣: ٤٧٢ / ٥٩٥٧ لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام.

فضّلت حياته على موته وإن كان في حياته سلبها إياه.

ولا شكّ أن هذا نابع من الحنان الغريزي والرحمة الذاتية ومشاعر الأُمومة التي أودعها الله فيها تجاه الطفل؛ لأنه هو الذي يلطّف حياة الأُسرة ويرطب أجواء الإنسانية، بل هو جنة الدنيا التي لولاها لأصبحت الحياة جحيماً؛ فعالم الكبار عالم مملوء بالحقد والحسد واللؤم والعداء والبغضاء، في حين أن الطفل صفحة بيضاء بريئة، وكل ما فيه طبيعي؛ ضحكته ومشيته وحركاته فإن البغض ليس إلّا من شتم الكبار فما إن يضحك أحدهم حتى تحسّ أن وراء ضحكته ما وراءها، ولا تعرف ما الذي يريده منها، وكذلك لا تعرف ما الذي يخبّئه وراء بكائه، يروى أنه ﷺ جاءه خصمان، وكان أحدهما يبكي بحرقة ويتظلّم على خصمه، فقال له: **«اجلس؛ فإن إخوة يوسف ﴿جَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾[1]...»**[2].

وهذا حال الكثير ممّن لا يمكن للمرء أن يحزر ما الذي يختبئ وراء ضحكته أو بكائه من أهداف أو قصود، أما الطفل فهو بمنأى عن كل هذا، فهو لا يملك سوى البراءة، ولا يعرف غيرها؛ ذلك أنه صفحة بيضاء كما قلنا.

وبهذا نعرف أن الزواج بهذا الشكل المرسوم إسلاميّاً هو اللون الطبيعي لامتداد الحياة واستمرارها، واستمرار الحبّ والحنان المتبادل بين الأبناء والآباء، وإلّا لغرقت الدنيا في خضم عالم متوحّش رهيب.

المبحث الثاني: آلية الزواج في الإسلام

تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾، وفي لفظ ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ هنا

---

(١) يوسف: ١٦.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ١٧٥، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٩، وفيهما أنها بين شريح وامرأة.

تضايف، بمعنى أنه لا يعرف الزوج إلّا بزوجه، فلولا أحدهما لما كان الآخر. فالزوجان خلقا لهذه العملية التناسلية، كي يمدّا النوع بالذريّة، ولو أننا نظرنا إلى هذا الأمر بشيء من التعقّل والجدية والنظرة الواقعية للحياة لوجدنا أن الحياة لا طعم لها إلّا بهذا المسار الاجتماعي، وأنه هو المسار الطبيعي، وإلّا فإن ممّا هو معروف أن الطفل يفعل ما يفعل بأهله حينما يلج حياة الأبوين سيّما إذا كان الطفل الأول لهما؛ فتجد أن الأب لا تسعه الفرحة لذلك، والأمّ أكثر منه فرحاً وأشدّ ابتهاجاً؛ لأنهما يريان أن أملهما في الحياة قد تحقق، وأن امتدادهما على هذه الأرض قد حصل. لكنهما في لحظة من اللحظات، وحينما يسلبان هذا الامتداد تجد أن حياتهما قد استحالت إلى فاجعة، وأصبحت ألماً لا يطاق:

إن حزناً في ساعة الموت أضعا ... ف سرور في ساعة الميلادِ [1]

وهذا المنظر يتكرّر كلّ يوم أمام أعيننا، يقول النبي ﷺ: «**لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً**»[2].

فالله تعالى أكرم الإنسان بالنسيان، ولولا هذا لما كان الناس على هذا الحال، يقول محمود الوراق:

نراع لذكر الموت ساعة ذكره ... فتعترض الدنيا فنلهو ونلعبُ
يقين كأن الشكّ أغلب أمره ... عليه وعرفان إلى الجهل ينسبُ
ولكنني منها خلقت لغيرها ... وما كنت منه فهو شيء محبّبُ [3]

---

(١) البيت للمعري. التفسير الكبير ١٧: ١١٨، تفسير الآلوسي ١٣: ٦٣، تاريخ بغداد ٤: ٤٦٤.

(٢) كشف الخفاء ٢: ١٥٤ ـ ١٥٥ / ٢٠٩٧.

(٣) كنز الفوائد: ١٧، الوافي بالوفيات ٥: ١١٧، ١١٨، أعيان الشيعة ١٠: ٩٦ ـ ٩٧، مع اختلاف في نسبتها.

الوقوف بوجه قانون إمداد النوع وأسبابه

فالغاية من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ إذن هي إمداد الحياة والنوع بوسائل مسبّبات استمرارهما، وبالتالي يكون هناك تغيّر مستمر؛ حيث تمضي أجيال وتأتي عوضها أجيال أُخرى، فتجدد دم الحياة منها. وهذه هي مسيرة الحياة، والوقوف بوجه هذه المسيرة أو هذا القانون هو وقوف بوجه الفطرة؛ ذلك أن الله تعالى حينما وضع قانون امتداد النوع: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]، فقد كتب الله تعالى لنا أن نخرج أفراد هذا النوع إلى حيّز الفعل والوجود، لكن البعض يقفون بوجه هذا القانون الطبيعي والالهي متذرّعين بحجج واهية وأعذار لا مصداقية لها ولا حقيقة؛ لأنها قائمة على مبدأ عدم الإيمان بالله تعالى والوثوق به. ومن هذه الحجج:

أولاً: العقبات المادية

وذلك بأن يضع الآباء شروطاً تعجيزية أمام زواج بناتهم، كأن يفرضوا مهوراً عالية وتشريفات وممارسات لا وجه لها سوى أن فلاناً قد فعل لابنته كذا وكذا، مع أن وضع مثل هذه العقبة وهذه التشريفات غير المعقولة وغير المشروعة لا يقبل بها الشرع الإلهي الذي يقول بأن المهر يكفي فيه أن يكون مما يصح أن يُتموّل به ولو كان كفّاً من برّ، ولا العقل الذي يقول: إن هذا الأمر لا يقرب سعادة ولا يبعد ألماً أو شقاءً أبداً؛ فقد يجد الإنسان كوخاً يتفجر سعادة ويفيض أُلفة وحبّاً ومودّة، وفي المقابل تجد قصراً مليئاً بما تشتهي الأنفس، لكنه تعوزه السعادة ويعيش حالة من الألم والحزن. ثم إن السعادة إحساس داخلي يتجلّى عند الإنسان فيشعر به؛ ولذا

---

(١) البقرة: ١٨٧.

فإن البعض لا يشعر بالسعادة ولو أُغرق بالمال، بل ولو أعطيته الدنيا كلّها مهراً فلن يشعر بذلك.

ومع أن المال مطلوب وجوده في الحياة، كي ينهض الإنسان بنفسه من هاوية الفقر ويرتفع بها عن حافّة الحاجة، لكن ينبغي ألا يجعل هدفاً، فيكون بالتالي عقبة كبيرة قابعة في طريق الزواج.

ثانياً: العقبات العرقيّة

وهذه العقبة تعد عنصراً معوّقاً متغلغلاً في النفوس، كما أنها عامل مرهق؛ لأنها عادة تكون مستحكمة تصعب إزالتها من النفوس أو تنحيتها عن فكر المجتمع. وتتمثّل هذه العقبة بالاعتقاد السائد عند البعض ـ وهو اعتقاد مخطوء وليس له أي أساس من الصحة ـ من أن دماءهم لا شبيه لها ولا مثيل ولا كفء عند كل بني البشر الآخرين، فهم لا ثاني لهم في الوجود، وبالتالي لا يصحّ أن يتجرّأ من هو من غير دمهم على طلب يد ابنة أحدهم. وهذه الظاهرة لا يختصّ بها العرب فقط، بل إنها موجودة عند الشعوب الأُخرى؛ فكل شعب يظن أن دمه فوق دماء الآخرين، وأنه أفضل منهم. فظاهرة العرقية منتشرة عند كلّ الشعوب.

وهذا الذي يدّعي أنه ينتمي إلى فصيلة دم أعلى وأشرف من غيرها لا يملك أدنى مبرّر على دعواه هذه سوى أن البعض يفتقر إلى جملة من الصفات المؤهّلة، وهي تتماهى وتتلاشى عند من يتّصف بها حينما يكون ذا رصيد عامر. وهذه الفوارق غير حقيقية ولا واقعية، ولا أثر لها أو قيمة، فـ **«إن الناس من آدم وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم»** (١).

---

(١) الفقيه ٤: ٣٦٣ / ٥٧٦٢، تحف العقول: ٣٤، مسند أحمد ٢: ٣٦١.

إن من أكبر الأخطاء التي ترتكب بحقّ الفتاة وأفدحها ما يقع فيه بعض الآباء من فخّ امتلاك العريس أموالاً طائلة، حيث يغضّون النظر حينها عن كل عيب آخر، وكأن المال حسنة لا سيئة معها، إن مثل هؤلاء الآباء لا يهمّهم مصدر ثروة هذا، ولا أين يقضي ليله ولا كيف يقضي نهاره، فالمهم من وجهة نظرهم هو امتلاكه كنوز المال، واحتلاله مركزاً اجتماعياً أهّله له هذا المال. وهذان الأمران هما غاية ما يسألون عنهما مع أنهما لا يحقّقان السعادة الحقيقية، ولذا فإننا نجد أن السنة النبويّة تحثّ على تجاوز كلّ الاعتبارات الجاهليّة، والتأكيد على الاعتبارات الشرعية التي وضعها الله سبحانه وتعالىٰ: **«من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»**[1].

تحديد مفهوم الكفاءة في الزواج

إذن في واقع الأمر إن هذا العرف المخطوء هو عقبة نحن نصنعه ونضعه أمام أبنائنا في زواجهم، بحجة أن هذا لا يناسب هذه أو بالعكس؛ لأن دم أحدهما أعلىٰ وأشرف من دم الآخر. وقد وصل الأمر بأحد رؤساء العرب أنه لم يكن يجالس الناس ولم يتّخذ صديقاً أو نديماً، فقيل له: لماذا لا تتّخذ ندُماء وأصدقاء؟ قال: ومن يصلح لمنادمتي؟ إنما ينادمني الفرقدان[2]. وهكذا فإن الطبقة الاجتماعية أصبحت عقدة عند الناس، وعقبة من العقبات التي لا يمكن تجاوزها ولا يصحّ من وجهة نظر هؤلاء.

ونحن حينما نطرح هذا الطرح فإننا لا نتكلم عن العامة، بل إننا نتكلّم عن الطبقة التي تمثل الشرع.. طبقة الفقهاء، وهذا هو البلاء طبعاً، فهذا المنحى

---

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ ـ ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) هو جذيمة الأبرش، انظر المستطرف في كلّ فنّ مستظرف ١: ٢٨٥.

الاجتماعي موجود عند المذاهب الإسلامية من غيرنا، فيعتبرون أن الطبقة تتدخّل في تحديد الكفاءة؛ فإن صاحب المهنة المتواضعة لا يصلح أن يتقدّم لطلب ابنة صاحب المهنة الشريفة.

فهؤلاء الفقهاء يتوسّعون في مفهوم الكفاءة؛ فيدخلون فيها حتى المهنة؛ لأنّها ـ الكفاءة ـ في منظارهم مفهوم عرفي لم يحدّده الشارع المقدّس، ونحن نسأل العرف حول هذا المفهوم لنعرف مصاديقه وما ينطبق عليه، والعرف يرى هذا الفارق أمراً أساسياً في مصلحة الزوجين واستمرار الزواج لما يترتب عليه من إمكانية حصول التفاهم والتوافق بين الزوج والزوجة.

لكن يرد على هذا أننا لو حكّمنا العرف دائماً فسوف لن نصل إلى نتيجة واحدة أو مشتركة؛ لأن العرف يتعدّد بتعدّد الرقعة الجغرافية وطبائع الناس وأخلاقهم وعاداتهم. فالعرف لا يصيب الحكم الواقعي أو الحقّ دائماً، ولذا فإنه لا يحكّم في كل الحالات والمجالات التي أقرّ الشارع بعض متبنّيات العرف فيها، فيعطي العرف على ضوئها صفة المشروعية. أمّا أن يصبح البناء الفقهي قائماً على أساس اتّباع العرف في كلّ شيء، ويصل الأمر إلى حدّ الهوس، فهذا أمر مرفوض؛ لأنه سوف لن يؤدّي إلى نتيجة.

سلبية الوقوف بوجه الزواج

إذن فهذا من العقبات التي توضع أمام الشباب في طريق الزواج، وهي عقبات أمر الشارع المقدّس بإلغائها وعدم الوقوف في طريق هذا المسار الطبيعي، وفي وجهه؛ لأن الله تعالى خلق الزوجين، وأمر بالتزاوج لأجل النسل، وما كان كذلك فمن الخطأ الوقوف ضدّه؛ لأننا حينئذٍ نقف في طريق إمداد الإنسانية بالأجيال التي تعدّ امتداداً للنوع واستمراراً للحياة على هذا الكوكب. فالزواج حصانة ضدّ

الكثير من الانحرافات. روي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً في أصحابه، فمرّت بهم امرأة جميلة، فرمقوها بأبصارهم، فقال عليه السلام: **«إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هبابها. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله؛ فإنما هي امرأة كامرأة»**. فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه! فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: **«رويداً إنما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب»**[1].

فهذا الحل الذي يطرحه أمير المؤمنين عليه السلام هو حلّ نابع فيما لو تركنا الأُمور تسير على طبيعتها، أمّا إذا وقفنا بوجه هذا الحل الطبيعي والشرعي فأين يمكن أن يتّجه هذا المتطلّع بعينه، والذي يمدّها إلى ما متّع الله تعالى به غيره من أزواج؟

إننا نعيش هذه المأساة بكامل أبعادها، ومن هذه الأبعاد ما تروّج له الكثير من القنوات الفضائية من عرض الأجساد العارية ووسائل الإغراء واللهو، ومنها ما نشاهده من مظاهر غير إسلامية في الشارع والمدرسة والمؤسّسة وأماكن العمل والأسواق وغيرها. وفوق هذا كلّه تجد الكتب والمجلّات مليئة بالأفكار العارية والأجساد العارية. فهذا الشاب الذي لا يستطيع أن يتزوّج لما وضع في طريق زواجه من عقبات، ثم يتعرّض لمثل هذه المؤثّرات مع ماهو عليه من عدم توفّر المناعة والحصانة ضدها عنده، أو لم يكن عنده مستوى من التربية يؤهّله لأن يحصّن نفسه ضدّ الوقوع في الفاحشة حتماً سينهار أمام هذه الإغراءات والمؤثّرات الغريزية.

والأنكى من كلّ هذا أن المناهج الدراسية تركّز اهتمامها على الدروس العلمية والأدبية دون أن يحظى الجانب الأخلاقي بمثل هذا الاهتمام أو حتى بجزء منه، بل نجد أن هناك إهمالاً واضحاً وبيّناً لهذا الأمر، عملاً بمقولة أن مثل هذه الأُمور

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤٢٠.

منوط أمرها بالمسجد. لكن لو عدنا إلى الواقع فإننا لن نجد هذا الدور للمسجد في غالب الأحيان، فهو في الكثير من الأماكن والموارد لا يعلّم الأخلاق والآداب، بل يعلّم هذه المتصاعدات والمتنازلات ممّا لا يهمّ الشباب في شيء، بل يذكي عنده كره الآخرين والحقد عليهم. إن الجميع مسؤولون عن هذا الجيل، وعليهم أن يتنبّهوا لتربيتهم، فهم جيل يائس حقّاً إذا كانوا تحت تأثير كلّ هذه العوامل الآنفة؛ سواء ما كان منها في المسجد ممّا يعلّمه لهم من الحقد على الغير، أو في الشارع ومحطّات التلفزة أو غيرهما. وعليه فيلزم توجيه هؤلاء الشباب ضمن نطاق الأُسرة بأخلاق الإسلام وأخلاق رسول الله ﷺ وآله ﷺ، وعدم تركهم ليشرّقوا أو يغرّبوا في انتزاع أخلاقهم وآدابهم وعاداتهم.

إذن فالزواج حصانة ضدّ كل مرض أخلاقي أو آفة أدبية[١]، أمّا المتبقي من الآداب والأخلاق فإنه مسؤولية الأُسرة والتربية التي ينبغي أن تكون سليمة طيبة. ولذا فإننا نجد أن الفقهاء يفتون بوجوب الزواج فيما لو كان الشاب يتوق توقاً كبيراً إليه، ويجد في نفسه رغبة كبيرة إلى قضاء حاجة هذه الغريزة بحيث إن الأمر يصل به إلى حدّ لا يتمكن معه من الصبر عنه وكان قادراً على الزواج مادياً، أما إذا تمكّن من الصبر عنه فإنه حينئذ يصبح مستحبّاً. لكن لو أنه يتزوّجه من امراة يعرّضها إلى الضياع؛ لأنه لا يستطيع أن يتكفّل بنفسه فكيف بزوجة وأطفال ومتطلبات أُسرة فإن الشارع حينئذ يأمر بالصبر والتحلّي بالأخلاق[٢] حتى يتمكّن من أن يهيّئ نفسه له.

---

(١) ولذا فإنه يعدّ بنصف الدين كما عن رسول الله ﷺ حيث قال: «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتّقِ الله في النصف الآخر». الكافي ٥: ٣٢٩، الفقيه ٣: ٣٨٣، كشف الخفاء ٢: ٢٣٩ / ٢٤٣٢.

(٢) ومن ذلك استحباب الصوم له.

وعليه فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ بمعنى قدّر، وهذا يعني أنه تعالى هو الذي يتحكّم بجنس الجنين، وسائر صفاته. فالله تعالى وحده هو المقدّر دون غيره، فلا المرأة لها دخل في تحديد جنسه ولا غيرها، بل هو الله تعالى الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1]. فكل هذا بيد السماء؛ لأن هذه البويضة غير الملقّحة فيها اثنان وعشرون صبغيّاً جسميّاً وصبغي[2] واحد جنسي، وهو ما يرمز له بالرمز (X) كما يعبّر عنه علماء الطبّ. ومن أراد أن يطّلع أكثر على هذه المعلومة فليرجع إلى كتب الطب المختصّة بهذا المجال.

إذن فالذي يتحكّم بجنس الجنين هو نطفة الرجل[3]؛ حسب نوع الصبغي الجنسي المختصّ به. فالرجل يكون صبغيّه عادة إما بالرمز (x) أو برمز (y)، وحينها يتعيّن جنس الجنين[4].

وإذا كان الأمر كذلك فما ذنب هذه المرأة التي تحمل تبعة هذا الأمر مع أنها لا دخل لها فيه أبداً؟ والمشكلة أن هذا الأمر ظاهرة اجتماعية ورثناها، والميراث الاجتماعي عسير رفضه والتخلّص منه، وهو ميراث يُغلغل في رأس العربي فكرة أن الأُنثى إذا جاءت فلا مكان لها إلّا القبر، يقول شاعرهم:

القبر أخفىٰ سترةٍ للبناتْ	**ودفنها يُروىٰ من المكرماتْ**
ألم ترَ الرحمن عزَّ اسمه	**قد وضع النعش بجنب البناتْ[5]**

---

(١) الشورى: ٤٩ ـ ٥٠. (٢) هو الكروموسوم.

(٣) لا الرجل نفسه وبإرادته.

(٤) فإن لقّحت البويضة بكروموسوم (x) كان الجنين أُنثى، وإن لقّحت بكروموسوم (y) كان الجنين ذكراً.

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨.

وهو هنا يشير إلى المجموعة النجمية المسمّاة «بنات نعش»، أي أن البنت حينما تولد لا بدّ أن يكون النعش قربها؛ فهو لازم لها ما، إن تولد حتى تدفع فيه وتدفن. إنها فلسفة حياة جائرة تفرّق بين الذكر والأُنثى؛ فمن أين جاءت هذه الفوارق؟ وما هو منشؤها؟ مع أن الفتاة ربما كان عندها من المزايا ما لم يكن عند الولد؛ فهي عادة أكثر مودّة وإخلاصاً في عملها وفي بيتها. ولو أن من يذهب هذا المذهب يطّلع على الروايات الواردة في مجال تربية البنت ورعايتها لما لبث على فكره هذا، ومن هذه الروايات قول رسول الله ﷺ: **«من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات وجبت له الجنة»**. فقيل: يا رسول اللّه، واثنتين؟ فقال ﷺ: **«واثنتين»**. فقيل: يا رسول اللّه، وواحدة؟ فقال ﷺ: **«وواحدة»**[1].

والروايات بهذا الصدد عن الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته ﵈ كثيرة، دخل على الإمام الصادق ﵇ أحد أصحابه، وكان عابساً، فسأله عن شأنه، فقال له أحد الجالسين: يابن رسول الله، لقد رزقه الله بنتاً. فقال ﵇: **«أتريد أن تغيّر خلق الله؟»**.

فمن قال: إن البنت ليس فيها عطاء لأهلها أكثر من العطاء الذي يكون من الولد؟ إن الله تعالى يثيب الرجل على تربية ابنته أضعافاً. ثم إنه تعالى هو الذي اختار أن يكون المولود أُنثى، ومن يعترض على هذا فإنما يخالف ما اختاره له الله تعالى؛ لأنه جلّ وعلا هو الذي يهب ويعطي.

إذن فـ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ يعني أن المعادلة بيد الله تعالىٰ، هو الذي يخلق الإناث وهو الذي يخلق الذكور وفق ما تقتضيه المصلحة المتعلّقة بكل فرد على حدة. وهكذا فإن على الفرد المسلم أن يذعن إذعاناً كاملاً لإرادة الله جلّ وعلا،

---

(١) الكافي ٦: ٦/ ١٠، مسند أحمد ٢: ٣٣٥.

لا أن يقترح عليه تعالىٰ.

نعم له أن يدعو الله تعالى بما يريد، لكن لا يفرض من خلال دعائه شيئاً على إرادة الله جلّ وعلا، ثم إن الدعاء يجب أن يكون في حدود الواقع، فالإمام عليه السلام يقول في دعائه: «**ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأمور**»[1]. ولهذا فإن الاتقياء حينما يسألون عما سيختارون فانهم يجيبون بأنهم يختارون ما يختاره الله تعالى لهم، وأنهم لا يقترحون عليه تعالى شيئاً.

فالله تعالى هو الذي يخلق الذكر والأُنثى، وكل منهما له مجال تحركه الطبيعي.

أثر العامل النفسي للمفسّر على النص

وهنا نقطة هامّة يثيرها بعض المفسّرين، وهي ناشئة عن تمرير النص القرآني من خلال مرشّح ميراثنا الاجتماعي، وحينها لا يكون التفسير سليماً صحيحاً، وإنما هو انعكاس بحت لنفسية المفسّر وعقليته وتفكيره، وهذا مثله مثل ضوء الشمس فإنه عندما يأتينا مباشرة فإننا نراه على حقيقته وصورته الطبيعية، لكنه حينما يمرّ من خلال مرشّح كالزجاج الأخضر أو الأحمر، فإننا حينئذٍ نراه على غير صورته الحقيقية، بل سنراه بلون الزجاجة نفسها. وهذا الأمر هو عملية إسقاط لمشاعر المفسّر أو آرائه الشخصية وقناعاته ومواريثه الاجتماعية على النص القرآني أو النبوي. وبهذا فإننا لا نقرأ ما يريده الله تعالى أو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل ما يريده المفسّر الذي يلوّنه بلون فكره عينه، ويضفي عليه رواسبه الفكرية ويطبعه بطابعه. ومن هذا ما يذكره بعض المفسرين حول هذه الآية حيث يرىٰ هؤلاء في قوله تعالىٰ: ﴿الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ أن الذكر أفضل من الأُنثى؛ لأنه مقدم عليها فيه.

---

(١) مصباح المتهجّد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

ونقول: إن في الظرف الطبيعي ـ أي لو فرضنا أنه ليس من أحد مفضّلاً على أحد ـ لو أردنا أن نذكرهما فلابدّ من تقديم أحدهما على الآخر، ولو قدّمت الأُنثى لحصل الإشكال نفسه، فلا بدّ حينئذٍ من تقديم واحد. وهذا التقديم لأي كان ليس للتفاضل والتفضيل، وانما هو لضرورة الكلام والترتيب. فهذا من الرواسب الاجتماعية، وإلّا فإن التقديم هنا لا يقتضي التفضيل بقدر ما هو سياق للقول.

ونحن نعلم أن بعض الإناث لو عدل بهن مدينة من الذكور لما عادلوهن، ولكُنّ أفضل منهم. وفي تاريخنا الإسلامي المشرق نمط فريد ومشرّق من النساء اللواتي لا يقاس بهن أقوام، و:

ليس علىٰ الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحدِ[1]

ويقول الرسول الأكرم ﷺ: «**حسبك من نساء العالمين أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد سيّدة نساء العالمين، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم**». وهذا يعني أن المرأة أحياناً قد تعادل دنيا بحالها.

قانون زوجيّة المشاكلة

وقد ذكرنا في صدر البحث أن الزوجية تقتضي المشاكلة، وهذا يعني أنها غير الزوجية الجنسية. وقد خلق الله تعالى الكون كلّه خاضعاً لزوجية المشاكلة، وقانون زوجية المشاكلة قانون عام يحكم الدنيا كلها، وهو أدلّ دليل على وحدانية الله تعالىٰ، وعلى أن القرآن الكريم منه، ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[2]، وهو قانون لم يهتدِ إليه العلم إلّا مؤخراً. وإذ كان الأمر كذلك فمن أين جاء النبي ﷺ بهذه المعلومات لولا أن

---

(١) البيت لأبي نؤاس. تاريخ بغداد ٤: ٣٦٧، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٠٣، مختصر المعاني: ٣٠٦.

(٢) يس: ٣٦.

تكون من السماء؟

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يريد أن يثبت للناس أنه كتاب الله تعالىٰ، وأن النبي ﷺ سفير السماء وحامل وحيها، وبهذا سيؤمن الناس بنبوّة رسولنا العظيم.

ثم إن ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ يعني أن هناك قانوناً تكوينياً وآخر تشريعياً. فالقانون التكويني هو أن المرأة خلقت للرجل وأن الرجل خلق للمرأة أينما كانا وكيفما كانا. وهذا يسمى قانون التزاوج التكويني، أمّا القانون التشريعي فهو العقد الشرعي الذي يطهر بموجبه المولد وتطيب النطفة، وهو المسمى بقانون التزاوج التشريعي. وهو تشريع له ضوابطه وقوانينه، ومباحاته ومحظوراته. فالله تعالى يمنع من الزواج إذا كان هناك اختلاف في الدين، لكن لا على نحو الإطلاق، بل إن المشرك هو الذي لا يجوز تزويجه من مسلمة، والمسلم أيضاً لا يجوز له الزواج من مشركة. لكن أن يمنع مسلم من الزواج من مسلمة لأن أهلها لا يرتضون مذهبه، والرسول ﷺ يقول: **«من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه، إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»**[1]، فهذا من أعجب العجب؛ فهل إن من يتّبع جعفراً الصادق عليه السلام أو محمداً الباقر عليه السلام ويقدّسهما ومن سلف ومن خلف منهما ـ هذه النجوم المتلألئة في سماء الإسلام، والشموع المضيئة في دنيا العلوم، والمصابيح التي هي ألق كلّها، وجميعها سموّ: **«أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة، لم تنجّسك الجاهليّة بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها»**[2] ـ يعدّ مارقاً عن الدين، مع أن المسلم هو من يقول: **«أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أن محمّداً رسول الله»**، ويتوجّه إلى القبلة

---

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ ـ ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) مصباح المتهجّد: ٧٢١.

المشرّفة؟ والغريب أن هؤلاء يريدون من الآخرين أن يعدّوهم مسلمين مع أنهم يقدّسون مروان وأمثاله من حثالات الدهر ووصمات العار في تاريخ الإسلام. وهل من موازنة بين من يأخذ من ينبوع صافٍ.. عن امتداد النبوّة ومن اشترُط فيه الطهارة والعصمة والبعد عن المحرمات، وبين من يأخذ عن مروان وأمثاله؟ هذا مع أن الطريق إلى ذلك الامتداد الحقيقي للنبوّة طريق معقّد وغير معبّد؛ فنحن لا نأخذ بالرواية على عواهنها، بل إنما نفعل ذلك بعد أن نُخضعها لعملية تدقيق وتمحيص بالغة الدقّة والعناية؛ فنخضعها لدراسة السند، حيث إننا نشترط فيه ألا يكون مخدوشاً بوهن أحد رواته أو بضعفه أو بأنه مقدوح فيه، ثم بعد ذلك نعمد إلى مدلولها، فنناقشه حتى نستخلص الحكم ونصل إليه، في حين أن الآخر يرى عدالة ووثاقة من لا عدالة له وليس هو بثقة، فينقل عنه مرويّاته ويأخذ عن طريقه أحكامه.

وهذا مقياس مخطوء؛ فـ**«المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم»**[١]. وهذه الكفاءة شرعية، أي أن المسلم له أن يتزوج من مسلمة مهما كان مذهبها، كما أن المشرك ليس له أن يتزوج منها. وهذا سببه اختلاف القيم والعقائد والأخلاق: **«من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادها إلى الزنا، ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها»**[٢]. أي على الأب ألا يتعجّل الأمور، وهو مقبل على أمر جليل كهذا، فهو أمر يستحق التأني والتروّي قبل الولوج فيه. ومن يفعل هذا فإنه ليس على خلق الإسلام في شيء، والإسلام ليس من أخلاقه أن ذا المركز

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

(٢) الفقيه ٤: ٥٨ / ٥٠٩١.

الاجتماعي والرصيد المالي يقدّر، أمّا المؤمن الملتزم بسلوك الرسول ﷺ والذي يتّبع دينه فلا يزوّج بحجة أنه من المذهب الفلاني، أو بحجة أنه من البيوتات الخاملة. إن هذا هو الظلم بعينه؛ فهذا الفقير المؤمن يحتمل كثيراً أنه هو الذي يحقق للفتاة السعادة ورخاء الحياة، ويغرقها في جوّ من المودّة والاحترام، وكذلك هو الحال مع الفتاة الفقيرة ذات الدين، فمحتمل جداً، بل إنه أمر يقيني أنها تحفظ له نفسه وشرفه وبيته، وبالتالي سعادته: **«اظفر بذات الدين تربت يداك»**[١]؛ ذلك أن المرأة المؤمنة الملتزمة التي تطبّق أوامر الله تعالى وتنتهي عن نواهيه تمتاز بكونها تمتلك كل المقوّمات السليمة والصحيحة لبناء لبنة صالحة، وبالتالي بناء مجتمع صالح سليم، وكذلك إن كان الزوج مؤمناً؛ لأنه إن أحبّها أعطاها فوق ما تستحق وإن لم يحبّها لم يظلمها، بل يعطيها حقّها.

إذن فمسألة الاختيار المبنية على حسن السلوك واستقامة الأخلاق وسلامة الدين هي الأساس، أما الاختيار القائم على أساس الرصيد المالي والجاه الاجتماعي فليس من الإسلام في شيء، ومقياسنا هو **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[٢].

لو لا علي عليه السلام لم يكن لفاطمة عليها السلام كفء

ومن باب أن (الشيء بالشيء يذكر) أجد أن من المناسب هنا ذكر حديث الرسول الأكرم ﷺ: **«لولا علي لم يكن لفاطمة كفء»**[٣].

وهي رواية تستحق التوقف عندها، إذ ربما يقول قائل: إن كانت الكفاءة من

(١) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) كشف الغمّة ٢: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٣: ١٤١ / ٣٧، ٤٣: ١٤٥ / ٤٩.

جهة الإسلام فالمسلم كفء المسلم كما هو المعروف، فما هي هذه الكفاءة إذن؟ وهل يراد بها جانب آخر؟ نعم، يراد بالكفاءة هنا جانب آخر غير الإسلام، فالزهراء عليها السلام قد اعتبرت سيدة نساء العالمين على لسان رسول الله ﷺ وبقوله: **«فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها»** [١]، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام الذي خاطبه الرسول الأكرم ﷺ بقوله: **«أنت مني وأنا منك»** [٢]، وقوله ﷺ ـ كما ترويه عائشة ـ حيث كان ﷺ قد مر بأمير المؤمنين والزهراء والحسنين عليهم السلام فقال لهم: **«أنا حرب لمن حاربكم سلم لمن سالمكم»** [٣].

فإذا كانت الزهراء عليها السلام جزءاً من الرسول ﷺ، وكان علي عليه السلام نفسَه الشريفة بنص القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: **﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾** [٤]، ومن رسول الله ﷺ كما مرّ، فلا بد إذن أن يأخذ التكافؤ معنى آخر مبتنياً على كون أن النبي ﷺ سيّد الموجودات، وهذان العظيمان كلاهما ينتميان إلى هذه الحقيقة نفسها، ومن كانا كذلك فلا بدّ من أن تؤخذ في أمر الكفاءة حيالهما جوانب أُخرى غير تلك المعروفة لعامّة الناس.

---

(١) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٢) مسند أحمد ١: ١٠٨، ٤: ١٦٤ ـ ١٦٥، ٥: ٣٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٣. وبقوله ﷺ كما روت عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي سيّد العرب». فقلت: يا رسول الله، ألست سيّد العرب؟ فقال: «أنا سيّد ولد آدم، وعلي سيّد العرب». المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٤، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول ﷺ (محمد بن طلحة الشافعي): ٢٦.

(٣) المعجم الأوسط ٣: ١٧٩، المعجم الصغير ٢: ٣، أُسد الغابة ٣: ١١، سير أعلام النبلاء ٢: ١٢٢ ـ ١٢٣، ٣: ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ٥: ٩٩.

(٤) آل عمران: ٦١.

هذا فضلاً عن النواحي الأُخرى التي عرفا (صلوات الله وسلامه على رسوله وعليهما وآلهما) بها ممّا تفيض به الصحف، وتستوفىٰ به الموازين؛ فهماعليهما السلام راهبا الليل، فالزهراءعليها السلام كانت تظلّ في مخدعها قائمة وقاعدة، وراكعة وساجدة طيلة الليل حتى الصباح، وعلي بن أبي طالبعليه السلام هو السيف والساعد المجاهدان في سبيل الله تعالىٰ، والذابّان دون رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، فهوعليه السلام المجاهد في ساحتي الحرب والمجتمع، وهيعليها السلام المجاهدة في ساحة المجتمع، فهي التي حملت أخلاق أبيهاصلى الله عليه وآله وسلم وأشبهته في كل شيء. يروي شرحبيل عن أُمّ سلمة (رضوان الله تعالى عليها) كما نقله صاحب (كشف الغمّة)[1] وغيره[2] من أنه لما كان صبيحة عرس الزهراءعليها السلام جاء النبيصلى الله عليه وآله وسلم بعسّ فيه لبن، فقال لفاطمة: «**اشربي فداك أبوك**». وقال لعلي: «**اشرب فداك ابن عمّك**».

ولا يخفى أن النبيصلى الله عليه وآله وسلم هو أشرف الموجودات وأعلاها، وهذا من خلقه الكريم ونبله العظيم وتواضعه الكبير، لكنه في المقابل يريد أن يعطي هاتين النسمتين الإلهيّتين ما تستحقّانه من تكريم. ومثل هذا ما ترويه أُم المؤمنين أُمّ سلمة حيث قال لها: «**يا أُم سلمة، هلمّي فاطمة**». فأتت بها، فلما وقفت بين يديه كشف الرداء عن وجهها حتى رآها عليعليه السلام، ثم أخذ يدها فوضعها في يد عليعليه السلام وقال: «**بارك الله لك في ابنة رسول الله. يا علي، نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة، نعم البعل علي. انطلقا إلى منزلكما ولا تحدثا أمراً حتى آتيكما**».

ثم جاء رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم فدخل وأجلس فاطمةعليها السلام من جانبه وعليّاًعليه السلام من جانبه، ثم قال: «**يا فاطمة، ائتيني بماء**». فقامت إلى قعب في البيت، فملأته ماء،

---

(١) كشف الغمّة ١: ٣٧٨، ٢: ١٠١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣٢.

ثم أتته به، فأخذ منه جرعة فتمضمض بها، ثم مجّها في القعب، ثم صبّ منها على رأسها، ثم قال: **«أقبلي»**. فلما أقبلت نضح منه بين صدرها ونحرها، ثم قال: **«ادبري»**. فلما أدبرت نضح منه بين كتفيها، وفعل مثل ذلك بأمير المؤمنين عليه السلام، ثم قال: **«اللهم هذه ابنتي وأحبّ الخلق إلي، اللهم وهذا أخي وأحبّ الخلق إليّ، اللهم لك وليّاً وبك حفيّاً، وبارك في أهله، وبارك في ذرّيتهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإني أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرجيم. اللهم إنك باركت على آل عمران، فبارك على آل محمّد»**، ثم خرج [١].

فيا رسول الله (صلى الله عليك وعلى آلك وسلم)، ليتك ترى هذه النسمة الطاهرة يوم جلست على قبرك الشريف يعتصرها الألم ويضمّخها الشجا والأسى، وهي تستعبر باكية وتتمثّل بأبيات هند بنت أثاثة قائلة:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها	**واختلّ قومك فاشهدهم فقد شغبوا**
قد كنت بدراً ونوراً يستضاء به	**عليك تنزل من ذي العزّة الكتبُ**
وكان جبريل بالآيات يحضرنا	**فغاب عنا وكل الغيب محتجبُ**
فقد رزئت أباً سهلاً خليقته	**محض الضريبة والأعراق والنسبُ** [٢]

ولنا أن نتساءل: ماالذي تشتكيه فاطمة الزهراء عليها السلام؟ لقد وقفت أمام القبر لتريه جوانب من جسدها الطاهر ممّا فعله بها حقد القوم. يقول الباقر عليه السلام: **«ما رؤيت فاطمة ضاحكة قط منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قبضت»** [٣].

تقول أسماء: قالت لي الزهراء عليها السلام ليلة حضرتها الوفاة وقد اشتدّت عليها العلّة:

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٤٢ ـ ٤٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣١.

(٢) شرح الأخبار ٣: ٣٩، الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٢، شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٥١.

(٣) السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام (محمد بيومي): ١٣٢.

«يا أسماء، أنا ذاهبة إلى حجرتي أضطجع، وبعد ساعة ناديني، فإن أجبتك وإلّا فاعلمي أني لحقت بأبي رسول الله ﷺ. يا أسماء، إذا جاء الحسنان فضعي لهما الطعام، وإن سألا عني فقولي: إن أُمّكما نائمة بالحجرة. وتعالي إلى هنا فاسكبي لي الماء».

تقول: فسكبت لها ماء، فلبست ملابسها وذهبت إلى الحجرة، وبعد ساعة ناديت: يا بنت رسول الله، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من صلى بملائكة السماء مثنىً مثنى، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من حمل الركن بأطراف الردا، فلم تجبني. فدنوت إليها فكشفت الرداء عن وجهها فإذا بها ميّتة، فجلست عندها أبكي، ثم جاء الحسن عليه السلام إليها فكشف الرداء عنها، ثم صاح: **«أخي حسين هلمّ إليّ، إن أُمّنا فاطمة قد فارقت روحها الدنيا»**[1].

كما أوصت (سلام الله عليها) أمير المؤمنين عليه السلام فقالت له: **«في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أُوصيك بها»**. قال عليه السلام: **«بلى، عزّ والله عليَّ فراقك يا بنت رسول الله»**. قالت: **«يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسّلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أُمّهما»**. ثم قالت: **«فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»**[2].

ففعل عليه السلام كما أوصته، ولمّا أنزلها إلى قبرها، جلس عندها على شفير القبر،

---

(١) قريب منه ما في بحار الأنوار ٤٣: ١٧٤ ـ ١٨٠ / ١٥، عن فضّة خادمة الزهراء عليها السلام.

(٢) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

وراح يستعبر ويقول:

أرى علل الدنيا علي كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليلُ

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دليل على ألّا يدوم خليلُ [١]

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام : ٨٧.

﴿١٣٤﴾

الثبات على العقيدة مبدأ مقدّس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في مقدار اليد الشرعية

ذكر القرآن الكريم هذا الخطاب في معرض قصة فرعون مع السحرة الذين آمنوا. والموضوع يشكل حادثة تتضمن قطع الأعضاء في سبيل العقيدة.

واليد: هي هذه الجارحة التي نتصرف بها، ولها أحكام متعددة، يختلف الفقهاء في تحديدها في باب الوضوء؛ لأن القرآن الكريم يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾[2] فما هي اليد المعنية هنا؟ يقول بعض الفقهاء: هي العضو الكامل من الكتف إلى أطراف الأصابع، لكنها في الوضوء المقدار المحدد من المرفق إلى أطراف الأصابع. والسبب في هذا التحديد هنا أن الوضوء له دليل خاصّ، والنبي ﷺ قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، فتبعه المسلمون في الوضوء.

---

(١) الأعراف: ١٢٤.   (٢) المائدة: ٦.

وعليه فيقول بعض الفقهاء: إن اليد هي مقدار ما بين المرفق إلى أطراف الأصابع. ويقول غيرهم: إنها من أصل الكتف. وهناك رأي آخر يقول: إنها من الأشاجع، وهي أُصول الأصابع. وقد استدلّ الإمام الجواد عليه السلام بالمعنى الأخير في مجلس المأمون حينما أرادوا قطع يد سارق واختلفوا في حدّ القطع، وأعطى كل فقيه رأيه، فقال الإمام عليه السلام: **«تقطع الأصابع الأربعة من الأشاجع»**. فقالوا: ما الدليل على ذلك؟ قال: **«قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [١]»**. فالمرء إذ يكتب يمسك القلم بأصابعه، ولذا سميت يداً، وهو ما أمرت الآية بقطعه.

والذي يعنينا من ذلك أن هذا العضو يعطيه الله تعالى حالات يكرّم بها، وحالات يهان بها، تبعاً للإحسان والإساءة، فإن كانت اليد في مكان مشرّف فهي محترمة، وإن كانت في مكان منحرف سقط احترامها وأُهينت.

فالمكان المشرف: الأكل من كدّ اليد، فقد ورد في الحديث: **«ما أكل ابن آدم أفضل من كدّ يده»**. فهذا الإنسان يشغل يده بالعمل، فيبيت الليل تعِباً؛ لأنه يأكل من كده. وهذه اليد الشريفة النظيفة التي تأكل من عرقها مكرّمة تماماً. كان أحد الانصار راجعاً يوماً من بستان له وهو يمسك بيده مسحاة، وكان بيده مَجَل ـ وهو الماء تحت الجلد من كثرة العمل ـ فأراد أحد الأنصار مصافحته، لكنه لما رأى ما بها سحب يده منه ولم يصافحه، فحانت التفاتة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذلك، فنزل وأمسك بيد الفلاح الأنصاري، وقبلها ثلاث مرّات، ثم التفت إلى الرجل الآخر وقال: **«إنها يد يحبّها الله ورسوله، إنها يد يحبّها الله ورسوله، إنها يد يحبّها الله ورسوله»**.

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد بذلك أن هذه اليد جديرة بالاحترام؛ لأنها يد تشعر بالكرامة،

---

(١) البقرة: ٧٩.

ومن يأكل بكدّ يده يشعر بالكرامة والاعتزاز. ففي هذا المورد تحترم مثل هـذه اليد.

وتحترم أيضاً وتكرم فيما إذا أمسكت سلاحاً دفاعاً عن دين الله، وما أمر الله أن يدافع عنه كالعرض، والعقيدة والوطن والكرامة، وما إلى ذلك.

من أحكام اليد

ويذكر الفقهاء لليد أحكاماً كثيرة، منها أنه في اليد الواحدة نصف الدية وفيهما الدية كاملة. فهي من الأعضاء الثنائية، وكل عضو ثنائي في الجسم ديته نصف دية الحرّ، فمن يقطع يد الإنسان فإما أن يقتص منه بالمثل، أو يعمد إلى أخذ الدية منه، وهي نصف دية الحرّ كما قلنا؛ لأن في العضو الآخر المتبقّي تخفيف لوطء الواقعة. أما إذا كان العضو منفرداً فديته كاملة.

قاعدة وضع اليد

ومن الأحكام ذات العلاقة باليد قاعدة وضع اليد، كأن يشاهد إنسان وهو يتصرف بالأعيان تصرف المالك، مثل أن يركب فرساً بشكل يومي دائم، ويخرج للنزهة عليها، دون أن ينازعه أحد عليها. أو يركب سيارة ولا منازع له فيها. فمن هذا يُستدل على أن الفرس والسيارة له. وكذا من يدخل داراً، وبيده مفتاحها، ويتصرف فيها تصرف المالك في أملاكه. فهذا التصرف أمارة على الملكية.

والدليل على ذلك سيرة العقلاء، فلو رأى العقلاء من يفتح باب بيت ويدخل إليه فإنهم يبنون على أن هذا البيت ملك له. وقد أقر الشارع هذه السيرة، ولم ينهَ النبي ﷺ عنها. إذن لدينا هنا دليلان: أحدهما عقلي والآخر نقلي؛ فالعقلي سيرة العقلاء، والنقلي هو السنة الإقرارية، وهي أن النبي ﷺ أقر هذه السيرة.

دخل حفص ـ وهو أحد أصحاب الإمام الصادق ﷺ ـ عليه، فقال له: يابن رسول الله، إذا رأيتُ بيد الرجل شيئاً، فهل أستطيع أن أشهد أنه ملكه؟ قال الإمام ﷺ: **«نعم»**. قال: ومن قال: إنه له؟ إنني أقول: إنه بيده، ولا أقول: إنه له. قال الإمام ﷺ: **«أيجوز لك أن تشتريه منه؟»**. قال: نعم. قال: **«ومن أجاز لك شراءه؟»**. أي إذا كنت تعلم أنه ليس له.

فهذه هي سيرة العقلاء، ولو وصل الأمر أن كل من يأتي بسلعة يعرضها للبيع نسأله: هل هذه لك أم لا؟ فهذا غير ممكن؛ لأنه يؤدي إلى حصول الحرج، ثم إن هذا مسلم، وفعل المسلم محمول على الصحّة. ومن ناحية ثانية فإن سيرة العقلاء تقول: إنه يتصرف به تصرّف المالك، ومن هنا فإننا نبايعه ونشاريه. ثم يقول له الإمام: **«إذا فعلنا ذلك، فلا يقوم للمسلمين سوق»**. وعليه فلا يصح أن نسأل كل ذي سلعة عرضها للبيع عن ملكيتها له أو لغيره؛ فاليد أمارة الملكية.

قاعدة الضمان

ومن الأحكام المتعلّقة باليد: الضمان، فـ**«على اليد ما أخذت حتى تؤدي»**. فمن سرق من أحد شيئاً فعليه أن يؤدّيه له؛ لأن هذا المال لم ينتقل إليه بناقل شرعي، فلا بد أن يكون آخذه ضامناً له؛ فإن وجد عينَه أرجعه، وإلّا أرجع قيمته أو مثله.

ومن الضمان أيضاً أنني إذا اشتريت من شخص سلعة على أنها له، ثم اتّضح أنها ليست ملكه، وأنه سرقها أو نهبها أو أخذها بغير حقّ، فأنا ضامن؛ لأنني لم أشترِ ممّن يملك. وهذه المسألة متشعبة.

متى تقطع اليد؟

ثم إن اليد تارة تُقطع في مكان غير مشرف، وأُخرى في مكان مشرف، وهي

في الخندق الثاني تشكل ظاهرة فخر ومجد واعتزاز، وفي الخندق الأوّل ظاهرة انحطاط وعيب وعار. ومما هو مورد عار السرقة، والسارق يحمل المسروق بيده، فيقال له: إن هذه اليد أصبحت ملوّثة، وتشكّل خطراً على المجتمع. والعضو المنحرف الملوث لا بدّ أن يزاح من طريق المجتمع؛ لأنه يسبب الفساد له، والله يريد الصلاح لعباده. ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾[1].

ولكن، متى يكون القطع؟ إنه يكون بعد اكتمال شروطه، وهي أن يكون بالغاً عاقلاً مريداً مختاراً غير مكره.

شروط قطع اليد في حدّ السرقة

ثم إن هناك شروطاً أُخرى منصوصاً عليها هي:

١ ـ أن تكون السرقة من حرز. ولكل شيء حرزه الذي يناسبه. فمن يجد في الصحراء سيارة ويأخذها فهي ليست في حرز، لكنه إذا أخذها من «موقف السيارات» فهذا حرز.

وهناك اختلاف بين الفقهاء حول القبر، فبعضهم يعدّه حرزاً وآخر لا يعدّه كذلك. وهذا نابع من أن بعض الناس من ذوي النفوس الدنيئة ممّن تتدنى نفوسهم لسرقة حتى الموتى. أتذكر أن امرأة كانت تخدمنا في أحد البلدان الإسلامية حينما كنا في دورة دراسية، فلما أنهيناها، وأردنا الذهاب عنها بكت، فسألناها عن ذلك فقالت: أُريد منكم أن تهيّئوا لي قبراً قبل رحيلكم، فأنا امرأة كبيرة. فقلنا: ولم لا نشتري لك قبراً هنا في المكان الذي نحن فيه؟ فقالت: لا، أُريده قريباً من أهلي. قلنا: لماذا؟ قالت: أخاف أن يسرقوا كفني هنا.

---

(١) الأعراف: ٥٦.

وسرّاق الأكفان معروفون[١]، وهم مذكورون في كتب الفقه، ففيها عنوان مستقل هو «سارق الأكفان». وهنا يبرز سؤال هو: هل هذا السارق يعتبر سارقاً من حرز أو لا؟ الجواب الذي عليه الأغلب: أنه سارق حرز، لأن حرمة المؤمن ميتاً كحرمته حياً[٢]. فكما يجب حفظ أموال الحي فكذلك يجب حفظ أموال الميت. والدليل على أن الأرض حرز قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾[٣]. والكفت: الجمع والحرز، فالقبر حرز. هذا إضافة إلى الأخبار الدّالة على أنه حرز[٤].

٢ـ أن يبلغ المسروق نِصاباً. والنصاب عند جمهور الفقهاء ما يبلغ ربع الدينار الشرعي، وهو الدينار الذهبي، ويساوي درهمين ونصف إلى ثلاثة دراهم.

---

(١) كما جرى للشيخ الطبرسي، وكانت سبباً في تأليفه تفسيره (مجمع البيان)، فقد ذكر مترجمه في مقدّمة التفسير المذكور عن صاحب (رياض العلماء) أنه قال: «مما اشتهر بين الخاصّ والعامّ أنه ﷺ أصابته السكتة، فظنّوا به الوفاة، فغسلوه وكفنوه ودفنوه وانصرفوا. فلمّا أفاق وجد نفسه مدفوناً، فنذر إن خلّصه الله من هذه البليّة أن يؤلّف كتاباً في تفسير القرآن. واتّفق أن بعض النباشين كان قد قصد قبره في تلك الحال، وأخذ في نبشه، فلما نبشه وجعل ينزع عنه الأكفان، قبض بيده عليه، فخاف النبّاش خوفاً عظيماً، ثم كلّمه فازداد خوف النبّاش، فقال له: لا تخف. وأخبره بقصّته، فحمله النبّاش على ظهره، وأوصله إلى بيته، فأعطاه الأكفان، ووهب له مالاً جزيلاً، وتاب النبّاش على يده. ثم وفى بنذره وألّف كتاب (مجمع البيان)...». مجمع البيان ١: ١٤ (المقدّمة).

(٢) عن النبي الأكرم ﷺ: «حرمة المسلم ميّتاً كحرمته حيّاً سويّاً». تهذيب الأحكام ١: ٤١٩ / ١٣٢٤.

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «حرمته (المؤمن) ميتاً أعظم من حرمته وهو حي». الاستبصار ٤: ٢٩٧ / ١١١٦.

(٣) المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦.

(٤) انظر: الخلاف ٥: ٤٣٥، جواهر الفقه: ٢٢٩، الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٤١٨، شرائع الإسلام ٤: ٩٥٥، كتاب الأم ٦: ١٦١: مختصر المزني: ٢٦٤، المجموع شرح المهذّب ٢٠: ٨٥.

وتختلف تقديرات النصاب بين عشرة دراهم أو خمسة أو ثلاثة أو ربع دينار.

شبهة أبي العلاء

وقد حصل لأبي العلاء المعري من هذا لبس في لحظة من اللحظات، فكان أن خطر بباله هذا السؤال: لماذا تؤخذ دية اليد خمسمئة دينار ذهب ـ وهي نصف دية الحر ـ لكنها تقطع إذا سرقت ربع دينار؟ يقول:

يد بخمسٍ مئين عسجد فديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

تحكّم ما لنا إلّا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار(١)

وأبو العلاء هذا كان قد مرّ بمرحلة من مراحل الشكّ، لكنه بعد ذلك استقام وتراجع عن جملة من آرائه. وهذه هي الصفة الغالبة عند أصحاب الاتّجاهات الفلسفية إذ يمرّون بحالات من الشك. ولو رجعنا إلى تاريخ الفلاسفة لوجدنا أن معظمهم قد مرّ بهذه المرحلة وتجاوزها؛ لأنهم يغوصون في مسائل عويصة. ومن له إلمام بالفلسفة يعرف ذلك. وقد أجاب بعضهم أبا العلاء عن إشكاله هذا بقوله:

عِزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذُلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري(٢)

فاليد النظيفة مشرّفة ومحترمة طالما أنها نظيفة، لكنها إذا نزلت إلى الحضيض والاعتداء على الناس أصبحت وضيعة، وتدنّت قيمتها إلى ربع الدينار.

إن الله تعالى أعطى الإنسان أعضاء ليستخدمها في فعل الخير وطرقه، ولم يعطِه إياها ليعتدي بها على الناس ويسرق ويضرّ المجتمع، ويلمس ما لا يجوز له أن يلمسه. فلا بد له من أن يستخدم الجارحة التي منحه الله إيّاها في الطريق الذي

---

(١) فقه القرآن ٢: ٣٨٤، لسان الميزان ١: ٢٠٥.

(٢) بحار الأنوار ١٠٤: ٩ ـ ١٠، الإقناع في حل ألفاظ أبي الشجاع ٢: ١٩٠.

رسمه له. والله هو الذي أعطى الإنسان هذه النعمة من الأعضاء، فلو أنه أصيب بالشلل مثلاً وبقي عشرات السنين وذهب إلى أمهر الأطباء فلا يستطيع أن يعيد له حركة اليد، إنها هبة من الله ونعمة، وقد تكفّل الله بها على صعيد الإدامة لا على صعيد الإعطاء فحسب.

ولو أن عناية اللّه تنقطع عن الإنسان لحظة من اللحظات في أي مجال لانقطع عنه كل شيء. وعليه فينبغي ألّا يكون شكر النعمة إلّا باستخدامها في موضعها.

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما يخرج من المسجد بعد الصلاة يمرّ بميثم التمّار أو جماعة من أصحابه، فيشتري لأهله شيئاً، وغالباً ما يكون التمر، فيتسارع إليه شرطة الخميس ليحملوها عنه، فيقول لهم: **«دعوها، إن أبا العيال أحق بحمله»**.

ويحمله بيده الشريفة، أي أنه عليه السلام يريد أن يفرح أطفاله وهم يرونه يحمل بيده شيئاً لهم. وكم يفرح الطفل عندما يرى أباه يحمل بيده حاجة له. وأسأل الله أن يهدي الآباء ويجعل دأبهم إدخال الفرح على أطفالهم، ولا ينفقوا أموالهم فيما لا يرضيه، فيرجع لأهله وهو يحمل الغضب والحقد والتصرف السيئ.

ومن الموارد التي تقطع فيها اليد حال خروجها للحرابة. والحرابة هي أن يقطع صاحبها الطريق، على الناس، فيسلب وينهب ويعتدي ويسفك الدم. قال تعالى: **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[1].

---

(١) المائدة: ٣٣.

ومن الشواهد على الحرابة ما يرويه البخاري[١] وغيره[٢]، أن جماعة من عُرينة دخلوا على النبي ﷺ ، فقالوا له: نحن جئنا وافدين عليك، فأصابنا في المدينة اجتواء (نوع من الأمراض). فأمر لهم النبي ﷺ بلقاح (مجموعة من النياق ذات اللبن)، مع راعٍ، وقال لهم: **«كلوا منها وتداووا»** ـ لأن الناس ذلك الزمان كانوا يتداوون ببعض إفرازات الإبل ـ **ثم أعيدوها إلينا؛ لأنها من بيت المال وليست لنا»**.

فأخذوا النياق، وفعلوا ما قال لهم، إلى أن برئوا. فعمدوا إلى الراعي وقتلوه، ونهبوا النياق، فأمر النبي ﷺ بإتباعهم، فأُتي بهم قبيل الغروب. فقال النبي ﷺ : **«قطّعوا أيديهم وأرجلهم»**.

فهؤلاء طُبّق عليهم حكم الحرابة؛ لأنهم نهبوا وسرقوا وقتلوا فقطعت أيديهم وأرجلهم. فهذه اليد لم تشكر النعمة، بل وقفت تحارب المسلمين؛ ذلك أن النياق للمصلحة العامة، وهي من أموال المسلمين. والراعي رجل بريء جاء لخدمتهم. ثم إن النبي ﷺ كرّمهم، لكنهم كفروا بالتكريم؛ ولذا استحقّت هذه اليد أن تقطع؛ لأنها انحرفت، فلم يصبح لها قيمة محترمة.

هذه موارد انحراف اليد. أما الموارد التي إذا قطعت فيها اليد أصبحت عنوان مجد، فهي اليد التي تقطع في سبيل العقيدة، ومنها ما ذكرته الآية الكريمة.

أوّل من قطع اليد

يقول المفسرون: أول من قطّع وصلّب فرعون، وذلك عندما آمن السحرة

---

(١) صحيح البخاري ٧: ١٣، وفيه أنه ﷺ إضافة إلى ذلك أمر بسمر أعينهم.

(٢) السنن الكبرى (النسائي) ٧: ٩٤، السنن الكبرى (البيهقي)٨: ٦٢، تفسير ابن زمنين: ٢٥، وفيها أنه ﷺ أمر بسمر أعينهم كذلك.

لموسى عليه السلام، فقد هيأ فرعون السحرة لموسى عليه السلام وتصور أنه ساحر مثلهم. فلما رأى السحرة ما عند موسى أيقنوا أن ذلك ليس سحراً، وإنما هو معجزة، وقد رأوا العصا تلقف ما يأفكون، ورأوا موسى عليه السلام ليس من سنخ السحرة، بل رأوا أنه يحمل عطاء السماء، وما أراد الله له أن يحمله؛ ولذا سجدوا له وآمنوا به. فالتفت فرعون إليهم قائلاً: **﴿آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾**[1]، ثم قال: **﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[2]، فقالوا له: اصنع ما شئت[3]، فحتى لو لم تقطعها أنت فإنها تقطع يوماً من الأيام شئنا أم أبينا، وستتحول إلى ذرات في القبر. إن قطعها الآن يمثل عنوان شرف، لأنه في سبيل الدفاع عن العقيدة، وهذا مورد من الموارد التي نفتخر بها. وهذا عين ما يعنيه أبو الطيب المتنبي ﷺ في إحدى روائعه حيث يقول:

ولوَ ان الحياة تبقى لحيّ	لعددنا أضلّنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموتِ بدٌّ	فمن العارِ أن تموتَ جبانا[4]

أي لو أننا نعرف أن الحياة تبقى وتدوم، لاعتبرنا الشجاع ضالاًّ؛ لأنه يضيّع حياته. لكنها ستضيع منه ضيعها هو أم لم يضيعها. فالنتيجة إلى الموت حتماً.

نعم، قالوا لفرعون: **﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾**. هذه هي النتيجة الطبيعية الحتمية للإنسان. احتضر أعرابي فدخلت عليه بناتُه وهو في النزع، فبكين، فقال لهن: لم البكاء؟ قلن: عليك. قال: إن مت، فإلى أين أصير؟ قلن: إلى الله. قال: وهل يُحزن

---

(١) الأعراف: ١٢٣. (٢) الأعراف: ١٢٤.

(٣) ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ الأعراف: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٤) ديوان المتنبّي ٢: ٤٧٤.

على ذاهب إلى الله؟ ينبغي الفرح لذلك لا الحزن؛ لأنني ذاهب إلى رب الرحمة والعطاء والكرم. إنني ذاهب إلى من غمرت رحمته السماوات والأرض.

فهؤلاء السحرة مطمئنون بالذهاب إلى ربهم؛ لأنهم واثقون به، وهذه اليد التي ستقطع لا تقطع في عار، وإنما تقطع لحظة الدفاع عن العقيدة، فهي في جوّ مشرف. وفعلاً أمر فرعون بهم، فقطعت أيديهم وأرجلهم.

ومن الشواهد على قطع اليد في سبيل العقيدة أن ميثماً التمار جيء به فأُدخل على الطاغية عبيد الله بن زياد، فقال له أحد الجالسين: هذا من موالي علي بن أبي طالب. فقال لميثم: ماذا قال لك مولاك الكذّاب؟ قال: ما مولاي بكذّاب، الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه. قال: يا عدو الله، والله لأقطّعنك إرباً إرباً. قال: افعل ما بدا لك. قال: ماذا قال لك مولاك؟ قال: قال لي مولاي: **«يؤتى بك إلى العتلّ الزنيم ابن مرجانة، فيأمر بقطع يديك ورجليك ولسانك، ويصلبك على نخلة»**. قال: والله لأُكذّبنه، اقطعوا يديه ورجليه، وخلّوا له لسانه.

ففعلوا ذلك، وأخذ الدم ينزف منه. فراح يصيح وهو مصلوب على جذع النخلة ولا زالت به طاقة: أيها الناس، من أراد أن يستمع إلى العلم المخزون عن باب مدينة علم رسول الله ﷺ فليأتِ إليّ. وراح يحدث الناس بفضائل علي وآل الرسول ﷺ ومثالب أعدائهم. فبلغ عبيد الله أن ميثماً قد فضحهم وألبّ الناس عليهم، فقال: بادروا إليه واقطعوا لسانه. فلما جاء من يحمل السيف لقطع لسانه قال له: هل استطاع أميرك أن يكذب سيدي؟ ثم مد لسانه ليقطع، وهو يقول: كفاني شرفاً أن تقطع أعضائي في هذا السبيل. فقطع لسانه، وبقي مصلوباً على الجذع.

وهذا هو أُسلوبهم، لكنهم لم يعوا أن هذا الجذع أصبح منارة من منائر الشرف. يقول أحد الشعراء في رجل مصلوب:

علــق فــي الحـياة وفـي الممات | لحــق أنت إحـدى المـعجزاتِ
ولما ضـاق بـطن الأرض عـن أن | يـضم عــلاك مــن بـعد المماتِ
أصاروا الجوّ قبرك واستعاضوا | عـن الأكـفان ثـوب السـافياتِ [1]

إلى آخر أبياته في هذه التائية الرائعة.

المبحث الثاني: خلود الشهداء

وإذا كانت الأرض تأكل الأعضاء العادية فإنها لا تستطيع أن تأكـل العـضو المقطوع في سبيل العقيدة، بل إنه يظلّ يعيش في المشاعر والأفكار والعقول؛ لأن هذه الأعضاء مواقف، والموقف لا يموت. وهذه القضايا تبقى في ذاكرة التاريخ وفي أذهان الناس؛ كونها في سبيل الدفاع عن عقيدة. ومن الشواهد على قـطع الأعضاء في ساحة الشرف أعضاء حمزة بن عبد المطّلب ﷺ التي قطعت، وهـي أنامله ويداه وأنفه وأذناه، وعملت منها هند قلادة ولبستها، ودخـلت إلى مكّـة، وهي ترتجز:

نـــحن جــزيناكــم بـيوم بــدر | والحرب بعد الحـرب ذات سـعر [2]

---

(١) الأبيات لأبي الحسين الأنباري يرثي بها ابن بقية؛ إذ أن عضد الدولة قتله وصـلبه عـلى رأس الجسر في شوال من سنة (٣٦٧)هـ. ومنها مصوّراً حاله وهو مصلوب بأبدع صورة:

كأن الناس حـولك حـين قـاموا | وفـود نـداك أيـام الصِّـلات
كـأنك قـائم فـيهم خـطيباً | وكـلّهُمُ قـيام للـصلاة
مـددت يـديك نـحوهُمُ اقـتفاء | كـمدّهما إليـهم فـي الهبات
لعظمك في النفوس تبيت تـرعى | بـحرّاس وحـفّاظ ثـقات
وتشـعل عـندك النـيران ليـلاً | كـذلك كـنت أيـام الحـياة
ركـبت مـطية مـن قـبل زيـد | عـلاها فـي السـنين الذاهـبات

وقوله: زيد علاها: يعني زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ إذ أنـه قـتل وصلب كذلك. الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ج٨، ص٦٩١ ـ ٦٨٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ١١٩، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٣، تـفسير الثـعلبي ٣: ١٤٦، الجـامع

لكن، إن كانت هند هذه قد شفت قلبها فقد أحرقت قلب رسول الله ﷺ والإسلام، ومع ذلك فلا يضرّ حمزة ﷺ أن تقطع أعضاؤه من بعد شهادته. يقول عبد الله بن الزبير لأُمّه: أخاف إذا قتلت أن يمثل بي الأمويّون. فقالت: الشاة لا يضيرها السلخ بعد الذبح[1].

ومن الشواهد التي قطعت فيها اليد دفاعاً عن العقيدة يدا جعفر بن أبي طالب، فقد نزل إلى الحرب في مؤتة يحمل عنفوان الهاشميين، وروح الإسلام، وهمّة المجاهد، ووقف في ذلك الموقف أمام أشرس الخصوم حتى قطعت يداه، فعوّضه الله عنهما بجناحين يطير بهما في الجنة تكريماً لهذين العضوين. وكم حزن النبي الأكرم ﷺ لفقده؛ فقد بان التأثر على وجهه الشريف عندما بلغه مصرعه، فكان يدخل إلى بيته، وفيه زوجته أسماء بنت عميس، وولداها محمد وعبد الله، فيقول: **«عليّ بأولاد جعفر»**. فكان ﷺ يضعهم في حجره الكريم، ويواسيهم غاية المواساة.

وكذلك زيد بن صوحان الذي قتل في ذات المعركة، وكانت يده قد قطعت في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: **«يسبقه عضو منه إلى الجنة»**[2]، لأنه مجاهد يذهب إلى الجنة، وهذا العضو منه.

قمر الهاشميين عنوان مجد وشرف

ونحن الليلة في رحاب أبي الفضل العباس الذي قطعت يداه في سبيل عقيدة وطريق مشرّف، وقد كان أولاد أُم البنين، فاطمة بنت حزام (رضي الله تعالى

☚ لأحكام القرآن ٤: ١٨٧.

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٩٥، كنز العمّال ١٣: ٣٢٦ / ٣٦٩٩١.

عنها)، أربعة، وقد أخذ هؤلاء العظماء الولاء من طريقين، فكان ولاؤهم للحسين عليه السلام عن طريق أمير المؤمنين عليه السلام، وعن طريق أمّهم أُم البنين.

ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام في قصة زواجه من أُم البنين كان قد بعث وراء عقيل وقال له: **«انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطف كربلاء»**[1].

فاختار له هذه المرأة من ألمع بيوت العرب، وكان العرب يفتخرون بهذا البيت. فولدت له هؤلاء النجوم الأربعة الذين خرجوا بأجمعهم مع الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام يوم الطف ليذبّوا عنه.

وقد كان للحسين عليه السلام إخوة آخرون تخلّفوا عنه، أما سبب تخلّفهم فلذكره موضع آخر من الحديث. لكن هؤلاء الأربعة خرجوا بأجمعهم، فيما بقيت أُمهم في المدينة، وكان أكبرهم العباس، وهو متزوّج من لبابة بنت الفضل بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب. وله منها ـ على رواية ـ طفلان: الفضل وعبيد الله. وعلى رواية أُخرى الفضل فقط. وكانت زوجته وأبناؤه معه على رواية، وعلى أُخرى أنهم بقوا عند أُمّه في المدينة.

وفي يوم الطف استدعى إخوته، وقال لهم: إن طريقنا هو الشهادة، وسوف نقتل اليوم بين يدي أبي عبد الله، ولا بدّ من ذلك على كل حال. فتقدموا حتى أُرزأ بكم. أي أُريد أن أحصل على الأجر وأنا أتجرع ألم فراقكم أمام عيني، قبل أن أُستشهد، فيكون لي أجر بشهادتي، وأجر بشهادتكم. وراح يقدّمهم إلى الحرب واحداً تلو الآخر، حتى صرعوا بأجمعهم.

وجاء أبو الفضل بعدهم فوقف بين يدي الحسين عليه السلام يطلب منه الإذن بالقتال،

---

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

وكان الحسين عليه السلام يصرّ على إبقائه أكبر قدر ممكن من الوقت، ولكن العباس قال له: سيدي، لقد ضاق صدري، وليس لي طاقة على أن أسمع عيالك ينادون بطلب الماء. فقال الحسين عليه السلام: **«أنت حامل لوائي؛ فإن ذهبت سقط اللواء»**. قال العباس: لا أستطيع أن أسمعك تنادي: هل من ناصر، ولا أن أسمع أخواتي يصحن: العطش العطش:

أو تشتكي العطش الفواطم عنده	**وبصدر صعدته الفرات المفعمُ**
فلو استقى نهر المجرة لارتقى	**وطويل ذابله إليها سلمُ**
بطل تورث من أبيه شجاعة	**فيها أنوف بني الضلالة ترغمُ[1]**

وكان الصوت قد انبعث قبل ذلك من معسكر ابن سعد: أين بنو أختنا؟ أين العباس وإخوته؟ فأطرق العباس خجلاً من نعتهم إياه أنه ابن أختهم. فقال له الحسين: **«أجبهم»**.

فقام العباس عليه السلام للمنادي وقال له: ماذا تريد؟ قال: جاءنا كتاب من عبيد الله بالأمان لك ولإخوتك، وسوف نعطيك رئاسة الجيش، وما تريد من الجوائز، فدع الحسين وهلم إلينا والتحق بنا. إن خالك عبد الله بن أبي المَحْل عند عبيد الله بن زياد. فقال له العباس عليه السلام: قبّح الله ما جئت به، أتدعونا إلى النار، وأنا أدعوك إلى الجنة؟ أوَ تريدني أترك نصرة من خلقني الله لنصرته؟ فألوى عنان فرسه ورجع مغضباً.

ويبدو أن أُخته زينب كانت تسمع المحاورة، فأشارت إليه، فمال بجواده إلى المخيم فقالت له: أبا الفضل، إنما تزوج أبوك أُمّك لتلد له أولاداً يكونون ردءاً

---

(١) الأبيات للسيد جعفر الحلي، رياض المدح والرثاء: ٢٣٩.

لولده الحسين، فلا تقصر عنا، وقد ادخرك أبوك لهذا اليوم. فقال: أُخية، ألمثلي يقال هذا؟ والله لأُنعمنّك عيناً:

إلي مناشده وياك وعتاب   يمنوخ الهودج على الباب

اسبعطعش يبرون له احساب

وهكذا رجع إلى الحسين، فقال: ائذن لي. قال له: «**إذن اطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء**». فنزل إلى الساحة وقدم اليدين في سبيل العقيدة. وعندما قطعت الأُولى ارتجز:

والله إن قطعتمُ يميني   إني أُحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقينِ   نجل النبيّ الطاهر الأمينِ(١)

وراح يذود الجيش بيسراه، حتى قطعت، فأنشأ يقول:

قد قطعوا ببغيهم يساري   فأصلهم يا ربّ حر النارِ

يا نفس لا تخشي من الكفار   وأبشري برحمة الجبارِ(٢)

يقول أحد المؤرخين: جلس الحسين عند رأسه، فأحس العباس بذلك، فتصور أن أحداً يريد أن يحتزّ رأسه، فقال له: يا هذا، أُقسم عليك بمن تعبد. فأصغى إليه الحسين، ثم قال: «**ما تريد؟**». قال العباس: أُقسم عليك إلّا ما أمهلتني فواق ناقة. قال: «**ما تصنع بها؟**». قال: حتى يأتي إلي أخي وابن والدي، أودعه ويودعني، وأشمه ويشمني. فقال الحسين: «**أنا أخوك وابن والدك**». قال: إذن ضع وجهك على وجهي.

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، المناقب ٤: ١٠٨.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

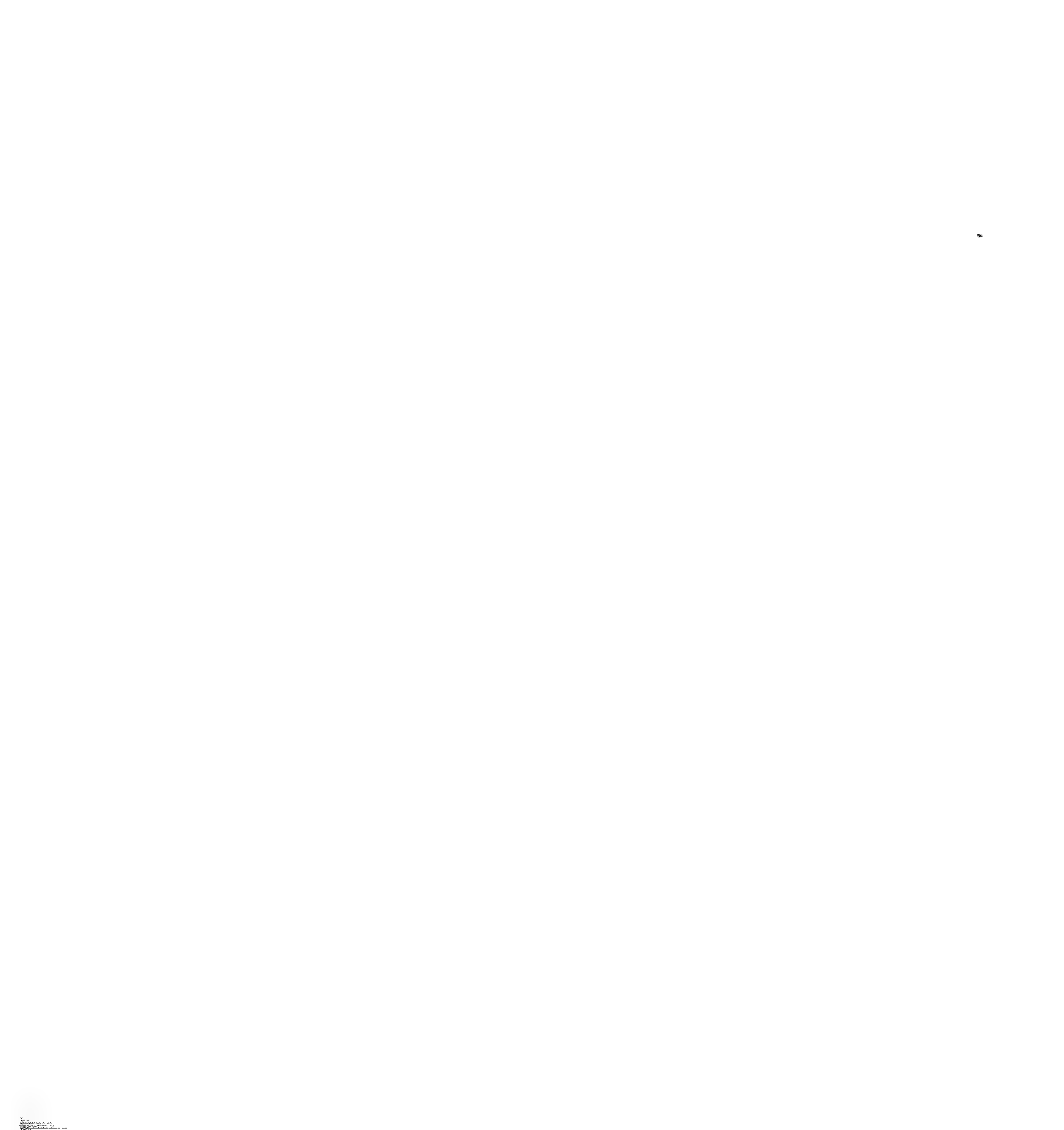
فوضع فمه على فمه، فراح يقبله إلى أن فاضت روحه الطاهرة [١]. ورجع الحسين إلى الخيمة يكفكف دموعه بمنديل، فتلقته النساء وفي طليعتهن زينب، فقالت له: أخي حسين، أراك رجعت وحدك؟ قال: **«عظّم الله لك الأجر بأبي الفضل العباس؛ لقد خلفته على المشرعة»**:

يگـــللها يـــزينب راح عـــباس   راح الضيغم اللي يـرفع الراس

ظل يبچي عليه الدرع والطاس

---

(١) المصدر نفسه.



﴿١٣٥﴾

الإمامة ومفتريات المنحرفين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في طهارة آباء الأنبياء

تدور مضامين هذه الآية حول الفكر السياسي في الإسلام، أو بتعبير آخر: إن هناك مطارحات فيها نوع من الآيديولوجيا تدور حولها، والآراء المتبنّاة مسبقاً، كما سيتّضح لنا ممّا سنرىٰ بيانه.

إن أول مسألة أثار المفسّرون الجدل حولها في هذه الآية هي: هل إن آزر أبٌ للنبي إبراهيم عليه السلام أم عمّ له؟ وهل إنه أب له حقيقة أو مجازاً؟ وهل إنه أبوه الذي ولده أم لا؟ فعند السدّي[2] وغيره أن إجماع المؤرّخين على أن أباه عليه السلام كان اسمه تارخ، وأن آزر عمه. فإن كان الأمر كذلك، فلمَ ينسب الله النبي إبراهيم عليه السلام لآزر؟

---

(١) الأنعام: ٧٤.

(٢) التبيان ٤: ١٧٥، عمدة القاري ١٥: ٢٤٠، فتح القدير ٢: ١٣٥.

ووجه الإشكال أن آزر كان يعبد الأصنام، فهل يجوز أن يكون أبو النبي مشركاً يعبد الأصنام أم لا؟ وفي هذا أيضاً نزاع بين فرق المسلمين، فهم فيها قسمان: فالذي عليه الشيعة الإمامية[١] وقسم من المذاهب الإسلامية الأُخرى ـ كما ينقل الآلوسي في تفسيره الموسوم (روح المعاني)[٢] ـ أن آباء الأنبياء لا يمكن أن يكونوا مشركين.

دليل كون النبي من سلالة طاهرة

ويستدل القائلون بأن آباء آل النبي يجب أن يكونوا مؤمنين بقسمين من الأدلة: منقول ومعقول، أما المنقول فهو الحديث المروي عن النبي ﷺ: **«ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتى أخرجني الله إلى عالمكم هذا»**[٣]. وبناء على صحّة هذا الحديث فليس من شك في أن أحداً من آباء النبي ﷺ لم يكن مشركاً؛ لأن القرآن الكريم يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾**[٤].

أمّا الدليل العقلي فإنه يقول: إذا كان أوّل شيء يدعو إليه النبي هو توحيد الله، وتنظيف الفكر عن هذا القذر وهو الشرك، فكيف يبعث الله نبياً يدعو إلى التوحيد وأبوه مشرك؟ إن الناس سوف يقولون له: إنك تدعونا إلى التوحيد، وقد كان أبوك مشركاً. وهذا يعدّ لوناً من النقص في الأُفق النبوي الذي يحيط بالأنبياء عليهم السلام. ولذا فإن أصحاب هذا القسم يرفضون فكرة أن يكون آباء الأنبياء مشركين أو ملحدين.

إذن هنا رأيان متقابلان عند فرق المسلمين على اختلاف المذاهب: أحدهما

---

(١) تصحيح اعتقادات الإماميّة: ١٣٩. (٢) روح المعاني ٧: ١٩٥.
(٣) المصدر نفسه. (٤) التوبة: ٢٨.

يقول: لا يمكن أن يكون آباء الأنبياء مشركين، والآخر على العكس من ذلك كما ينص عليه الرازي[١] في تفسيره، ومحمد رشيد رضا في تفسير (المنار)، من أنه يجوز أن يكون أحد الأبوين مشركاً، بل إن آباء الأنبياء عليهم السلام يمكن أن يكونوا مشركين. وهذا في رأيهم لا يقدح في النبوّة ولا في النبي. ونحن عندنا ـ بالإجماع ـ أن آباء الأنبياء عليهم السلام يجب أن يكونوا موحّدين.

في أن الإمام كالنبي

وكذلك الأيمّة؛ لأن هناك وحدة ملاك في الموضوع. ومعنى وحدة الملاك هنا أن الغاية من وجود الإمام هي ذاتها الغاية من وجود النبي، وغاية ما في الأمر أن النبي يوحي له الله من السماء، أمّا الإمام فيأخذ علمه وما يسيّر به أُمته من النبي، والنبي يستقي من السماء، لكن الهدف لهما واحد، هو تبليغ رسالة السماء، ونشر الأحكام الدينية بين العباد، والإشراف على تجسيد النظام الإلهي في المجتمع.

فعندما تنزل آية من القرآن فيها تجسيد للنظام كقوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾[٢] فالنبي لا يبلّغ هذا المعنى فقط، وإنما يبلّغه ويجسده. فمن عقد عقداً ولم يفِ به، يجبره على الوفاء به؛ فهو يتّصف بسلطتين هنا: تشريعية وتنفيذية. وكذلك الإمام؛ ولذا تقول الرواية: «**إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالأديان**»[٣]. فإن اقتصرنا على الجانب النظري من الوحي فقط، فسوف لن نصل إلى نتيجة ذات فائدة؛ إذن أن هناك من الناس من لا يهمّه التشريع؛ سواء نزل في القرآن أو في القانون، فلابدّ من قوة لتطبيق القانون.

وباعتبار وحدة الملاك وإن النبي والإمام سنخ واحد، لذا فإننا نخاطبهم في

---

(١) التفسير الكبير ١٣: ٣٨. (٢) المائدة: ١.

(٣) التبيان ٩: ٢٧٥، فتح القدير ٣: ٢٥٢، ٢٥٦.

الزيارة بقولنا: **« أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهرة، لم تنجسكم الجاهلية بأنجاسها »**[1]. ومن أنجاس الجاهلية: الشرك.

وعندما أمر بهذا الموضوع ألحظ فيه حدّة الصراع، وإنْ كان الصراع الفكري ـ على العموم ـ لا بأس به ولا نقص ولا عيب؛ لأننا نختلف في فهم الدليل، لكن يجب أن يكون الاحترام متبادلاً بين المختلفين وأن تحترم آراء الآخرين. والاختلاف في الرأي لا يوجب العداوة[2]، وهذا ما نراه في الشعوب المتحضّرة، وليست الحضارة إلا السلوك الحضاري الذي يسلكه الإنسان، فأنا أحتمل مثلاً أن يكون رأي المقابل صحيحاً قابلاً للخطأ، أو بالعكس، وبالمقابل عليه أن يعاملني بالمثل، فيكون هناك تبادل في الآراء لنصل أخيراً إلى الحقيقة.

إيمان أبي طالب ﵁

كما إنني عندما أمر بهذا الصراع ألمح فيه مسألة الإصرار على شرك أبي طالب﵁. وهذه النقطة من النقاط الساخنة، فهناك إصرار على أنه مات مشركاً، وإصرار من الطرف الثاني على أنه رُمي بالشرك لأنه أب لعليّ﵇، ولو أنه كان أباً لغير علي﵇ لكان الأمر على غير ما نرى.

إن الواقع يقول: إن أبا طالب كان مؤمناً كما نستفيده من مواقفه وشعره ومن إجماع أهل البيت﵈، وإجماعهم حجّة حسب حديث الثقلين. ولا يضر أبا طالب قول من قال أو دعوى من ادّعى، ولو كان الشتم يضرّ لكان هناك من الناس من ينبغي أن يختفوا من الوجود، وليس هناك من أحد شتم أكثر من علي، لكنه أخذ

---

(١) مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٧.

(٢) قال الشاعر:

واختلاف الرأي لا يفـ ـسد في الودّ قضيّه

بأبعاد الحياة، وفكرها الصحيح السليم. وكل من يقرأ تاريخه يذعن أنه جدير بالاحترام. أما الإجماع على علي من كل الناس فلا نتوقعه؛ لأن الناس لم يجمعوا حتى على أُلوهية الله ووحدانيته، فهناك من يسبّ الله، وهناك من يكفر بنعمته، فهل يضر ذلك البارئ تعالى؟

المبحث الثاني: في كون العمّ أباً

وبالعودة إلى الآية نلحظ أن القرآن استخدم كلمة (أبيه) مع ادّعائنا أنه عمه، فهل يسمى العم أباً؟ والجواب: نعم، وقد استخدم القرآن لفظة الأب بدل العم في موضع آخر، قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[1]. وهذه الآية حكاية عن النبي يوسف عليه السلام. وكان يعقوب أباً له، إمّا إسحاق فكان عمه. فالعم يسمى عند العرب أباً. والقرآن نزل بلغة العرب، وإذا كان الأمر كذلك زال إشكالان في المسألة:

الأوّل: أن المشرك المذكور في الآية لم يكن أباً له، وإنما هو عمّه، وهذا لا يضره.

والثاني: قيام العم مقام الأب وتسميته به.

أبو طالب عليه السلام يضحّي في سبيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وانطلاقاً من هذا المعنى فإننا نلاحظ أن أبا طالب عليه السلام كان من مصاديق العمومة التي تقوم مقام الأبوة؛ لأن النبي توفي والده وعمره ستة أشهر على رواية، وعلى أُخرى سنتان، وثالثة ست سنين. فقام عمّه أبو طالب بكفالته بعد جدّه عبد المطلب. ولم يقم بتربيته فحسب، وإنما ضحى بكل شيء في سبيله؛ فلا أموال ولا

---

(١) يوسف: ٣٨.

أولاد ولا مكانة، فمكانته في قريش تضعضعت، لأنهم كانوا يقولون له: إن ابن أخيك أفسد شبابنا، وأوقعنا في مشاكل نحن في غنى عنها، فلابدّ من مناجزته. لكن أبا طالب كان يقول له:

اذهب لأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر وقر بذاك منك عيونا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوسّد في التراب دفينا(١)

كما عرض أمواله كلها لخدمة النبي ﷺ، وضحى براحته، وسخر أولاده الأربعة لخدمة النبي ﷺ، وكان يقول لهم: صِلُوا جناح ابن عمكم.

المبحث الثالث: الإمام الحسين وأبناء الإمام الحسن عليهما السلام

وممن قام بدور الأُبوّة من الأعمام الإمام الحسين عليه السلام مع أولاد الحسن عليه السلام، وهذا ما سنتعرف عليه هذه الليلة.

نقاط في حياة الإمام الحسن عليه السلام

وهنا نقاط تستحق الوقوف عندها في حياة الإمام الحسن عليه السلام، ولابدّ من المرور بها وهي:

الأولى: أولاد الإمام الحسن عليه السلام

إن عدد أبناء الإمام الحسن عليه السلام الذكور والإناث خمسة عشر فرداً على أصح الروايات. وهناك رواية تقول: إن عددهم عشرون، وثالثة تقول: إن عددهم أحد عشر، ورابعة تقول: إن عددهم تسع. لكن الأصح، والذي عليه الشيخ المفيد وآخرون أنهم خمسة عشر. ومنهم زيد بن الحسن وأُختاه أُم الحسن وأُم الحسين،

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأُحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

وأُمّهم أُمّ بشير الخزرجية من الأنصار. وكان زيد يتولّى صدقات رسول الله التي تركها لتوزّع على المسلمين. فلما جاء سليمان بن عبد الملك إلى الحكم نزع منه هذه التولية، لكن عمر بن عبد العزيز أرجعه إليها مرة أُخرى.

وهذا يدل على أننا لا عداء لنا مع أحد إذا كان محمود السيرة، فبعض الأُمويين من أمثال عمر بن عبد العزيز نقدرهم غاية التقدير؛ لأن المقياس عندنا هو الصلاح والفساد. وكان أبان من أصحاب الأيمّة، وهو أُموي، لكنه من خيرة الناس، وله عندنا مكانة كبيرة لا حدود لها. كما إننا نعطي أُم حبيبة بنت أبي سفيان حقّها من الاحترام والتبجيل اللذين منحها الله إياهما، فلا عداء لنا مع أحد.

وكان لزيد بن الحسن مكانة كبيرة، وكان من الأجلّاء ومن مقاصد العرب، وقد اشتهر بالجود، يقول عنه أحد الشعراء:

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة	نفى جَدبها واخضرّ بالنبت عودُها
وزيدٌ ربيع الناس في كل شتوة	إذا أخلفت أبراقها ورعودُها

ويعتبر زيد من أعمدة النسب عند السادة الحسنيين؛ لأن الولدين اللذين أعقبا عند الإمام الحسن عليه السلام هما: زيد بن الحسن، والحسن المثنى.

والحسن المثنى هذا هو الحسن بن الحسن، وكان يتولّى صدقات جده علي عليه السلام، وقد بعث الحجّاج إليه أن أشرك معك في هذه الصدقات عمك عمر بن علي بن أبي طالب. فقال الحسن: هذه الصدقات مشروطة، وأنا منصوص علي بالولاية، ولا أستطيع أن أخالف النص. فقال الحجاج: أُجبرك على هذا.

فخرج من حيث لا يشعر به الحجاج، فأتى الشام إلى عبد الملك، فوجد في الطريق رجلاً اسمه يحيى، فقال له يحيىٰ: أنا معك، وسوف أرعاك. فدخل معه على عبد الملك، فرحب به، وقال: أرى الشيب قد غلب عليك. فالتفت إليه يحيى

قائلاً: ولمَ لا يشيب، لقد شيبته الهموم والأماني بأن يكون خليفة، وهناك من يدخل عليه يبايعه ليصبح خليفة. فقال: الحسن ليحيىٰ: بئس ما قلت، أهذا الرفد الذي وعدتني به؟ ثم قال له عبد الملك: ما وراءك؟ فقصّ عليه أمره مع الحجّاج.

فكتب عبد الملك للحجاج أن يترك الأمر على ما هو عليه، وأن تبقى الصدقات بيد الحسن المثنى، ثم ودعه وخرج. فلما خرج الحسن قال ليحيىٰ: أهذا ما وعدتني به من الإعانة؟ قال يحيىٰ: نعم. قال: كيف؟ قال: أتظن أن هذا يقضي لك حاجة وهو لا يخاف منك؟ لقد خوّفته بما قلت له فقضى لك حاجتك. أي أنه يريد أن يقول له: قد أحببت أن أنبهه إلى أن لك مكانة، وأنك تشكّل مركز ثقل، ولذا قضى حاجتك.

وكان الحسن المثنى قد خرج مع الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف وقاتل حتى سقط جريحاً، وكانت أُمّه خولة بنت منظور الفزارية، فلما انتهت المعركة وجاؤوا للتنكيل بالقتلى، جاء أحد أخواله وهو أسماء بن خارجة، فقال: لا يصلن أحد إلى ابن خولة. فقال ابن سعد: دعوه لأبي حسّان، إنه ابن أُخته. فحمله وهو جريح، وأتى به إلى الكوفة، فعالجه حتى برؤ، وأرجعه إلى المدينة.

وهناك ثلاثة آخرون من ولد الإمام الحسن هم: القاسم وعبد الله وعمرو، وأُمهم أُم ولد (جارية).

الثانية: فرية أنه مذواق مطلاق

إن هذه الفرية المختلقة تقول: إن الإمام الحسن تزوج ثلاثمئة امرأة، وهي فرية لا أساس لها، بل إن هناك رواية تقول: إنه مر يوماً بلُمّة من النساء فقال لهن: **«من منكن تتزوج ابن رسول الله؟»**. فقلن له: كلّنا مطلقاتك.

وأنا أسأل هذا السؤال: لو أنك مررت بأدنى الناس أخلاقاً (ابن شارع)

وسمعته يقول لمجموعة من النساء: من منكن تتزوجني؟ فهل تقبل منه ذلك؟ فكيف تقبله من خليفة من خلفاء المسلمين، وسيد شباب أهل الجنة[1]، وابن رسول الله؟ إنهعليه السلام صاحب مركز مرموق لا يتناسب معه هذا الكذب والافتراء. إن هناك ما يسمى بـ«مناسبة الحكم للموضوع» فهل تساعد مناسبة الحكم للموضوع ما سمعت من أنه يمر بمجموعة من النساء ويسألهن: من منكن تحب أن تتزوج ابن رسول الله؟ وهل يقدم على هذا العمل ذو مكانة ومقام كريم، وقائد من قواد المسلمين، ومن يحبه النبيصلى الله عليه وآله ويقول عنه: **«أحب الله من أحبه»**. وكان يحمله على كتفه، ويعبر عنه بأنه **«سيّد»**.

الثالثة: إن كانت هذه نساؤه فأين أولاده

إن الإمام الحسنعليه السلام مات وعمره (٤٦) أو (٤٧) سنة، أي أنه في ريعان شبابه، ثم إنه لم يكن عقيماً، فإن كان تزوج هذا العدد من النساء فأين أولاده منهن؟ إن المرأة الواحدة يمكن أن تنجب (١٥) ولداً، فهل يتناسب عدد أولاده المذكور أوّل هذا المبحث مع عدد النساء المزعومات؟ مع العلم أن الأضواء في التاريخ تسلط عندنا على من يحكم، حتى إن أحدهم يقول عن تاريخنا: إنه تاريخ حكّام لا تاريخ شعوب. وكان الإمامعليه السلام الحسن خليفة وحاكماً، ولا شكّ أن الأضواء سلطت عليه، فأين هذا العدد الضخم من النساء؟ وأين من أنجبنهم من الأولاد؟

إن الهدف من إلصاق هذه التهمة بالإمام الحسنعليه السلام هدف واضح، وهو محاولة

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

إسقاط مكانته وهيبته من قلوب الناس وأعينهم. وقد لعب العنصر السياسي دوره هنا، والذي لعب هذا الدور بشكل أكبر إنما هم العباسيون، فأصروا على تشويه صورة الإمام الحسن﵇، وعلى إبرازه للناس بشكل يوحي أنه إنسان لا شغل له سوى الزواج والطلاق. رووا أن الإمام علياً﵇ قال: **«لا تزوجوا الحسن؛ فإنه رجل مطلاق»**. فقام رجل من همدان فقال: بلى والله لنزوجنّه وهو ابن رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين﵇؛ فإن شاء أمسك وإن شاء طلق [١].

وهذا كما رأيت لا يتناسب معه، ولا يستقيم أمام النقد أبداً. وقد أراد العباسيون أن يصوروا العلويين على أنهم ضعفاء منصرفون إلى شهواتهم ولذائذهم.

والغريب أن الأضواء لم تسلّط على من تزوجوا عدداً كبيراً من النساء فعلاً، فهناك من بني أُمية من تزوج (٦٢) امرأة، والمتوكل العباسي كان لديه (٤٠٠٠) سرية [٢]. ويمكنك مراجعة تاريخ الطبري والمسعودي وغيرهما [٣]. وهذه الأربعة آلاف موزّعة على قصوره، لكن، هل سمعت أحداً من المؤرخين ينتقده؟ أم أنهم يصفونه أنه محيي السنة ومميت البدعة؟ [٤]. وقد كان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب﵇ [٥]، لذا تجد التاريخ يصفه بهذه الأوصاف. وهذه من الثغرات التي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٥٣، ٢٦٢، البداية والنهاية ٨: ٤٣، وقد رواه الكليني في الكافي ٦: ٥٦ / ٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠.

(٣) البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤١.

(٤) البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٥) شجرة طوبىٰ ١: ١٥٧، الكامل في التاريخ ٧: ٥٥ ـ ٥٦، قال ابن الأثير: وكان المتوكّل شديد البغض لعلي بن أبي طالب﵇ ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولّى علياً وأهله بأخذ المال والدم، وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث، وكان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدّة ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكّل والمغنّون يغنون: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين. يحكي بذلك علياً﵇ والمتوكل يشرب ويضحك، ففعل

يجب أن تصحّح في تاريخنا؛ لأن التاريخ كتب في العصور الملغمة، وآثار ذلك سوف تنسحب على الأجيال، فعلى المراكز الإسلامية أن تنتبه لذلك، وتصحّح مسار تاريخنا وهدف مسيرتها.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (المذاهب الإسلامية): «ليس من المعقول أن يشتم الأُمويّون علي بن أبي طالب على المنبر صباح مساء، ثم يكتبون له في تاريخهم فضيلة». وماقاله عين الصواب؛ لأنهم إن كتبوا له فضيلة وهم يشتمونه كان ذلك تناقضاً.

إذن ينبغي أن ينظّف التاريخ من روايات المدح والقدح والمبالغة وغير ذلك مما ليس في محلّه، وإلّا فما ذنب الجيل إذا زودناه بهذا الزاد؟ إنك ترى أننا إذا أُصبنا بوباء بسيط في بلداننا، فإننا نقوم بحملة صحّيّة واسعة للقضاء عليه، فلم لا نفعل ذلك مع الوباء الفكري والعقيدي؟

الرابعة: في تزوّج الأئمّة عليهم السلام من الإماء ومفهوم الكفاءة

إن الكثير من الأئمّة تزوّجوا من الإماء، والأمة غير الحرّة، ومعنى ذلك أن الكفاءة التي يشترطها فقهاء المسلمين من ناحية الزوجين، لا من ناحية الزوج فقط لم تتحقّق.

ففي كتب الأحكام أن الكفاءة بين الزوجين لابدّ أن تتحقّق، لكن، هل هذه الكفاءة شرط صحة أو شرط لزوم؟ فإن انعدمت الكفاءة وحصل العقد فهل هو

☚ ذلك يوماً والمنتصر حاضر فأومأ إلى عبادة يتهدّده، فسكت خوفاً منه، فقال المتوكّل: ما حالك؟ فقام وأخبره، فقال المنتصر: يا أُمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه. فقال المتوكّل للمغنّين: غنّوا جميعاً:

غار الفتى لابن عمّهْ   رأس الفتى في حِرِ امّه

صحيح أو لا؟ يقول بعض المذاهب الإسلامية: إن الكفاءة شرط في الصحة، ولا ينعقد العقد في مثل هذه الحال، وإن قارب المرأة فهو زنا. وعند بعض المذاهب أنه شرط لزوم، أي أن الكفاءة إذا لم تتحقّق، فالعقد صحيح، لكن المرأة يحقّ لها أن تفسخ العقد [١]. فما هي الكفاءة؟

يشترط الأحناف [٢] والشوافع [٣] والحنابلة [٤] الكفاءة في النسب، فالقرشي يتزوج القرشية، والكردي الكردية. وغير العربي ليس كفئاً للعربية. والعربي غير القرشي ليس كفئاً للقرشية.

وعند الإمامية [٥] والمالكية [٦] أن الكفاءة لا تطلب إلا بالدين: **«من جاءكم ممّن ترضون دينه فزوجوه، إلّا تفعلوه تكن فتنة»** [٧]. فالمسلم كفء المسلمة. أما في النسب فلا، فقد زوّج النبي ﷺ ربائبه إلى أُناس ليسوا بمستواه، باستثناء الإمام علي، وزوّج ابنة عمته زينب بنت عبد المطلب [٨] سيد البطحاء من زيد بن حارثة، وهو مملوك، وزوّج فاطمة بنت قيس من مملوك مُعتق. ثم إن النبي ﷺ نفسه

---

(١) انظر في هذا المطلب وسابقه: الخلاف ٤: ٢٧٤ ـ ٢٧٥ / المسألة: ٣٣ المبسوط (الطوسي) ٤: ١٧٩، تذكرة الفقهاء ٢: ٦٠٤ (حجري)، مسالك الأفهام ٧: ١٥٧، كتاب النكاح (الأنصاري): ١٦٩، بدائع الصنائع ٢: ٣١٧.

(٢) المبسوط ٥: ٢٢، ٢٤، تحفة الفقهاء ٢: ١٥٤، ١٥٥، بدائع الصنائع ٢: ٣١٨.

(٣) المجموع شرح المهذّب ٤: ٢٨، مغني المحتاج ٣: ٢٠٨، إعانة الطالبين ٣: ٢٧٥.

(٤) المغني ٧: ٢٧٤، ٢٧٥، ٤٢٠، الشرح الكبير ٧: ٤٦٥، ٤٦٦، ٥٥٤، كشاف القناع ٥: ٧٣.

(٥) الناصريات: ٣٢٧/المسألة: ١٥٣، الخلاف ٤: ٢٧١/٢٧، إرشاد الأذهان ٢: ٣٠.

(٦) حاشية الدسوقي ٢: ٢٥٠.

(٧) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ ـ ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمّال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٨) يريد المحاضر أنها من نسل عبد المطّلب الذي هو جدّها لأمّها؛ فهي ابنته.

تزوج من الإماء. وأمر النبي ﷺ بني بياضة وهم من أسر الأنصار الشريفة أن يزوّجوا جويبراً الغلام من ابنتهم[١].

فالكفاءة في الدين فقط، أما في النسب فلا، قال تعالىٰ: **﴿يا أيُّهَا النَّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتْقاكُمْ﴾**[٢].

نكاح العلوية من غير العلوي

وقد يقول قائل: إن عندكم أيها الشيعة أحد الروافد يقول: لا يجوز أن تتزوج العلوية إلّا من علوي، فما هذا الرأي؟ والجواب: أن هذا الرأي مقتصر على جماعة، وهو متروك لا يُعمل به. وعندنا أن المسلم كفء المسلمة. والكفء هو الرجل الصالح.

وقد تطرّقت لهذا الموضوع؛ لأن هناك مشكلة قائمة الآن هي أن الكثير من الآباء تركوا بناتهم عوانس بحجّة أن هذا ليس كفئاً لهم، لأنهم سادة أو عرب، وهذا كما يقول الحديث «**إلّا تفعلوه تكن فتنة**»؛ ولأنه عامل على نشر الفساد في الأرض. ولو تذلّلت العقبات أمام الزواج لارتفع الكثير من الفساد؛ لأن الإنسان يقع غالباً في الرذيلة إذا لم يجد ما يعفّف به نفسه.

وأنا لا أطلب من الآباء أن يلقوا البنت أو الولد إلى مصيريهما دون دراسة للحالة، فهذه مسؤولية أيضاً، ومن زوّج ابنته من فاسق فقد عقّها[٣]، لكن ينبغي أن

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ١١٨، أُسد الغابة ٢٠٢ / ١٩٦٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) في الحديث عن الصادق عليه السلام: «من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادها إلى الزنا، ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها». الفقيه ٤: ٥٨ / ٥٠٩١.

تخفّف القيود عن الزواج.

والمصيبة اليوم هي أن المكان الذي أراد النبي ﷺ أن يجمع منه المسلمين، انطلق المسلمون منه لبثّ الفرقة بينهم. فقالوا: معنى من ترضون دينه أن يكون من مذهبك. والمذهب ـ في الحقيقة ـ ما هو إلا مجتهد يوصلك إلى الحكم، فهو رافد، يقودنا إلى الإسلام، وكلنا إلى الإسلام. فمن كان مسلماً يشهد أن لا إله إلا الله، ولا ينكر ضرورة من ضرورات الدين، فهو كفء المسلمين.

وأؤكد هنا أن المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يلتحم بعضه ببعض ويتلاصق إلا عن طريق الزواج، وهذا هو الهدف الذي رسمه الله للزواج.

لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين يمنعون الزواج من مذهب آخر؟ إن هذا لا يلتقي مع روح الإسلام. وقد زوج أهل البيت أناساً لا يصلون حتى لغبارهم، كل ذلك بدافع وحدة المسلمين. ونحن هنا نطلق صوت الإسلام الذي يدعو إلى تذويب العقبات. والذي يعنينا وحدة المسلمين فقط.

رجع

وممن حضر في الطف من أولاد الإمام الحسن ولم يقتل ابنه عمر، وكان مريضاً، وعمره (١١) أو (١٣) عاماً، وقد جيء به أسيراً وأُدخل إلى مجلس عبيد الله ومجلس يزيد، وقد سأله يزيد: من أنت؟ قال: أنا ابن الحسن. قال: هل لك أن تصارع ابني خالداً؟ قال: أنا مريض، لكن أعطني سكيناً وأعطه سكيناً، فإما أن يقتلني فألحق بآبائي، أو أقتله فيلحق بآبائه.

فعرف يزيد أنها كلمة رجل. فقال:

شنشنة أعرفها من أخزم هل تلد الحية إلا حيه[1]

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٥.

وهناك من أبناء الحسن من ينص عليه المؤرّخون أنه حضر يوم الطف، ويذكرون أن أُمه شهربانويه أخت شاه زنان، فيكون على هذا ابن خالة الإمام زين العابدين عليه السلام. وهو على رواية أن أباه عليه السلام تركه في بطن أُمه، وعلى أُخرى أن عمره كان (١٠) سنوات أو (١١) سنة، أي في عمر القاسم. فلما سقط الحسين عليه السلام على الأرض يوم كربلاء، خرج من الخيمة يعدو، فرآه الحسين عليه السلام وكان لا يقوى على الحركة، فصاح بأُخته: **«أمسكيه لئلا تأخذه حوافر الخيل»**.

فبادرت إليه لتمسكه، فأفلت منها، وأقبل يعدو حتى جلس في حجر عمه. فأدناه الحسين إليه، ومسح بيده على رأسه، وبينا هو كذلك إذ أقبل أبجر بن كعب فرفع سيفه يريد ضرب الحسين عليه السلام، فالتفت إليه الصبي قائلاً: يا بن اللخناء، تريد أن تضرب عمي؟ واتقى الضربة بيده، فقطعت يده، وبقيت معلّقة بالجلد. فصاح: أدركني يا عماه. فضمّه الحسين وهو يقول: **«صبراً ولدي، صبراً بني الكرام، والله لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلىٰ جنان الله الواسعة والنعم الدائمة. فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلىٰ قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب أليم. إن أبي حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**[1].

ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: **«اللهم اشدد وطأتك علىٰ هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا»**[2].

---

(١) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٥٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧ / ٢.

(٢) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه عليه السلام قالها حين نزل علي الأكبر عليه السلام إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه عليه السلام قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

ولم أرَ من بنات الحسن من حضرت إلى الطف، وكان له من البنات سبع. منهن أُم سلمة ورقية وفاطمة. أما الأولاد فقد حضر منهم من ذكرنا، كما حضر القاسم بن الحسن، وكان عمره يوم الطف (٩) سنوات أو (١٠) أو (١١) سنة على ثلاث روايات. وقد كان آخر من صرع كما يظهر من الروايات؛ لأنه كان داخل الخيمة، فلما لم يبقَ مع الحسين أحد من بني هاشم، ورجع آخر رجعة ووقف، سمع القاسم صوت عمه ينادي: **«أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابٍّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»**[1]. خرج وأمسك بثوب عمه. قال: عم، إني سمعت صوتك، وأُريد أن أذبّ عن حرم جدّي. فقال له الحسين عليه السلام: **«بني، أنت وديعة عندي من أخي الحسن. ادنُ إليّ»**. فدنا منه، فشمه وقبله وأعاده إلى الخيمة. فعاود الخروج وهو يقول: يا عمّ، لا أستطيع أن أسمعك تنادي وأنا أجلس في كسر الخباء، ايذن لي. فلم يأذن له، فعاود الثالثة، فقال له الحسين: **«أعزمت؟»** قال: نعم. فدخل إلى الخيمة وأخرج صندوقاً فيه عمامة للإمام الحسن عليه السلام لأنها على رأسه، وألبسه رداء للإمام الحسن عليه السلام أيضاً، وقلّده سيفاً، ثم قال له: **«انزل بارك الله فيك»**. فنزل وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجل الحسنْ — سبطِ النبي المصطفى والمؤتمنْ

هذا حسين كالأسير المرتهنْ — بين أُناس لا سُقوا صوب المُزُنْ[2]

يقول حميد بن مسلم: والله، لقد رأيته يبعج الفرسان بعجاً، وعين الحسين عليه السلام تلاحقه. وفي أثناء القتال انقطع شراك نعله فأهوى إليه ليصلحه، فنظر إليه عمرو الأزدي، قال: والله لأُثكلنّ به أُمّه، فقال له حميد بن مسلم: أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني ما ضربته. قال: والله لأُثكلنّ به أُمّه. ثم رفع سيفه وضربه

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦١، بحار الأنوار ٤٥: ١٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ٢: ٢٩.

على رأسه، فسقط إلى الأرض يتخبّط بدمه، صاح أدركني يا عماه.

وامتطى الحسين جواده وأقبل إليه يذود الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل مصرعه، فجلس عنده يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول: **«صبراً بني إخوتي، صبراً بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم»**. ثم نقله الحسين إلى الخيمة؛ لأنه عليه السلام كان يعرف أن أمه وعمّاته سوف يخرجن إليه، فأراد أن يحافظ على خدر عائلته، فوضعه على صدره ورجلاه تخطّان الأرض، وطرحه في الخيمة. فكانت أُمه بعد ذلك لا تهدأ الليل ولا النهار.

يقول أحد الاعراب: مررت على أبيات بني هاشم، وكانت قدماي تتسمّران إلى الأرض كلّما مررت على بيت منها، فكنت أسمع حنيناً ونحيباً وأنيناً. ويبدو أنه مر بهذه الدار، دار رملة التي كانت تدور وسط الدار:

نطرت العيد يوليدي	**بلهفات وگلب ولهان**
وصرت اجمع اهدوم العيد	**وعِلگت اشموع بالصيوان**
وگلت افرح بجيّاتك	**وطبّاتك ويه الشبان**

﴿١٣٦﴾

الفقه التربوي في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: سبب النزول

إن السبب في نزول هذه الآية الكريمة هو أن رسول الله ﷺ حينما كان قائماً يخطب على المنبر ليبيّن للناس أحكامهم وتكاليفهم، قام إليه أحد الحضور وقال له: من هو أبي؟ فقال ﷺ: **«أبوك حذافة بن قيس»**. فقام إليه رجل آخر، فقال: يا رسول اللّه، أين أبي؟ فقال ﷺ: **«في النار»**. ويسأله غيره إذا ضلّت ناقته: أين ناقتي؟ ويسأل آخر عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. فبان التأثّر على وجهه ﷺ، فنزل جبرائيل عليه السلام يحمل هذه الآية المباركة[2].

---

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) مجمع البيان ٣: ٤٢٨ ـ ٤٢٩، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٣٣٠ ـ ٣٣١، مسند أحمد ٣:

وهذه الآية تدخل في باب الفقه التربوي، مع أن القرآن الكريم بصورة عامة كلّه قوانين ونظم للتربية السليمة الصحيحة؛ فأول أهدافه ـ كونه كتاباً إلهياً ـ نشر الوعي التربوي الإسلامي بين الناس، وبثّه في أوساطهم لتربية المجتمع وتنظيم شؤونه وتحديد علاقات أهله. ومن هنا فإنه يعدّ كتاب تربية بالمعنى الأشمل الأوسع، لكن بعض آي القرآن الكريم يكون ذا طابع واضح في مجال التربية، وتكون سمته في المجال هذا بيّنة المعالم أكثر من غيره كما هو حال آية المقام.

المبحث الثاني: الملامح التربوية في القرآن والسنة

وتبرز السمات التربوية واضحة في جواب النبي ﷺ مع أن هذه الأسئلة كانت قد أثارت امتعاضه ﷺ، وفي تذكير القرآن الكريم بعد ذلك المسلمين بألّا يسألوا عن أُمور لا تعنيهم.

لكل قوم نكاح

فالسؤال الذي أثاره قيس مثلاً ـ وهو قوله: «من أبي؟» ـ يعدّ محرجاً، وربما أساء إليه وإلى غيره، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ تَسُؤْكُمْ ﴾. وكان سبب السؤال أن أبويه قد تزوّجا في الجاهلية ـ أي أن نكاحهما كان نكاح جاهلية ـ فأراد قيس أن يعرف هل إنه نكاح شرعي وبالتالي هو ابن شرعي، أم لا. وهكذا نجد أن امتعاض النبي ﷺ كان منشؤه أن هذا الأمر قد ذهب، فلم يثار في مثل هذا الوقت؟ فمسألة أن فلاناً ولد من نكاح الجاهلية؛ فهو ربما يكون ابناً غير شرعي مفروغ منها؛ لأن «**لكل قوم نكاح**»[1]، وبهذا لا يكون من يولد بعقد غير

☚ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، صحيح البخاري ٥: ١٩٠ ـ ١٩١، صحيح مسلم ٧: ٩٢ ـ ٩٣.

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١.

إسلامي وفق التشريع الإسلامي ابن زنا، بل إنه ابن شرعي لأبيه.

وطء الشبهة

وأودّ أن أُلفت النظر إلى أن المشرّع الإسلامي يعتني بهذا المجال عناية شديدة؛ محافظة على نسب الإنسان وكرامته، فنراه يلحق حتى ابن وطء الشبهة بأبيه، ويعامله معاملة بقية أبنائه على السواء. فلو أن رجلاً ضاجع امرأة ظانّاً أنها زوجته، معتقداً أنه يمارس حقّه الشرعي، وأن نكاحه حلال ـ كمن دخل في مخدعه فوجد امرأة نائمة فيه، فهو في مثل هذه الحال لا يظن إلّا أنها زوجته، فأيقظها وقاربها[1] ـ ففي مثل هذه الحالة يعدّ المتولّد من هذا النكاح ابناً له وإن لم يكن عن عقد شرعي. فالإسلام الحنيف يحرص على ألّا يتركه بغير أب؛ لأنه بهذا سيصبح لعنة على المجتمع.

الآثار الوضعية للزنا

وهنا ينبغي التنبيه إلى أن ابن الزنا حينما يعامله المجتمع معاملة ازدراء وانتقاص، ويشير إليه على أنه ابن زنا، فإنه على الأعمّ الأغلب سيتحوّل إلى قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أي لحظة في وجه المجتمع محدثة فيه خراباً ودماراً؛ فإن حاز سلطة وطالت يده المجتمع فإنه سيحرق الحرث والنسل؛ لأنه يشعر أن المجتمع يحاربه في وجوده وحياته وكرامته، ويعامله بقسوة إذ لم يعترف به. ولذا فإن المشرّع الإسلامي يلحقه بصاحب الماء تلافياً لحدوث مثل هذا الأمر.

وهذا وجه لموضوع يمكن أن يقع وإن كان قليله، أما الوجه الآخر ـ وهو الوجه

---

(١) فائدة: المدار في وطء الشبهة على الشبهة من جانب الرجل وإن تعمّدت المرأة الحرام، وإن كانت المرأة في شبهة لم يكن وطء شبهة. انظر منهاج الصالحين (السيد محمد سعيد الحكيم) ج ٢ ق ٢: ٩٤ / المسألة: ٩٢.

الأكثر شيوعاً ووقوعاً ـ وهو الزنا، فهو مما لا يمكن أن يدخل في باب إلحاق النسب؛ لأنه تعدٍّ صريح على حدود الله وقوانينه وتشريعاته، وإلحاق النَسب فيه يلقح هذه الفتنة، ويشجع على ممارستها، ويفتح الباب واسعاً أمام طالبيها، وبالتالي تسهيل الأمر أمام طلاب الجريمة والوقوع فيها.

إذن فمسألة النسب هنا مفروغ منها، وعقود الزواج التي تقع عند جميع الأديان والأقوام صحيحة كحالة عامّة، ومتحقّقة، والإسلام يقرّها؛ حفاظاً على الأنساب، وعلى وحدة المجتمع وإن لم تكن صحيحة في نفسها ووفق ضوابطه، لكنه يتعامل معها بهذا الشكل لما ذكرنا، وإلّا فإن هذا العقد ليس عقداً من بنية الإسلام، والشريعة الإلهية. والمسوغ فيه أن تلك الطائفة أو ذلك الدين يقرّه، وهذا كافٍ في تحقّقه ووقوعه؛ فالقاعدة الشرعيّة تقول: **«ألزموهم بما ألزموا أنفسهم»**[1]. وبهذا يكون الولد ابن صاحب الماء.

فجواب الرسول ﷺ يتمخّض عنه أن إثارة مثل هذه المسائل ربما كان فيها إساءة للنفس أو للآخرين، وهو ما قرّرته آية المقام. وعلى الإنسان أن يعلم أن عمره محدود لا يتّسع لما لا فائدة فيه ولا جدوى، فالذي ينبغي عليه ألّا يحشوه بالأشياء التافهة، بل عليه أن يسارع إلى اغتنام الفرص الطيّبة للأعمال الحسنة والطيبة. فمن يرد أن يسأل النبي ﷺ عن شيء فليكن ذلك الشيء ذا فائدة ونفع له.. ليسأله حول أُمور تهمّ دينه ودنياه، وحياته الاجتماعية والدينية والاقتصادية وغيرها وفي تنظيم شؤونها وشؤونه. وخلاف هذا فإنه يسأل عما لا يعنيه ولا ينفعه، ويذر ما يهمّه وينفعه؛ فيظلّ جاهلاً بكل ما هو ذو أثر مباشر وهام في حياته.

---

(١) تهذيب الأحكام ٩: ٣٢٢ / ١١٥٦.

والداهية أن هذا الأمر لا يزال يعيش إلى الآن، فهناك شريحة كبيرة من الناس ممن يطرح الكثير من الأسئلة التي لا تعنيه بشيء، ولا تغنيه معرفته بها شيئاً من قبيل: ما اسم أُم نوح؟ وما أسماء أبنائه؟ وهي أسئلة لا طعم لها؛ فهل يعلم هذا السائل أن الله تعالى لن يسأله عن معرفته بها يوم القيامة، ولا عن كونه علم بها أو لم يعلم؟

فالواجب إذن أن يسأل المرء عمّا يهمّه ويعنيه من قبيل حقوق زوجته وعائلته عليه، وحقوقه هو على زوجته، وحقّه على أبويه، وحق أبويه عليه، وعن القانون الذي ينظّم علاقاته مع جيرانه ومجتمعه بحيث لا يدخل دائرة الخطأ والإثم الشرعيّين في إطار تعامله مع كلّ هؤلاء، فتجعل منه مواطناً مهذّباً صالحاً بوسعه أن يطبّق أحكام الله تعالى كاملة على الأرض، ويمارس النظرية الإسلامية واقعاً وعملاً؛ ليمكن بالتالي إظهارها بثوبها الذي وضعه الله لها؛ كي يأخذ بها الآخرون دستور حكم وميثاق حياة.

ومن باب أن (الشيء بالشيء يذكر) يروى أن أحدهم طرق باب المرجع الديني الكبير آنذاك السيد أبي الحسن الأصفهاني‌ﷺ وقت الظهيرة وكان‌ﷺ نائماً، وبعد إلحاح الطارق بالسؤال والإصرار على مقابلة السيّد أبي الحسن أيقظه أهله وأخبروه أن أحدهم عنده سؤال ملحّ يريد أن يسأله عنه، ويرفض الانصراف، فاستقبله السيّد وطلب منه أن يلقي مسألته، فقال السائل: قد وقع خلاف بيني وبين جماعة من أصحابي حول لون الفرس التي كان يركبها القاسم بن الحسن‌ﷺ؛ فهل كانت حمراء أم بيضاء؟ فأجابه السيد‌ﷺ بقوله: أسال الله لك تمام العقل، وكمال العافية.

وببالغ الأسف نذكر أن هذا النمط من الناس موجود، وهذا يدلّ على أن

المستوى الديني والتربوي عند الأغلب من المجتمعات الإسلامية وأفرادها متدنٍّ، ويكاد يكون معدوماً، وخصوصاً هذا الجيل الناشئ الجديد الذي لا يملك أدنى فكرة عن حضارته ودينه ومجتمعه والرواد الأوائل منه الذين رسموا معالم تاريخه وحضارته، فهو فارغ المحتوى إلّا من بضعة قضايا منحلّة، أو كلمات فارغة، وبعض مصطلحات أجنبية يلوك بها دون أن يعي معناها أو ضررها. أما أبناء الأمم الأُخرى المتحضّرة والمتطوّرة، فتجدهم ذوي خلفية حضارية وتاريخية، ومزوّدين بسلاح علمي ثقافي وأدبي هو الذي ارتقى بهم، وجعلهم في طليعة الأُمم والمجتمعات والشعوب، وفي مصافّ العلماء.

ولو سألت أحد أبناء مجتمعاتنا عن مزاج الأُمّة التي ينتمي إليها، وعن العوامل التي صاغت هذا المزاج، وعن أثر الدين والتاريخ في العادات التي تحكم مسيرتهم وحياتهم، والعادات القبلية والبدوية، وعن الطريقة المثلى التي تمكننا كعرب ومسلمين من التصرّف على ضوء عاداتنا ومزاجنا وسلوكيّاتنا محكومة بقانون السماء وخاضعة لها، وعن الكيفية التي تتم بها هذه التوافقية، وعن طبيعة هذه السلوكيات، فحينها لن تجد عنده أي فكرة أو معرفة بهذه الأُمور الحسّاسة في حياة كل مجتمع وأُمّة.

ولو سئل عن عظماء تاريخه وأُمّته وعباقرتهم ومواقفهم الجليلة التي خلقت تاريخ أُمّته وحضارتها، فلن تجده يعرف عنها شيئاً، وهو بهذا لن يستفيد من عِبَرها وعظاتها وإفرازاتها التي تصبّ في خدمة المجتمع وبناء حضارته.

والأمر اللافت للنظر والمستغرب في آن أن هذه النماذج الجاهلة حينما تسير على الأرض تجد أن الأرض لا تكاد تطيقه؛ ظاناً أنه ملك الكون

وسيد الناس وإمام العباقرة.

وهذا الأمر ينبع من اللون التربوي الذي نشأ عليه، وهو لون فارغ تافه.

فالقرآن الكريم يريد أن يربّينا تربية صحيحة ويأمرنا بالابتعاد عن هذه الأسئلة التافهة غير المثمرة، وأن نسأل عما يعنينا حقّاً وعمّا يعود جوابه بالفائدة علينا وعلى مجتمعنا وحياتنا ممّا له الأثر البنّاء في ذلك. فنحن مواطنون نعيش ضمن إطار عام نخضع لقوانينه ومتطلباته، فيجب إذن أن نعرف ما هو حقّ هذا النظام علينا، وما حقّنا نحن على هذا النظام، وما هي واجباتنا إزاءه وماهي حقوقنا عليه، وأين هو موقعنا من الدنيا، وأين سنكون وإلام سنصير، وماهي حقيقة ديننا، وهل يمكن أن يتفاعل مع الأمم والحضارات الأُخرى أم لا، وهل يستطيع أن يتجاوب مع التطوّرات العلمية الهائلة الحاصلة في العالم أم لا، وهل هو دين متحرّك أم جامد، وماهي وجهة نظره في القضايا الإنسانية والسياسية والاقتصادية والمشاكل العالمية العالقة.

كلّ هذا مما يجب علينا أن نسأل عنه ونعرفه، لا أن نسأل عن أُمور لا تُسمن ولا تغني من جوع، بل ربما عادت علينا بالضرر والسوء كما قرّرت آية المقام.

ومعرفة هذه الأُمور الهامّة والمصيريّة هي التي تبني شخصية المسلم بناءً صحيحاً وتربّيه تربية سليمة وتنشّئه تنشئة عالية تجعل منه شخصاً عارفاً بحضارته وتاريخه، وما يجب له وما يجب عليه، وما الذي يجب أن يكون عليه هو وأُمّته ومجتمعه.

وبهذا نجد أن القرآن الكريم من خلال هذا المقطع الشريف ينبّهنا إلى أمرين:

الأول: ألّا نسأل إلّا عما يعنينا، وان نترك ما لا يعنينا.

الثاني: ألّا نضيع وقتنا بأُمور تافهة لا تعود علينا بفائدة، فالعمر أقصر من أن

يفعل فيه مثل هذا[1]، والواجب الذي ينبغي والذي لا يصحّ غيره هو استغلال كل فرصة من العمر لتطوير النفس والمجتمع والرقيّ بهما؛ فالوقت أثمن من أن يضيّع، وغداً سيسائلنا الله تعالى عنه[2].

فالوقت طاقة، والطاقة لا ينبغي هدرها بشكل من الأشكال. أمّا كيف أن الوقت طاقة، فسأبيّنه بالمثال التالي: يقول فقهاء المسلمين: لو أن أحداً استأجر عاملاً على أن يعمل له عملاً ما، فجاء هذا العامل صباحاً ليقوم بما استؤجر له، فلم يجد صاحب العمل؛ لأنه كان قد غادر مثلاً لنسيانه العمل، أو لعذر آخر، ولم يتمكّن هو من أداء عمله، فله أن يلزم صاحب العمل بأُجرته. والفقه الإسلامي يعلّل هذا بأن العامل قد هيّأ نفسه للخروج لهذا العمل وأعدّ له عدّته، وهو إنما لم يعمل بسبب تراجع صاحب العمل لا لتقصير منه هو؛ فالوقت المخصّص للعمل قد «صرفه» العامل، وهو أمر له ثمن ينبغي بذله إزاءه. فالوقت جدّ ثمين عند المشرّع الإسلامي. يروى أنه يجاء يوم القيامة بثلاثة صناديق: أحدها فيه صور حسنة، والثاني فيه صور قبيحة، والثالث ليس فيه شيء، ثم يقال لابن آدم: هذا الذي فيه صور حسنة هو وقتك الذي قضيته في الطاعة، والثاني الذي فيه صور قبيحة هو وقتك الذي قضيته في المعصية، والثالث الذي ليس فيه شيء هو وقتك الذي لم تقضِه بشيء نافع ولا بمعصية، أي أنه لم يستغلّ وقته.

---

(١) اشترى أمير المؤمنين عليه السلام قميصاً، ففضل كمّه عن أصابعه، فقال للغلام: «اقطع هذا الفضل». فقطعه الغلام له، ثم قال: ياسيدي، هلمّ أكفّه لك. فقال له الإمام عليه السلام: «دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك». روضة الواعظين: ١٠٧.

(٢) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم واعظاً أبا ذر رضي الله عنه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». الأمالي (الطوسي): ٥٢٦، المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٠٦.

وهذا لأنه أهدر وقته وتركه يذهب هباء.

إذن فالوقت طاقة ينبغي المحافظة عليه واستثماره لأبعد حدوده وإمكانياته، والسؤال عن الأُمور التافهة هدر للوقت؛ ولذا فينبغي ألّا يحصل.

المبحث الثالث: تحريم ما لم يحرمه الله تعالى

ومن جملة ما سئل عنه النبيﷺ وكان السبب في نزول هذه الآية الكريمة هذه الأربعة المارّ ذكرها، وهي البحيرة والوصيلة والسائبة والحامي. ومن أجل بيان هذه الأربعة نقول:

البحيرة

وهي عبارة عن الناقة التي تلد خمسة بطون، فحينها تبحر أُذنها ـ أي تشقّ ـ وتترك فلا ينتفع بشيء منها؛ حيث إنهم يحرّمون لحومها؛ لأنها بظنّهم قد أدّت دورها ورسالتها في الحياة. وهذا الأمر تضييع للطاقة وهدر لها؛ لأن هذه الحيوانات يمكن أن تستعمل في شتى موارد العمل، وكذلك هو هدر للمال؛ لأنها عبارة عن كميّة من اللحم لها عوض مالي.

السائبة

وهي ماينذر للصنم، فتسيّب فلا يستطيع أحد ردّها عن زرع أو غيره؛ لأنها في عرفهم للكعبة والصنم خاصّة؛ فلا يجوز ردّها وإيذاؤها، ولا يجوز الانتفاع بها. ولها معاني أُخر مذكورة في محالّها.

الوصيلة

وهي فيما إذا ولدت الشاة ذكراً فإنهم يجعلونه لآلهتم، وإذا ولدت أُنثى جعلوها لهم، فإذا ولدت ذكراً وأُنثى قالوا: قد وصلت أخاها، فجرت مجرى السائبة.

الحامي

وهو الجمل الذي يلقح جيلين: أبناءه وأبناء أبنائه، أو الذي يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: قد حمى ظهره، فيتركونه، فلا يُركب ولا يُمنع عن مرعى ولا عن ماء ولا عن شجر، ولا يستعمل حتى يموت.

الإنسان والتشريع

فالقرآن الكريم يقول لهؤلاء: من أين جئتم بهذا التخبّط؟ ثم إن هذا التخبّط يتضمّن أمرين في غاية الخطورة:

الأول: إهدار المال والطاقة

فكون هذه الدابة سائبة أو وصيلة أو ما إلى ذلك هو ـ كما قلنا ـ هدر للطاقة التي يمكن استثمارها فيها عبر العمل والنقل، وهدر للمال الذي يكون إزاء ما فيها من لحم، وللمال الذي ترتع فيه كالزرع والشجر وغيره دون أن يردعها أحد عنه.

الثاني: تصدّي من ليس له أهليّة التشريع له

كما أن هذا الأمر ينطوي على خطورة التشريع غير الصحيح، فإن يزجّ الإنسان نفسه فيما لا يخصّه ويدخلها فيما لا يعنيه مما لا يعلم جميع مداركه وحيثياته لهو أمر في غاية الخطورة؛ لأن للتشريع أهله، ولا ينبغي لكلّ أحد أن يمارس هذا؛ فهو حقّ من له أهليه التشريع، فقط وهو الله تعالىٰ.

وحينما يقرر الإنسان أن هذا للصنم وهذا له فإنه يفعل ما ليس في صالحه ولا في صالح المجتمع، وإلّا فما هي إمكانيات هذا الإنسان حتى يعطي نفسه حقّ التشريع؟ ومكمن الخطر هنا أنه يجعل تشريعاته مقابل تشريع السماء، وهو أمر ليس من مختصّات عصر الجاهلة فقط، بل إنه يحدث في جاهلية القرن العشرين أيضاً، فمن السهل جدّاً أن نسمع من يطلّ علينا ويقول: إن الإنسان والمجتمع من

حقّهما أن يشرّعا لهما ما يحفظ وجودهما وينظم حياتهما. فالإنسانية من وجهة نظر هذا البعض مدينة لفقهاء القانون في تنظيم شؤونها، مع أن هذا المشرع الإنسان مهما كان عبقرياً في تصور هؤلاء، فهو لا يعدو أن يكون كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«تؤلمه البقّة، وتقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العَرقة»**(١).

وهو لا يستحقّ أكثر من وصف فرويد له بقوله: أستطيع أن أقلبه إلى حيوان بلحظة. ولما سئل: كيف؟ قال: ألتقي إنساناً في الشارع فأضربه، وحينها سينزع عقله وإنسانيته وسيتحوّل إلى حيوان لا يفكّر إلاّ في ردّ الفعل الانتقامي، ولا يدور في خلده أن هذا الذي ضربه ربما كان فاقد العقل أو واهماً.

وكثير من بني البشر من يعيش مع غيره سنوات طويلة ثم في لحظة واحدة ينسى صحبة كلّ تلك السنوات لأتفه الأسباب، ويتحول إلى عدوّ كاسر. يقول الشاعر:

احذر عدوّك مرّة ... واحذر صديقك ألف مرّه
فلربما انقلب الصديـ ... ـق فكان أعرف بالمضرّه(٢)

وهو حكيم في هذا؛ إذ أنه يتكلّم عن تجربة واعية شاهدها ووعاها. وإن كان الأمر بهذا الشكل فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يشرّع لغيره، وهو ما بين لحظة وأُخرى ينقلب عدواً لذلك الغير؟ وكيف له أن يضع القوانين ويسنّ الدستور وهو عرضة للخضوع لشهواته وانفعالاته لأدنى الأسباب ولأبعد الحدود؟ ثم إن لنا أن نتساءل عن الإنسانية والمعروف الواجب التعامل بهما بين الناس، وعن الدواعي التي تحيل أخاً في الدين أو الإنسانية عدواً شرساً للاختلاف معه بالفكر والعقيدة. مع أن هذا ما لا نشاهده عند ذوي النفوس الكبيرة التي تصفح عمّن خالفها وأساء

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٩.

(٢) الفتوحات المكية ٢: ٣١٤، ٤: ٥٥٠، شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٩.

إليها، كان الإمام علي عليه السلام على منبره فسئل عن بيع أُمّهات الأولاد، فقال عليه السلام: **«كان رأيي ورأي عمر ألّا يُبعن، ثم رأيت بيعهن»**.

وأُم الولد هي الجارية المملوكة التي إذا وطئها مالكها بملك اليمين وحملت منه تصبح ملكيّتها متزلزلة؛ فلا يجوز بيعها ولا غيره. وبعد أن تلد تسمى «أُم ولد» إكراماً لولدها ورعاية له، فإذا مات سيدها انعتقت من حصة ابنها من الميراث وأصبحت حرّة. فقال له عبيدة السلماني: رأيك مع الجماعة أحبّ إليّ من رأيك وحدك[1].

فالإمام عليه السلام أبدى رأيه في هذه المسألة حينما اعترضه عبيدة السلماني، لكنه عليه السلام بيّن له أن له رأيه، ولا يضيره هذا، في حين أن الحجّاج هو الذي خطب الناس مرة حتىٰ غابت الشمس، فقام له أحدهم وهو يخطب وقال له: أصلحك اللّه، الوقت لا ينتظرك، والربّ لا يعذرك. فقال له الحجّاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن[2].

---

(١) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أُصول الأحكام ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.
قال أبو بكر الكاشاني: على أنه ـ أمير المؤمنين عليه السلام ـ كان لا يرى استقرار الإجماع ما لم ينقرض العصر. ومنهم من قال: كانت المسألة مختلفة بين الصحابة (رضي الله عنهم) فكان علي وجابر (رضي الله عنهما) يريان بيع أُم الولد.
هذه هي الرواية في مصادر أهل السنّة، وهذه هي تعليقة أبي بكر الكاشاني، مع أن رواياتنا وفقهنا صريحان في النصّ على أن أُم الولد تعتق من نصيب ابنها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

(٢) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأُدباء ١: ٢٣٩.

فهذا هو الفارق بين ذوي النفوس الكبيرة وذوي النفوس المتدنّية، وبين المعادن الثمينة والمعادن الخسيسة، فالإمام عليه السلام يقول له: لك رأيك ولي رأيي، ولا أُجبرك على اتّباع رأيي، والحجّاج يقول: خذوه فاحبسوه.

كان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً في أصحابه، فمرّت بهم امرأة جميلة، فرمقوها بأبصارهم، فقال عليه السلام: **«إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هبابها. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله؛ فإنما هي امرأة كامرأة»**. فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه! فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: **«رويداً إنما هو سبٌ بسبٍّ أو عفو عن ذنب»**[١].

فكأنه يريد أن يقول لهم بأنه إذا أراد أن يعاقبه فإنه سيسبّه بمثل ما سبّه به ولكنه يترفع عن ذلك، فهو قد ارتكب خطأً ولا يريد أن يكون مثله وينزل إلى مستواه ويقابل خطأه بمثله[٢].

وهؤلاء هم ذوو النفوس الكبيرة الذين إذا تربعوا على كرسي الحكم يُطمأن إلى أن هناك إنسانية وفكراً وحقاً وعدلاً ستسود الأُمّة وتعمّ المجتمع، أما أن يتربّع على كرسي الحكم من هو من نمط عبد الملك وأسلافه وأمثالهم ممن جاء بعدهم ممن ينتابه مركّب النقص، ويملؤه الحقد، ويسيطر عليه كره العدل وحبّ الدم فإن الكون سيتحول حينها إلى كارثة؛ لأن هؤلاء نقمة حقيقية. وبهذا نجد أن تعبير الإمام عليه السلام: **«رويداً إنما هو سبٌ بسبٍّ أو عفو عن ذنب»** في غاية العدل والكمال، بل وبلوغ أعالي درجات الرقيّ في مراتب سلّم الكمال الإنساني.

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤٢٠.

(٢) ولا ننسَ وصيته عليه السلام ليلة استشهاده بقاتله ابن ملجم حيث قال: «ما فعل ضاربي؟ أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي، فإن عشت فأنا أولىٰ به». كشف الغمّة ٢: ٦٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الخوارزمي): ٣٨٨ / ٤٠٤.

رجـع

ومن هنا نتبيّن الخطأ الفادح والفاحش في مذهب القائلين بأن من حقّ الإنسان أن يضع التشريعات والقوانين للمجتمع والحياة، وأن هذه المنظومة القانونية ستسعد الجنس البشري وتصل به إلى شاطئ الأمان. فأين لهذا المخلوق الضعيف الضيّق الأُفق، الذي تؤثر فيه وعليه المؤثرات البيئية والانفعالات النفسية، والذي تتملّكه أكثر من عقدة نقص أن يقنّن نظرية تحكم العلاقات البشرية؟ فكم من نظرية عاشت فترة ثم بعد فترة أصبحت خرافة ونسياً منسيّاً؛ لأنها لم تصمد أمام الشواهد الواقعية كنظريات تفسير الضوء وهل إنه موجي أم جسيمي، فكان يظن أنه موجي، ثم ذهب العلماء إلى أنه جسيمي[1]. وربما يجيء وقت تفنّد فيه الكثير من النظريات الأُخرى وتركن على رفوف التاريخ.

هشام بن الحكم يرى الطبيعة الجسيمية للضوء

وهذا الأمر موجود في تراثنا العلمي؛ فقبل أكثر من ألف وثلاثمئة سنة كان هشام بن الحكم ﷺ ـ أحد تلاميذ الإمام الصادق ﷺ ـ يرى أن الضوء ذو طبيعة جسيمية، وأنه يتكون من جسيمات رقيقة ومتلاحقة، وهو ما أثبته العلم بعد ذلك[2].

وكان عند هذا الرجل من الآراء العلمية ما أثبته العلم في أوروپا فيما بعد.

على أية حال فهناك الكثير من النظريات التي وضعها الإنسان ثم جاء بعده من

---

(١) حتى جاء العالم الألماني بلانك ماكسويل الذي أثبت الطبيعة الثنائية للضوء؛ فهو في الفراغ يسلك سلوكاً موجيّاً وفي الوسط الجسمي يسلك سلوكاً جسيميّاً، وبذلك فسّرت كومية الضوء (نظرية الكوانتوم).

(٢) في أحد سلوكي الضوء كما مر في الهامش السابق.

بني جنسه من نقضها وركنها لثبوت عدم صحتها، وهو أمر لا يمكن أن تخلو منه نظرياته القانونية؛ لأن المصدر واحد. وما دامت هذه النظريات عرضة للتخطئة والنقض فمن الواضح إذن أن الإنسان لا يملك القابلية التي ينبغي أن تتوفر في المشرّع أو المقنّن كي يشرّع لنفسه أو لغيره. وأنه يصلح المجتمع. كما أن على أي فرد ألّا يضع مجرّد مقايسة بين تشريعات الأرض وتشريعات السماء، فأين الثرى من الثريا؟

وربما يعترض معترض بأن هذا القانون لم تضعه السماء وإنما وضعه النبي الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ.

ويجاب هذا المعترض بأنه لو تأمّل الفترة التي عاشها النبي ﷺ تأمّلاً جيداً، ثم قايس ما في القرآن الكريم من معارف وعلوم بمستوى الحياة الثقافية لها (الفترة التي عاشها الرسول ﷺ)، لوجد أن ذلك العصر لم يكن يتّسع ولو لجزء يسير جداً لما جاء في القرآن الكريم. وهذا الأمر يثبت أن القرآن والإسلام ليسا من ابتكار النبي ﷺ بل هما من وحي السماء. ومن هذا أن الفترة التي تفصلنا عن الإمام الصادق عليه السلام هي قرابة الثلاثة عشر قرناً، ومع ذلك نسمعه يقول: **«يرىٰ الذي في المشرق أخاه الذي في المغرب»**.

وفعلاً بدأت أجهزة التلفزة بنقل بثّ محطات التلفزة عبر الأقمار الصناعية مباشرةً من كل أرجاء العالم، فصار من بالمشرق يرى من بالمغرب[١].

وهذه الرواية يرويها المجلسي[٢] عن الشيخ الصدوق رحمه الله وغيره[٣]، والصدوق توفّي قبل ألف سنة، فمن أين جاء بهذه المعارف إن لم تكن من كلام المعصوم؟

---

(١) مضافاً إلى هذا وسائل الاتّصال الحديثة عبر النت.

(٢) بحار الأنوار ٥٢: ٣٩١.　　(٣) مستدرك سفينة البحار ١: ٣٦٠.

وعليه فالبيئة التي عاش فيها النبي ﷺ في الحجاز كانت ترقد في حجر الجاهلية والظلمات، ولا يمكن لها أن تتمخّض عن مثل هذه المعارف.

إذن فهذا الكلام من المعصومين عليهم السلام مأخوذ عن النبي ﷺ، والنبي ﷺ كلامه من وحي السماء لا محالة، لا من البيئة الجاهلية[١]، فلو لم تكن السماء قد أطلعته ﷺ على ذلك ما أمكنه أن يقوله.

ونخلص من هذا إلى أن الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهّرة التي وردت على لسان الرسول ﷺ والأئمة المعصومين من آله هما من عند الله تعالىٰ، وإذا كانا كذلك فلا يجوز ولا يصحّ بأي حال من الأحوال أن نضرب بهما عرض الحائط ثم نلهث وراء نظم وقوانين وضعية يعتريها النقص ويشوبها التناقض[٢]، إن هذا لا يسوغ أبداً. ثم إن هذا الذي يقنّن ربما كان يوماً ما راقصاً أو غير ذلك، وقد يسكر فتتغشّاه الخمرة ثم يسنّ القوانين والسنن، فهل يعقل أن نأخذ بما يشرّع وننبذ قوانين السماء من أجل من هو من هذا النمط؟ فالإنسان الضعيف غير قادر على حماية نفسه وتوفير الأمن والسلام لها، وهو ما يعبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: **«تؤلمه البقّة، وتقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العَرقة»**، فهو بهذا محتاج لمن يتمّم له نقصه لا أن يشرّع لغيره.

المبحث الرابع: ضريبة السؤال اللاواعي

فالآية الكريمة تقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ**

---

(١) ففاقد الشيء لا يعطيه.

(٢) قد ذكر المحاضر ﷺ في إحدى المحاضرات السابقة أن من أوجه هذا التناقض أن يسنّ المشرّع القانوني مادّة تقول: يجب مراعاة التقاليد، وتغذية الناس بالفضيلة. لكنه يعود فيسنّ مادّة أُخرى تناقضها دون أن يلتفت إلى ذلك، فيقول فيها: يجب توفير الحرية للناس وضمانها في كلّ ما يمارسونه من أعمال. ومن جملة هذه الأعمال ما يكون منافياً للفضيلة.

تَسُؤْكُمْ ﴾ والله تعالى يأمر الناس على لسان نبيّه الكريم ﷺ ألّا يسألوا عما يعود عليهم بالضرر، أو عما لا يعود عليهم بنفع أو فائدة، وأن يسألوا عن أشياء تعنيهم وتخصّهم.. أشياء هم مسؤولون عنها يوم القيامة، بل وحتى في الدنيا. ثم إن هناك من يسأل لأجل تعجيز المسؤول وإظهار عدم مقدرته العلمية وكفاءته، وبالتالي تصغيره في عيون الناس. ومن ذلك ما رواه الزهري من أن هشام بن عبد الملك حجّ سنة فدخل المسجد الحرام معتمداً على يد سالم مولاه، ورأي الإمام الباقر عليه السلام جالساً في المسجد والناس حوله يسألونه، فأغاضه هذا الأمر، وجعل الحقد يعتمل داخل نفسه، فكان قلبه يتأكّل لما يرى من حبّ الناس له والتفافهم عليه واجتماعهم حوله للتبرّك والاستفتاء، فأراد أن يسأله سؤالاً يراه تعجيزياً، ظانّاً أنه بهذا يعجز الباقر عليه السلام أمام الناس فيقلّل من قدره عندهم، وينتقص من هيبته أمامهم، وبالتالي سيفضحه عليه السلام أمامهم.

وهذا كما ذكرنا سلفاً شأن ذوي النفوس الصغيرة التي لا يرضيها أن ترى مكانة غيرها أعلى من مكانتها وإن كان الغير أهلاً لذلك، وهو يفسّره بأنه منقصة له؛ لأنه يشعر بالنقص؛ لنقصه فعلاً، فلا يريد أن يرى من له أهليّة التفضيل أفضل منه. على أية حال أمر غلامه سالماً بأن يذهب إليه ويسأله ليحرجه، فقال له سالم: هذا محمد بن علي بن الحسين. فقال له هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم. قال: اذهب إليه، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين: ما الذي يأكل الناس يوم القيامة ويشربون إلى أن يفصل بينهم.

فجاء إليه فذكر له ذلك فقال له عليه السلام: **«إن الله عز وجل يقول: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾[1] فيحشر الناس يوم القيامة على الأرض. وتكون لهم**

---

(١) إبراهيم: ٤٨.

الخبزة النقية يأكلون منها، وأنهار متفجّرة يشربون منها، إلى أن يفرغ من حسابهم».

وهذه المسألة من الأُمور التي لا يمكن أن نحكّم فيها العقل أو الحواسّ؛ لأننا لم نرَها، وهي مسألة حسابية نحكّم فيها المقدّمات العقلية، كما أنها مسألة سماعية نأخذها عن النبي الأكرم ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن هوى، بل هو وحي الله وكلامه[1]، ونحن لا نستطيع أن نصل إلى هذه الأُمور بعقولنا القاصرة. على أية حال انصرف سالم إلى هشام، فأخبره بجوابه، فرأى هشام أنه ظفر به، فقال: الله أكبر، ارجع إليه، فقل له: أما يشغلهم عن الأكل والشراب يومئذ ما هم فيه من هول يوم القيامة؟ فرجع إليه فقال له ذلك، فقال له الباقر عليه السلام: **«هم في النار أهول من ذلك وما شغلهم ما هم فيه أبداً عن أن قالوا لأهل الجنة: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ﴾[2] وأكلوا الضريع والزقوم وشربوا الصديد والحميم»**. فرجع إلى هشام فأخبره، فأفحم وخزي وأطرق ولم يحرِ جواباً[3].

لقد كان بإمكانه أن يسأل عن سؤال يستفيد منه، بل وحتى هذا السؤال نفسه لكن لا بقصد سيّئ ونيّة حاقدة بل بنيّة الاستفادة والاستزادة والتنوّر، وهذا هو الذي يريده القرآن الكريم من الناس على لسان النبي ﷺ كما ذكرنا.

المبحث الخامس: في تحريف القرآن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾**، وفي المقطع الشريف تنبيه إلى ضرورة السؤال عن القرآن حين نزوله..عن تنزيله ومعانيه وأهدافه وما إلى ذلك من أغراض شريفة ومضامين عالية. وهو أمر يبرّره

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) الأعراف: ٥٠.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٢٨٠ ـ ٢٨١.

ما شاهدناه بعد ذلك من الدسّ والتحريف والتزوير في معاني القرآن الكريم ـ لا في ألفاظه ـ مما هو واقع في كتب التفسير والحديث، فلو أنهم سألوا عن معاني الكتاب كافّة لكان الرسول الأكرمﷺ قد أجابهم عن كل ذلك، وهو بدوره يبعد كلّ محاولة لتزوير وتحريف معاني القرآن الكريم ومضامينه.

مصحف عليعليه السلام وتحريف القرآن الكريم

إن هذه المسألة ـ تحريف معاني القرآن الكريم دون ألفاظه ـ واقعة فعلاً، إن عندنا روايات تقول: إن المصحف الشريف الذي جمعه أمير المؤمنينعليه السلام هو بحجم هذا المصحف ثلاث مرّات، وهذا ما حدا بالبعض أن يفتروا على الشيعة كذباً بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وأن القرآن الصحيح هو ثلاث مرات بحجم القرآن الحالي.

الشيعة لا يقولون بوقوع التحريف بل غيرهم

والجواب على هذا الادّعاء الكاذب يكون بالرجوع إلى كتبنا ومصادرنا في الحديث والعقائد والتفسير تنفي وقوع مثل هذا الأمر، بل غيرنا هو من يقول بذلك؛ فهم يروون مثلاً أن سورة (براءة) قد ذهبت ولم يبقَ إلّا ربعها، فقد روى الهيثمي في (مجمع الزوائد)[1] والحاكم في (المستدرك)[2] أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنّا نقرأ إلّا ربعها. وأن بعض الآيات نسخت تلاوة لا حكماً كما في الآية «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً من الله تعالى»[3]، وينسب إلى عائشة حذف آيات

---

(١) مجمع الزوائد ٧: ٢٨. (٢) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١.
(٣) الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، المنخول في علم الأُصول (الغزالي): ٣٩٢.

الرضاعة بنسخ التلاوة[(١)]، في حين أننا نقول: إن الموجود بين الدفّتين حالياً هو القرآن كاملاً لا زياة فيه ولا نقص. **نعم**، هناك تقديم حرف وتأخير آخر، وهناك قراءات تختلف باختلاف القرّاء ورواتها في المدّ والإدغام والإقلاب والإمالة والتفخيم، لكنه ليس تحريفاً. وهذا الأمر موجود في القرآن الكريم بإجماع المسلمين، ومذكور في كتب علمائهم. فليس في عموم مذهبنا من يذهب إلى وقوع التحريف في القرآن الكريم، وإن وقع من واحد أو اثنين فهو شذوذ عن قواعد المذهب ومقتضى معتقداته؛ لأن عندنا أن القرآن الكريم إن وقع فيه تحريف من زيادة أو نقص أو غيره فإن حجّيته تسقط عن الاعتبار، فقد يدفع امرؤ الزكاة أو غيرها مما هو في آية من القرآن الكريم وربما تكون هذه الآية مزيدة، أو أن المكلّف لا يؤدّي واجباً؛ لأن الآية التي ذكرته حذفت من القرآن. وهكذا نجد أن

---

(١) التفسير الكبير ٣: ٢٣٠. وذكر هذه الأُمور مستفيض عندهم ومشتهر، ولعلّ ما في كتاب (الإتقان) للسيوطي في باب عدد سور القرآن وآياته وحروفه، وفي غيره كفاية، ففي (الإتقان) مثلاً ينقل عن الخليفة الثاني رأياً مفاده أن عدد حروف القرآن يبلغ مليوناً وسبعة وعشرين ألف حرف. وكذلك عدد السور في قرآن أُبي فإنها مئة وستّ عشرة سورة؛ في حين أن إجماع علماء المسلمين علىٰ أن عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة. وهاتان السورتان يرىٰ أنهما لم تكتبا، وأنهما قد سقطتا، ويسميهما سورة (الخلع) وسورة (الحفد)، وكان يقنت بهما أُبي والخليفة الثاني نفسه. بل إنه (الخليفة الثاني) يصرّح بأنّ هناك آيات قد حذفت من القرآن مثل آية الرجم، وينسب إلى بعض نساء النبي ﷺ أيضاً أنّ بعض الآيات قد أكلها الداجن. انظر: مسند أحمد ١: ٢٣، ٢٩، ٣٦، ٤٠، ٥٠، ٥: ١٢٩، ١٣٢، ٦: ٢٦٩، صحيح مسلم ٢: ١٠٥٠ / ٧٢٦، ١٠٧٥ / ١٤٥٢، سنن الدارمي ٢: ٢١٧٩، السنن الكبرى ٨: ٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤٥٦: ٣، المصنف (الصنعاني) ٧: ٤٦٧، ١١: ٤٧٠، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٥٩، ٣٦٠، الكشاف ٣: ٥١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١١٣، ٢٠: ٢٥١، مناهل العرفان ١: ٢٧، ٢٥٧، ٢: ١١١، روح المعاني ١: ٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، الإتقان ١: ١٩ / ٩٧١، ٢٤٢، ١٧٦ / ٨٣٢، ١٧٨ / ٨٤٣، ٣: ٨٢، ٨٤، ٢٠٦، الدر المنثور ٦: ٥٥٩ ـ ٥٦٠، وغيرها كثير.

الأمر لا ينتهي عند حد. وكذلك الحال مع الصلاة وغيرها من التكاليف.

وعليه فإن جمهور علمائنا وفقهائنا يرون أن القرآن هو مابين الدفّتين، فلا زيادة ولا نقص. ومن أراد أن يطّلع أكثر على هذا، ويتأكد منه فليرجع إلى مؤلفات علمائنا (رضوان الله عليهم) كالشيخ المفيد في (أوائل المقالات)[١] والشيخ الصدوق[٢] والشهيدين والشيخ البهائي وغيرهم، فهؤلاء الأفذاذ لهم آراء صريحة وواضحة في هذا المجال لا تقبل الشكّ والتأويل.

ومع هذا فإننا نسمع ونرى إلى الآن من يتّهم الشيعة بالقول بتحريف القرآن الكريم، وأنا لا أدري كيف يجرؤ إنسان مسلم المفروض به أنه يخشى الله تعالى على مثل هذا الافتراء، مع أنه لم يرجع في مثل هذه الافتراءات والتقوّلات إلى مصادرنا بل إلى مصادر من يكتب عنا ممن هم ليسوا منّا. زار الكاتب المصري المعروف أحمد أمين النجف مرة والتقى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ﷺ فقال له الشيخ: إنّك تقول: إن في النجف أولاداً يلبسون الأقراط، وهم أبناء المتعة، فلنذهب معاً ونطف في شوارع النجف لنرى ما إذا كان ما قلته حقّاً أم لا. فقال أحمد أمين: أعتذر عن هذا؛ فقد رأيته في كتب المستشرقين.

ولا أدري لم يعمد كاتب إلى نقد طائفة عن طريق ما يكتبه عنها أعداؤها، مع أن مكتباتنا غنيّة بالمصادر والكتب. ونحن إن أردنا أن نحسن الظن بمثل هؤلاء فإننا نصفهم بالسذّج والمغفّلين، وإن أردنا ألّا نحسن الظن بهم فإننا لا نعدو وصفهم بأنهم مأجورون يبغون بثّ الفرقة بين المسلمين. وإلّا فهل يصحّ أن تُنقد آراء أبي حنيفة أو مالك من خلال ما يكتبه عنهما الآخرون؟ إن المنهج العلمي الدقيق والصحيح يلزمنا بأن نرجع إلى كتبه هو أو كتب أتباع مذهبه لنأخذ منها مادة النقد

---

(١) أوائل المقالات: ٨١ ـ ٨٢.
(٢) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٨٤.

والمناقشة. ثم إن مسألة المتعة عندنا أصبحت مسألة نظرية لا تعيش إلّا في بطون الكتب ولا واقع معاش لها، وهي نظرية نتّفق نحن وأبناء السنة على أصل مشروعيتها وإن كنا نختلف في وقوع النسخ فيها.

إذن فالقرآن يحثّ على وجوب تتبّع أحكامه والسؤال عنها، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام في مصحفه الذي يعدل هذا المصحف المعروف ثلاث مرّات؛ حيث إنه عليه السلام كان كلّما نزلت آية سأل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن معناها أو ما فيها من أحكام وتشريعات، كآية الوضوء[1]، حيث إن معرفة الحكم تقتضي معرفة ما هو المقصود من ﴿الْمَرَافِقِ﴾. وما المقصود بالغاية فيها؟ فـ﴿إِلَى﴾ من الألفاظ المشتركة في كلام العرب، حيث إنها تأتي بمعنى (من) وتأتي بمعنى انتهاء الغاية، فكان عليه السلام يأخذ المعنى الحقيقي المراد من الرسول صلى الله عليه وآله ويدوّنه تحت كلّ آية مختصّة به بها أو فوقها. وهذا هو كل ما في الأمر، ونحن حينما نقول: مصحف علي أو مصحف فاطمة فإنما نقصد به المصحف الشريف مع شروحه التي أضافها الإمام عليه السلام عليه نقلاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

المبحث السادس: وجوب السؤال عن القرآن والدقة في نقله

فالله تعالى يأمر المسلمين باستقصاء معاني القرآن من الرسول صلى الله عليه وآله نفسه؛ لأن الأمر إذا دخل في باب (فلان عن فلان) حصل السهو والنسيان والزيادة والنقص غير ذلك مما يضيّع الهدف من الرواية؛ فإن سألوا الرسول صلى الله عليه وآله ونقلوها كلهم فإنه يحصل اطمئنان للرواية؛ للتواتر حينئذٍ. روى أحد الصحابة أن النبي صلى الله عليه وآله قال: **«إن الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه»**. فبلغ خبر الرواية السيدة

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ المائدة: ٦.

عائشة، فقالت: غلط الراوي إنما هذه الرواية كانت في يهودي مات ومرّ أهله يحملونه ويبكون عليه، فقال ﷺ: **«إن هؤلاء يبكون عليه وهو يعذّب»**[١].

فالمسألة هنا خاصّة، وعدم دقّة الراوي هي التي أوقعته في مأزق نقل الرواية؛ فإن من الطبيعي أن يبكي أهل الميّت ميّتهم، فلماذا يعذب هو؟ وما هو ذنبه؟ وهل يعاقب على ذنب اقترفه غيره؟ فالراوي هنا فهم الحديث على غير ما أراده الرسول الأكرم ﷺ، ومثل هذا النمط من الرواة كثيرون[٢].

والله تعالى إنما يحثّ على السؤال عن معاني القرآن الكريم؛ لأنها معانٍ توقيفية؛ بمعنى أنه لا يجوز تفسير القرآن الكريم بالرأي دون الرجوع إلى أحاديث الرسول ﷺ الذي يوقف المسلمين على المعاني الحقيقية له.

وهو أمر معناه النهي عن تفسير القرآن الكريم، بل والحديث الشريف كذلك بالآراء والأهواء، وما توحيه الظنون وتمليه الرغبات، فيُدخل في الدين ما ليس

---

(١) منتهىٰ المطلب ١: ٤٦٧ (حجري)، مسند أحمد ١: ٤٢، ٤٣، ٦: ٥٧، ١٠٧.

(٢) ومنها رواية دخول امرأة النار في هرّة حبستها، فقد دخل أبو هريرة على عائشة، فقالت له: يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عُذّبت في هرّة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقِها؟ فقال أبو هريرة: سمعته منه ـ يعني النبي ﷺ ـ فقالت عائشة: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذّبه في هرة، فإذا حدّثت عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدّث». مسند أحمد ٦: ٢٩٩، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذي ١: ٢٦١.

ومنها ما فهمه محمّد بن مثنىٰ العنزي ـ أحد شيوخ البخاري ـ من حديث أن رسول الله ﷺ إذا زار المقابر، ورغب في الصلاة هناك، وضع عنزة بينه وبين القبر الذي يصلّي إليه كحاجز عرفي؛ لأن الصلاة بين القبور مكروهة، ثمّ صلّى. مسند أحمد ٤: ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، صحيح البخاري ١: ١٢٧، ٤: ١٧٥. فقال هذا الشيخ: نحن قوم لنا منزلة وكرامة. فقيل له: كيف؟ قال: لأن رسول الله ﷺ قد صلّىٰ إلينا. سير أعلام النبلاء ١٢: ١٢٥، وادعىٰ أنه قالها مازحاً. والعنزة: العصا. العين ١: ٣٥٦ ـ عنز.

فيه، أو يُصنع مشرّعون مقابل تشريع السماء وهم لا يمتلكون القابلية الفعلية لذلك؛ لأنه مخلوق ناقص ويكمل نقصه بالدين. فالعقل البشري لا يمكن أن يرى حقيقة الأشياءالصالح منها له وغير الصالح إلّا بنور البعثة والنبوّة، وهو في ذلك حاله حال العين لاترى الأشياء إلّا بوجود النور أو الضوء.

المبحث السابع: في البراءتين: الشرعية والعقلية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، أي أن هذه الأُمور قد مضت وقد صفح الله عنها؛ فلماذا تعودون إلى إثارتها بعد اندراسها؟ إن الله تعالى قد رخّص لكم بأشياء فخذوا برخصه فيها؛ لأنه جلّ وعلا يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه؛ فما أمركم الله به فاتّبعوه وافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه وما تركه تكرّماً منه فلا تكلّفوا أنفسكم به؛ فإنه تعالى تركها؛ لأنه لا يريد أن يكلّفكم بها[1].

قبح العقاب بلا بيان

فما عفا الله عنه من أشياء لا تكلّفوا أنفسكم بالخوض فيه والسؤال عنه؛ لأنه ممّا لم يصلكم بيانه ولستم مكلّفين به، وهو ما يسمى البراءة الشرعية والبراءة العقلية الذي نتّفق به مع فقهاء القانون القائلين بأنه لا جريمة[2] إلّا بقانون، فعبور

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها». سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.
وقال أمير المؤمنين ﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدَّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلّفوها». نهج البلاغة /الحكمة: ١٠٥.

(٢) النفي هنا ليس للجريمة، بل هو نفي لترتّب آثارها على مرتكبها، فهو من قبيل النفي في قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام». ففيه دلالة اقتضاء، وهي الدلالة المقصودة

الشارع من نقطة معينة لا يمكن عدّه جريمة ولا يجوز المقاصّة عليها أو المحاسبة ما لم توضع يافطة عند تلك النقطة تشير إلى حظر العبور منها. وعدا ذلك تعدّ المحاسبة على الاجتياز منها غير قانونية وغير صحيحة؛ لأنه ليس هناك من جريمة حتى تسوغ المحاسبة. وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾**[1].

وأما ما يعبّر عنه أُصولياً بقاعدة «قبح العقاب بلا بيان»[2] فهو ما يسمى بالبراءة العقلية. فالله تعالى لا يعاقب عبداً على شيء ما لم يبيّن له حرمته ومحظوريّته؛ ومن هذا على سبيل المثال التدخين فهو لم ينزل به نصّ من الله تعالىٰ، ولم تذكره السنّة النبوية المطهّرة؛ لأنه لم يكن موجوداً في زمن النبي ﷺ، وبهذا فإن الأغلب يذهب إلى حلّيته، باعتبار أنّ الأصل في الأشياء الإباحة، فلو كان حراماً لبيّنه الله ولأنزل فيه قرآناً أو بيّنة على لسان نبيّه ﷺ، أو لدخل هو تحت أحد عناوين الحرمة المعروفة، فما لم يدخل تحت أحد هذه العناوين ولم يبيّنها الله تعالى فالحكم بحرمته مستبعد.

☛ للمتكلم بحسب العرف ويتوقف صدق الكلام أو صحّته عقلاً أو شرعاً أو لغة أو عادة عليها. فإن صدق الكلام في قوله ﷺ يتوقف على تقدير عبارة «الأحكام والآثار الشرعية» لتكون هي المنفية حقيقة؛ لوجود الضرر والضرار قطعاً، فيكون النفي للضرر باعتبار نفي آثاره الشرعية وأحكامه. انظر أُصول الفقه ١: ١٨٤ ـ ١٨٥.

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) ويقابل هذا الرأي رأي آخر هو مسلك حقّ بالطاعة القائل بأن أعمّ الأُصول العمليّة هو أصالة اشتغال الذمّة، وأنه أصل يحكم به العقل. ومفاده أن كلّ تكليف يحتمل وجوده ولم يثبت إذن الشارع في ترك التحفّظ تجاهه فهو منجّز، وتشتغل به ذمّة المكلّف. ومردّ ذلك إلى أن حقّ الطاعة للمولى يشمل كل ما ينكشف من التكاليف ولو كان انكشافاً ظنّياً أو احتمالياً. دروس في علم الأُصول ١: ١٦٦.

ومثل هذا أيضاً ركوب الطائرة التي لم تكن معروفة في زمن النبي الأكرم ﷺ، فلا يمكن القول بحرمة ركوبها كذلك.

فالبراءة العقلية هي التي يحكم العقل وفقها بقبح العقاب بلا بيان، والبراءة الشرعية هي التي تستفاد من جملة آيات كريمة[١] وأحاديث شريفة[٢].

آية المودّة

فالله تعالى يريد أن يبين للمسلمين في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ أن ما وضعه عنهم وعفا عنه لهم يجب عليهم ألّا يشغلوا أنفسهم به؛ لأنهم غير مكلّفين به أصلاً، ولو كانوا كذلك لأمرهم الله به ولبيّنه لهم. لكن الذي كان يحصل أنهم يشغلون أنفسهم والرسول ﷺ بالسؤال عنها والاستقصاء، وما كان لهم حاجة ماسّة يتساهلون ويتهاونون في السؤال عنه.

ومن هذا نجد أن القرآن يصرّح آناء الليل وأطراف النهار على ألسنة قارئيه: **﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[٣]، لكن مع ذلك لم يكلفوا أنفسهم جميعاً بالسؤال عن ذوي القربى، وعن كيفية إظهار المودّة لهم، يقول الكميت:

وجدنا لكم في آل حم آية ... تأوّلها منّا تقي ومعربُ[٤]

وهكذا نجد أن البعض من المسلمين معرضين عن ذوي قربى رسول الله ﷺ،

---

(١) ومنها الآية الكريمة المارّة.

(٢) ومنها حديث الرفع، قال رسول الله ﷺ: «رفع عن أُمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أُكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطرّوا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة». التوحيد: ٣٥٣ / ٢٤، الخصال: ٤١٧ / ٩.

(٣) الشورى: ٢٣.

(٤) مجمع البيان ٨: ٤٢٤، ٩: ٤٩، جامع البيان ٢٤: ٥١.

بل إن البعض يتوجّه بالنقد اللاذع والتعنيف على من يجده مواداً لذوي قربى رسول الله ﷺ، كما هو الحاصل معنا في أمر تعظيم أبي الأحرار والشهداء وسيّدهم الإمام السبط أبي عبد الله الحسين عليه السلام. فهؤلاء يتساءلون عن الأسباب التي تدعو إلى مثل هذا التكريم، وكأنه عليه السلام لم يكن قد قُتل لتكريم الدين وإعلاء شأنه، بل إن الواقع الذي لا مفرّ منه أن الحسين عليه السلام وجد ليكرّم؛ لأنه الامتداد الطبيعي لحماً ودماً وفكراً وعقيدة للرسول الأكرم ﷺ ولرسالة السماء. إن الحسين عليه السلام قد قارع برسالته الظالمين، وهو يحمل على كفّه مبادئ الدين ويدافع عنها حتى وصل به الأمر إلى أن يستشهد هو وأهل بيته وأصحابه كافة وإلى أن تسبى عائلته، فلم يتراجع ولم يدع رسالته بل أدّاها حتى القطرة الأخيرة من دمه الطاهر، فكان بهذا سيد الشداء، و«**سيد شباب أهل الجنة**»[1].

استذكار الحسين عليه السلام استجلاء للحقّ

فنحن حينما نذكر الحسين عليه السلام فإننا نستجلي الحقّ، والدين والعقيدة الصحيحتين عبر سبر أغوار حياته الكريمة وسيرته الشريفة العطرة، وهذا جميعه يستحقّ التقدير والتعظيم؛ أفليس الله تعالى يأمرنا بتعظيم شعائره؟ وهل هناك شعيرة من شعائر الله تعالى أعظم من آل بيت محمد ﷺ الذي نحروا نحر الأضاحي من أجل الله تعالى وأجل دينه؟ إن هؤلاء هم أعظم شعائر الله مكانة وأعلاها شأناً. وهكذا فإننا حينما نقف على قبره الشريف فإنما نقف على المبادئ

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

التي جسّدها عليه السلام وضحّى من أجلها، لا على شباك من ذهب أو قطعة حجر، إننا إذ نقف أمام الضريح نقف على موقف مشرّف وغضبة من غضبات النبوّة لله تعالى ومن أجل دينه القويم. فهذا الدم قد غضب لله فسال إعلاءً لكلمته وتكريماً وإحياء لدينه. فتكريم الحسين عليه السلام تكريم للإنسان الحرّ المجاهد في سبيل الله والمتقمّص في شخصيته عليه السلام. والإمام الصادق عليه السلام حينما يدعوا لزوّار الحسين عليه السلام لم يدعُ لهم لأنهم جاؤوا يتلمّسون شباكاً من ذهب أو يمسّكون بقطعة من فضّة، فالموقف أبعد من هذا، يقول معاوية بن وهب: استأذنت على أبي عبد الله عليه السلام، فقيل لي: ادخل. فدخلت فوجدته في مصلّاه في بيته، فجلست حتى قضى صلاته، فسمعته وهو يناجي ربه في سجوده ويقول: **«اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا وخلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي قد غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا. اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى نوافيهم على الحوض يوم العطش»**[١].

أوّل خدّ تقلّب على الثرى لأجل الحسين عليه السلام

أمّا أوّل خدّ تقلّب على الثرى بعد استشهاد الحسين عليه السلام فهو خدّ سليمان بن قبّة رحمه الله، فقد وقع على مصرعه عليه السلام وأنشأ يقول:

مررت على أبيات آل محمد	فلم أرها أمثالها يوم حلّتِ
فلا يبعدِ الله الديار وأهلها	وإن أصبحت منهم برغمي تخلّتِ

---

(١) الكافي ٤: ٥٨٢ ـ ٥٨٣ / ١١، ثواب الأعمال: ٩٥ ـ ٩٦.

وإن قـتيل الطـفّ مـن آل هـاشم أذلّ رقـاب المسـلمين فـذلّتِ[1]

وأمّا الخد الثاني فهو خدّ بنات الرسالة بعد رجوعهنّ من السبي ومرورهنّ على كربلاء:

يـا نـازلين بكـربلا هـل عـندكم خـبر بـقتلانا ومـا أعـلامُها

مـا حـالُ جثةِ ميتٍ فـي أرضِكـم بـقيت ثـلاثاً لا يـزار مـقامُها

بـاللهِ هـل واريـتموها فـي الثـرى وهل استقرّت في اللحودِ رمامُها[2]

وبعد ثلاثة أيام أمرهم السجادعليه السلام بالاستعداد للرحيل، ممّا حدا بأحد أصحابه أن يقول له: يابن رسول الله، دع العيال تتزوّد من أهلها. ثم أقبل إلى عمته زينب وقال: **«عمة قومي»**. قالت: إلى أين؟ قال: **«إلى المدينة»** فقالت: وماذا بقي لي في المدينة؟ وهل فيها إلّا ديار خالية، وأرامل ويتامى؟

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا وخـلّفوا فـي سويدا القـلب نـيرانـا

نـذر عـلي لئـن عـادوا وإن رجـعوا لأمـلأن طـريقَ الطـفّ ريـحانا[3]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٦، أُسد الغابة ٢: ٢٢، الإصابة ٧: ١٢٦.

(٢) وفيات الأئمة: ١٦٧.

(٣) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿١٣٧﴾

الأُخوّة الإنسانيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الأخوّة الإنسانية

تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾، وأوّل ما يلفت النظر فيها هو إثبات نسبة الأُخوّة بين ثمود وصالح، مع أنهم أُناس كفرة، وقد كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام. فالتعبير بلفظ الأُخوّة مع كونهم كفرة أمر لافت للنظر؛ لأنّه لا أُخوّة بين المؤمن والكافر فضلاً عنها بين النبيﷺ والكافر. فالأُخوّة تطلق مثلاً على المتشابهين بالعقيدة أو الخلق أو الدين كما حصل مع مريم عليها السلام حينما حصلت معها معجزة السماء، يقول تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾[2]. وحينما يتطرّق

---

(١) مريم: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) مريم: ٢٧ ـ ٢٨.

المفسّرون لهذه الآية يذكرون أن هارون هذا كان معروفاً بالانحلال؛ فهم حينما لم يستطيعوا أن يصدّقوا فكرة المعجزة أو يهضموها، راحوا يلصقون بمريم عليها السلام صفة الانحلال ـ جلّت عن ذلك ـ عبر نسبتها بالأُخوّة إلى هارون المنحلّ هذا، وتعييرها به.

القرآن يعمّق فكرة أنسنة الأخوّة

إذن الأُخوّة نسبة بين المتشابهين فكيف تصحّ بين النبي صالح عليه السلام وبين قومه الكفرة؟ إن هذا الإخاء هو أيضاً بين المتشابهين، لكن ليسا المتشابهين في الدين أو العقيدة، بل المتشابهين في أصل المنشأ والخلقة؛ ذلك أنّ الإنسان أخو الإنسان في الخلق، وإلّا فإن النبي عليه السلام لا علاقة له مع الكفرة ولا نسبة له معهم؛ لا من حيث أُسرته ولا من حيث عقيدته. وكل ما في الأمر أن الله تعالىٰ أراد أن يجعل الخطّ الإنساني بشكل عام خطّاً أصيلاً في القرآن الكريم ليشعر الناس جميعاً بأنهم إخوة في أصل المنشأ والخلقة، ولكيلا يقول أحدهم: أنا من جنس معيّن أو على نمط خاصّ. وهذا ما قرّره الإمام السجاد عليه السلام حينما دخل عليه رجل، فقال: إن جدّك ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ قد قتل إخوته في الله. فبكى الإمام عليه السلام ثم قال: **«ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟»**. قال: لمّا سألوه عن أهل الجمل: هل نقول عنهم: إنهم كفرة؟ فقال: **«معاذ الله إنهم قوم يصلّون»**. فقيل: فماذا نقول؟ قال: **«إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم»**. فهو نفسه يعترف بأنهم إخوانه، فكيف قاتلهم؟

فأراد الإمام عليه السلام أن يصحّح له فكره هذا؛ لأن البعض يتعامل مع الأُمور بشكل حرفي، فيأخذ جانباً واحداً من جوانب المسألة فقط دون أن يستوعبها كاملة، فقال عليه السلام له: **«ويلك أما تقرأ القرآن؟»**. قال: بلى. قال: **«فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ**

أخَاهُمْ شُعَيباً﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟. فهو ﷺ يريد أن يقول له: إن أهل مدين كفرة وشعيباً نبيٌّ، فكيف عبّر عنهم بأنهم إخوة مع ما هم عليه من ضلال. فقال له الرجل: لا بل في عشيرتهم؟ فقال ﷺ: **«فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم»**[1].

فهؤلاء إخوته في أصل المنشأ والخلقة، أما الباغي فيجب قتاله[2]. دخل في أحد الأيام بوّاب معاوية عليه وقال له: أخوك عند الباب، وهو يطلب الدخول بإلحاح. فقال له: أدخله، وكان يعرف أنه ليس أخاه. فلمّا أُدخل سأله معاوية: كيف أصبحت أخي؟ قال: أوليس قد ولدني وإيّاك آدم؟ فهذا المعنى ـ الأُخوّة الإنسانية ـ أراد القرآن أن يؤصّله في نفوس الناس؛ لأنّ المشتركات كلّها سواء، فكل الناس من تراب وإلى تراب، وهو لا يفرّق بين ملك وسوقي، يقول أحدهم:

ساوى الردىٰ ما بيننا في حفرة ... حيث المخدّم واحد والخادمُ

ولهذا فإن الإنسان لا يحمل خصائص تميّزه عن الآخرين فيما يتعلّق بالأصل، أمّا فيما فيه الكمال كالأخلاق والقيم والآداب والعلم والاستقامة وغيرها فيمكن أن يكون فيه تمايز بحسب قابليات الأشخاص واستعداداتهم النفسية نحو الكمال وما يمكن أن يبذلوه من جهد متواصل في سبيل بلوغ ذلك. ومما ينقل في هذا الصدد أن عمر بن عبد العزيز كان يجلس يوماً إلىٰ جانب سليمان بن عبد الملك أيام خلافته، فجيء بأحد الخوارج وأُدخل علىٰ سليمان، فأراد هذا أن يهيجه، فقال له: ما تقول في الحجّاج؟

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣.

(٢) قال تعالىٰ ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ﴾ الحجرات: ٩.

قال: الحجّاج شرارة من شراركم، ونار من ناركم، وسيأتي يوم القيامة عن يمين أبيك، وعن شمال عمّك. فانفعل سليمان، فقال له الخارجي: إنكم بهذا إنما شاركتم الحجّاج في ظلمه؛ إذ سمحتم له بأن يلي الناس، مع أن الله تعالى قد لعن الظالم في كتابه. فقال له سليمان: إني أُكلّمك، فلمَ لا ترفع رأسك إليَّ؟ قال: إني أكره النظر إلىٰ وجه يكره الله النظر إليه.

فاشتدّ غضب سليمان، ثم التفت إلىٰ عمر بن عبد العزيز وقال له: ما تقول؟ قال: اشتمه كما شتمك، وإلّا فاصفح عنه.

وهكذا فإن المشرع الإسلامي يريد أن يشعر الناس بأنهم إخوة ولا تمايز بينهم من حيث الخلقة.

المبحث الثاني: حول لفظ الجلالة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، ولفظ الجلالة اسم علم على الذات المقدّسة، والمفسرون والعلماء يقسمون أسماءه تعالى إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ أسماء الذات مثل الله، الرب، وعددها خمسة عشر اسماً.

٢ ـ أسماء الصفات مثل الملك، الحي، القيّوم، وعددها ثمانية عشر اسماً.

٣ ـ أسماء الأفعال مثل البارئ، المصوّر، المهيمن.

فلفظ الجلالة إذن هو اسم علم على الذات المقدّسة، ولا يطلق إلّا عليه تعالىٰ؛ فلا يطلق على غيره وإن عُدّوا آلهة، فغيره يسمىٰ إلهاً ولا يسمى الله. ولفظ الجلالة يفيد معنى التفرّد له تعالىٰ، فهو وحدهُ الذي يستحقّ العبادة دون غيره، فهو الخالق الرازق الغني عن غيره بخلاف المخلوق الذي هو فقير إلى سواه في وجوده ورزقه ولحظات حياته. وهو مهما بلغ به تعجرفه أو غطرسته وجبروته فإن من الممكن

أن يُسلّط عليه كائن آخر أصغر منه فيعدمه حياته كالفايروس والبكتريا.

وهذا الشعور بالعجز والضعف أمام قدرة الله تعالىٰ نجده واضحاً في أدعية الأئمة عليهم السلام، حيث نقرأ في مناجياتهم: **«من أنا؟ وما خطري»**. فعلى الإنسان أن يعرف حجمه وهو يخاطب ربه عندما يفكر بأن يتجبّر ويظلم، فهو تعالى الوحيد الذي له أن يتجبّر، وعلى الإنسان أن يخضع له تعالى في كل لحظة من لحظات حياته، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«إلهي كفاني عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً. أنت كما أُحبّ فاجعلني كما تحبّ»**[1].

فالإنسان ملاك النقص والحاجة، وهو قابل لأن يُصرع لأتفه الأسباب، وكل أسباب القوّة من الله تعالى وله وحده؛ ولذا فإن الدعاء مندوب إلى قراءته؛ لأنه يشعر الإنسان بحجمه الطبيعي وهو يستمدّ القوّة والعطاء من الله عزّ وجلّ. والآية تؤكّد على هذا الجانب ـ وهو نقص الإنسان، وضرورة التجائه إلى الله تعالىٰ ـ فتأمر الإنسان بأن يعبد الله ولا يعبد إحدى القيم الاجتماعية من مثل الغرور الذي يكاد لا يفارقه أو يتركه كإحساسه بكونه مبدعاً أو عبقريّاً أو مخترعاً، في حين أنه يجب أن يعرف أنّ كل هذا من عند الله، وهو تعالى قادر على سلبه إيّاه في أي وقت يريد.

فعليه أن يدرك أن هناك من لا يجيد ترتيب جملة مفيدة، أو لا يحسن أن يتكلّم ومع ذلك فإن الله قد أغدق عليه نعمه الجزيلة. فالمسألة ليست مسألة عبقرية أو مهارة، وإنما هي أمر يتعلّق بعطاء الله ومنّه على عباده، فكم من عبقري ماهر لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، وهو ما يشعر بأن الله تعالى هو الذي يقسم الرزق

---

(١) الخصال: ٤٢٠، كنزالفوائد ١٨١، معدن الجواهر: ٦٧ تفسير الثعالبي ١: ٥٣٣، سبل الهدى والرشاد ١١: ٣٠١.

ويضعه في مواضعه؛ ولذا فإن على الإنسان أن يجعل عبادته خالصة محضة لله تعالىٰ.

المبحث الثالث: أمومة الأرض

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ﴾، وهذا المقطع من الآية يشير إلى الأُم الأُولى للإنسان، وهي الأرض التي انفتق عنه رحمها فولد منها. والغرض من هذا أنّ القرآن الكريم يريد منّا أن نعامل الأرض معاملة الأُم الحقيقية؛ لأنّ الإنسان كما قلنا خرج من رحم الأرض، كما أنّه خرج من رحم أُمّه. وكما يشرب من ثدي أُمّه ويتغذّىٰ فهو كذلك يتغذّىٰ من ثدي الأرض وعطائها غير المحدود، وكما يحنو عليه حجر أُمّه يحنو عليه حجر الأرض. وحجرها هو الجاذبية التي تشدّنا إليها بشكل غريب، ولولا هذه الجاذبية لتناثرنا في الفضاء. فحجر الأرض بهذا يضمّنا ويحنو علينا.

والله تعالىٰ هو الخالق المبدع الذي وضع هذه الخاصيات في الأرض ومنحها إيّاها؛ ولهذا نجد الكثير من الأحكام التي شرعها الله تعالى حول الأرض وكيفية التعامل معها.

إن الأرض تمرّ اليوم بأزمة حقيقية بسبب هذا التطوّر الهائل في جميع نواحي الحياة، فهناك الكثير من هذه الاختراعات التي تعطي الكثير من الإيجابيات لكنها من جانب آخر تأخذ الكثير من حيوية الأرض وصحة المخلوقات مقابل ذلك. ومن هذا المخصّبات الكيمياوية مثل الأسمدة التي تؤدي إلى تسريع إنماء النباتات أو تسريع إنضاج الثمار أو تكبير حجمها، لكنها في الوقت نفسه تترك مخلفات سميّة في الأرض تتسبب في الكثير من الأمراض للكائنات الحية سواء الإنسان والحيوان منها أو تلك التي تعيش داخل التربة، كما أنّها تتسبّب في

تسميم المياه الجوفية. وهذا هو شأن كل ما هو دنيوي حيث يعطي ويأخذ مقابل ذلك ما هو أكثر مما يعطيه.

وهذا هو السبب المباشر في ارتفاع الكثير من الدعوات للتحذير من مخاطر التلوّث البيئي ومحاربته والوقوف بوجه مسبّباته للرجوع بالأرض إلى سابق عهدها الذي كانت عليه قبل عصر الثورة الصناعية[١].

وهذا هو دأب كل إنسان؛ فهو مقابل ما يعطيه من طاقة جسدية وذهنيّة، ومقابل ما يهدره من عمره وربما كرامته بأخذه أجراً على ذلك. وهذا هو شأن من يعطي الأجر أيضاً حيث إنه يأخذ مقابله طاقة العامل الذهنية الجسمية وغيرها. تقول الدراسات الحديثة: إن المستوى المعيشي حتى وإن ارتفع من جهة فإنه ينخفض إيكولوجياً، فيحصل هناك توسّع بالسكن على حساب الأراضي الزراعية؛ مما يؤدّي بالنتيجة إلىٰ ضيق نطاق الرقعة الخضراء وزوالها تماماً من بعض المدن. وبهذا فإن العلم لا يقدّم إنجازاً إلّا ويأخذ مقابله شيئاً.

وهذه الأزمة قد شغلت الأُمم المتّحدة فترة، حتى إنّه عقد مؤتمر في استوكهولم سنة (١٩٧٢) حضره أعداد كبيرة من العلماء في مجالات النفس والاقتصاد والاجتماع والزراعة وغيرهم. وكانت مهمة هؤلاء معالجة مشكلة التلوّث البيئي المتمثّل حتىٰ بالضوضاء[٢] التي تثيرها السيارات وعربات النقل وآلات المصانع

---

(١) يلاحظ أن من مظاهر التلوّث الناشئ عن التطوّر العلمي حدوث ثقب في طبقة الأُوزون (O_3) فوق القطب الجنوبي، وكذلك ظاهرة الدفيئة أو ما يسمىٰ بالبيت الزجاجي (ظاهرة التسخين الكوني) وغيرها من مسبّبات القضاء على بعض مظاهر الحياة في الطبيعة.

(٢) يذكر أنّ مصطلح التلوّث بدأ يأخذ أبعاداً عميقة وواسعة سواء على نطاق الاستعمال أو على نطاق التطبيق، فنجد هناك من يسمي زيادة السكان تلوّثاً؛ لأنّه أحد أسباب حصوله، وهو من باب تسمية الشيء باسم لازمه. وهناك التلوّث البصري الذي يرجع إلى تعكير

ومكائنها. وهذه الأُمور تخلق نسبة عالية من الضوضاء سواء على صعيد الشارع أو المصنع وحتى داخل البيت والمدرسة، وقد وجد أنّ نسبة كبيرة من أسباب الصمم عائدة لهذه الضوضاء.

ومن مظاهر التلوّث ما تحدثه مخلّفات الصناعة والأسمدة من سموم في مياه الأنهر، الأمر الذي يؤدّي إلى القضاء على الحياة البيئية فيها. وكذلك زيادة السكان فإنّها تعدّ تلوّثاً أيضاً. وقد نتوسّع نحن في مفهوم التلوّث هنا ـ عند مسألة زيادة السكان ـ لأنّ هذه الزيادة قد تكون سلبية وليست إيجابية، وإذا كانت كذلك أصبحت ضارة حيث إنّها تفقد الهدف الذي من أجله وجدت، وهو إعلاء كلمة **«لا إله إلّا الله»** مثلاً كما هو ثابت عندنا.

إن البعض من الشعوب يتّسم بزيادة نسبة الولادات عندهم، وحينما يُطلب منه التريث في مثل هذا الأمر وإعداد العدّة له من كون الأب قادراً على تربية أبنائه إن كثروا وكونه قادراً على إعالتهم يجبك بما حاصله: «ثقله على الأرض ورزقه على الله». وكأن المسألة مقتصرة على الإيلاد والإطعام، وليس هناك مكان لاعتبارات أُخرىٰ، مع أنّ الله تعالىٰ يؤكد على وجوب حسن تربية الأبناء ومتابعتهم وعدم الانشغال عنهم في أُمور الحياة والعمل الذي ستصبح الحاجة إليه أكبر والمدّة أطول حينما يكثر الأولاد.

☚ صفاء العين وحاسة البصر بمناظر غير جميلة أو ألوان تعدّ نشازاً، وكذلك التلوّث السمعي الذي يكون عادة مردّه الضوضاء الحاصلة نتيجة عمل المكائن والآلات والمحركات والتوربينات وما شاكل.

ولعل هذا التوسّع كما قلنا يعود بالدرجة الأُولىٰ إلى تسمية الشيء باسم لازمه؛ فكل ما يؤدي إلى الحاق ضرر بالبيئة والطبيعة يعدّ عنصراً ملوّثاً وإن كان غير مادي كمسببات التلوّث السمعي والتلوّث البصري.

وهذا مؤدّاه تناقص فرص متابعة الآباء أبناءهم وتربيتهم تربية سليمة قائمة على الأُسس العلمية الصحيحة، وزرع الإيمان والتقوى والورع وحب الله في نفوسهم. إن على هؤلاء أن يعلموا أن الله تعالى يريد من الأب أن يقوم بكل هذا من أجل أبنائه ومجتمعه؛ لأنهم جزء منه يؤثرون فيه سلباً أو إيجاباً. وعليه فإن المسألة بهذا المنحىٰ تكون غاية في التعقيد.

المبحث الرابع: خلافة الإنسان في الأرض

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أي أمركم بعمارتها، فلا تعرّضوها للخراب والدمار والإسلام هو أول من قنّن وقعّد لحماية البيئة ومن ذلك قاعدة: «لا ضرر ولا ضرار»[1] التي تشمل كل أبعاد الحياة؛ فهي قاعدة سيّالة تطبق على كل موارد الحياة. فالأرض أُمّنا وأم آبائنا وأجدادنا، منها خرجنا وإليها مصيرنا. ومن يمشِ على الأرض فإنّما يمشي على رفات الأجساد.. على رؤوس وأطراف، يقول المتنبّي:

نُعِدُّ المشرفيةَ والعوالي ... وتقتُلنا المَنون بلا قتالِ

ونَرتَبِطُ السَّوابِقَ مُقْرَباتٍ ... وهل يُنجينَ من خَبَبِ اللّيالي

رماني الدَّهرُ بالأرزاءِ حتّى ... فُؤادي في غِشاءٍ مِن نبالِ

فصرت إذا أصابتني سهامٌ ... تكسّرت النصال على النصالِ

وهان فما أُبالي بالرزايا ... لأني ما انتفعت بأن أبالي

يدفّن بعضنا بعضاً ويمشي ... أواخرنا على هام الأوالي

فكم عين مقبّلة النواحي ... كحيل في الجنادل والرمالِ[2]

---

(١) مجمع البيان ٥: ٢٩٧، وانظر تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٤٠٧، تفسير السمعاني ٢: ٤٣٨.

(٢) ديوان المتنبي ٢: ٢٦٥.

تشيّع المتنبي

إن مما يجدر ذكره هنا أنّ المتنبي تلوح عليه سيما التشيّع والميل إلى الجانب العلوي، ومن ذلك ما نقرؤه له:

فــؤاد مــا تسـلّيه المـدامُ	وعـمر مـثل مـا تـهب اللـئامُ
ودهـر نـاسه نـاس صـغار	وإن كـانت لهـم جـثث ضـخامُ
ومـا أنـا مـنهُمُ بـالعيش فـيهم	ولكـن مـعدن الذهب الرغـامُ
فشـبه الشـيء مـنجذب إليـه	وأشـبهنا بـدنيانا الطـغامُ
ولو لم يـعل إلّا ذو مـحلّ	تعالى الجيش وانحطّ القتامُ[١]

ويقول:

أنـا فـي أمّـة تـداركـها اللـ	ـه غريب كصالح في ثمودِ
مـا مـقامي بـأرض نـحلة الّا	كمقام المسيح بين اليهودِ[٢]

وكان حينما يدخل مصر يلبس العمّة الخضراء، وهي لباس السادة، لكنه نشأ في مكان اضطر إلى أن يخفي مذهبه ويتستّر بعقيدته.

الإسلام يؤسّس لحماية البيئة

إذن فقوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يؤسّس لقواعد حماية الأرض والبيئة، فلنرَ كيف أنّ هذا الجزء من الآية الشريفة يؤسّس لهذه القضية الحيويّة الهامّة:

أوّلاً: خطر التلوّث البصري

إن آراء المفسّرين حول هذا المقطع الكريم واضحة في أنّ الإسلام هو أوّل من وضع الأسس لحماية أُمّنا الطيبة (الأرض) من كل ما له أثر سلبي وسيّئ على سير

---

(١) ديوان المتنبي ٢: ١٠١.

(٢) ديوان المتنبي ١: ١٩، معجم البلدان ٥: ٢٧٥، وفيه: نحلة قرية تبعد عن بعلبك ثلاثة أميال.

الحياة فيها وعليها؛ والشيخ الطبرسي مثلاً يقول في تفسيره لهذا الجزء الشريف: «أمركم بعمارتها بالبناء وغرس الأشجار وعدم الإضرار بها». وهناك الكثير من الأحكام الإسلامية الخاصّة بالمحافظة على البيئة وعدم الإضرار بها، وهي تتناول حتى الضوضاء والضجيج: ﴿**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾[1]. يروى أن رسول الله ﷺ كان في غزاة، فأشرفوا على وادٍ، فجعل الناس يهلّلون ويكبّرون ويرفعون أصواتهم، فقال ﷺ: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم، أما إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً معكم**»[2].

فلا حاجة لرفع الصوت في مثل هذه المواطن بل اتجه إلى الله تعالى بهدوء وادعُه كما تحبّ وبأي شيء تحبّ، كما أنّ الكلام مع الجليس يجب أن يكون بمقدار ما يسمع الجليس.

ثانياً: خطر تلويث المياه

ومن أحكام المحافظة على الأرض وعدم إلحاق الضرر بها قوله ﷺ: «**ولا يبولن أحد في ماء؛ فإن للماء أهلاً**»[3]؛ إذ أن الواجب يقضي بأن على الإنسان أن يراعي مسألة أن غيره سيستعمل هذا الماء للشرب، أو غيره من الاستعمالات التي يجب أن يكون الماء فيها نقيّاً طاهراً، وصحيّاً؛ لأجل الحفاظ على صحة الإنسان. فهذا النهي وغيره من موارد النهي عن تلويث الأنهر أدلّة واضحة على حثّ الإسلام على عدم تلويث البيئة ووضع القوانين والأُسس لهذا.

---

(١) لقمان: ١٩.

(٢) بحار الأنوار ٩: ٣٤٣، مسند أحمد ٤: ٣٩٤، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٨، صحيح البخاري ٤: ١٦، ٧٥، ١٢٦، ٧: ١٦٢، ١٦٩، ٢١٣، ٨: ١٦٨.

(٣) قريب منه في الخصال: ٦١٣، الاستبصار ١: ١٣ ـ ١٤ / ٢٥، تهذيب الأحكام ١: ٣٤ / ٩٠، تحف العقول: ١٠٢.

ثالثاً: خطر تلويث التربة

ومن هذه الأُسس أيضاً ما شرعه الإسلام ـ وكان سبّاقاً فيه ـ حول إماطة الأذىٰ عن طريق المسلمين، يروى أن السجّاد ﵇ كان لا يرى حجراً في الطريق إلّا أماطه.

ولو نظرنا إلى جملة من الأحكام المختصّة بهذا المجال لوجدناها كافّة تنصبّ على حرص المشرّع الإسلامي المقدّس على الحفاظ على البيئة طيبة سليمة نقية من كل ما يدنّسها، وخصوصاً ﴿اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ فإن الإنسان مأمور بإعمار الأرض وإسعاد من فيها لا خرابها وتعاستهم.

الدعوة إلى مراجعة تراثنا العلمي

وعليه فإن أي معنى يحقّق عنوان التخريب فهو حرام في الشريعة الإسلامية؛ والمفروض بنا ألّا ننسب كل شيء يدعو إلى الخير وسعادة الناس والحفاظ على بيئتهم لأوروبا. وأنا من هذا المنبر أدعو كتّابنا كافّة إلى مدارسة القرآن وكتبنا الفقهية والتفسيرية لاكتشاف هذا الأمر، لا أن يجرّدوا أنفسهم وتراث المسلمين من كل وسيلة لتغطية هذا المجال الحيوي.

إن الإسلام يواكب الإنسان في كل مجالات حياته، ويدخل معه إلى أدقّ تفاصيل هذه الحياة، فهو معه حتى في الحمّام وفي الفراش، وهل يسوغ له ذكر الله في تلك المواضع أم لا، وإن ساغ فكيف يكون. وهكذا فإن الإسلام يعالج حتى أبسط القضايا الإنسانية ولا يتركها، وأقلامنا مدعوّة إلى الكتابة في عطاء الإسلام وإنجازاته الحضارية.

إذن الأرض هي الأُم التي تحنو على الإنسان بعد موته، وهي الجانب الرؤوم الذي لا يأنف من أن يستر الإنسان بعد موته وتحوّله إلى قذر تعافه

النفس حتى وإن كانت من أقرب أقربائه. فالأرض لا تأنف منه ولا تعافه، بل إنّها تستره وتغطيه وتمنع انتشار الروائح النتنة التي تنبعث من جسمه. والجسم هذا لا يمثل شيئاً من الإنسان، بل إن الإنسان إنسان بروحه وفكره وعقله وعلمه وأخلاقه.

ثم إنّ الأرض تضم في رحمها جنوداً هائلة تعمل على خدمتها، تلك هي البكتريا التي تفترس الجثث ذات الأمراض الموجودة داخلها فتقضي على كل وباء يمكن أن تسببه لو أنّها تركت دون أن تدفن، ولعادت الأرض بؤرة من بؤر المرض والوباء. وهذا جانب بسيط من جوانب عناية الأرض الأُم بأبنائها.

المبحث الخامس: فلسفة التوبة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾، فالله تعالىٰ كما أمرنا بإصلاح دنيانا أمرنا بإصلاح آخرتنا ومعادنا بالاستغفار والتوبة عن أي خطيئة يمكن أن تصدر من الإنسان بحق الأرض ومن عليها؛ ذلك أنّ الإنسان خطّاء ومن طبعه أن يسيء للآخر ولو بسوء الظن. وهنا يجب عليه أن يستغفر الله تعالىٰ وأن يعيش حالة التوبة والندم على ما فرّط في جنب الله وحقوق الناس؛ كيلا يخرج من الدنيا معانداً لله عاصياً له ومغاضباً.

والتوبة مشروع ضخم؛ لأنها تغسل الذنوب سيّما إذا وقعت بعد اقتراف الذنب مباشرة، ورحمة الله تعالى تسع جميع البشر برّهم وفاجرهم. فلا يقطع امرؤ رجاءه وأمله بالله تعالىٰ، فإن كان ذنب الإنسان كبيراً فإن عفو الله تعالى أكبر وأكبر فيما لو شعر الإنسان بالندم وتاب عما أذنب توبة خالصة نصوحة، وتوجّه إلى الله تعالى بقلبه وكيانه ووجوده، وأخصّ هذه الذنوب بالعناية ما كان بين العبد وأخيه، فليخرج من الدنيا وقد أوفى حقوقهم وقضى مظالمهم وليتب عما اقترف بحقّ الله

وحقّهم، وليكن توّاباً؛ فإن التوبة تخرج الإنسان من الدنيا طاهراً [١].

إن المأساة الحقيقية هي تلك التي يعيشها بعض من ليس لهم إدراك أو وعي بضرورة ردّ مظالم الناس وطلب عفوهم وغفرانهم؛ فهؤلاء تمنعهم كبرياؤهم الكاذبة الخادعة، وأنفتهم الجاهلية، وحميّتهم المضلّلة عن أن يرتدعوا عن غيّهم، وأن يثوبوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى بارئهم وإن دعاهم داعية إلى ذلك [٢]. فمن هذا النمط ما حصل مع أعداء الإمام الحسين ﷺ، ومن النمط الأوّل ما حصل من الحرّ ابن يزيد الرياحي، فقد كان الإمام الحسين ﷺ واقفاً بين الجيشين يخاطب معسكر ابن سعد ويقول: «**اشتدّ غضب الله على اليهود حين قالوا: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [٣]، واشتدّ غضب الله على النصارى حين قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [٤]، واشتدّ غضب الله على المجوس حين عبدوا النار من دون الله، واشتدّ غضب الله على قوم قتلوا نبيّهم، واشتدّ غضب الله على هذه العصابة الذين يريدون قتل ابن نبيّهم**» [٥].

فرأى رجلاً قد أقبل، وقد ضرب فرسه وجاز معسكر عمر بن سعد إلى معسكر أبي عبد الحسين ﷺ واضعاً يده على رأسه، وهو يقول: اللهم إليك أُنيب، فتب

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ البقرة: ٢٢٢.

(٢) فهم خلاف أُولئك الذين مدحهم الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ آل عمران: ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٣) التوبة: ٣٠.

(٤) التوبة: ٣٠.

(٥) الأمالي (الصدوق): ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

علي؛ فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيّك. يابن رسول الله، هل لي من توبة؟

فقال عليه السلام: **«نعم تاب الله عليك»**.

فنظر إليه الحسين عليه السلام فإذا هو الحرّ بن يزيد الرياحي، وكان من أعيان الكوفة وسراتها، وكان شريف النفس عالي الهمّة كبيرها، فبرز في لحظة من لحظات الهداية وقد أدرك خطأه، مبادراً إلى الإمام الحق أبي عبد الله الحسين عليه السلام. يقول مهاجر بن أوس عن الحر بن يزيد الرياحي رضي الله عنه لمّا رآه يريد الخروج إلى الإمام الحسين عليه السلام والالتحاق به رآه يرتجّ ويرتعش، فقال: والله لو سئلت: من أشجع أهل الكوفة، لما عدوتك، فمالي أراك ترتعش؟ فقال له الحر رضي الله عنه: أنا لست أرتعش خائفاً، وإنما أنا أُخيّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنّة بدلاً.

ثم قال: يابن رسول الله، أتأذن لي فأُقاتل دونك؟ فلمّا رأى الإمام الحسين عليه السلام هذا الموقف منه قبله ودعا له، ثم أذن عليه السلام له في القتال، فبرز وهو يقول:

إني أنا الحرّ ومأوى الضيفِ ... أضرب في أعناقكم بالسيفِ

عن خير من حلّ بلاد الخيفِ

فقاتل قتال الأبطال حتى سقط شهيداً، وقد قتل منهم ثمانية عشر رجلاً، فأتاه الحسين عليه السلام ودمه يشخب، فأبّنه ومسح الدم والتراب عن وجهه ورأسه، وقال: **«بخٍ بخٍ يا حرّ، أنت حرّ كما سميت في الدنيا والآخرة»**. ثم أنشأ عليه السلام يقول:

لنعم الحرّ حرّ بني رياحِ ... ونعم الحرّ مختلف الرماحِ

ونعم الحرّ إذ نادى حسين ... فجاد بنفسه عند الصباحِ[1]

وحينما أمر ابن سعد برضّ صدور القتلى حالت عشيرة الحرّ دون ذلك وقالوا: الحرّ رئيسنا ولن يصل إليه أحد بسنابك الخيل. ثم رفعوه إلى المكان الذي دفن

---

(١) المصدر نفسه.

فيه بعدُ، أما الحسين عليه السلام فقد وقفت أُخته زينب عليها السلام لا تملك حيلة في دفع الخيل عن صدره، هي ترىٰ أنّ بعض العشائر قد أخلت قتلاها من ساحة المعركة، فالحسن المثنىٰ أخذه أخواله، والطرمّاح رفعته عشيرته، فاختنقت بعبرتها وصاحت: «أما لهذا المسجّى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم أحد يواري هذا السليب؟»:

تعالوا لبنكم غسلوه　　　　مهو عزيزكم چاليش عفتوه



﴿١٣٨﴾

دروس من الهجرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في تحديد مفهوم الهجرة وأقسامها

ترتبط الآية الكريمة بموضوع الهجرة النبوية الشريفة، والهجرة فيها دروس كثيرة وعبر ضخمة. وقد حدثت الهجرة بعد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بثلاث عشرة سنة، حيث إن جبرئيل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمره بها. وكان عمره الشريف عندما هاجر ثلاثاً وخمسين سنة. وقد سبقت هجرته الشريفة بعض القضايا، كما أن بعضاً منها وقع بعدها؛ فهنا مرحلتان: الأُولىٰ ـ أي مرحلة ما قبل الهجرة ـ وكانت مرحلة تأصيل العقائد، أمّا المرحلة الثانية ـ أي مرحلة ما بعد هجرته صلى الله عليه وآله وسلم ـ فكانت مرحلة تأسيس الدولة.

---

(١) الأنفال: ٣٠.

وقد سارع النبي ﷺ إلى الهجرة؛ لأن المشركين قد ألجؤوه إلىٰ ذلك، حيث إنهم عقدوا اجتماعاً لهم في دار الندوة ـ وهو ما يعبّر عنه باصطلاح اليوم «البرلمان» ـ لتدارس فكرة اغتيال الرسول الأكرم ﷺ.

ولم تكن دار الندوة حينذاك تقتصر على الرجال فقط، بل اشترك فيها حتى النساء؛ حيث كانت أُخت أبي سفيان (عمّة معاوية) وزوجة أبي لهب عضواً فيها، وكانوا يتبادلون الآراء، فأجمع رأيهم علىٰ قتل النبي ﷺ؛ لأنه يشكّل خطراً عليهم. فهؤلاء أرادوا أن يحصّنوا أنفسهم منه بأحد طرق ثلاثة: فجماعة طرحت فكرة الحبس، وجماعة أُخرىٰ قالت: نبعده عنّا، وجماعة ثالثة قالت: نقتله. وطريقة القتل أن يقتلوه جميعاً بسيوفهم دفعة واحدة فيضيع دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم وبنو الفضل أن يطالبوا بدمه ﷺ.

فاستقرّ الرأي على الأخير وصار القرار أن ينفّذوه في الليلة التي هاجر فيها ﷺ، فهبط جبرئيل عليه السلام فأنزل الآية: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾. والمكر من الإنسان: الحيلة والتصرّف الغادر، لكنه من الله: إبطال الحيلة. وهو من باب المقابلة، فنحن نقرأ في القرآن: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾[1]، فهذه سيّئة من باب التقابل؛ جرياً علىٰ قاعدة العرب؛ حيث يقول شاعرهم:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا[2]

فيسمون التقابل باسم الفعل. فهنا المكر من الله ردٌّ لمكرهم إلىٰ أعناقهم. ثم بيّن

---

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته. الأمالي (المرتضىٰ) ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٣٥٦.

له جبرئيل عليه السلام أنه لابدّ أن يخرج ويبقي أحداً مكانه؛ حتىٰ يوهمهم أنه ما يزال نائماً في فراشه، وقال له: «**إن الله يأمرك أن تضجع علياً مكانك**». فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام، وقال له: «**ياعلي، إن الله أمرني أن أُضجعك مكاني هذه الليلة وأن تعتجر بردائي وتنام مكاني**». فقال له الإمام عليه السلام: «**يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلم؟**». قال: «**بلىٰ**». قال: «**روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا**»[1]. ثم أخذ سيفه واضطجع مكانه.

عمليّة الهجرة اشترك فيها أكثر من صحابي

وعملية الهجرة اشترك فيها عدّة أشخاص؛ فأبو بكر خرج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي نام في فراشه، وقسم من الصحابيّات هيأن طعاماً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وآخرون هيّؤوا الراحلة. فهذا إسهام في العملية، فلابدّ من ذكر أي فضل أو إسهام لأي أحد في هذه العملية. وهذا هو التاريخ السليم، حيث تسلط فيه الأضواء علىٰ الأشخاص كافّة، وأما التسليط علىٰ جزء دون آخر فهذا عيب ونقص، وهذا ما نجده عند بعض المؤرّخين، وهو شيء يؤسف له. فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم خرج بهذه العملية الجماعيّة في حين أن الضوء لم يسلط علىٰ علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولتقريب المعنىٰ بحدث آخر نذكر أن ابن كثير حينما يمرّ بحادثة الدار يذكر أنه عندما نزل قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[2]، أرسل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم خلف أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: «**اصنع طعاماً لأربعين رجلاً**».

فصنع لهم علي عليه السلام طعاماً، وكان فخذ جزور وعسّاً من اللبن، وكان عددهم

---

(١) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ ـ ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ٢٠٤.
(٢) الشعراء: ٢١٤.

أربعين فأصدرهم شباعاً، ولم ينقص من الطعام شيء، ثم قال لهم رسول الله: **«لو قلت لكم وراء هذا الجبل قوم يريدون غزوكم، هل كنتم تصدقونني؟»**. قالوا: بلىٰ، لأننا ما عرفنا منك كذبة وأنت الصادق الأمين. قال: **«والله لقد جئتكم بخير ما جاء به وافد إلىٰ قومه، قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا»**.

فقام إليه عمّه أبو لهب وقال له: ألهذا جمعتنا؟ تبّاً لك. فهبط القرآن الكريم ليقول: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾**[1].

ولم تؤثّر تلك الواقعة في نفس النبي ﷺ أبداً، فكرّر الدعوة وأمر علياً ﵇ بصنع الطعام ففعل، ووقف رسول الله ﷺ ليقول لهم: **«من منكم يتبعني علىٰ هذا ليكون أخي ووزيري وخليفتي من بعدي؟»**. فلم يقم إلّا علي ﵇، وهو أصغر القوم سنّاً، يقول ﵇: **«قلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس. وفي الثانية قمت فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: اجلس»**. وفي الثالثة أمسكه من رقبته فقال: **«هذا أخي ووزيري وخليفتي من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا»**.

فخرج القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: إنه يأمرك بطاعة ولدك[2].

لكننا نجده يقول: لقد أمسكه من عنقه وقال كذا وكذا، فهل يظن أنه بقوله يهدمه؟ الحقيقة أنه إنما يسيء لنفسه ولتاريخه. إن عندنا نجوماً مضيئة تعطي تاريخنا روحاً، فعليّ ﵇ رجل صنعته السماء ولا يمكن أن تقضي عليه الأرض، فهذا عبد العزيز بن مروان يقول: ما بنت الدنيا شيئاً إلّا وهدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً واستطاعت الدنيا أن تهدمه[3]. يقول أحد الأُدباء:

---

(١) المسد: ١، انظر مناقب آل أبي طالب ١: ٤٣.

(٢) شرح الأخبار ١: ١٠٧.

(٣) اختلف المؤرّخون في نسبتها لقائلها؛ ففي بحار الأنوار ٤٢: ١٩، أنه الوليد بن عبد الملك،

ســـــيدي كـــلما تــلبّد اُفــق	وتـــجنّى بــعصفه الديــجورُ
وتــمادت صـحائف خـطّ منها	قـلم الحـقد والهـوىٰ والزورُ
فحباهم عـطفاً وطـيباً كما يفـ	ـعل إن زج بـاللهيب البخورُ
وتــمهّل أبــا تــراب فـدون الـ	ـشتم من حولك الفضائل سورُ
إن أشادت بك السـما وأفـاضت	أيّ ضـير لو سـبّك المأجـورُ

المبحث الثاني: إفرازات الهجرة الشريفة

وهكذا استدعى النبي ﷺ الإمام علياً عليه السلام فأضجعه مكانه، وخرج. ولنـا أن نسأل: ما هي الخطوات التي خطاها رسول الله ﷺ؟ وهل كـان فـيها إيـحائية وتدريب الناس؟ نعم كان كلّ ذلك ممّا يمكن إجماله بالآتي:

أولاً: وضع قاعدة إنسانية على مستوى الممارسة الفعلية

فالرسول الأكرم ﷺ بهجرته الشريفة يكون قد وضع لنا قاعدة إنسانية ربما احتجنا أن نمارسها في حياتنا العملية. فنحن عندما نزرع أرضاً ولا تنبت يحب أن ننتقل لأرض اُخرىٰ نزرعها، وهذا عين ما فعله النبي الأعظم ﷺ؛ حيث إنه بقي في مكة ثلاث عشرة سنة ولم يجنِ إلّا الحجارة، ولم يتّبعه إلّا قـليل، فـرأى أن التربة غير صالحة لبذر الرسالة ونموّها، وأن المناخ غير صالح، فلا بدّ أن ينتقل إلىٰ مناخ آخر. ذلك أن الناس معادن؛ فبعضهم خسيس كالأرض البور، يقول القرآن الكريم: ﴿**وَكَانُوا قَوْماً بُوراً**﴾[1].

☚ وفي شرح نهج البلاغة ٩: ٦٤، المحاسن والمساوئ (البيهقي): ٧٧، البيان والتبيين ٢: ١٧٣، أنه لعبد الله بن عروة بن الزبير.

(١) الفرقان: ١٨، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُورًا﴾ الفتح: ١٢.

أي أنهم أرضية ليس فيها خير ولا تعطي أي نتيجة. فهؤلاء تذهب معهم كلّ الحلول سدى وإن تكرّرت عدّة مرّات. وفي مثل هذا الحال يجب تركهم: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1]؛ ولذا اضطرّ الرسول الأكرم ﷺ أن ينقل الدعوة من بيئة إلىٰ أُخرىٰ. وهذا سلوك إنساني يفعله المصلحون حينما يرون أنهم لم يفلحوا في مكان فيعمدوا إلى أن ينقلوا حركتهم إلىٰ مكان آخر.

فنبينا ﷺ أراد أن يوصّل هذا المعنىٰ في نفوسنا، فقنّن لنا فكرة أن الناس كالأرض ليس لبعضهم القابلية على الإنبات، فانتقل بحركته الشريفة إلىٰ دار أُخرىٰ.

وهذا ـ ببالغ الأسف ـ ما حصل مع إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام، فلم تعطِه التربة حقّها، وكان مظلوماً، (نسأل الله أن يجعلنا ممّن يبجّل النبي الأكرم ﷺ وأصحابه، لأنهم الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ للوصول إلىٰ عقائدنا)، لكن ينبغي ألّا نتعدّى القرآن الكريم حيث وضع لنا منهجاً في ذلك فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[2]. فمن أصحاب النبي الأعظم ﷺ من يعبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[3] وعبّر عن جماعة أُخرى بقوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾[4]. وبهذا فإن منهجنا منهج القرآن لا يعدوه، وهو قد ذكر أنّه: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[5] و﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[6].

فهذه أول خطوة للرسول ﷺ، وهي نقل الدعوة، وقد أثمرت في البيئة

---

(١) القصص: ٥٦.
(٢) الواقعة: ١٠ ـ ١١.
(٣) التوبة: ١٠٢.
(٤) التوبة: ١٠١.
(٥) الحشر: ٢٠.
(٦) الزمر: ٩.

الجديدة ثمراً رائعاً؛ حيث إن الأنصار احتضنوها وقاموا بها.

ثانياً: أنها أصبحت مبدأ للتاريخ الإسلامي

فالهجرة الشريفة مثّلت منطلقاً جديداً في التاريخ: فكانت بداية التاريخ الإسلامي، وأصبح المسلمون يؤرّخون بالهجرة. وكان هذا الأمر بإشارة من الإمام علي عليه السلام [١].

والتاريخ هو عمليّة تقطيع الوقت، وهو مرتبط بالمعاملات الأساسية، فعندما يشتغل العامل يحدّد له وقت (٨) ساعات مثلاً، فلا يسرق منه حقّه: ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ [٢]. وعندما يعالج بعض الفقهاء قوله تعالىٰ: ﴿**وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ [٣] يقرّر أن الوقت الذي يحدّد للعامل لا ينبغي أن يزاد عليه، ولا ينبغي للعامل أن ينقص دقيقة منه؛ فكلاهما يحاسبان أمام الله. فالتاريخ إذن هو عمليّة تقطيع الوقت، والوقت بعد من الأبعاد، مثل الطول والعرض والعمق؛ فلذا لا بدّ من المرور بالزمن وقطعه حتىٰ تضبط المعاملات والتصرفات ومواسم الزرع والعبادات: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ**﴾ [٤].

ثالثاً: إزالة العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي

فمنذ السنة الأُولى التي هاجر فيها نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عمد إلى أن يزيل العقبات النفسية من المجتمع الإسلامي، ونجح في ذلك نجاحاً باهراً. إن البعض من الناس يظن نفسه أفضل من الآخرين، وأنه سيّد على غيره وأنه عبقري. وهذه النظرة لايقتصر وجودها على العرب فقط، بل تتعدّاهم إلى الأوروبيّين؛ فهي موجودة

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٣، الكامل في التاريخ ١: ١١.

(٢) الأعراف: ٨٥، هود: ٨٥، الشعراء: ١٨٣.

(٣) البقرة: ١٩٤. (٤) البقرة: ١٨٩.

عندهم؛ إذ أنهم يركّزون على الجنس الأشقر، ويذكرون أقسام الدماء، ويقولون: إن الدماء الزرقاء أفضل من الدماء الأُخرىٰ، ويذكرون أن بعض الأُمم لم يرسل الله لهم نبيّاً؛ لأنهم ليس لديهم القابلية على استيعاب هذا الأمر. وهذا كلام غريب؛ فالله تعالى هو ربّ العالمين، وهم كلّهم عبيد له، وقد ساوىٰ فيما بينهم وإن اختلفوافي الأجواء الحضارية والثقافية والقابليات الذهنية، فمعلوم أن هناك فرقاً بين إنسان وآخر.

مظاهر تطبيق مبدأ المساواة في الإسلام

ولتأكيد مبدأ المساواة جاء النبي الأعظم ﷺ ببلال الحبشي وآخىٰ بينه وبين رويحة الخثعمي، وهو رئيس قبيلة من القبائل الكبيرة.. آخىٰ بين السيّد والمولى. لكنه ﷺ آخىٰ بين المسلمين جميعاً وترك الإمام علياً عليه السلام وحده، يقول عليه السلام: **«جئت وعيناي تطفحان دموعاً، فقلت: يا رسول الله أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟»**. قال: **«إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»**[1]:

لو رأى مثله النبيّ لآخا ... ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ[2]

يقول عبد الباقي العمري:

يا أبا الأوصياء أنت لطه ... صهره وابنُ عمّه وأخوهُ

إن لله في معانيك سرّاً ... أكثر العالمين ما عرفوهُ

---

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مثلها، انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

(٢) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠.

أنت ثاني الآباء في منتهى الدو ر وآباؤه تُعدّ بنوهْ
خلق الله آدماً من تراب فهْوَ ابنٌ له وأنت أبوهُ[(١)]

فنبينا ﷺ أزال هذه العقبة من خلال هذا التحرك، وخلع من المجتمع هذا الشعور بالتفاضل، وأكده بلسانه فقال: **«كلكم لآدم وآدم من تراب»**[(٢)]، وقال: **«ليس لأحد على أحد فضل إلّا بالتقوىٰ»**[(٣)]. فالذي يميّز أحداً على غيره هو التقوىٰ.

الهدف من إزالة العقبات النفسية

والمراد من نزع هذه العقبة من نفوس المسلمين أُمور، منها خلق عامل تكافؤ الفرص؛ فمن حقّ أي مسلم أن يحصل علىٰ عمل كمثل غيره دون فرق، وكذلك في مسألة الزواج؛ فليس هناك عقبة تقف بوجه أحد دون أحد؛ فالمسلمون تتكافأ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم[(٤)]. وربما يقول البعض: هذه المثالية لا نجدها في كتب الفقه في باب الكفاءة؛ فمثلاً جاء أحدهم إلىٰ قاضي قضاة المسلمين وقال له: أشكو إليك فلاناً. قال: ماذا فعل؟ قال: شتمني وقال لي: سفلة. قال: ما عملك؟ قال: أنا حجام. فقال له القاضي: أنت سفلة سفلة. أي أنه شتمه كذلك. فلماذا هذا الشتم؟ وما نقص الطبيب الذي عنده مبضع ويمارس الجراحة؟

---

(١) الغدير ٦: ٣٣٨.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

(٣) الكافي ٢: ٣٢٩ / ٣، ٨: ٣٦١ / ٥٥١، مسند أحمد ٥: ٤١١، قريب منه.

(٤) قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

ولو رجعنا إلىٰ كتب الفقه عند الشيعة لوجدنا أنهم يقولون: المسلم كفء المسلم، ويستدلون بالآية الكريمة: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[1]، أما المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ في باب الكفاءة فيعتبرها البعض منهم الثروة والبعض الآخر يعتبرها المهنة في حين أن بعضاً منهم يعتبرها القبيلة.

وهكذا توضع عقبات عديدة في سبيل إزالة التفاوت بين المسلمين، وهذا خطأ؛ فالنبي ﷺ جعل المسلمين إخوة تتكافأ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، وكان المسلمون يحملون هذا الشعور. فالنبي ﷺ آخىٰ بين المسلمين؛ بين المهاجرين والأنصار، وبين المهاجرين أنفسهم، وبين الأنصار أنفسهم، وآخىٰ بين الأسود والأبيض، وأعلن الوثيقة الشهيرة لحقوق الإنسان في حجة الوداع.

رابعاً: زرع أمر الصلاة في نفوس المسلمين

وكانت العملية التالية مباشرة أمر الصلاة وزرعها في المجتمع الإسلامي، فشرّع صلاة الحضر التي هي أربع ركعات، وصلاة السفر التي هي ركعتان، وهذا في الرباعية فقط. ودليلها ما يروىٰ من أنه دخل محمد بن مسلم وزرارة على الإمام الباقر عليه السلام وقالا له: ما تقول في صلاة السفر؛ كيف هي؟ وكم هي؟ فقال عليه السلام: **«إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾[2]، فصار القصر من الصلاة واجباً كوجوب التمام في الحضر»**. قالا: إنما قال الله عزّ وجلّ: **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا﴾**، ولم يقل افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال عليه السلام: **«أو ليس قد قال الله عزّ وجلّ:**

---

(١) الحجرات: ١٣.   (٢) النساء: ١٠١.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[١]؟ ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؟»[٢].

فالقصر: التنقيص، والرسول ﷺ نصّ على أن صلاة السفر ركعتان، تقول السيدة عائشة: أول ما فرضت الصلاة كانت ركعتين ركعتين، وبعد ذلك أُقرّت صلاة السفر ركعتين، وأُتمّت صلاة الحضر أربع ركعات[٣].

وقال النبي ﷺ: **«صلّوا كما رأيتموني أصلّي»**[٤].

اختلاف المذاهب الإسلامية حول فعل النبي ﷺ

وكان النبي ﷺ يقصر من الصلاة في السفر؛ ولهذا فإن المذاهب الإسلامية

---

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) الفقيه ١: ١٢٦٥/٤٣٤، وسائل الشيعة ٨: ٥١٧ ـ ٥١٨، أبواب صلاة المسافر، ب٢٢، ح٢.

(٣) في (الدرّ المنثور) من حديث الإسراء والمعراج عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «ثم صعد بي إلى فوق السبع سماوات، وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتني ضبابة فخررت ساجداً، فقيل لي: إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أُمّتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأُمتك. فمررت على إبراهيم فلم يسألني شيئاً، ثم مررت على موسى فقال لي: كم فُرض عليك وعلى أُمّتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: إنك لن تستطيع أن تقوم بها أنت ولا أُمّتك، فاسأل ربّك التخفيف. فرجعت فأتيت سدرة المنتهى، فخررت ساجداً فقلت: يا رب، فرضت علي وعلى أُمّتي خمسين صلاة، فلن أستطيع أن أقوم بها أنا ولا أُمّتي، فخفّف عني عشراً. فمررت على موسى فسألني فقلت: خفّف عني عشراً، قال: ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف: فخفّف عني عشراً ثم عشراً، حتى قال: هنّ خمس بخمسين، فقم بها أنت وأُمّتك. فعلمت أنها من الله، فمررت على موسى فقال لي: كم فرض عليك؟ فقلت: خمس صلوات. فقال: فُرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما. فقلت: إنها من الله، فلم أرجع». الدر المنثور ٤: ١٣٨، ١٣٩، وفي الفقيه ١: ١٩٩، التوحيد: ١٧٧ إشارة إليه.

(٤) عوالي اللآلي ١: ١٩٨ / ٨، ٣: ٨٥ / ٧٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٢: ٣٤٥.

ينقسمون حول هذا الفعل إلى قسمين:

الأول: استحباب القصر في السفر

وأصحاب هذا الرأي يفهمون من هذا الدليل الاستحباب؛ فعندهم أنه يجوز للمصلّي أن يتمّ أو يقصر في السفر. وهؤلاء هم الشوافع [١] والحنابلة [٢].

الثاني: وجوب القصر في السفر

وأصحاب هذا الرأي يفهمون من هذا الدليل الوجوب؛ ولذا فإن عندهم أن المصلّي يجب عليه أن يقصر من الصلاة، ويرون أن القصر في السفر عزيمة وليس رخصة، أي أن القصر واجب ومتعيّن على المصلّي. وهؤلاء هم الأحناف [٣] والموالك [٤] والشيعة [٥]، فهم يرون أن الله عزّ وجلّ أراد أن يعطي رخصة لعباده للتخفيف عنهم.

وهذا التعليل وارد في الروايات: «**تلك فرصة فاغتنموها**»؛ فالحاضر تسهل عليه الصلاة وهو في بيته أو في المسجد، أما المسافر فقد تدركه الصلاة وهو في الطريق أو في بلد بعيد، فربما أقعده السفر عنها. فالسفر حالة استثنائية أراد الله تعالى أن يخفّف فيه من عبادته عن عباده.

فالنبي ﷺ أكّد على هذا المعنىٰ عند هجرته، وهذا يدلّ على الاهتمام بالصلاة؛ فالصلاة في حالة الخوف ـ أي حينما يخاف المصلّي أن يصيبه مكروه؛ فإنه لا يترك الصلاة ـ لا تسقط، لكن إذا استطاع أن يصلّي للقبلة صلّاها وإن لم

---

(١) كتاب الأُم ١: ٢٠٨.
(٢) الشرح الكبير ٢: ٩٠.
(٣) المبسوط ١: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٤) المدوّنة الكبرى ١: ٢٠٨.
(٥) المقنع: ١٢٤ ـ ١٢٥، شرائع الإسلام ١: ١٠١ ـ ١٠٢.

يقدر فيتوجّه إلى القبلة ويصلّي بالنيّة فقط: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]، فإذا استطاع أن يقرأ الحمد والسورة فليقرأهما، وإن لم يستطع فالحمد فقط، وإن لم يستطع فليقرأ ما يتيسّر من القرآن، وإن لم يستطع فبالإيماء.

ثمرة الخطاب بلسان الجمع في سورة الحمد

وهذا الإصرار على الصلاة لأنها الرابط الوحيد الذي يشدّ الناس إلى عوامل الخير، فعندما يقرأ المصلّي سورة الحمد يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2]، لكن هو واحد، فلماذا يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهي صيغة جمع؟ إن المفروض به ابتداء أن يقول: «إيّاك أعبد». إن معنى الجمع وثمرته هنا أُمور، منها:

الأول: قبول الصلاة التي يتطرّق إليها النقص

أن المصلّي يضمّ صلاته إلىٰ صلاة المسلمين كافّة، وثمرة هذا أنها إن كان بها نقص فإنها حينئذٍ ستكون مع المجموعة وتقبل بقبولها.

الثاني: التأكيد على الهويّة الإسلاميّة

كما أن المصلّي يريد أن يعبّر بهذا عن كونه جزءاً من المسلمين الذين يصلّون، ويريد للرحمة التي ستنزل على المسلمين أن تشمله.

فليسمع دعاة السوء الذين يريدون تمزيق شمل المسلمين، فهؤلاء ما إن يروا أن أحداً يخالفهم في الفكر حتى يسارعوا إلى إعطائه لقب كافر ومشرك، مع أن المفروض هو توجيه الأخطاء وإصلاحها. وهذه كانت سيرة النبي ﷺ حيث إنه كان يراقب الصحابة في صلاتهم وفي تصرّفاتهم، فإذا لم ينههم النبي ﷺ عرفوا أن صلاتهم صحيحة.

---

(١) البقرة: ١١٥.

(٢) الفاتحة: ٥.

فالصلاة إذن هي صلة بين العبد وربّه، ومهمّتها أن تصنع الفرد، والنبي ﷺ قد صنع المجتمع المدني من خلال المواطن الصالح. وهذا يبيّن حرص الإسلام على أن يبني المجتمع بناء سليماً؛ فإن الإنسان إذا استشعر الصلاة على أنها صلة بينه وبين ربّه ومجتمعه فإنه سيكون إنساناً مرتبطاً بالقيم والأخلاق، ونطمئنّ إليه.

فهذه الكيفية للصلاة أقرّها النبي ﷺ، فعندما نزل المدينة أتمّ صلاته ـ أي صلّاها صلاة حضر ـ وأعلن القصر في صلاة السفر.

خامساً: تزويج الإمام علي من فاطمة عليهما السلام

وفي السنة نفسها زوّج النبي الأعظم ﷺ ابنته فاطمة من الإمام علي عليه السلام، حيث إن المفسّرين الشيعة يروون أن قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً**﴾[1] نزل في علي بن أبي طالب عليه السلام[2]؛ لأنه اجتمع له مع النبي الأكرم ﷺ النسب والصهر. لكنه بما أن التاريخ قد كتب في أيام الأُمويّين، وبما أن هؤلاء كانوا لا يطيبون لهذا الرجل نفساً أبداً فقد وأد كلّ فضيلة لأمير المؤمنين عليه السلام. ومن ذلك أنه حينما جاء سليمان بن عبد الملك ـ وكان ولياً العهد ـ للحج ومرّ بالمدينة التقى أبان بن عثمان بن عفان، وكان من الأعلام الذين يكتبون التاريخ، فقال له: اكتب لي السيرة والتاريخ. فقال له: إنها مكتوبة عندي، وهي من أوثق المصادر والكتب. فلما قرأها سليمان، وجد فيها فضائل للأنصار في بيعة العقبة الأُولىٰ والثانية، وكفالة النبي ﷺ، والجهاد، فقال له: إن للأنصار فضائل في هذه الكتب؛ فإما أن يكون آبائي قد غمط حقّ هؤلاء، أو أن هذا

---

(١) الفرقان: ٥٤.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٢٩١، خصائص الوحي المبين: ٢٢٨.

التاريخ كذب، فلا أقبله حتىٰ أرىٰ رأي عبد الملك فيه. ثم أخذ الكتب ومزّقها، ولمّا جاء إلى الشام ودخل على أبيه عبد الملك قال له: إن القصّة كذا وكذا، وقد مزّقت الكتب. فقال له: نِعْمَ ما صنعت. أي لا ينبغي أن تجلب شيئاً للشام يجب ألّا يُقرأ؟

وكلّ هذا الموقف المتشنّج من الأنصار لأنهم كانوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام، فكيف يكون الحال مع علي بن أبي طالب عليه السلام نفسه؟ ولذا فإنهم كانوا إذا رأوا اسماً لعلي في التاريخ أحرقوا الأرض. ولكن هل استطاعوا أن يضيّعوا ذكر الإمام علي عليه السلام؟ طبعاً لا؛ لأن ما كان لله ينمُ.

وممن روىٰ أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام القرطبي، حيث إنه نقل عن ابن سيرين أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وهناك مصادر أُخرىٰ[1] تؤكّد ذلك.

زواج النور من النور تطبيق عملي لنظريّات الإسلام

ولعلّ هناك من يسأل فيقول: ما هي الخطوة الضخمة في هذا الزواج؟

إن هذه الخطوة الضخمة تتمثّل بأُمور منها:

أولاً: مسألة الكفاءة

أن فاطمة عليها السلام بنت رئيس الدولة.. بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يحمل رسالة السماء بيد ويحمل قيادة الأرض باليد الأُخرىٰ. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم جمع بين السلطتين السياسيّة والدينية، وكان الناس من الصحابة وأهل المكانة والجاه يتسابقون لخطبة ابنته عليها السلام، وكان النبي يردّهم، ولم يلبِّ أحداً منهم، حتى

---

(١) تفسير الثعلبي ٧: ١٤١، ١٤٢، شواهد التنزيل ١: ٥٣٨، زاد المسير ٦: ١٩.

آذوه ﷺ، فأخبرهم أنه سيشكو من يخطب إليه فاطمة عليها السلام إلى ربّه؛ ذلك أن المسألة ليست بيده. إلى أن جاءه أمير المؤمنين عليه السلام وقد بدا عليه التعثّر والتلعثم والحياء، فقال له الرسول ﷺ باسماً: **«ما حاجة ابن أبي طالب؟»**. فقال عليه السلام: **«ذكرت لي فاطمة»**. فبشّ له النبيّ ﷺ، وقال: **«أبشر يا علي، فإن الله قد زوّجك بها في السماء، قبل أن يزوّجك بها في الأرض»**[١].

وعظمة هذه الخطوة أنه ﷺ خالف جملة من الأعراف الاجتماعيّة، فالناس كانوا قد عيّروا خديجة لأنها تزوّجت النبي ﷺ وهو الفقير اليتيم؛ حيث إنه ﷺ كان قد ربي عند أبي طالب عليه السلام. فخديجة صاحبة المكانة والأموال تلج مثل هذه الزيجة؛ ولذا فقد قاطعوها زمناً طويلاً، ثم يفعل الرسول ﷺ الشيء نفسه مع أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة، وبأي مهر؟ إن المهر الذي ساقه مروان بن الحكم لأمرأة بلغ (٥٠) ألف دينار، وساق مصعب بن الزبير مهراً قدره مليون، فقال أحد الشعراء:

أبلغ عميد بني الزبير رسالة ... من مؤمن لك لا يريد خداعا

بضع الفتاة بألف ألف كامل ... وبنات سادات الجنود جياعا

أمّا المهر الذي زوّج به النبي ﷺ فاطمة عليها السلام فكان أربعمئة وستّين درهماً، وقد اشترىٰ به بعض الصحابه طيباً، وسريراً مزمّلاً بشرائط النخل، وحصيراً هجريّاً، وستراً من صوف، ومخضبة من نحاس، وقعباً للّبن، وشنّاً للماء. فهذا هو كلّ الأثاث، ولمّا جاؤوا به طرحوه بين يدي رسول الله ﷺ، والنبي يقلبه ويقول: **«بأبي وأُمّي قوم جلّ إنائهم الخزف»**[٢].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٣، بحار الأنوار ٤٣: ١٠٩.

(٢) دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣.

ثانياً: القضاء على الشعور بالعار من تزويج البنت

والعرف الثاني الذي قضى عليه الرسول الأكرمﷺ هو النظرة التي كان العرب ينظرون بها إزاء تزويج البنت، فالرسولﷺ عاش في قلب الجزيرة العربيّة.. في مكّة.. في مجتمع يقول أحد الرؤوساء فيه وهو عقيل المري:

إنـــي وإن ســيق إليّ المهرُ ... ألفٌ وعـــبدانٌ وذودٌ عشـــرُ

أحبُّ أصهاري إلـيّ القبرُ(١)

فهذا لا يطيق أن تُخطب ابنته إلىٰ رجل، في حين أن النبي الأعظمﷺ يقود موكب عرس فاطمةعليها السلام بنفسه، وحتى أزواجهﷺ اشتركن في زفاف فاطمةعليها السلام.

وكان لأُم المؤمنين عائشة في هذه المناسبة هذه المقطوعة:

يـــا نســوةُ استترنَ بـالمعاجرِ ... واذكُـرْنَ ما يـحسنُ فـي المحاضرِ

والحـــمدُ للهِ عـــلىٰ أفـضالِهِ ... والشكـــرُ للهِ العـــزيزِ القـادرِ

سِـــرْنَ بـها فـاللهُ أعـلىٰ ذكـرَها ... وخَـــصَّها مِـــنْهُ بـــطُهْرٍ طـاهرِ

وكذلك كان لحفصة دورها فقالت:

فـــاطمةُ خـــيرُ نســـاءِ البشـــرِ ... ومَـــن لهـــا وجـهُ كـوجهِ القـمرِ

زوّجكِ اللهُ فـــتىً فـــاضلاً ... أعـني عـليّاً خيرَ مَن في الحضرِ

فسِـــرنَ جـاراتـــي بـها إنـها ... كـــريمةٌ بـــنتُ عـــظيمِ الخـطرِ

وقالت معاذة (أُمّ سعد بن معاذ):

أقـــولُ قـــولاً فـــيهِ مـا فـيهِ ... وأذكـــرُ الخـــيرَ وأُبـــديهِ

مـــحمّدٌ خـــيرُ بـــني آدمِ ... مـــا فـــيه مِـــنْ كِـبْرٍ ولا تِـيهِ

بـــفضْلِهِ عـــرّفَنا رُشْـدَنا ... فـــاللهُ بـــالخيرِ يـجازيهِ

---

(١) الأمالي (المرتضى) ٢: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٣٢.

ونــحنُ مـعْ بـنتِ نـبيِّ الهُـدىٰ	ذي شـرفٍ قـد مُكّـنت فـيهِ
فـي ذروةٍ شـامخةٍ أصـلُها	فـما أرىٰ شـيئاً يـدانـيهِ

وأنشدت أُمّ سلمة تقول:

سِـرْنَ بـعونِ اللهِ جـاراتـي	واشكـرْنَهُ فِـي كـلِّ حـالاتِ
واذكـرْنَ مـا أنـعمَ ربُّ العُـلا	مِـنْ دفْـعِ مكـروهٍ وآفـاتِ
وسِـرْنَ مـعْ خـيرِ نسـاءِ الورىٰ	تُـفدىٰ بـعمّاتٍ وخـالاتِ
يـا بـنتَ مَـنْ فـضّله ذو العُـلا	بـالفَضْلِ مِـنْه والرسـالاتِ

وكان زمام الناقة بيد سلمان الفارسيﷺ، وإلىٰ جانب الناقة عمار بن ياسرﷺ، وأبو ذرﷺ من وراء الناقة يسوقها، ورسول اللهﷺ، وأصحابه أمامها، ثم يقف بباب الحجرة ويُقنع بالشيبة الكريمة إلى السماء ويقول: «**يا ربِّ إنّك باركت علىٰ آل عمران، فبارك علىٰ آل محمد**». ويأخذ يد علي بن أبي طالب ويضعها بيد فاطمة ويقول: «**هذه وديعتي عندك**». ثم يتلو قوله تعالىٰ: ﴿**رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾[1]. ويخرج من عندهما وهو يدعو لهما[2].

فالنبيﷺ يري المسلمين بهذا الفعل أنه يسحق أعراف الجاهلية، فليعمل كل مسلم لأجل إنشاء الأُسرة السعيدة.

ثالثاً: التأكيد على بنوّة الحسنينﷺ

وهنا أراد الرسول الأكرمﷺ ألّا يبارح بيت أمير المؤمنين وفاطمةﷺ بعد ذلك، ليؤكّد على مسألة حيوية وهامّة في آن واحد، وهي أن يكون أولاد أمير

(١) هود: ٧٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٩٣ ـ ٤٠٥، بحار الأنوار ٤٣: ١١١ ـ ١١٧، ١٢٥ ـ ١٢٧.

المؤمنين وفاطمة عليها السلام أولاده هو صلى الله عليه وآله، وأن يظلّوا مشدودين إليه. وأهم ما في هذه الخطوة أنه صلى الله عليه وآله أوجد للمسلمين دار الأمان والعزّة، فكل مسلم يدخل الآن المدينة يلمح بيت فاطمة الزهراء عليها السلام والموقف الذي وقفه رسول الله صلى الله عليه وآله فيه، يقول أحد الشعراء:

وعفّرتُ خَدِّي في ثرىً مسّ عفرَهُ ... لجبريلَ من جِنحَيه رِيشٌ مُزَغَّبُ

وفيه مَحاريبُ لآلِ مُحَمَّدٍ ... بِهِنَّ ضَراعاتٌ إلى الله تُنصبُ

وآثارُ أقدامٍ صِغارٍ ومَهجَعُ ... إلى الحَسنين الزَّاكيينِ ومَلْعبُ

وصوتُ رَحى الزَّهراءِ تطحنُ قُوتَها ... إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلسُ زَينبُ

رُؤىً سوفَ يَبقى الدَّهرُ يَروي جَلالَها ... وتَبقى على رَغمِ البَساطةِ تَأشَبُ [١]

ويدرك أن دخول النبي صلى الله عليه وآله للمدينة قد جلب لها وللمسلمين مجد الدنيا والآخرة، وفعلاً كانت فرحة غامرة عمّت الدنيا، وخرجت المدينة بأهلها تطفو علىٰ موجة من الفرح من السرور؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله دخل ومعه الفواطم (فاطمة بنت حمزة بنت عبد المطلب رضي الله عنه، وفاطمه بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله).

وقد دخلت الفواطم إلى المدينة مرّة أُخرىٰ بعد واقعة الطفّ، فكيف استقبلت المدينة ظعينة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ لقد كان استقبالاً يهزّ المشاعر، ويؤجّج الزفرات في النفس:

مدينةَ جدِّنا لا تقبلينا ... فبالحسراتِ والأحزانِ جينا

خرجنا منك بالأهلين جمعاً ... رجعنا لا رجالَ ولا بنينا [٢]

وفعلاً رجعت حرم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بغير الرجال والبنين، فكل من رجع

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.

كانوا مجموعة من الأرامل واليتامى.

وبعد أن أدّت زيارة قبر جدّها رسول الله ﷺ، وقفت أمام دار أخيها أبي عبد الله الحسين عليه السلام وراحت تخاطبها:

اخوي من اطب عندك دار ... أرد عيني وأصد فكري
أخاف تشوف ملعبنا ... الدرجنا بيه من صغري
تمرّ اطيوفك اعليّه ... مثل عذب الهوى تجري

* * *

وحگّك لو چهبت الدار ... أناجيها بدمع سچّابْ
أشوف ارسومكم بيها ... واشتَم ريحة الأحبابْ
واتذكّر ثناياكم ... وتكوّم گبال البابْ

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا ... وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا
نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا ... لأملأن طريقَ الطفّ ريحانا[1]

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿١٣٩﴾

الوظيفة والانتخاب الطبيعي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أهليّة الرسول الأكرمﷺ لحمل الرسالة

يستفاد من الجوّ العامّ للآية الكريمة أن كلّ وظيفة من الوظائف التي يقوم بها الإنسان تتميّز بأن لها انتخاباً طبيعياً، فمثلاً إذا أردنا تأهيل شخص لطلب العلم فيجب أن يكون ذا قابلية عالية على طلبه، وأن تكون لديه رغبة شديدة فيه، وأن يعيش ضمن أجواء علمية حتّىٰ ينجح في مهمّته هذه. وإذا أردنا تأهيل شخص للعمل التجاري فإنه يجب أن يعيش في أجواء تجاريّة، ويجب أن يكون عنده رغبة في هذا العمل، ومؤهّلات ذهنية وخبرة. وإذا أردنا تأهيل شخص للقتال فيجب أن يكون لديه عزيمة وإرادة وعضلات قوية، وأن تكون

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

لديه نفس قوية وشجاعة.

وليس من الممكن أن يتحلىٰ كلّ شخص بهذا المعنىٰ، فمثلاً عندما خرج رسول الله ﷺ لقتال اليهود جمع النساء في الأُطم (المرتفعات)، وخرج بالمسلمين للقتال، فجاء يهودي إلىٰ الأُطم ليتجسّس ولينفذ إلىٰ عوائل المسلمين؛ حتّىٰ يتمكن اليهود من الوصول إليهم.

وكانت صفيّة بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) تترصّد، فالتفتت إلىٰ حسان بن ثابت ـ وهو جالس مع النساء ـ فقالت له: هل رأيت هذا اليهودي؟ قال: بلىٰ. فقالت له: إنه يوشك أن يدلّ علىٰ عوراتنا ويعرف نقطة ضعفنا، فخذ هذا السيف واذهب إليه واضرب عنقه.

فقال لها: جنبيني رؤية الدم. فاشتملت إزارها ونزلت إليه وقتلته، وصعدت فقالت له: ياحسان، إن هذا عليه بزّة كاملة (درع وسيف ودرقة ومغفر)، فانزل لأخذها حتّىٰ يستفيد منها أحد المقاتلين المسلمين. فقال: لا أستطيع أن أنظر إلىٰ الجراح.

وهذا صادق مع نفسه، ولا يعابُ إلّا من هذا الجانب، لكن هناك غيره ممن لا يصدق مع نفسه؛ فيظهرها بمظهر الشجاع، ويُلبس جبنَه رداء الجرأة والإقدام، مع أنه خلاف ذلك، فهذا يعاب من جهتين اثنتين.

فالإنسان إذا لم يكن له تأهيل فسوف لن يستفيد من الأسباب والآليات، يقول الشاعر العربي:

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالاً
فجرد حلية السيف وضعها لك خلخالا[1]

(١) البيت لأبي العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة. قال المبرد: وقد يسير البيت في واحد،

فالآية الكريمة تثبت أهليّة النبي الأعظم ﷺ للصراع، وتقول له: أنت ستقدم علىٰ مهمّة عظيمة، وعليك أن تكون بمستوى المهمّة، وإنك لا ينقصك التأهيل الكافي لدخول المعركة وخوض هذه التجربة. لكن يجب أن تعلم أن سبيلك وعر، وطريقك متاعب كلّه؛ فعليك أن تصبر وتتحمّل، وأن تخوض هذه المسألة إلىٰ النهاية حتّىٰ يتحقّق الفتح.

المبحث الثاني: أثر السلوك الجمعي في تحمّل أعباء الرسالة

ودليل هذه الأهليّة أن الآية الكريمة قد وضعته في خطّ الرسل؛ تقول الآية: **﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ﴾**، فالآية الكريمة وضعت النبي الأكرم ﷺ في سياق السلوك الجمعي، فهي تقول له: اعطف نفسك علىٰ مسيرة الرسل الذين خلوا من قبلك؛ وذلك لأُمور منها:

الأول: أنه يمدّ الفرد بطاقة المجموع

فالسلوك الجمعي يعطي الإنسان من الطاقة والقوة ما يستطيع أن يباري به ما يعجز عنه غيره ممن لم يؤتَ ذلك. وكمثال على ذلك إن الخطيب إذا رقى المنبر ليخطب، وكان عدد الحضور من الجمهور قليلاً، فإنه سوف لن تكون له عزيمة وقوّة على إلقاء خطابه، أما إذا احتشدت جماهير غفيرة تحت منبره فعندها سيجد في نفسه قوة دفع على القيام بذلك لم يكن يعهدها من نفسه من ذي قبل لولا هذه الجماهير. وهكذا فإنه سيستمدّ قوّته من هذا الجمع.

وكذلك الحال مع أُولئك الذين يرفعون شعارات قويّة ويتحرّكون عبرها فإن

☚ ويُرى أثره عليه أبداً، كقول أبي العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة... فكان عبد الله بن معن إذا تقلّد السيف ورأى من يرمقه بان أثره (البيت) عليه، فظهر الخجل منه. شرح نهج البلاغة ٥: ٢٧.

المتفرّجين يهتزّون معهم لشعاراتهم.

وهذه الظاهرة درسها علماء الاجتماع واستفادوا منها في تطبيقاتهم. ووجدوا أن السلوك الجمعي يعطي للإنسان شعوراً بأنه علىٰ أحد طرق الصواب التي سلكها الآخرون غيره، وانتهوا إلىٰ نتائج طيّبة.

وهكذا هو الحال مع نبيّنا الأكرم ﷺ، فكأن لسان الآية الكريمة يقول له ﷺ: كما أن الأنبياء تحمّلوا في مسيراتهم الإصلاحية ما تحمّلوا وهم يختطّون مساراتهم وسط مسالك مشوكة، فكذلك أنت واحد منهم؛ فعليك أن تحمل الرسالة، وتقاتل كما قاتلوا وتجاهد كما جاهدوا. تقول الزيارة الشريفة: **«أشهد أنك قد مضيت علىٰ مامضىٰ عليه البدريون»**[1]. فالمجموع ينبغي أن ينعكس عليك؛ لتشحذ إرادتك، وليكون لك إصرار وعزيمة.

الثاني: أن المجموع كلّه سيتحمّل النتائج والصعاب

فالإنسان حينما تقع عليه الصعاب وحده فإنه غالباً سيضعف ويُهزم، أمّا إذا وقعت علىٰ الناس كلهم فإنها ستهون حينئذٍ، حيث إن المجموع بأكمله سيتحمّل النتائج سلباً أو إيجاباً، فهو حتماً له القدرة على ذلك، كما في المثل «إذا عمّت المصيبة هانت». فسنة الله تعالى في خلقه أن الإصلاح يريد من يتحمّل دونه المشقّة والآلام وألوان العذاب، وأن من يتبنَّه ويرُم تحمّل عبئه يُتطلّبْ منه أن يهون عليه كلّ ذلك، وربّما استصعبه. فإذا عرف أن السابقين قد تعرّضوا لمثله هان كل ذلك عليه.

فالآية الكريمة تقرّر للنبي الأكرم ﷺ أن عليه أن يسلك سبيل الأنبياء؛ لأن

---

(١) كامل الزيارات: ٤٤١، تهذيب الأحكام ٦: ٦٦.

الدنيا دار كلّها اعوجاج وملؤها انحرافات، والناس ليسوا كلّهم ذوي استقامة، وهذا يتطلّب مسيرة إصلاح طويلة، ورحلة رسالية لتقويم تلك الانحرافات، وبغير هذا تتحوّل الدنيا إلىٰ غابة يأكل القوي فيها الضعيف. وقد وضع الله لنا وسائل نظرية وأُخرى تطبيقية لتحقيق هذا الهدف؛ فوسائل الضبط النظرية هي الشرائع، أمّا الوسائل التطبيقية فهي الأعمال التنفيذية التي تصلح المجتمع. وهذا أمر ضروري؛ إذ أن البعض لا يلتزم بالقانون، ولا يؤمن بالقيم والأخلاق، فهؤلاء لهم لون خاصّ بهم من المعاملة.

المبحث الثالث: المراد من ﴿أُوْلُو الْعَزْمِ﴾ في الآية

بعد تقرير هذا لنا أن نسأل: من هم ﴿أُوْلُو الْعَزْمِ﴾ الوارد ذكرهم في الآية الكريمة؟ هناك ثلاثة آراء عند المفسّرين في هذه المسألة:

الرأي الأول: أنهم جميع الأنبياء عليهم السلام

وهذا الرأي مبتنٍ على أن ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ الرُّسُلِ﴾ واردة لبيان الجنس. والعزم هو الإرادة والعزيمة والجهاد والقابلية علىٰ تعليم الناس. فكلّ نبي له العزيمة على فعل ذلك مهما كلّف الأمر. وهذا هو خطّ الأنبياء والمصلحين، ولكننا مع ذلك نجد من يغمض عينيه عن الدليل، ويقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]، ويؤسّس على هذا أن الجهاد تهلكة، وولوجه إلقاء للنفس فيها.

---

(١) البقرة: ١٩٥، وقد ورد في أكثر التفاسير والصحاح عن أسلم أبي عمران قال: كنا بالقسطنطينيّة وعلىٰ أهل مصر عقبة بن عامر، وعلىٰ أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين علىٰ صفّ الروم حتّىٰ دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلىٰ التهلكة. فقال أبو أيّوب الأنصاريّ الصحابي: يا أيّها الناس، إنكم تتأوّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر

ونقول لهذا: إنه ليس كلّ جهاد تهلكة، فمعنى هذا التعميم أن نعطّل فريضة الجهاد التي لولاها لما وصلت دعوة من دعوات السماء إلىٰ قلوب الناس. فلولا الجهاد هل كان بإمكان المسلمين أن يحصلوا على ربع الكرة الأرضية المعروفة والمأهولة آنذاك خلال عشرين سنة؟ إنهم إنما وصلوا لذلك بالجهاد: **«الجنّة تحت ظلال الأسنة»**.

فالجهاد يتطلّب قوة، ولابدّ من حمل السلاح والقتال. وهذه الآية ليست حاكمة على الآيات الأُخر أو مخصّصة لها، وإنما لها مجالها ولغيرها مجال آخر.

وعليه فإن ﴿أُوْلُو الْعَزْمِ﴾ علىٰ رأي بعض المفسرين كلّ الأنبياء؛ حيث إنه لا يمكن أن يوجد نبي لا يستطيع أن يتحمّل المصائب ويصبر عليها. وكدليل على هذا نبي الله زكريّا ونبي الله يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام، فقد تعرضا وأنبياء آخرون إلى القتل والوقوف بوجه دعواتهم، فلم يهنوا. فكل نبي إذن يحمل الإرادة والعزيمة.

الرأي الثاني: أنهم خمسة منهم

وهذا الرأي هو الذي عليه أغلب المفسرين، وهؤلاء الخمسة يعتبرون المقاتلين بالكلمة وبالفكرة وبالرأي. وهم النبي نوح عليه السلام، والنبي إبراهيم عليه السلام، والنبي موسىٰ عليه السلام، والنبي عيسىٰ عليه السلام، ويختمهم نبيّنا الأكرم محمد ﷺ. فهؤلاء قاتلوا بالكلمة كما المقاتل بالسيف، وعليه فإن الاثنين يجمعهما السيف والكلمة؛

☚ الأنصار، إنا لمّا أعزّ اللهُ دينه وأظهر نبيّه وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزّ الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله علىٰ نبيّه ﷺ يردّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة إقامتنا في أموالنا وإصلاحها، وتركنا الجهاد والإنفاق في سبيل الله. الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٦١ ـ ٣٦٢، التفسير الكبير ٥: ١١٧.

فالذي يقاتل بالكلمة يستطيع أن يوصل الفكرة الخيّرة إلىٰ نفوس الناس بالطريق السلمي، وهو أفضل الطرق إذا أدّىٰ إلىٰ النتيجة نفسها. وهذا ما يؤكّده القرآن للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[1].

التعسّف الفكري

وعليه فإذا كانت الكلمة مقاتلة وكانت هي السلاح، فهذا يعني صراع الآراء أو مواجهة الرأي بالرأي، لكن الحاصل ـ ببالغ الأسف ـ أن هذه الظاهرة غير موجودة في تراثنا ولا في تاريخنا ولا في آرائنا؛ حيث إننا نفتقر إلى ظاهرة صراع الآراء.. الآراء التي تتصارع لتصل إلىٰ نتيجة، وهذا الصراع يحصل على الرغم من أن دليلنا واحد.

هل الغاية داخلة في المغيّا

وكمثال على هذا قول القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[2]، فالحرف ﴿إِلَى﴾ حرف غاية، لكن الغاية هل تدخل في المغيّا أم لا؟ فمثلاً حينما يقول القائل: مشيت إلىٰ أن دخلت إلىٰ المدينة، فهل معنى هذا أن قدمه وطئت أرض المدينة، أم أنها انتهت إلى الحدّ الفاصل بينها وبين غيرها ولم تجتزه، أي بقيت عند حدّها؟ هنا ينقسم الأُصوليون إلى رأيين:

الأول: أنها داخلة في المغيّا

أي أن القائل: «مشيت إلىٰ أن دخلت إلىٰ المدينة»، في مثالنا السابق لا يصحّ كلامه إلّا أن يكون قد وطئ أرض المدينة، فلا تكفي في صحّة قوله هذا محاذاته أرض المدينة.

---

(١) الأنفال: ٦١.
(٢) البقرة: ١٨٧.

الثاني: أنها غير داخلة في المغيّا

وهؤلاء يذهبون إلى أن القائل: «مشيت إلىٰ أن دخلت إلىٰ المدينة»، يكفي في صحّة قوله هذا محاذاته أرض المدينة ووقوفه عند حدودها.

وكلّ يتّبع دليله الخاصّ به. وفي الآية الآنفة ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾ ـ يختلف العلماء حول وقت الليل بناء على اختلافهم في دخول الغاية في المغيّا وعدمه؛ فقسم منهم يذهب إلى أنه إذا غابت الشمس دخل وقت الليل؛ فينتهي وقت الصيام بغياب الشمس، ويذهب القسم الآخر إلى أنه يجب أن يحلّ الظلام كي ينتهي وقت الصيام ويجوز الإفطار، أي يجب أي يدخل الصوم (الغاية) في جزء من الليل (المغيّا).

أمّا أن يأتي فقيه ويقول: إن هؤلاء لا يفطرون إلّا بدخول الظلام، وهو مخالفة للقرآن، ثم يتفوّه بعبارات خشنة، فهذا ليس من أخلاق الفقيه مطلقاً. إن علينا أن نتّبع الأُسلوب الموضوعي والتحاور العلمي في مثل هذه الأُمور.

عدّة المتوفّى عنها زوجها

ومثال آخر قوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً**﴾[1]؛ فالمرأة التي يُتوفّىٰ زوجها وهي حامل ففي عدّتها رأيان:

الأول: أنها أقرب الأجلين

وهي إمّا عدّة الوفاة أو الوضع، فالذي عليه فقهاء المذاهب الأُخرىٰ أن المرأة متى ما وضعت حملها ولو بعد عشر دقائق من وفاة زوجها، فإن عدّتها تنتهي

---

(١) البقرة: ٢٣٤.

وتحلّ للأزواج من وقتها.

الثاني: أنها أبعد الأجلين

أمّا فقهاء الإماميّة فيقولون: إنها تعتدّ بأبعد الأجلين، بمعنى أنها إذا وضعت حملها أثناء العدّة ـ وهي الأربعة الأشهر والعشرة الأيام ـ فإن عدّتها لا تنتهي، بل تكمل المدّة المقرّرة المذكورة في القرآن الكريم، فلو كان وضعها بعد شهر أو شهرين من وفاة زوجها فعليها أن تكمل هذه المدّة. ولو أتمّت المدّة المقرّرة المذكورة في القرآن الكريم ولم تضع حملها فعليها أن تعتدّ ـ تكمل عدّتها ـ حتى تضع حملها. وهذا جمع بين الدليلين؛ حيث إن الدليل الأول يحدّد العدّة بفترة أربعة أشهر وعشرة أيام، والدليل الثاني يحدّدها بوضع الحمل. وهنا نجمع بين الدليلين؛ فنأخذ بأبعد الأجلين وهو رأي الإمام عليه السلام.

لكن يأتي أحد المتأخّرين فيشنّع على هذا الرأي وصاحبه، وكأن من يخاطبه ليس الإمام عليّاً عليه السلام. ولذلك فإن شبابنا إذا قرؤوا مثل هذه النظريات لا يتأثّرون بها؛ لأن الدنيا فيها أنماط كثيرة من مثل هذا؛ فالكلمة الطيبة السليمة تقاتل بموضوعية، فيصرع الدليلُ الدليلَ، أمّا الكلمة الخبيثة السقيمة فلا تقاتل بموضوعية، بل بحقد وعدائية، ولذلك فإن القرآن الكريم يوجّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: **﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾**، ثم إذا نفدت السبل: **﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**[1]. فهذا هو الأُسلوب الذي هذّبنا به الإسلام وجبلنا عليه، فنشأنا نتشرّبه.

فأُولو العزم هؤلاء الخمسة؛ لأنهم قاتلوا بالكلمة وحملوا الشرائع العامّة، أمّا

---

(١) النحل: ١٢٥.

الأنبياء غيرهم فيعملون بشرائع من سبقهم. ولذا فإن الناس قبل النبي ﷺ كانوا يتعبّدون على ملّة نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ. فحملة الشرائع العامّة هم أُولو العزم الذين يحملون رسالاتٍ عامّة.

الرأي الثالث: أنهم الذين أُمروا بتجريد السلاح للقتال

فأُولو العزم هم الذين شهروا السيف وقاتلوا به. لكن ليس هناك من نبي يقاتل قبل أن يقيم الحجّة علىٰ دعوته ويقدّمها بين يديه؛ فيدعو إلىٰ الله بالكلمة والتوجيه، ثم يتوجه للقتال بعده فيما لو لم تجدِ الكلمة. فمن حمل السلاح من الأنبياء ﷺ أُمر بحمله. ومن هنا انبثقت قضية بين العلماء هي: هل إن القتال بالكلمة أفضل أم القتال بالسلاح؟ وهذا البحث في الحقيقة لا جدوىٰ فيه؛ لأن كلّا منهما له مكان، وكلّ في مكانه أفضل؛ فبعض الناس لا يفقه القرآن ولو قرئ كلّه عليه. ومن هذا ما نجده عند البعض إزاء أهل البيت النبوي الشريف، حيث إنه ينقل عن النبي الأعظم ﷺ قوله: «**لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء**». فقيل: يارسول الله، وكيف نصلّي عليك؟ قال ﷺ: «**قولوا: اللهم صلِّ علىٰ محمد وآل محمد**».

وبعد أن ينقل عنه ﷺ قوله هذا، قال: هكذا قال (صلى الله عليه وسلم). فهل هذا يتعبّد بالحديث أم لا؟ فإن كان يتعبّد به فما هذه المعاندة؟ إن علينا أن نتأدّب بآداب الإسلام والقرآن.

إن البعض يتّهمنا بأن لنا موقفاً من الصحابة، مع أننا نتشرّف بتراب أقدام الصحابة الأبرار، فصاحب النبي ﷺ البارّ هو للمسلمين كافّة، وأهل البيت ﷺ للجميع، فلماذا هذا اللون من التخصيص والاستقطاب المفتعل؟ إن البعض من الناس لا تنفع معه الكلمة ولو جيء بكل دليل وبرهان، بل إنه يعود من حيث بدأ، فما فائدة الكلمة هنا إذن؟ في حين إن البعض إذا عُرّض للسيف يصرّ علىٰ رأيه

مهما كلّفه ذلك. فالكلمة لها تأثيرها، والسيف له تأثيره، والنبي ﷺ جمع الدعوة إلىٰ الله بهذين الطريقين: (الكلمة والسيف).

المبحث الرابع: جور بعض من يدّعي الإسلام

ثم قالت الآية الكريمة بعد ذلك: ﴿وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾، أي أنها تقول للنبي ﷺ: لا تدعُ عليهم؛ لأن رسالتك رسالة رحمة، وأنت رحمة للعالمين [1]، كما أن عندك من الخواصّ ـ مع أنك بشر ـ ما يمنعك من أن يضيق صدرك عليهم، أو تطلب من الله أن يؤدّبهم بالعذاب. ثم إنك بما أُتيت من دواعي الرحمة، وبما وهبك الله من ألوان العطف والشفقة تستطيع أن تتجاوز عن هؤلاء؛ ذلك أن الإنسان ضعيف حتّىٰ لو تظاهر بالقوّة والعجرفة، إذ أنه تؤثّر عليه طبيعة الحياة ومشاكلها كافّة.

والإنسان عندما يولد تمنحه البيئة كلّ خواصّها، فالذي يولد في الجزيرة العربية لا نتوقّع منه أن يتخلّق بأخلاق الدول الأوروبّية؛ لأن الذي يعيش في أوروبّا له قيمه الخاصّة، فليس عنده مثلاً حساسية تجاه أن تراقص أمّه رجلاً. ولذا فإن علينا حينما نريد أن نعالج قضية ما أن نأخذ بنظر الاعتبار الظروف الموضوعيّة التي تكتنف تلك القضية، وعليه فالذي يسرق في عام المجاعة ليأكل لا تقطع يده؛ لأن الظرف أجبره على السرقة. وهكذا نجد أن بعض الناس عاشوا في ظروف أجبرتهم علىٰ نمط معيّن من السلوك، وألجأتهم إليه إلجاء، فالذي ينبغي ألّا نحكم عليهم هم ومحترفي الجريمة علىٰ حد سواء.

ثم إن على الإنسان أن يسأل نفسه حول ما إذا كان غيره قد نشأ في ظروف غير

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

ظروفه، فلماذا يحكم عليه اعتباطاً ودون تروٍّ بالكفر والضلال؟

إن الذي يجب علينا هنا أن نأخذ بنظر الاعتبار ضعف الإنسان، فالأُطر الاجتماعية هي التي تملي عليه مستلزماته أحياناً وتصنعه، ومن هذا على سبيل المثال ما تفرضه بعض العادات والنظم القبلية عندنا؛ فعندما يريد الرجل أن يتزوّج فإنه يولم الولائم مهما كلّفه ذلك، وإن لم يجد يعمد إلى بيع كل شيء عنده من أجل هذا وإن أثّر على مستوى معيشته مستقبلاً. فهذا إطار اجتماعي، والإنسان ضعيف أمام الأُطر الاجتماعية كافّة، ولذا فإن الواجب أن نأتي إليه من هذا المنطلق لتهذيبه دون أن نحكم عليه بأحكام قاسية.

فالآية تقول: ﴿وَلاَ تَسْتَعْجِلْ﴾؛ فهؤلاء ضعفاء أمام الإطار الاجتماعي، ولذا فإن النبي ﷺ كان كلّما اشتدّ عليه أذاهم قال: **«اللهم اهدِ قومي؛ فإنهم لا يعلمون»**[1]. وفي أحد الأيام أخرجوه من مكّة بعد أن رموه بالحجارة من كلّ جانب إلىٰ أن وصل للطائف، وكان لعتبة وشيبة بستان يصطافان فيه، فرأيا النبي ﷺ، فالتفتا إلىٰ عبد لهم اسمه «عداس»، وقالا له: اجنِ من هذه الكرمة عنباً وأعطه إيّاه ـ وأشارا إليه ﷺ ـ وابتعد عنه؛ لئلّا يسحرك بكلامه. فجاء «عداس» بالعنب والماء، وأراد أن يضعه بين يدي الرسول ﷺ وينصرف، فرفع إليه النبيّ ﷺ رأسه وقال: **«عُداس هذا؟»**. قال: فداؤك عداس، ما معرفتك باسمي وقد سمتني أمي به؟ قال ﷺ: **«أوليس قد أسمتك أمّك بهذا الاسم عندما وضعتك؛ لأنك كنت ثقيلاً في بطنها؟»**. قال: بأبي أنت وأُمي، نعم والله هكذا أخبرتني أمّي، فمن الذي أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: **«أولست أنت من قرية العبد الصالح يونس بن متي من نينوى بالموصل؟»**. قال: وما أدراك بهذا؟ قال ﷺ:

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ١٦٤ / ٢٥٢، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٧٥.

«**ذاك نبي وأنا نبي**». فقال عداس: واللّه إني لأرى عليك سيماء النبوّة. ثم انحنى على أقدامه يقبّلهما، وكان عتبة وشيبة يعاينان ما يفعل، فقالا: قد أفسد علينا غلامنا [١].

ثم رأىٰ النبي ﷺ أن جسمه يسيل دماً، وأن ملابسه قد تلطّخت من دمه الشريف، فأخذ يمسح الدماء عن جسده، ثم رمق السماء بطرفه وقال: «**اللهم رفقاً بهم؛ إنهم جهلاء لا يعلمون من أنا**». فهذا هو الخلق العالي، وهو حاصل نتيجة معرفته ﷺ بأن هؤلاء ضعفاء أمام الأُطر الاجتماعية، فهم لا يعرفون النبي ﷺ.

ولا زال البعض إلىٰ الآن يسأل عن أُمور غاية في البداهة، وكأنه خارج الأُطر الاجتماعية، وعلماء الاجتماع يعرفون التقاليد بقولهم: التقليد هو قوة الإجبار، أي أنه يجبر الإنسان على الكون في وضع معيّن؛ فلذا قالت الآية الكريمة: ﴿**وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ**﴾؛ فإنهم إن كانوا يصرّون علىٰ الخطيئة فإن الله سينتقم منهم، وإذا كانوا غير مصرّين عليها ـ وهذا محتمل ـ فمن الممكن أن يهتدوا؛ فلا تستعجل بالدعاء عليهم.

المبحث الخامس: جزاء المجاهد في سبيل الله

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**﴾؛ فإن هؤلاء قد يمرّون بدور يصلون فيه إلىٰ نهاية المطاف، فيرون أنهم قد أضاعوا حياتهم، وأنها لم تكن سوى فراغ مقيت؛ حيث إنهم لم يملؤوها بما

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

يتوجّب على الإنسان فعله، وربما التفتوا إلىٰ أخطائهم.

وحينما يتناول القرطبي هذا المقطع من الآية الكريمة يقول: «عن ابن عبّاس أنه إذا عسرت على المرأة الولادة تكتب هذا المقطع ـ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ ـ وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[١] في صحيفة، ويكتب: الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ثم تغسل بالماء، ويعطى للمرأة فتشرب منه، فإنها تضع جنينها»[٢].

وهذه الرواية واردة بالطريق المعلّق[٣]، أي روى فلان من الصحابة، من دون ذكر السند حتّىٰ يمكن أن يعرف أن الراوي ثقة أم لا. والعلماء لا يعملون بالحديث المعلّق.

وهذه الرواية أيضاً يرويها عكرمة، وهو إن لم يكن خارجيّاً فإنه يميل إلى رأي الخوارج. وكان معروفاً بالكذب؛ ولذا فإن علي بن عبد الله بن عباس ربطه بباب الكنيف ـ وقيل: على باب حشّ ـ فقالوا له: إن هذا صاحب أبيك! قال: إنه يكذب علىٰ أبي[٤]. ذلك أن عكرمة كان متأثّراً بالفكر اليهودي، غير أن بعض العلماء يعتمد على نقله.

أمّا بالنسبة للرواية فلاشك أن القرآن الكريم له تأثير إيجابي: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ

---

(١) النازعات: ٤٦. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٢٢.

(٣) وكذا رواه مقطوعاً في مكارم الأخلاق ٣٧٩ ـ ٣٨٠، ٣٩٣ ـ ٣٩٤، وعنه في بحار الأنوار ٩٢: ١٢١، لكنه نسبه للإمام الصادق﵇ مع أن الطبرسي لم ينسبه له﵇.

(٤) فتح الباري / المقدمة: ٤٢٥، الضعفاء (العقيلي) ٣: ٣٧٣، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٨٠، ميزان الاعتدال ٣: ٩٤، سير أعلام النبلاء ٥: ٢٣. ومرّ تحقيق كونه كاذباً في ج ٣ ص ٣١ من كتابنا هذا.

الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]، لكن الموضع الذي يثبت فيه الشفاء إنما يكون بالرواية الموثوقة، أوبآية قرآنية، كقوله تعالىٰ: **﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾**[٢]. وهو ذو فائدة لكلّ النساء الحوامل والمراضع؛ لأنه غني بالمعادن؛ ولهذا فإن الفراعنة نحتوا الرطب في قبورهم وأهراماتهم. وقد أمر الله تعالى مريمعليها السلام أن تأكل من الرطب؛ لما يحويه من طاقة يمكن أن يوفّرها لها، كما أن له آثاراً صحيّة إيجابية أُخرى.

كما أن الرطب والتمر يعتبران من الغذاء الذي أراده الله تعالى حتّىٰ للمجاهدين، وقد أرشد إليه النبيصلى الله عليه وآله خلال غزواته، كان أحد الصحابة ـ وهو عمير ـ قد وضع في فمه تمرات حينما سمع النبي يقول: **«والذي نفسي بيده، لا يقاتل هؤلاء القوم أحد صابراً محتسباً ولا يهرب إلّا أدخله الله الجنة»**. فقال عمير: بخٍ بخٍ، ليس بيني وبين دخول الجنة إلّا هذه التميرات. ثم ألقاها إلىٰ الأرض وانغمس في لهوات الحرب حتّىٰ قتل[٣]. وهكذا كان طعام المجاهدين التمر.

إن الله تعالى قد وعد الشهداء بجنتين هما: جنّة الآخرة، وجنّة الدنيا التي هي الراحة النفسية والذكر الخالد. فالمجاهد الذي يعرف أنه يقاتل دفاعاً عن مبادئ الإسلام يخرج من الدنيا وفي نفسه جنّة، أما الذي يقاتل من أجل فكرة مجرمة فإنه يعرف أنه سيذهب إلىٰ الجحيم.

إذن الجنّة جنّتان: جنّة ذاتية، وجنّة موضوعية؛ ولذا فإن الله تعالى قد وعد الشهداء بهذا المعنىٰ.

---

(١) الإسراء: ٨٢. (٢) مريم: ٢٥.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٢٦، تاريخ الإسلام ٢: ٩١.

المبحث السادس: حركة الحسين عليه السلام على ضوء الآية الكريمة

إن الإمام الحسين عليه السلام قد اعتمد في نهضته سبيل الأنبياء عليهم السلام، ولذا فإنه عليه السلام استخدم الموعظة اللسانيّة والكلمة المقاتلة، ثم استخدم السيف.

مساهمات الحسين عليه السلام في الفتوحات الإسلاميّة

وهذا الأُسلوب ليس جديداً عليه، حيث إن له عليه السلام مشاركات سابقة في الفتوحات الإسلامية، منها:

الأولى: مساهمته عليه السلام في فتوح أفريقيا

ففي سنة (٢٦) هـ اشترك في فتوح أفريقيا، وكان أحد القادة فيها مع أخيه الإمام الحسن عليه السلام، فقد استنجد قائد الجيش في أيام عثمان بالمدينة، فأُردف بجماعة من الصحابة وفيهم الإمام الحسين عليه السلام.

الثانية: مساهمته عليه السلام في فتح طبرستان

وكذلك كان له مشاركة ثانية في واقعة طبرستان، فقد كان أحد القادة فيها، وكانت مشاركته فعالة حتى حصل الفتح.

الثالثة: مساهمته عليه السلام في معركة القسطنطينية

وهي إسطنبول أو القَرقَدونة، وكان ذلك سنة (٤٨) هـ، حيث إنه عليه السلام خرج إلىٰ الفتح مع الجيش الذي كان يقوده سفيان بن عوف.

وقد رووا حديثاً بشأن هذا الجيش يقول بأن أول جيش يفتح القسطنطينية مغفور له، ومن أهل الجنة. وقد وقعت بعد هذه المعركة معركة أُخرى لإكمال فتحها، وذلك بعد سنتين من المعركة الأُولى، فخرج الجيش، فأصابته حمّىٰ كتب معاوية على أثرها كتاباً إلىٰ ولده يزيد يأمره فيه بأن يلتحق بالجيش باعتباره ولي

العهد الذي يُفترض به أن يقود الجيش في مثل هذه الحالات الاستثنائية. فلما وصل الخبر إلى يزيد أنشأ يقول:

ما إن أُبالي بما لاقت جموعُهُمُ   بالفَرقَدونة من حمًّى ومن شومِ
إذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً   بدير مَرّان عندي أمّ كلثومِ [(١)]

وكانت عنده حينها جارية له تغنّيه اسمها أُمّ كلثوم، لكن معاوية أجبره على الالتحاق بالجيش، فالتحق. لكن بعض المؤرّخين يقلب الحقائق فينسب الحديث إلى الجيش الذي كان فيه يزيد، ثم يقول: لماذا تتقوّلون على يزيد هذا، والنبي ﷺ قد شهد بأنه مغفور له؟

ونقول لمثل هذا: لا تقلب الحقائق، فأول جيش كان بقيادة سفيان بن عوف (وهذا يرويه ابن خلدون [(٢)] والطبري [(٣)] وغيرهما [(٤)].

إذن فالإمام الحسين عليه السلام حامل الفكرة وحامل السيف، فكان خطّه خطّ الأنبياء عليهم السلام. والغريب ان ابن تيمية إذا مرَّ بنهضة الإمام الحسين يقول: «ماجلبت إلّا الشؤم». وهذه جرأة على الإمام الحسين عليه السلام.. الحسين الذي سلك طريق الأنبياء عليهم السلام.. الحسين الذي كتب في وصيته لأهله: **«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي ﷺ، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»** [(٥)].

---

(١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.   (٢) تاريخ ابن خلدون ٦: ١٠٨.
(٣) تاريخ الطبري ٣: ٣٥٠.
(٤) الكامل في التاريخ ٣: ٣١٤، الإصابة ٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٣٥٠.
(٥) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

وقد أعطى عليه السلام هذه الوصية لأخيه محمد بن الحنفية، فخرج والتاريخ يعكس صورة الإمام الحسين عليه السلام المقاتل بالكلمة، والمقاتل بالسيف، الذي رفع هذه الصورة المشرقة. وهذا المعنىٰ هو الذي يريده الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: **«إذا هلّ هلال المحرم، نشرت الملائكة قميص الحسين عليه السلام وهو مخضّب بالدماء، فنراه نحن وشيعتنا بالبصيرة لا بالبصر، فتحزن لذلك قلوبنا».**

بلىٰ والله، فعلى الرغم من أن بيننا وبينك يا أبا الأحرار مئات السنين لكن صورتك تظلّ تتألّق في نفوسنا، وتبقى شفاء لأرواحنا ووسيلة للمجد يتغنى بها الإنسان عبر التاريخ:

طلعت علىٰ الدنيا حساماً مهنّداً	**فعاشتك حيناً ثم عاشت على الصدىٰ**
تمجّد قومٌ بالخلود وإنني	**رأيت بمعناك الخلودَ مخلّدا**
فيا واحداً من خمسة إن ذكرتهم	**ذكرت بهم في كلّ وجه محمدا**[1]

أبا عبد الله، إن صورتك ماثلة أمامنا وإن كان فيها ما يؤلم، وفيها حجَر أبي الحتوف الجعفي علىٰ جبهتك، وبها أثر السهام، وفيها ذلك الخدّ الذي سقط علىٰ رمال كربلاء: **«السلام علىٰ العيون الغائرات، السلام علىٰ الشفاه الذابلات»**[2]، **«السلام علىٰ الخدّ التريب، السلام علىٰ البدن السليب»**[3]. ذلك الوجه الذي وارته رمال كربلاء، والذي كانت أُخت الإمام الحسين عليه السلام تتوق لأن تبقىٰ عنده.

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٨.
(٢) المزار (المشهدي): ٤٩٨.
(٣) المزار (المشهدي): ٥٠٠.

﴿١٤٠﴾

البعث والنشور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في القراءة وفي حال الصور ونفخاته

في هذه الآية الكريمة قراءتان:

الأولىٰ: (فإذا نُفخ في الصُّوَر)

وهو جمع صورة. وهذه القراءة فيها إشارة إلىٰ روايات كثيرة تنصّ علىٰ أن الله تعالىٰ قبل أن يبعث الخلائق من القبور، يرسم لهم صوراً جديدة داخل القبور ـ فالثابت عندنا أن المعدوم لا يعاد، أي أن الذي ينعدم لا يعاد نفسه؛ لأنه انتهىٰ ـ فهذا الهيكل للإنسان إذا وضع في القبر تحوّل إلىٰ ذرّات، فإعادته بالصورة نفسها أمر غير ممكن، أما إذا كانت الإعادة بصورة مثلها فنعم. لكن الصورة التي يبعث عليها تختلف من إنسان لآخر؛ فبعض الناس يبعث علىٰ هيئة القردة، وهؤلاء هم

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

النمّامون الذين ينمّون بين الناس ـ أي ينقلون الكلام بينهم ـ وهم أهل الفتنة: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[١]، وهم سرّاق القلوب. حينما تزوّج المأمون بوران ابنة الفضل بن سهل ـ وكان المأمون يحترمه ـ التفت إليه في صبيحة زواجه وقال: هل لك من حاجة؟ فإني أُريد أن أُكافئك؟ قال: بلىٰ. قال: ما هي؟ قال: أُريد أن تحفظ لي قلبك من السرقة. قال: ماالذي تقصده؟ قال: من النمامين الذين ينقلون كلاماً لم أقله؛ فيقلبوا رأيك عليَّ، فصاحب السلطان كراكب الأسد[٢]، قد ينقلب عليه الأسد بين آونة وأُخرى. فقال له: لا، بل لك خمس أفريقيا[٣].

فالنمام: سارق القلوب، وهو يحشر علىٰ هيئة القرد؛ لأن القرد إن تعطه تملّقك، وإن لم تعطه انقلب عليك. ففي رواياتنا أن أُناساً يتخبّطون في عرصات القيامة لا يقدرون علىٰ الحركة: ﴿لاَ يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[٤]، وهؤلاء هم أكلة الربا[٥]. فالذي يأكل الربا يتخبّط دون توازن في حركته؛ لأنه اعتدى علىٰ أقوات الضعفاء. ونحن الآن نعيش في عصر من الصعوبة أن يتخلّص فيه الإنسان من الربا؛ لأن المؤسّسات تكاد تكون كلها رِبوية، ونادراً ماتجد معاملة تخلو من الربا، مع أن الربا يمحق الثروة ويقضي عليها[٦].

وقسم آخر يحشرون مقطوعي الأيدي والأرجل، وهؤلاء هم الذين يؤذون

---

(١) القلم: ١١.

(٢) من حكم أمير المؤمنين عليه السلام. نهج البلاغة / الحكمة: ٢٦٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٤٣، تاريخ بغداد ٧: ٣٣١، تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٠٩.

(٤) البقرة: ٢٧٥.

(٥) تفسير القمّي ١: ٩٣، ٢: ٧، ٢: التبيان ٣٥٨ ـ ٣٥٩، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٣٥٥.

(٦) قال تعالىٰ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ البقرة: ٢٧٦.

جيرانهم؛ لأن الجار أحد أفراد العائلة. وكانت العرب تعتني بالجوار، وقد أكّد الإسلام على هذا. وقسم تقرض شفاههم، وكلما قرضت وفيت، وتسيل ألسنتهم قيحاً فيتقذّرهم أهل المحشر، وهؤلاء هم الخطباء الذين يأمرون الناس بما لا يأمرون به أنفسهم، فيأمرون الناس بالإصلاح والأمانة والعفّة وهم لا يتّسمون بها، وبهذا فإنهم يخدعون الناس [1].

فهذه القراءة (الصوَر) تعني أن الصورة ترسم للإنسان، ثم ينفخ فيه الروح ويبعث على الصورة التي رُسمت له في القبر. والروايات بهذا المعنىٰ كثيرة.

وبناء علىٰ هذه القراءة فإنه لا توجد روح من الأرواح ليس لها ثقب في الصُّور (بوق ينفخ فيه إسرافيلعليه السلام)؛ فلكلّ صورة ثقب، فإذا نفخ بعثت إليها الحياة.

الثانية: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾

وهي القراءة المشهورة، ويلزم أن نذكر هنا مقدّمة حول بعض ألفاظ القرآن الكريم، فنقول:

النصّ والظاهر

إن في القرآن الكريم ألفاظاً يطلق عليها مصطلح النص، وهي الألفاظ التي لا تحتمل إلّا معنىً واحداً مثل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[2]، فالله تعالى واحد، وعليه فإن هذه الآية الكريمة لا تحتمل معنىً ثانياً. لكن هناك ألفاظ تحتمل أكثر من معنىً مقابلها، وهي التي يحصل فيها الاختلاف الذي ربما يتطوّر ويصل إلى نطاق غير معقول. وكمثال على هذا ما حصل في واقعة الغدير التي وقف فيها أكثر من مئة وعشرين ألفاً من المسلمين في مكان شديد الحرارة، وخطب فيهم الرسول

---

(١) الأمالي (المرتضى) ١: ٥.
(٢) الإخلاص: ١.

الأكرم ﷺ قائلاً: **«اجمعوا أحداج الإبل»**، وعمل منها منبراً، وأعلن على الملأ خطبته التي قال ﷺ فيها: **«ألست أولىٰ بكم من أنفسكم؟»**. قالوا: بلىٰ. فقال ﷺ: **«اللهم فاشهد، وأنت ياجبرائيل اشهد»**. قالها ثلاث مرات، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب ﷺ وقال: **«من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله...»**[1]. إلىٰ آخر الرواية. لكن يأتي من يقول: إن هذه الرواية صحيحة لكن معنىٰ «مولىٰ»: ناصر، أي أنه ناصري. فهل يعقل أن النبي ﷺ يجمع هذا الجمع الضخم والعدد الهائل من الناس ليقول لهم: إن علياً ابن عمي، أو: إن هذا ناصري، أي ينصرني وأنصره، بمعنى أن بينهما ﷺ مناصرة متبادلة.

هذا كلّه لأن لفظ المولىٰ مشترك، مع أن المشترك تحدّده القرينة، فمثلاً حينما يقول القائل: رأيت قمراً في البيت، فإنه حتماً لا يقصد القمر التابع للأرض؛ لأن هذا القمر لا يدخل البيوت، بل إنه يقصد رجلاً جميل الوجه. وهذا إنما حدّدته القرينة.

ومن هذا لفظة «الصور» حيث إن لها أكثر من معنىٰ، فترى المفسّرين يخوضون فيه فمنهم من يقول: طوله كذا عرضه كذا، ومنهم من يقول: إنه منحوت من كبش نبي الله إبراهيم ﷺ، وما إلى ذلك ممّا لا طائل منه، فهو كلام لا موجب له؛ لأنه من الإسرائيليّات التي غزت فكر الكثير من المسلمين وكتبهم، وهذا ـ دخول الإسرائيليات في كتب التفسير عند المسلمين ـ ممّا يؤسف له حقّاً. وإلّا فإنه لا داعي لكل هذه التفاصيل، إذ يمكن أن يكتفى في تعريفه بالقول بأنه عبارة عن أداة

---

(١) مسند أحمد ١: ٨٤ وغيرها، ٤: ٢٨١ وغيرها، ٥: ٣٤٧ وغيرها، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٧، سنن ابن ماجة ١: ٤٥، وغيرها كثير.

أو جهاز ينفخ فيه يوم الحشر؛ لينبّه الناس للبعث.

ومعنى هذا أن الله تعالى إذا أراد بعث الخلائق، أمر إسرافيل أن ينفخ بها، أما مميّزاته وتفاصيله الجزئيّة الأُخرى فغير مهمّ ذكرها، لئلّا يضيع الوقت في بيان أشياء أعرض القرآن الكريم عن ذكرها. والقرآن الكريم يرشدنا دوماً إلىٰ الاختصار، وكلام العرب البليغ مبني علىٰ الخفّة والاختصار وعدم الإطالة والإسهاب، وقد خاطب الله تعالى العرب بقوله: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[1].

وثاقة كتب الحديث

إن البعض منّا إذا مرَّ بمسائل أو قضايا من هذا النوع لا يعيرها أي اهتمام للتدقيق فيها وتمحيصها، بل إنهم يأخذون هذه الأُمور أخذ المسلّمات دون إخضاعها للمناقشة. وهذا ما يقع فيه معظم الكتّاب؛ فالكثير من الكتب الحديثيّة فيها كمّ هائل من الروايات التي تحتاج إلى المتابعة والتدقيق والتحقيق سنداً ومتناً، ثم حينما يقرأ البعض فيها رواية ما قبل إجراء عمليّة التحقيق والتدقيق يأخذ بها دون تروٍّ، مكتفياً بأنه قرأها في الكتاب الفلاني. وهذا خطأ فاحش وغلط كبير: إذ أن بعض هذه الكتب فيها دسّ كثير، ثم إن هناك كتباً لدسّاسين أو كذّابين أو وضّاعين تعمّدوا فعل ذلك لغاية مريضة.

فعادة ليس كل ما هو موجود في الكتب صحيحاً؛ وعليه فلابدّ من إخضاع كلّ رواية فيها للنقد والدراسة؛ فنبحث عن رجال السند فيها، فالرجال الذين رووها ربما كان بعضهم مذموماً أو مقدوحاً فيه لكذب أو فساد عقيدة أو انحراف عن

---

(١) يوسف: ٢.

جادّة الصواب، ثم نناقش مضمون تلك الرواية؛ لمعرفة ما إذا كان يـصطدم مـع مضامين أو ثوابت أُخرىٰ، ثم بعد ذلك نحكم عليها سلباً أو إيجاباً. فـليس كـل رواية في كتاب حديثيّ ما صحيحة.

فالواجب الذي تمليه علينا ضرورة التثبّت حينئذٍ هو أن نتنبّه إلى أنه لا يمكن عدّ كل رواية موجودة في الكتب الحديثيّة صحيحة أو اعتبارها مسلّمة، فيُعمل بها دون إجراء هذا اللون من التدقيق فيها سنداً ومتناً.

تحريف القرآن الكريم

جاءني أحدهم بمنشور من الإنترنت كُتب فيه: إن الشيعة عندهم قرآن غير هذا القرآن.

وهؤلاء الذين كتبوا مثل هذه السموم هم من المـرتزقة الذيـن يـريدون بثّ الفرقة بين المسلمين وقتل وحدتهم، إذ أن المسلم الحقيقي والمـتّزن، هـو الذي يدرك بأن وظيفته هي جمع كلمة المسـلمين وليس بثّ الفـرقة بـينهم، ويـحسّ بأهمية هذا لهم في وقوفهم بوجه أعدائهم من الكفّار، ويشعر بـمسؤوليّته تـجاه الدين ووحدة المسلمين، فلا يفعل مثل هذا ولا يقول بـه، ولا يـبثّ مـثل هـذه السموم؛ لأن عنده مروءة وموضوعية وإنصافاً، ومثل هذا المسلم عزيز وجـوده وقليل نظيره.

إن في هؤلاء من يريد أن يشهّر فيقول: هذه الرواية موجودة في (الكـافي). لكن نقول له: هل قرأت ما كتبه ثقة الإسلام الكليني في مقدّمة كتابه (الكـافي) حيث يقول: «فاعلم يا أخي أرشدك الله، أنه لا يسـع أحـداً تـمييز شـيء مـما اختلف الرواية فيه عـن العـلماء بـرأيـه إلّا عـلى مـا أطـلقه العـالم ﷺ بـقوله: «اعرضوها على كتاب الله؛ فما وافق كتاب الله عـزّ وجـلّ فـخذوه، ومـا خـالف

كتاب الله فردّوه »...» [١].

وبديهيّ إن الرواية التي تقول بأن القرآن محرّف لا توافق القرآن ولا السنّة؛ فالقرآن الكريم يقول: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [٢]. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام عن القرآن: **«هو ما بين الدفّتين»** [٣].

فإذا كان هناك (٤) روايات حول التحريف في الكافي، فهناك روايات كثيرة في كتب المذاهب الإسلاميّة تقول بالتحريف. وسأُرشد إلى قائمة لبعض الكتب التي ذكرت هذه الروايات عندهم:

أولاً: كتاب البيان في تفسير القرآن [٤] للسيد الخوئي.

ثانياً: الفصول المهمة للسيد عبد الحسين شرف الدين

ثالثاً: آلاء الرحمن في تفسير القرآن للشيخ محمد جواد البلاغي.

رابعاً: التحقيق في نفي التحريف للسيد علي الميلاني.

إضافة إلى العشرات من الكتب التي نطلب من الشباب أن يقرؤوها ليعرفوا من هو الذي يقول بالتحريف. إننا لا نقول بالتحريف، وإنما نقول: إن القرآن هو الذي بين الدفّتين، وليس فيه زيادة ولا نقصان، وهذا رأي علمائنا وفقهائنا كافّة [٥]، كما أنا لا نقول: إن حروفه مليون وسبعة وعشرون ألف حرف، في حين أنها تبلغ

---

(١) الكافي ١: ٨، وقد مرّ تعليق المحاضر على هذا الأمر بقوله: فروايته صلى الله عليه وآله لهذه الأحاديث من باب التأريخ للرواية. انظر ج ١ ص ٢١٠ من كتابنا هذا.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) انظر نهج البلاغة / الكلام: ١٢٥.

(٤) البيان في تفسير القرآن: ١٩٧ ـ ٢٣٩.

(٥) الشافي ١: ١٨٦، ٤: ٢٨٥، الانتصار: ٢٦، تصحيح الاعتقادات: ٥٩ / ٣٣، المسائل السرويّة: ٧٨ / المسألة: ٩، أوائل المقالات: ١٨٧ / ٥٩، ٤٠٠ / ١٨٨، الفصول المهمّة (الحرّ العاملي) ١: ٥٩٠، نفس الرحمن: ١١.

ثلث هذا العدد. وللتأكّد ارجع إلى السيوطي في (الإتقان) [١] وانظر من هو صاحب هذا القول.

إننا لا نريد لهؤلاء أن تتحقّق أهدافهم، إذ أنهم مشبوهون ويريدون أن يفتعلوا في هذا المجال ضجّة لا مصداقية لها. ودليل هذا أن من يبتغي الحقّ والحقيقة إذا نوقش مرّة واحدة بما يقتنع به غيره لدليليّته ومعقوليّته فإنه يقتنع ويسكت، وهذا هو شأن الإنسان المنصف والواقعي. ثم إنه لا مجال لأن يدّعي أحد أن مثل هذه الأُمور يصعب تناولها أو الوصول إليها؛ لأن جميع هذه الحقائق قد استبان أمرها عبر وسائل الإعلام التي لم تدع مجالاً إلّا ولجته.

عدد النفخات في الصور

والصور ـ حسبما يذكره المفسرون ـ: بوق يحمله إسرافيل عليه السلام، وينفخ فيه ثلاث نفخات:

النفخة الأُولىٰ: نفخة الرعب، وهي التي تكون قبل انتهاء الدنيا، حيث إن جميع من في السماوات والأرض يتهيّؤون ويعرفون أن الأمر قد اقترب.

النفخة الثانية: نفخة الصعق، وهي المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن ١: ١٩ / ٩٧١، وروى الهيثمي في مجمع الزوائد ٧: ٢٨، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١ والسيوطي نفسه في الدر المنثور ٣: ٢٠٨ أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنّا نقرأ إلّا ربعها. وقد مرّ تحقيق ذلك في مبحث (هل يقول أهل السنة بالتحريف؟) مع مصادره في ج١ ص٢١٠ ـ ٢١١ من كتابنا هذا. ومن أمثلة التحريف عندهم أن معاوية أعطى سمرة بن جندب أربعمئة ألف درهم ليروي أن قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ البقرة: ٢٠٧، نزل في عبد الرحمن بن ملجم؛ إذ باع نفسه لله عندما ضرب علي بن أبي طالب عليه السلام. انظر الصراط المستقيم ١: ١٥٢، ومثله في النصائح الكافية: ٢٥٣.

﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[١]. حيث تموت الخلائق كلّها، ثم يأتي المنادي ويقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[٢].

النفخة الثالثة: نفخة النشور، حيث إن الله تعالى إذا أراد أن يبعث الخلائق فإنه يأمر إسرافيل فينفخ في البوق، فيخرجون سراعاً من القبور: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣].

المبحث الثاني: عالم الأنساب

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾. إن عندنا عالمين، هنا: عالم الدنيا وعالم الآخرة، والأنساب تلعب دوراً هامّاً وكبيراً في حياة الإنسان الدنيوية وعالمه الأرضي؛ حيث إنه يحتاج لمعرفة الأنساب حتّىٰ يعرف الخواصّ البشرية؛ فالذي يريد أن يتزوّج من أحد أو يزوّجه فلابد له وعليه أن يعرف الكثير عن أصهاره الجدد، وهذا لا يكون إلّا بمعرفة علم الأنساب. وهذا ما عليه أوروبّا الآن؛ حيث إنه توجد فيها مكاتب مختصّة بالزواج تقوم بدراسة الأعراق مثلاً؛ فهذا من العرق الفلاني وهذا أصله هندي أو أوروبّي... فيدرسون خواصّ وخصائص هذا الأمر عند التزويج.. يدرسون خواصّ وخصائص المرأة وخواصّ وخصائص الرجل، ونسبة النجاح الممكنة والكائنة في زيجاتهم.

---

(١) الزمر: ٦٨. (٢) غافر: ١٦.

(٣) يس: ٥١ ـ ٥٤. وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ الزمر: ٦٨.

ونحن عندنا في تاريخنا النسّابون الذين يعرفون الأعراق، يقول نبيّنا الأكرم ﷺ: «**تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس**»[1]. وقال ﷺ لرجل أراد أن يرشده للزواج من امرأة: «**اظفر بذات الدين تربت يداك**»[2]. أي اختر التي عندها دين وعفّة؛ لأنها تتوفّر على جانبي الاستقامة ومراعاة زوجها. فالأموال إلى نفاد، والجمال إلى أُفول وذهاب، وحتّىٰ لو أنها ماتت جميلة فإنها ستصبح بعد فترة وجيزة تحت التراب شيئاً لا يطاق النظر إليه، يقول الشريف الرضي:

ومسنَّدين على الجُنوب كأنهم ... شِرب تخاذل بالطلا أعضاؤهُ

وجه كوجه البرق غاب وميضه ... صدرٌ كصدر العضب قل نضاؤهُ

حكم البلا فيه فلو نظرت له ... أعداؤه لرثت له أعداؤهُ[3]

فحتىٰ أعداؤه لو رأته لرثت لحاله؛ حيث يأكل الدود عينيه، والرمل خدّيه، ويتحول الجسد إلىٰ ذرّات. فالجمال سريع الزوال، وكذلك المال، أمّا الحسب والنسب فإذا كان الاعتناء بهما لهدف أخلاقي معقول فلا بأس، أما إذا كانا طلبهما لأجل الكبرياء والعزّة فلا؛ لأنه حينئذٍ يصبح هدفاً حقيراً.

لقد تخلّت بعض الفتيات في مجتمعاتنا الآن عن قيمهن الدينيّة والاجتماعيّة الأصيلة، فرحن يتجمّلن ويخرجن شبه عاريات، وهذا ينمّ عن عقليّة ضحلة لا تقيم وزناً واعتباراً للأخلاق والقيم. إن مجتمعاتنا كانت عالية الخلق، لكننا أضعنا هذا، ومع ذلك تظل فرصة الرجوع إلى منابع تربيتنا قائمة وموجودة: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾[4]؛ فكتاب الله هو الذي يهذّبنا

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.
(٢) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.
(٣) ديوان الشريف الرضي ١: ٢٢.
(٤) آل عمران: ١٠٢.

ويهدينا، وها هو تعالىٰ يقول لنا: إن الأنساب إنما تراعىٰ في الدنيا حيث يكون الهدف من مراعاتها معرفةَ ماهيّة الأنساب أوّلاً، ومعرفة النفقات وكيفيّة صلة الأرحام ثانياً. فعندنا مثلاً خلاف بين فقهاء المسلمين فيمن تجب نفقته؛ فالأحناف يقولون: إن من يحرم الزواج منه تجب نفقته إذا كان صاحب النفقة غنياً ومحلّها معسراً، مثل ابنة الأُخت وابنة الأخ والجدّ وإن علا والابن وإن نزل. فالقرابة التي تنشر الحرمة عند الأحناف هي الموجب للنفقة بشرط كون المنفق موسراً والمنفق عليه معسراً كما ذكرنا.

في حين أن بعض المذاهب الأُخرى يرون أنها واجبة فقط في العمودين، وعند البعض الآخر أن واجب النفقة هو الأبوان المباشران والأبناء المباشرون، وعند بعض آخر أنه الوسط بين من يحرم الزواج منه وغيره. أمّا عند الإمامية، فهم الآباء وإن علوا، والأبناء وإن نزلوا، إضافة إلى أفراد آخرين ينصوّن عليهم في باب النفقات من كتبهم الفقهيّة. إذن لا بدّ من التعرّف علىٰ الأنساب.

وكذلك نعرف عن طريق الأنساب الرحم الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[1]، وهل إنهم الذين يتّصلون بالمرء عن طريق الأبوين، أو عن طريق أكثر من هذا؟ وأيضاً نعرف من الأنساب حرمة الزواج من المحارم (الأُمّهات والبنات والخالات والعمّات وبنات الأخ وبنات الأُخت)، فهؤلاء يحرم علىٰ الإنسان أن يتزوّج منهن.

وفي مسألة البنت مجال للمناقشة عند بعض الفقهاء؛ فالقانون مثلاً يعطي لبعض حالات البنات مشروعية، فهو حينما يعتبر هذه المتولّدة بنتاً فهل يقصد بها تلك التي جاءت من عقد شرعي، أو أنها تشمل حتى تلك التي جاءت عن طريق

---

(١) النساء: ١.

معاشرة غير شرعية؟ وبعبارة أُخرى: إن البنت المتولّدة من معاشرة غير شرعية (الزنا) بين رجل وامرأة؛ هل تعتبر ابنة هذا الرجل، أم لا؟ [1] كل ذلك يعرف بالنسب، فهو ضروري حتّىٰ يُبتعد عن المحارم.

وهناك ضرورة لمعرفة الأنساب تقتضيها الحالة الاجتماعية، يقول الإمام أمير المؤمنين لولده الإمام الحسن ﵉: **«أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي بهم تطير، وأصلك الذي إليه تصير»** [2]. فالعشيرة التي ينتمي لها المرء وإليها ينتهي إنما تُعرف عن طريق النسب. فالإنسان يحتاج لعشيرته؛ فهم من يقف معه في فرحه وألمه؛ وفي الحالات الاجتماعية التي تعتوِر عليه. وهذ الأمر يأخذ عند قبائل العرب بعداً أكبر؛ فإنها عامل أساسي في جميع متطلّبات حياة العربي. وهذا الحكم يستند طبعاً إلىٰ الوضع القبلي؛ فهناك إلىٰ الآن من لا زال ولاؤه لقبيلته، وإن كان عنده لون ولاء للقانون، فولاؤه لقبيلته يكون قبل ولائه له، ويظلّ قائماً بشكل أكبر لها.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   بالنائبات علىٰ ماقال برهانا

فإذا صاح: يا آل فلان. اجتمعوا إليه من كل فجّ. وقد ذكرت سابقاً أن القسم الفكري من الحضارة ليس من السهل تغييره، أما القسم المادّي فيمكن تغييره بسهولة؛ فمن السهل استخدام الغاز وقوداً بدلاً من الحطب، في حين أن العادة التي تورث من الآباء والأجداد يتعذّر تركها، ويبرّر ذلك بأن الآباء

---

(١) قد مرّ أن الشافعي لا يعطيها صفة البنت، فيجيز الزواج منها. انظر في هذه المسألة: المجموع شرح المهذب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، وقد نسبه في كتابيه هذين إلىٰ مالك أيضاً، مواهب الجليل ٥: ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٦٠.

(٢) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

والأجداد لم يكونوا علىٰ باطل أبداً. فالميراث الاجتماعي ليس من السهل تغييره؛ لأنه متأصّل في النفوس.

فالأنساب تلعب دوراً كبيراً في كلّ هذه المجالات؛ لأن أبناء النسب الواحد يجمعهم دم واحد، وعرف واحد، وانتماء واحد. وحال الدنيا أنها لا يمكن أن يستغني فيها الإنسان عن الأنساب، أمّا في الآخرة فهذا الأمر لا حاجة له؛ لأن الأنساب تسقط هناك، تقول الرواية: «**إذا بعث الله الخلائق يلتفت إليهم ويقول لهم: اليوم أضع أنسابكم وأرفع نسبي**»[1]. ومعنى «**أضع أنسابكم**»: أنه إذا كان جدّكم رئيس قبيلة أو من قبيلة متميّزة، فإنه لا قيمة له اليوم، فهذه الألقاب كلّها تُلغىٰ، ومعنى «**نسبي**»: التقوىٰ، فنسبه تعالى هم الذين يتّقونه ويطيعونه. فأنسابكم تتلاشىٰ إلّا النسب عند الله:

كفاك أنك من عِقْدٍ فرائده ... عاشوا كراماً وماتوا سادة نجبا

أبوهُمُ الدين والتقوىٰ قبيلتهم ... ما أنتجو عجماً يوماً ولا عُرُبا[2]

فالانتماء إلىٰ الله تعالى هو انتماء التقوىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[3]. فعنصر الكفاءة هنا قائم على أساس عادل هو التقوىٰ؛ فالمؤمن أخو المؤمن.

فإذا عرفنا أن النسب الحقيقي هو نسب التقوىٰ لزم أن نعرف بقناعة تامّة أن كثيراً من أسباب العجرفة والكبرياء والعنصرية يجب أن تتلاشىٰ. وممّا يناسب المقام ذكره ما نقله المؤرّخون من أن المقداد ﷺ خطب أُخت عبد الرحمن بن

---

(١) الفتوحات المكيّة ٢: ٥٨٧، ٣: ٥٣١، ٤: ٦٩، ٢٣٧، ٤١٥، شرح فصوص الحكم (القيصري): ٧٣٨.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٨٤.

(٣) الحجرات: ١٣.

عوف، فانزعج عبد الرحمن من هذا، ولمّا سئل عن السبب أجاب بأنه لا يصح أن يخطب إليه المقداد أُخته؛ لأنه بهذا يتجرّأ عليه، وليس نسب المقداد كنسبه. فتألّم المقداد وجاء إلىٰ النبي الأكرم ﷺ وهو متأثّر من كلامه: قال له النبي ﷺ: **«مابالك؟»**. فأخبره بالأمر، فقال النبي ﷺ: **«أنا أُزوّجك»**. فزوجه من ضباعة بنت عمّته، وقال له: **«أعطاك الله خيراً منها»**[(١)].

وخطب سلمان المحمدي ﵁ بنت عمر بن الخطاب فتأثّر ابنه عبد الله بن عمر، فقال له المغيرة: أنا أحتال لك في هذا الأمر. فقال عبد الله: وكيف؟ قال: سترى. ثم جاء المغيرة إلى سلمان ﵁ وقال له: هنيئاً لك. فقال سلمان ﵁: علىٰ ماذا؟ قال المغيرة: هنيئاً لك بما حدث. قال: ما الذي حدث؟ قال: لقد تواضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقبل أن يزوّجك ابنته. فقال سلمان: وأنا أعرضت عن أمر هذا الزواج مادام عمر قد تواضع فيه. أي يريد أن يقول له: أنا لا أُريد الزواج الذي تكرمونني به وترفعونني لأجله[(٢)].

فهذا اللون من التفكير قائم علىٰ الفكر المتطرّف؛ فالإنسان بشكل عامّ تتحكّم به مواريثه الاجتماعية، يقول الحديث الشريف: **«كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسبي»**[(٣)].

والسبب هو الزواج والمصاهرة، أمّا النسب فما ينتهي إليه الإنسان. وقد استشهد الخليفة الثاني بهذه الرواية عندما جاء يخطب أُم كلثوم بنت أمير المؤمنين

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى ٣: ١٦٢، الإصابة ٦: ١٦٠ / ٨٢٠١.

(٢) أحكام القرآن: ١٦١، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٤٧، وليس فيهما ذكر للمغيرة، بل فيهما أن عمر نفسه ردّه ثم عاد، فأبى سلمان.

(٣) الخصال: ٥٥٩، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٦٤.

علي بن أبي طالبعليه السلام . وكان الموقف حسّاساً جدّاً. إن على المرء أن يقرأ في وقت فراغه، ومثل هذا الموضوع الحسّاس قد تناولته عدّة بحوث منها ما كتب في مجلة (تراثنا) الصادرة عن مؤسّسة أهل البيتعليهم السلام في أعدادها التاسع والعشرين والثلاثين والحادي والثلاثين؛ فقد تناولت هذه الأعداد الثلاثة قضيّة زواج عمر ابن الخطاب من أُمّ كلثوم بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام)، وهل إنه صحيح أم لا، وهل فيه نقاش أم لا.

وفي هذا المقام أردت فقط أن أُلفت النظر إلىٰ رواية: **«كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسبي»**.

وانطلاقاً من المحافظة علىٰ الأنساب في الدنيا كلّف الإمام عليعليه السلام أخاه عقيل بن أبي طالب ـ وكان نسابة ـ بأن يختار له زوجة بما عنده من قابلية وقدرة في علم الأنساب، وقال له: **«انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب؛ لأتزوّجها فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطفّ كربلاء»**. وهوعليه السلام بهذا إنما يمشي مع العرف الاجتماعي، فقال له عقيل بعد تأمّل: عليك بفاطمة بنت حزام الكلابيّة؛ فليس في العرب من هو أفرس وأفتىٰ من أهلها [١].

وأهلها هم الذين افتخر بهم لبيد الشاعر في مجلس النعمان بقوله:

نحن بنو أُمّ البنينَ الأربعة ... ونحن خيرُ عامرِ بنِ صعصعة

الضاربون الهامَ وسطَ الخيضعة ... والمطعمون الجفنةَ المدعدعة [٢]

ولم يجرؤ أحد أن يردّ عليه.

---

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧، وليس فيه: «يكون ناصراً...».

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة (ضمن ديوان الفروسيّة): ١٦٨.

وقد تزوّج الإمام علي ﷺ هذه المرأة، فوجدها علىٰ درجة كبيرة من الأخلاق والتهذيب، وقد ولدت له أولاداً أربعة هم: العباس وجعفر وعثمان وعون، وقد استشهدوا جميعهم في الطفّ مع الإمام الحسين ﷺ. وكانت فاطمة (رضي اللّه تعالى عنها) في غاية الرعاية للحسنين ﷺ، وكان موقفها يوم الطفّ يبرهن علىٰ هذا المعنىٰ. والذي استأثر بمكانة كبيرة عندها من بين أولادها هو العباس ﷺ، وكان عمره (٣٤) سنة يوم الطفّ، وكان متزوّجاً من لبابة بنت عبد الله بن العباس، فولدت له عبيد الله والفضل الذي كانت أُم البنين (رضي الله تعالى عنها) تخرجه معها إلىٰ البقيع لتندب أبناءها تلك الندبة التي تفطر القلب وتفجّر الدموع:

لا تدعونّي ويكَ أُمّ البنينْ	تذكّريني بليوثِ العرينْ
كانت بنون ليَ أُدعىٰ بهم	واليوم أصبحت ولا من بنينْ
أربعة مثل نسور الربىٰ	قد عالجوا الموت بقطع الوتينْ
يا ليت شعري أكما أخبروا	بأن عباساً قطيع اليمنْ[1]

فتجلس عند قبور أولادها وتندبهم، وكان من جملة من يستمع إلىٰ ندبها مروان بن الحكم، فكان يبكي علىٰ بكائها. ثم بعد ذلك تقوم لتدور حول محاريب أولادها، فتراها وهي خالية.

هذا كلّه مع بعدها عن أحداث الطفّ ووقعته الأليمة، وما جرى فيه من جرائم بشعة ضدّ العترة من أهل البيت النبوي الطاهر ﷺ، فكيف بحال الإمام أبي عبد الله الحسين ﷺ حينما وقف علىٰ أبي الفضل، إن للمؤرخين عبارة لم يذكروها إلّا في هذا المصرع، يقول أرباب تأريخ وقعة الطف: لما سقط العبّاس بان الانكسار

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين ﷺ (أبو مخنف): ١٨١.

في وجه الإمام الحسينعليه السلام، فنزل عند مصرع أخيه العباس، وكان لا يرىٰ لما أصابه من الجراح والدم؛ ذلك أن إحدىٰ عينيه قد أصابها، سهم، والأُخرى قد جمد عليها الدم؛ فلم يتمكّن من أن يرىٰ بها. فلمّا أحسّ بحركة رجل بالقرب من رأسه، ظن أنه يريد أن يحتزّ رأسه، وكان في لحظاته الأخيرة، فقال: من هذا؟ فقال الإمام الحسينعليه السلام: **«لماذا؟»**. قال: يا هذا، أُقسم عليك بمن تعبد إلّا ما أمهلتني فواق ناقة. قالعليه السلام: **«وما تصنع بها؟»**. قال: حتى يأتي إليّ أخي وابن والدي أُودّعه ويودّعني، وأشمّه ويشمّني. فقال الإمام الحسينعليه السلام: **«أنا أخوك»**. فقال: إذن ادنُ مني أُقبّلك وأشمّك. فوضع فمه على فمه وراح يقبّله إلى أن فاضت روحه الشريفة المقدّسة [1]، وأخذ الإمام الحسينعليه السلام يكفكف دموعه الجارية بيده الشريفة:

قد رام يلثمه فلم يرَ موضعاً ... لم يدمِه حرّ السلاح فيلثمُ

أأخي يهنيك النعيمُ ولم أخل ... ترضى بأن أشقى وأنت منعّمُ

* * *

خويه العلم گلي وين اودّيه ... ينور العين دربي بيش أجِد بيه

ولما لفظ أنفاسه الطاهرة، قام عنه وعاد إلى الخيمة، ولم يكن معه العبّاسعليه السلام هذه المرّة، فاستقبلته الحوراء زينب بباب الخيمة، وقالت له: أبا عبد اللّه، أراك عدت وحدك؟ فاختنقعليه السلام بعبرته وقال: **«أُخيّة، عظّم الله لك الأجر بأبي الفضل؛ لقد خلّفته على المشرعة دامي الوريدين»**. فوضعت يدها على صدرها وصاحت: وا أخاه..وا عبّاساه. ثم خرجت إليه ليلاً، حتّى وصلت إلى نهر العلقمي:

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

إلي مـــناشده ويّـاك واعـتاب ... يـمنوّخ الهـودج عـلى البـاب

اسبعْطش يبرون له احسـاب ... أشوف الرجا وذاك الأمل خاب

* * *

أحمـي الضـائعـات بعـدك ضعنا[1]

---

(١) صدر بيت وتمامه:

في يدِ النائبات حسرىٰ بوادِ

انظر وفيات الأيمّة عليهم السلام: ١٦٢.

﴿١٤١﴾

شعائر الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في سبب النزول

إن سبب نزول هذه الآية يتعلّق بما كان العرب يمارسونه في زمن الجاهلية من بعض المناسك في الحجّ. وهذه الممارسات كان أن أخذ المشركون بتطبيقها بعد ذلك ـ في أول الإسلام ـ في حجّهم، فكانوا يعظّمون البيت في تصرّفاتهم ويجلبون البدنة والبعير إلىٰ الكعبة، ويهلّلون الله ويكبّرونه، ويقومون بالشعائر نفسها. فحاول المسلمون بعد ذلك منعهم من ممارستها؛ بحجّة أنهم أُناس مشركون، فلا يجب أن يُسمح لهم بأن يمارسوا طقوسهم عينها. وكذلك بحجّة أن المشرك لا تقبل منه عبادة لأنه لم يعقد قلبه ولا نيّتهَ على التقرّب إلىٰ الله تعالى بعبادته هذه، وأنهم ليس لهم اعتقاد بالله أصلاً.

فنهاهم الإسلام عن هذا التصرّف، وقال لهم: لا تفعلوا هذا؛ لأن هؤلاء عندهم

---

(١) المائدة: ٢.

ميراث اجتماعي وعادات تسالموا عليها، وهذا الميراث وهذه العادات لا تقدح في الدين.

المبحث الثاني: الاجتهادات الشخصيّة إزاء النصّ

تقول الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾، وفيها مضامين عديدة، لكن قبل الولوج في مضامينها أودّ أن أُنبّه إلى أن كل نصّ ـ بالمعنى اللغوي ـ سوء كان آية، أو غيرها إذا لم يحتمل إلّا معنىً واحداً فإنه يسمى نصاً ـ بالمعنى الاصطلاحي ـ مثل قوله تعالىٰ: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾[1]، فهذا النصّ اللغوي لا يحتمل إلّا معنى واحداً هو أن المرأة تأخذ نصف حصّة الرجل في الميراث، وكذا قوله تعالىٰ:و﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾؛ فإنه لا يحتمل سوى معنىً واحد هو وحدانية الله تعالىٰ. أمّا إذا احتمل أكثر من معنىً، فيعبّر عنه حينئذٍ بالظاهر. وظاهر الآية إمّا راجح وهو الظاهر، وإما مرجوح وهو مؤوّل.

فقوله تعالى في المقام: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾، يراد به عدم انتهاك حرمة معالم الإسلام التي رسمها الله تعالىٰ، أي لا تحلّوا معالمه التي أعلمنا أنها حدّ من حدوده. فـ﴿**شَعَائِرَ**﴾: جمع شعيرة ـ علىٰ وزن فعيلة ـ وهي المعلمة التي أعلمنا الله تعالى أنها حدّ من حدوده كما أسلفنا. والشعائر منها ما هو مادّي، ومنها ما هو معنوي، والله تعالى رسم لنا حدوداً وممارسات، ضمن إطارها وأمرنا أن نحترمها ولا نتعدّاها:

فالشعائر المعنوية هي جميع ماأمرنا الله به ونهانا عنه.

---

(١) النساء: ١٠.

والشعائر المادّيّة هي من مثل السعي بين الصفا والمروة في الحجّ، فالبعض حينما يحجّ فإنه لا يسعى بينهما، فالحجّ عنده عبارة عن الطواف حول الكعبة فقط، فأراد القرآن الكريم أن يقول لهؤلاء: إن هذه الأُمور توقيفيّة، فلا تجعل نفسك مشرّعاً مقابل الله. وهذا الرأي مروي عن الإمام الباقر عليه السلام[1].

ويقول بعض آخرون: إنها بخصوص من لا يقوم ببعض ماهو مشرّع في الحجّ. فالقرآن الكريم يبيّن لنا الحدود التي يجب أن نعمل بمقتضاها وفق ما أمرنا الله تعالى به من مناسك. أما قصة الهدي، فكان بعض الحاجّ يسوقون النياق للكعبة، ولكي يبيّنوا أنها بدنة يعمدون إلى الجانب الأيمن لسنامها فيشقّونه، فإذا خرج منه دم فإنها تهدىٰ للكعبة. وما كان عليه هذه العلامة من النياق لا يتقرب إليه أحد؛ لأنه قد أصبحت له علاقة بالكعبة وبالدين. فهؤلاء علىٰ جهلهم وجاهليّتهم يحترمون الشيء الذي له علاقة بالدين وبالكعبة.

وعند المسلمين بالإجماع أنه يجب علىٰ المسلم عند سوقه البدنة أن يشعر بها، لكن انفرد عن هذا المعنىٰ أبو حنيفة حيث قال: إن شقّ ظهورها حتّىٰ يخرج الدم ممنوع، وهو محرم لأمرين:

الأول: أنه مثلة والمثلة حرام ولو بالكلب العقور[2].

ونقول: إن هذه ليست مثلة، وهذه المسألة مبتلى بها في كلّيات الطبّ، فالتشريح هل يعتبر مثلة أم لا، فبعض الفقهاء يمنعون الدخول إلىٰ كليّة الطبّ، لأن الطالب سيبتلى بالتشريح وتقطيع الأعضاء. لكن لنا أن نسأل الشارع المقدّس: هل

---

(١) انظر التفسير الكبير ١١: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) مقتضى قول نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إيّاكم والمثلة ولو في الكلب العقور». انظر نهج البلاغة / الوصيّة: ٤٧.

للمثلة اصطلاح شرعي، أم إن الشارع استعملها بالمعنى الذي استعملها اللغوي فيه؟ أي المقصود منها المثلة عند العرب واستخدامهم لها، فنحن نقول: «فلان قتل فلاناً ومثّل به». فمثل به: تشفّىٰ به وانتقم منه، وذلك مثل الأُسلوب الذي استخدمته هند بحمزة بن عبد المطلب ﷺ، فهذه هي المثلة.

فالمثلة مأخوذ في معناها التشفّي والانتقام، فيقطع القاتل أعضاء المقتول مع التلذّذ بذلك. وهذا هو الحرام، أمّا التلميذ في كلّيّة الطبّ فليس عنده هذا الغرض وهو يقوم بعمليّة التشريح، فلا حرمة عليه إلّا إذا قلنا: إن المثلة تتحقّق بمجرّد قطع الأعضاء فقط، دون التشفّي. وهذا المعنى لم يستعمل عند العرب، كما أن المشرّع ليس له حقيقة شرعيّة.

ثم إن هناك أمراً هامّاً هو أن الأحياء أهمّ من الأموات، وهذا هو السبب في ابتكار وإنشاء بنوك للأعضاء، فتؤخذ هذه الأعضاء ويعالج بها الشخص الذي يبتلى بمرض ما، فيزرع له قلب أو كبد. فهذه العملية تتوقّف عليها حياة إنسان وإطالة أمدها. صحيح أن الله أمرنا بحفظ حرمة المؤمن، وبين لنا أن حرمته حيّاً كحرمته ميّتاً، لكن لو تزاحم المهم مع الأهمّ فإن الأهمّ هو الذي سيقدّم، فإذا كان بالإمكان تمديد الحياة عند أربعة ثبت أنهم سيعيشون لو زرعت لهم أعضاء من غيرهم، وجب تمديدها بذلك. وهذاما يذهب إليه كثير من الفقهاء الذين يثبتون أن هذا من باب التزاحم، فيقدّم الأهمّ علىٰ المهمّ.

الثاني: أنه تعذيب للحيوان.

والله تعالى قد نهانا عن تعذيبه. إن هناك أشياء تتّحد بملاكها مع هذا المعنىٰ، فالعرب ـ وحتّىٰ أوروبّا ـ كانوا إذا أراد أحدهم تمييز أنعامه فإنه يكويها، والحيوان بهذا الفعل يتألّم طبعاً، لكن الشارع المقدّس لم ينهَ عنه، ومعنى ذلك أنه

قد أقرّهم علىٰ هذا. فهذا أشبه شيء بالوشم الذي يستخدم في الإبل والأغنام.

فما يفعل بالإبل هنا هو شيء بسيط لمجرّد الإشعار بأن هذه بدنة تساق إلىٰ الكعبة. وعليه فإن رأي أبي حنيفة فيه جانب إنساني، لكن أبا حنيفة ليس أرحم من الله تعالى بخلقه. فعلينا إذن أن نتّبع ما أمرنا الله به، لأن فيه من المصالح ما لا يمكن أن ندركه بأنفسنا. فمناطات الأحكام لها مصالح ومفاسد، فالحرام له سبب هو المفسدة، والحلال له سبب هو المنفعة، والإنسان نفسه يعذب بأشدّ أنواع العذاب. فالمسالة لا تخلو من نبض إنساني، لكن الفقهاء يخالفون أبا حنيفة في هذا، ويقولون: إن معنىٰ المثلة هنا وعنوان تعذيب الحيوان لم يتحقّقا.

ويمكن مراجعة تفسير القرطبي [1] في تفسير هذه الآية.

وعندما يتناول ابن حزم ـ صاحب كتاب (المحلىٰ)، وهو من فقهاء الظاهرية ـ هذا المبحث يحمل حملة عنيفة علىٰ أبي حنيفة. وهذا الأُسلوب يرفضه الإسلام، فالمفروض أنه إذا خالف عالم عالماً في الرأي فعليه أن يبحث عن دليله ولا يجوز له شتمه والتشنيع عليه والتشهير به. إن البعض يحفظ بضعة أحاديث ثم يؤلّف كتاباً ويأخذ بشتم من يرغب من فرق المسلمين، وهو شتم مقذع مقزّز، ربما حمل الإنسان على أن يفقد أعصابه. وهؤلاء من ورائهم أيادٍ تدفعهم إلى هذا. فعلينا أن نحترم رأي الفقيه الآخر، وإذا كان مخطئاً فعلينا أن نناقش في دليله.

وعليه فالآية الكريمة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّـهِ﴾، أي الهدي إلىٰ الكعبة بالقول عنها: إنها شعيرة باطلة. وهذه إما تطبيقاً، وإما نظرياً،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٣٨، وفيه أن ابن العربي قد أوغل على أبي حنيفة في الردّ والإنكار حين لم يرَ الإشعار، فقال: كأنه لم يسمع بهذه الشعيرة في الشريعة! لهي أشهر منه في العلماء.

فالتطبيق أن تُساق البدنة من دون أن يحدث فيها جرح، والنظري هو أن يعطي الإنسان نفسه حقّ التشريع، فيقول: ما الحكمة من هذا المعنىٰ؟

وظيفة الفقيه

إن وظيفة الفقيه عندنا هي البحث عن الحكم عن طريق الدليل؛ فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. وبهذافإنه ليس له حقّ تشريع حكم من عنده مطلقاً.

زكاة الخيل

ومن المعروف أن الله قد فرض زكاة علىٰ الأنعام كالإبل والبقر والغنم بنسب معيّنة، غير أن البعض أضاف إليها الخيل ففرض فيها الزكاة؛ لأنها أصبحت وسيلة للمباهاة وليست شيئاً أساسيّاً كما كانت من قبل حيث إنها تستخدم في الحروب [1].

وهذا خلاف الواقع فإن كلّ حيوان له جانب إنتاجي في حقله الخاصّ، والخيل تركب وتستثمر في أغلب شؤون الحياة السلميّة والحربيّة، وعليه فإنهم انطلاقاً من وحدة الملاك فرض فيها الزكاة. إن هذا ليس من حقّ أي أحد؛ فإن الله تعالى قد أعفانا من إخراج زكاة الخيول؛ لأنها تستخدم في الغارات والصولات وفي الدفاع عن النفس والملّة، وللمحافظة علىٰ القيم.

حمل الحمار على الخيل في الزكاة

ثم فرّع الفقهاء على هذه المسألة مسألة أُخرى، فأثاروا قضيّة حمل الحمار

---

(١) تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٩٣، وقد مرّ أن صاحب هذا الرأي هو الخليفة عمر بن الخطّاب. انظر ج ١ ص ٢٢٢ من كتابنا هذا.

علىٰ الفرس في الزكاة هنا؛ فمنع قسم منهم ذلك[١] وكرّهه بعض آخر، وقالوا: إن به ذلاًّ للفرس ولعنفوانه. كان الحجّاج يجبر الناس علىٰ تزويجه من بناتهم، وفي أحد الأيام دخل على إحدى نسائه ـ وكانت من بيوتات العرب المجيدة ـ فسمعها تهمهم داخل البيت، فأصغىٰ إليها، فإذا هي تقول:

ومـا هـندُ إلّا مُـهرةُ عـربيّةٌ ... سـليلةُ أفـراسٍ تَـحلَّلَها بَـغلُ

فـإن وَلَـدتْ مُـهراً فلِلَّهِ دَرُّهـا ... وإن جاءَ إقرافاً فما أنجبَ الفحلُ

فتأثّر الحجاج وطلّقها[٢]. وحسناً فعل؛ فإن الإسلام وضع الكفاءة شرطاً في الزواج، وهو لا يريد من هذا أن يضع عقبة في هذا الطريق.

فهؤلاء يبرّرون الكراهة بدعوى أن حمل الحمار علىٰ الفرس فيه ذلّ للفرس؛ فإن الفرس موضوعة للجهاد والغزوات والأُمور المشرّفة، فكيف يُذلّ كبرياؤها بجعلها تمارس أعمال الحمل؟

فإذا كان الإسلام لا يرضىٰ بإذلال الحيوان، فهل يرضىٰ بإذلال الإنسان وتعذيبه؟ لكننا لازلنا إلى الآن نعيش الجاهلية في تصرّفاتنا.

فالآية حينما تقول: ﴿لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فإنها تنبّه إلى أن هؤلاء يجب ألّا يعطوا أنفسهم حقّ التشريع؛ لأن العقل الإنساني لا يمكن أن يدرك علل الأحكام الواقعيّة. وإذا كان حكم العقل حكم الشارع، فإنه كذلك فيما إذا تطابق العقلاء علىٰ معنىٰ بما هم عقلاء؛ وهنا يتبع حكم الشرع حكم العقل. ومن هذا شكر المنعم، فهو واجب عقلاً، فإذا أنعم عليك أحد فالواجب عليك شكره. وهذا الأمر يحكم به العقلاء، والشارع يتبع حكمهم بوجوب شكر المنعم. وبعكسه قبح الخيانة

---

(١) قريب منه ما في تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٩٣.

(٢) انظر: كمال الدين: ٢٤٩، وذُكر البيتان في بلاغات النساء: ٩٨.

فإن الله يحرم هذا تبعاً لحكم العقل.

لكن ليس كلّ ما يحكم به العقل يحكم به الشرع. حيث إن العقل الإنساني محدود، فمثلاً عينك ترىٰ إلىٰ مسافة، وأُذنك تسمع من مسافة معيّنة، فعقلك كذلك؛ فالإنسان محدود بالزمان والمكان وبشروط أُخرىٰ، فإذا حكم الله بشيء فعليك أن تذعن دون أن تبحث عن سرّه، وعليك أن تمتثل أمر الحكيم المطلق، أمر الله عزّ وجل الذي هو بكلّ شيء محيط دون تردّد أو تروٍّ.

المبحث الثالث: الأمويّون يحلّون ما حرّم الله

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، الشهر الحرام اسم جنس للأشهر الحرم. والأشهر الحرم أربعة: واحد منها فرد وهو شهر رجب، وثلاثة منها سرد وهي ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم. وعندما نرجع إلى التاريخ سنجد كيف كان هؤلاء يحلّون الشهر الحرام؛ ذلك أننا سنرى أن حياتهم كانت قائمة علىٰ النهب والسلب والغارات؛ فالحروب التي كانت تقوم على أساس مصادرة حقوق الآخرين وحريّاتهم مثلاً تعدّ أمراً طبيعيّاً في شبه الجزيرة. لأنهم كانوا يتذرّعون بأنهم لا يستطيعون البقاء ثلاثة أشهر من غير قتال؛ فطبّقوا مفهوم (النسيء)، وهو نقل حرمة شهر المحرّم إلىٰ صفر، فيقلبون المحرم حلالاً، ويحرّمون صفر، ثم بعد غاراتهم واستقرارهم يُرجعون الحرمة إلىٰ المحرّم ويلغونها عن صفر. وقد حرّم القرآن الكريم هذا التصرّف بقوله: **﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾**[1].

---

(١) التوبة: ٣٧.

فالقرآن يقول لهم: أنتم كفرة وتجعلون أنفسكم مشرّعين قبالة الله عزّ وجلّ، وهذا الأمر زيادة في الكفر. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن بعضهم كان يحترف القتل بالغارات والسلب، والحال أن الله نهى عن ذلك مطلقاً وأكّد النهي في الأشهر الحرم التي ينبغي أن تكون مأمونة ومحفوظة من هذه التصرّفات. فهؤلاء أحلّوا الأشهر الحرم وجعلوها مباحاً فيها الفعل الحرام باختراع فكرة النسيء.

هذا مع أن مسألة الوقت مأخوذة في الحكم الشرعي، فلا يجوز لأحد أن يتجاوزها، فإن فعل كان مثله كمثل من يقول: إن صيام شهر رمضان في فصل الصيف مرهق ومتعب؛ لارتفاع حرارة الجو وطول النهار، فلأُفطر الآن وسأصوم في كانون الثاني؛ حيث إن الجوّ حينها سيكون بارداً، فيفطر شهر رمضان عمداً، لكنه سيكون آثماً؛ لأنه نقض فرضاً مأخوذاً فيه الوقت.

وعليه فليس من حقّ هؤلاء أن ينقلوا حرمة شهر المحرم إلىٰ غيره: ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، بل عليهم أن يحترموا هذا الشهر.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن بعض القبائل العربية كانت تتقيّد بحرمة الأشهر الحرم وتلتزم بهذاالجانب الأخلاقي والجنائي فيها؛ مراعاة للوضع الاجتماعي، ولتقليص تكرّر سفك الدماء، حتىٰ تبرد الضغينة والثأر. ثم إن سفك الدم ليس وراءه إلّا سفك الدم، وإن الحروب لا تجرّ خلفها سوى المآسي المتراكمة. فكان هؤلاء يراجعون عقولهم لإطفاء النائرة وتبريد الأحقاد والضغائن، وقد يلجؤون إلىٰ الصلح ويحلّون مشاكلهم عبره.

الحكمة من الدية في الفقه الجنائي

وهذا المعنى قد راعاه الفقهاء في الفقه الجنائي؛ حيث إنه يعطي لولي المقتول إذا لم يستخدم القصاص حقّ أخذ الدية؛ لأنه ما دام الأمر قد وقع، وأن المقتول قد

مضى فيه أمر الله تعالى فلا داعي حينئذٍ لسفك دم ثانٍ. أمّا قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1] ففيما إذا لم تظهر آثار الندم عند القاتل، لكن معها تؤخذ منه الدية ويترك عقابه إلىٰ الله عزّ وجلّ. فولي الدم يملك هذا الحقّ.

إن الإسلام أمضى كثيراً من الأشياء التي كانت معروفة على أيّام الجاهلية، ولم يبعدها كلّها، وقد أقرّ هذه الأشياء لأنها تقوم علىٰ مـلاكـات صـحيحة؛ فـبعض بيوتات العرب كانت تحرّم الخمرة، فأقرّ الإسلام هذا التحريم، وكان عندهم نظام دفع الديات؛ فإذا قُتل أحد أُخذت الدية لوليّه من الأبل أو الأموال وأقر الإسلام هذا أيضاً. فهناك جملة من الأحكام التي كانت سائدة على أيّام الجاهلية وأقرّها الإسلام لما فيها من ملاكات عقلائيّة أو صحيحة.

وهذا بحدّ ذاته اعتراف من المشرع بقيمة العقل الانساني، وفيه ردّ على بعض الكتّاب الذين يقولون: إن الدين الإسلامي يلغي العقول. كلّا إن الإسلام يـحترم العقل، ولكنه لا يعطيه أكثر من حجمه؛ لأن الله خالق العقل، وقد تعبّدنا بالعقل، وجعله ملاك الأحكام ومناط التكاليف.

وعليه فإنه يجب أن يكون الشهر الحرام محترماً، دخل على الإمام الرضا﵇ أحد أصحابه في مثل هذه الأيام، فالتفت﵇ إليه وقال له: «**ان المحرم شهر كان أهل الجاهلية يحرمون فيه القتال، فاستحلت فيه دماؤنا، وهتكت فـيه حـرمتنا، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا، وأُضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فـيها مـن ثقلنا، ولم ترعَ لرسول الله حرمة في أمرنا**».

فهؤلاء الذين يدّعون الإسلام لم يتّبعوا ميراثهم الاجتماعي الذي ورثوه مـن

---

(١) البقرة: ١٧٩.

آبائهم العرب، ولم يرجعوا إلىٰ نفوسهم وإلىٰ أحكام الشرع؛ لأن شكر المنعم واجب عقلاً، والنبي ﷺ قد أنعم عليهم، فقد كانوا كفرة وأصبحوا مسلمين، وكانوا فقراء يأكلون القدّ، ثم أصبحوا بفضله ﷺ يتناولون ألذّ أنواع الطعام. وبه ﷺ وضعت العروش تحت أرجلهم. فما كان جزاؤه ﷺ؟ إنهم بدلاً من أن يلحظوا نعمته عليهم ويشكروه، أبكوه في ذرّيّته ﷺ.

ثم قال الإمام عليه السلام: **«إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذلّ عزيزنا، وأورثنا البلاء إلىٰ يوم الانقضاء. فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون، وليندب النادبون، فإن البكاء يحطّ الذنوب العظام»**.

ثم عقّب الإمام عليه السلام بعد ذلك بقوله: **«كان أبي (صلوات الله عليه) إذا دخل شهر المحرم لا يُرى ضاحكاً، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: هو اليوم الذي قتل فيه الحسين (صلوات الله عليه)...»**[١].

ذلك أن الواقعة تعيش في ذهنه، والمحرم يعيش في أعماقه، وفعلاً شهر المحرم يعيش في نفس كل من له صلة برسول الله ﷺ.

كيف نتفاعل مع المحرّم؟

فما الذي ينبغي أن يكون لدينا في هذا الشهر من التفاعل والتأثّر؟ إن هذا الشهر يرفع لنا شيئين يجب اغتنامهما:

أولاً: أنه يرفع دماء أبي الأحرار عليه السلام

فهذا الشهر يرفع لنا دماء الإمام الحسين عليه السلام. تقول الرواية: **«إذا هلّ هلال**

---

(١) الأمالي (الصدوق) ٢: ١٩٠ ـ ١٩١ / ١٩٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

المحرم نشرت الملائكة قميص الحسين عليه السلام وهو مخضّب بالدم »، يقول الإمام: **« نحن وشيعتنا نراه بـالبصيرة لا بـالبصر، فـتجري لذلك دمـوعنا »**. حـيث إنـنا نسمع من وراء ذلك الدم، **« والله لا أُعـطيكم بـيدي إعـطاء الذليـل ولا أفـرّ فـرار العبيد »**[١].

فهذا الشهر يوحي إلينا التسليم بقضاء الله وقدره، لأننا نرى ببصائرنا الإمـام الحسين عليه السلام يقول: **«لك العتبىٰ ياربّ، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، لا معبود سواك، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»**[٢]. ولذا فإن علينا ألّا نضيع دمه الشريف الذي أراقه من أجل الإسلام وأجلنا.

ثانياً: أنه يجسّد لنا المثل

فإذا مرّ بنا هذا الشهر تجسّد لنا الإمام الحسين عليه السلام، بما جسّد من المثل والصبر والبطولة، يقول عبد الله بن عمّار: واللّه لقد رأيت الحسين عليه السلام يوم العـاشر، فـما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال تشدّ عـليه فـيشدّ عليها، فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مـركزه فيتّكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: **« لا حول ولا قوة إلّا بالله »**[٣].

ثالثاً: أنه يجسّد الارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله

وكذلك معاني الارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله والوفاء له؛ حيث إننا نواسي رسول

---

(١) شرح الأخبار ١٤٤: ١٤٤، مثير الأحزان: ٢٧، تـاريخ الطـبري ٤: ٢٥٣، شـرح نـهج البلاغة ٣: ٣٤٨، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٤.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المـقرّم): ٣٥٧، يـنابيع المـودّة ٣: ٨٣.

(٣) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

الله ﷺ بأبنائه وبواقعة الطفّ.

كما أن المحرم يحمل لنا الحزن واللوعة والألم، ويظلّ الطفّ ماثلاً أمام أعيننا، وتبقى كربلاء تعيش في نفوسنا وتشدّنا إلىٰ الإمام الحسين عليه السلام شدّاً. كلّ ذلك يعكسه لنا المحرم، فينبغي علينا ألّا نهدره، وكان هذا المعنى ينعكس علىٰ أهل بيته، وبالخصوص أُخته زينب، فكلّ أوّل يوم من المحرّم كانت تعيش الآلام والأحزان، وتدور من بيت إلىٰ بيت، ومن أُسرة إلىٰ أُسرة:

يابه ما بعيني دمع واسجيك   بنفسي يبو السجّاد اداويك



﴿١٤٢﴾

عدالة الصحابة بين العقل والعاطفة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: منهجنا العلمي في تقييم الصحابة

هذه الآية الكريمة فيها مضامين عدّة، وهي ترتبط بموضوع مهمّ من مواضيع الساحة الإسلاميّة، وهو موضوع يرتبط بمشاعر كل مسلم؛ لأنه يتعلّق بالواسطة بيننا وبين المصدر الثاني من مصادر التشريع، بل بين المصدرين المهمين: الكتاب والسنّة. وأعني به موضوع عدالة الصحابة، الذي يحتاج إلى كثير من التجلية؛ لكثرة ما قيل فيه ووضع من التقوّلات والادّعاءات التي لا نصيب لها من الصحة. ومن يحرص على أن ينظّف الساحة الإسلامية ويكتسح ما بها من ألغام، فعليه أن يعطي هذا الموضوع حقّه من البحث؛ ليزيل عنه الكثير من الغبار والشبهات العالقة

(١) الفتح: ١٨.

به، والمتغلغلة في أدمغة الناس.

وقبل كل شيء لابدّ من أن ننوّه إلى أننا لن نأنف من أن نتبرك بتراب أقدام الصحابة الطاهرين الأبرار الأوفياء الذين حملوا الكتاب والسنّة، وامتلأت قلوبهم إيماناً ورحمة[١]. وإذا كان هناك تخبّط حاصل حول نِقاط معيّنة ساخنة، أو حول شراذم معيّنة، فإننا نتّبع معهم أُسلوب القرآن الكريم في تحديد مفهومي التزكية والعدالة. ومن يملك أدنى مقدار من الإدراك والسعة والاطّلاع على العلوم الإسلامية وطلب الحقيقة فإنه سيجد أن علماء الدراية عندنا وحتى كتّابنا لا يخرجون في هذا الموضوع عن إطار منهج القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة. وهذا ما نجده واضحاً بيّناً في الكتب المعتبرة الموثوقة عندنا في تقييم الصحابة، وسوف نمر بهذا المعنى في هذا المبحث، وما يليه من مباحث إن شاء الله تعالىٰ.

في سبب نزول الآية الكريمة

نزلت هذه الآية الكريمة في واقعة الحديبية، وكانت هذه الواقعة سنة ست من الهجرة المشرّفة؛ إذ خرج النبي الأعظم ﷺ ومعه (١٤٠٠) صحابي، فلما وصل إلى الحديبية ظنّت قريش أنه ﷺ خرج لقتالهم، في حين أن الأمر لم يكن كذلك، فالنبي ﷺ أرسل يخبرهم بأنه لم يجئ مقاتلاً، وإنما جاء معتمراً وأصحابه، وليجدّد العهد بالبيت ويعظّموه، ولينحروا الهدي عنده ويرجعوا. لكن قريشاً صدّوه، وقالوا له: لا تبرح المكان الذي نزلت فيه. ثم حشدوا جيشهم، وجعلوا خالد بن الوليد قائداً عليه، ورابطوا هناك استعداداً لما يطرأ.

وتوالت بينهم الرسل، فهناك من عزّ عليه أن تُسفك الدماء، فقام بدور الوسيط

---

(١) كسلمان المحمّدي وأبي ذرّ والمقداد وحبر الأُمّة وغيرهم من أمثالهم.

لحسم الأمر، وكان أحد الوسطاء بين الطرفين عروة بن مسعود الثقفي جدّ علي الأكبر لأُمّه. وكان آنذاك لم يُسلم بعدُ، فهو قد أسلم سنة (٩) هـ. وكان في تلك الأيام مع قريش، لكنه كان من العقلاء الناضجين ذوي المكانة في قريش. فجاء إلى النبي ﷺ وقال له: علام هذا الجمع؟ فبيّن له النبي ﷺ أنهم لم يأتوا لحرب ولا لقتال، وإنما جاؤوا زائرين لهذا البيت الحرام، ولينحروا الهدي ويرجعوا.

فعاد عروة إلى قريش وأخبرهم بقول النبي ﷺ، فقالوا له: ماذا رأيت هناك؟ قال: والله لقد وفدت إلى الملوك ووفدت إلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه كما يعظّم أصحاب محمد محمداً. ووالله إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ اقتتلوا على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر؛ تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها وأجمعوا أمركم [١].

ولأن عثمان بن عفّان كان قريباً لأبي سفيان، فقد بعث به رسولنا الأكرم ﷺ إلى قريش ليرى رأيهم فيما قاله لعروة، فاحتبسته قريش وانقطع خبره، وبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: **«لا نبرح حتى نناجز القوم»**. ودعا ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فنزل قوله تعالىٰ: **﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾**، فسميت «بيعة الرضوان»؛ لما حصل فيها من رضا الله تعالى على المؤمنين، و«بيعة الشجرة»؛ لوقوعها تحت الشجرة [٢].

---

(١) صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

فلما رأت قريش إصراره على هذا الأمر خضعوا له وقالوا: نصالحك على أن ترجع هذه السنة، وتعود في السنة الآتية وتدخل إلى مكّة، ولك فيها ثلاثة أيام، تسعى وتطوف وتعتمر ثم ترجع. فقال النبي ﷺ لأمير المؤمنين: **«هلم اكتب بيننا هذا»**. فأتى بورقة وكتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. فقالوا له: لا تكتب هذا، بل اكتب: باسمك اللهم. فقال له النبي ﷺ: **«اكتبها كما يريدون»**. ثم كتب عليه السلام: **«هذا ما تعاهد عليه رسول الله محمد بن عبد الله...»**. فقاطعه سهيل قائلاً: مهلاً، لو كنّا نعرف أنك رسول الله لأطعناك ولما خرجنا لقتالك، اكتب: «محمد بن عبد الله».

فطلب الرسول الأكرم ﷺ من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكتب ذلك فتلكّأ عليه السلام في ذلك؛ حيث إنه (صلوات الله وسلامه عليه) لم تطاوعه نفسه الشريفة أن يمحو صفة الرسالة عن النبي الأكرم ﷺ ويكتب اسمه فقط، يقول عليه السلام: **«فقلت[1]: هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، لا والله لا أمحوها. فقال ﷺ لي: أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»**[2].

وفعلاً مرّ أمير المؤمنين عليه السلام بهذه التجربة نفسها، وذلك في واقعة الحكمين في

---

(١) مخاطباً سهيل بن عمرو.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥ ـ ٣٦٦، سنن النسائي ٥: ١٦٧ / ٨٥٧٦، تفسير القرآن العظيم ٤: ٢٠٠، صحيح ابن حبّان ١١: ٢١٩ ـ ٢٢٢. وقد مرّ في ج٢ ص ٢١٠ ـ ٢١١ / الهامش: ٢ من كتابنا هذا تفسير ابن حجر رفض أمير المؤمنين عليه السلام محو كلمة رسول الله مع أمر الرسول ﷺ إيّاه بذلك بقوله: وكأن علياً فهم أن أمره له بذلك ليس متحتّماً، فلذلك امتنع من امتثاله.

وكذلك فسّر قول رسول الله ﷺ: «أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»، بقوله: يشير ﷺ إلى ما وقع لعلي يوم الحكمين، فكان كذلك. فتح الباري ٧: ٣٨٦.

صفّين، فقد أجبره عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري وأشباههم على ذلك[١].

والتاريخ يحدّثنا أن معاوية قد حاول الفرار وتهيّأ له، فجاء إليه من أمسك ركابه قائلاً: إلى أين، وقد قتل عشرات الآلاف من أجلك؟ يقول معاوية: فتذكّرت عند ذاك أبيات ابن الإطنابة:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي	**وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ**
وإقدامي على المكروه نفسي	**وضربي هامةَ البطل المشيحِ**
وقولي كلّما جشأت وجاشت	**مكانك تحمدي أو تستريحي**[٢]

ثم قال معاوية لعمرو بن العاص: ما في مخبأتك؟ قال: مرهم فليرفعوا المصاحف. فلمّا رفعوها تغيّر الأمر.

فكان النبي ﷺ يذكّر الإمام عليه السلام في الحديبية بقوله: **«أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطرّ»**.

وهكذا وقّع النبي الأكرم ﷺ على الوثيقة، وحلّ وأصحابه من إحرامهم، ونحروا وحلقوا ورجعوا. ثم انتظروا إلى السنة القابلة، فذهبوا إلى مكّة، وبقوا فيها ثلاثة أيام، ودخلوا الكعبة وهم يهلّلون ويكبّرون. وهذا هو السبب في نزول هذه الآية.

والمهم في القصّة أن النبي ﷺ لما أصرّ على القتال رضخ المشركون، وطلبوا الهدنة، وقال الصحابة للنبي ﷺ: نبايعك على القتال والموت. وكان النبي تحت شجرة فبايعوه فنزلت الآية. فكان الناس يقولون: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت.

---

(١) انظر ذلك مفصّلاً في ج ٢ ص ٢١٠ ـ ٢١١ / الهامش: ٢ من كتابنا هذا.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٩، ١٨: ٢٠٣، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، تفسير الثعلبي ٤: ٥٢.

المبحث الثاني: مناسبة الحكم والموضوع

تقول الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولدينا هنا ما يسمىٰ: الحكم والموضوع، فلكلّ موضوع حكم يرتبط به. وهذا الارتباط تارة يكون على أساس أن الموضوع صفة له، وأُخرى لا يكون كذلك. ولتقريب المعنى سنعوم في أجواء هذا المقطع من الآية الكريمة، فالرضا في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حكم موضوعه المؤمنون. والمؤمن هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه الإيمان. وهذا مثله مثل النجّار الذي هو عبارة عن إنسان مضافاً إليه مهنة النجارة أومهارة النجارة.

وهنا نلاحظ أن الرجل موصوف، وأن الإيمان صفة زائدة عنه. وعليه فإن الله تعالى عندما يقول: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي رضي عمّن بايعك من الصحابة المتّصفين بصفة الإيمان والاعتقاد، والتفاني في طاعة الله. وهذا اللون من الصحابة ـ بلا شك ـ منارة هدى لنا، وطريقنا إلى القرآن والسنّة النبوية الشريفة، وهم مجدنا، ونحن بهذا اللحاظ نقدّسهم ونحترمهم.

لكن عندما يُنزل القرآن سورة كاملة باسم سورة (المنافقون)، وعندما ينزل في القرآن: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[1]، كما يعطي صفات متعدّدة في القرآن تحدّد جماعة خاصّة، منها أنهم لم يتّصفوا بصفات الصحبة ولو أنهم عاصروا النبي الكريم ﷺ، فكيف يمكن أن يكون الموقف من الصحبة والصحابة؟

---

(١) التوبة: ١٠١.

إننا نقرأ في (صحيح البخاري) [١] و(صحيح مسلم) [٢] والصحاح الأُخرى [٣] أن النبي الأكرمﷺ يقول: **«ألا وإنه يجاء برجال من أُمّتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يا ربّ، أُصيحابي. فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾** [٤]. **فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم».**

وهذا كما يرى القارئ ليس من كتب الشيعة، بل هو من كتب السنة، ومن أراد المزيد فليرجع فقط إلى روايات الحوض في الصحيحين، وأنا على استعداد لأن أعطيه عشرات المصادر حول هذا الموضوع. فهو موضوع حسّاس جداً، لكنني لا أُريد أن أضع يدي على جراحنا فتؤلمنا، غير أني آمل أن يكون المسلم واعياً، وأن نفكّر جميعاً بعقولنا لا بآذاننا.

إن القرآن ينزل آيات فيمن اتّصف بصفة الصحبة، ومفهوم الصحبة عند إخواننا السنّة ينطبق على كل من يرى النبيﷺ ولو لساعة واحدة، فمن رأى النبي الأكرمﷺ كذلك أصبح ممّن لا يمكن أن يتطرّق إليه الريب أو النقد. وهذا كلام بعيد عن دائرة المسؤوليّة، ولا يمكن أن نعيره اهتماماً؛ لأنه ليس كلام من يحترم عقله. فالله تعالى أعطانا المقاييس وأمرنا أن نتّبعها. والنبيﷺ نفسه أشار إلى أن الناس فيهم الصالح وفيهم الطالح، وليست هناك ميزة استثنائيّة إلّا للمعصوم، أمّا

---

(١) صحيح البخاري ٥: ١٩١ ـ ١٩٢، ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٧: ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٨: ٨٧.

(٢) صحيح مسلم ١: ١٥٠، ٧: ٦٧، ٦٨، ٨: ١٥٧.

(٣) انظر: مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، سنن ابن ماجة ٢: ١٠١٦ / ٣٠٥٧، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٣٨ ـ ٣٩ / ٢٥٣٩، ٥: ٤ / ٣٢١٥، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥.

(٤) المائدة: ١١٧.

غيره فيمكن أن يخطئ ويمكن أن يصيب. وكل ما في الأمر أننا إذا مررنا بأحدهم فالواجب يقتضي حينئذٍ أن نقيّمه أولاً، لا أن نشتمه أو نسبّه حتى يتبين أنه أهل لذلك.

والتقييم الذي نعنيه هنا هو التقييم الموضوعي، وهو أن يُذكر للصحابي ما له وما عليه من الفضائل والإنجازات والمقام المحترم، أو الأخطاء التي ارتكبها والانحراف الذي أصابه، أمّا الشتم فلا، فهو غير وارد في قاموس النقد الموضوعي. وليس الشتم من شأننا، والذي يشتم غيرنا لا نحن، لأن السباب والشتم يؤذيان مشاعر كلّ مسلم. ونحن نتقرب إلى الله بحبّ الصحابي الذي تنطبق عليه صفات الصحبة، وهذه كتبنا بين أيدي الجميع. أما إذا قيّمنا فإننا إذا رأينا في البين انحرافاً، فحتماً سنقول: إن هناك انحرافاً يترتب عليه جزاء.

وهذا ليس بعيداً عن القرآن الكريم؛ ذلك أنه مدح أقواماً بقوله: **﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[1] وذمّ آخرين بقوله: **﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**[2] وهذا هو منهج القرآن: فـ **﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾**[3]، و **﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾**[4].

وهذه هي المقاييس التي يجب أن نتّبعها، أمّا الشتم فقد جاء من غيرنا، ومن

---

(١) التوبة: ٩٩.

(٢) التوبة: ٩٧، وقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة: ٩٨.

(٣) الشورى: ٧. (٤) الحشر: ٢٠.

هذا مثلاً ما يرويه المؤرّخون من أنه كان في أيام هشام بن عبد الملك رجل يدعى جنيد بن عبد الرحمن من أهل حرّان، وهو من الرجال المحترمين المرموقين، والرؤساء المعروفين، وكان الأُمويّون يحترمونه، وكانت له حصّة من العطاء من بيت المال يأخذها كلّ سنة. يروي جنيد نفسه فيقول: كنت في طريقي إلى الشام يوماً لأستلم عطائي، وكان دخولي يوم جمعة، فدخلت إلى مسجد احتشد فيه الناس ليصلّوا الجمعة، فلمّا فرغت من الصلاة صعد الخطيب المنبر، ووعظ فاتّعظنا، وذكّر فتذكّرنا، ونصح فانتصحنا. ثم لمّا أراد الختام قال: دعونا نختم صلاتنا وموعظتنا بشتم أبي تراب.

فراحوا يشتمون علياً شتماً ذريعاً، فلما فرغوا سألت أحدهم: من أبو تراب هذا؟ فقال: إنه علي بن أبي طالب. قلت: زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قلت: أبو الحسن والحسين عليهما السلام؟ قال: نعم. قلت: أول القوم إسلاماً؟ قال: نعم. قلت: أهو صاحب السيف المقاتل الذي ذبّ عن الإسلام، ثم استشهد في سبيل مبدئه؟ قال: نعم. قلت: فما المبرّر لشتمه إذن؟

ثم قمت إلى الخطيب فأمسكته من وفرة شعره، وجعلت أضرب برأسه الجدار حتى أدميته، فصاح: خذوني إلى الخليفة. فأخذنا الجلاوزة، فلما وقع بصر هشام عليّ قال: مرحباً بك أبا عبد الرحمن، متى قدمت؟ قلت: أمس. قال: ما الخبر؟ فأخبرته الخبر وقلت: لو أنني سمعت من يشتم صهرك وابن عمّك وأبا سبطيك لما تركته، وهذا يشتم صهر رسول الله ﷺ. فقال هشام: صدقت يا أبا عبد الرحمن، وعليك ألّا تتأخّر، خذ عطاءك واذهب إلى أهلك.

لقد أحسّ هشام أن هذا الرجل يشكّل عنصر خطر عليه، وهذا هو شأن الكثير من الدول الآن، إذ أنها تعتبر الإنسان الواعي خطراً عليها.

وقد جعل الأُمويّون هذا الأمر سنّة شاب الصغير وهرم الكبير عليها، حتى إنها وصلت إلى الصلاة، وكان معاوية يقنت في الصلاة ويشتم أمير المؤمنين عليه السلام، ويتقرّب إليه البعض فيقول: وأزيدكم حسناً وحسيناً، ثم يأتي عمرو بن العاص فيقول: وأزيدكم أُمّهما فاطمة. والمسألة معروفة، فالأمد الذي شتم فيه علي عليه السلام على المنبر ثمانون عاماً. بل إن البعض كان يشتمه وهو في حياته، وكان بوسع الإمام عليه السلام أن ينتقم منه، لكنه على العكس من ذلك كان لا يبخسه في عطائه. يقول أحد الأُدباء:

سيّدي كلّما تلبّد أُفق ... وتمادى بعسفه الديجورُ

وتمادت صحائف خطّ منها ... قلم الحقد والهوى والزورُ

لاح بالأفق من رؤاك جبين ... بعض أوصافه السنا والعبيرُ

الجبين الذي أحاطوه شتماً ... وإلى الآن بالجيوب الكثيرُ

فحباهم طيباً وعفواً كما يفـ ... ـعل إن زجّ في اللهيب البخورُ

وتمهل أبا تراب فدون الـ ... ـشتم من حولك الفضائل سورُ

إن أشادت بك السما وأفاضت ... أي ضير لو سبّك المسعورُ

ويقول آخر:

وما مِدحتي تُوليك فخراً وإنما ... أردّ بإطرائي عليك الطّواريا

إذا الملأ الأعلى تحدّرَ بالثّنا ... عليك فما شأني وشأن ثنائيا[1]

---

(١) الأبيات للشيخ حميد السماوي. علي في الكتاب والسنّة والأدب ٥: ١٤٩. وقد عوتب المتنبي في ترك ذكر المناقب فقال:

وتركت مدحي للوصي تعمداً ... إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا

وإذا استطال الشيء قام بذاته ... وكذا صفات الشمس تذهب باطلا

نهج الإيمان: ٦٦٩.

المبحث الثالث: فرى القوم على الشيعة

وقد كان هذا المنهج من شتم عليﷺ وأهل بيتهﷺ هو السائد عند الأُمويّين. وليس هذا فحسب، وإنما عمدوا على أيـدي صـنائعهم ووعّـاظهم إلى تـزييف وتكذيب كلّ منقبة له، ومحوها من الوجود. وإلى الآن لم تنتهِ آثار هذه المسألة، فعندما تدخل إلى مكتبة لتقرأ التفسير أو التاريخ أو الحديث، فستجد ركاماً هائلاً من الشتائم في قواميس الكثيرين الذين لا يتركون كلمة نابية أو جارحة أو فيها سباب إلّا ويقذفون بها من يوالي علياًﷺ.

فرى ابن تيمية

الأولى: أن كتب الصحاح لم تنقل عن راوٍ منهم

وكمثال على هذا أنقل لك ما ينقله ابن تيمية عنا حيث يقول: «ليس في فرق الأُمة فرقة أكثر كذباً واختلافاً من الرافضة، فهم أكذب الناس؛ ولذا لم تروِ كتب الصحاح عنهم رواية واحدة»[1].

هذا مع ملاحظة أن الكذب عندنا يفطر الصائم إذا كان كذباً عـلى الله تـعالى ورسولهﷺ، لكن لنرَ من من هو الكاذب منّا، وهل صحيح أن كتب الصحاح لم تروِ عن الشيعة؟ كلا، إن العشرات من روات هذه الكتب من الشيعة.

ومن أراد المزيد فليرجع إلى (الفصول المهمّة) لعبد الحسـين شـرف الديـن، والجزء الثالث من (الغدير).

والذي تحت يدي الآن منهم (٩١) راوياً، أما المصادر الأُخرى فتروي أنهم أكثر من هذا. فهل تبيّن من الكاذب الآن؟

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥: ١٨٤.

الثانية: تمثيل عائشة بالشاة

وكمثال آخر على الكذب على الآخرين ما يدّعيه ابن تيمية أيضاً حيث يقول: «إن الرافضة يمسكون نعجة ويطعنونها، ويقولون عنها: هذه أمّ المؤمنين عائشة»[١].

إننا ـ الشيعة ـ والحمد لله نعرف أنفسنا، فهل رأى أحدكم هذا المنظر يوماً من الأيام؟ وأين يوجد هذا الكلام؟ إنه موجود في كتب شيخ الإسلام ومخيّلته.

الثالثة: كراهة الرقم عشرة

ويقول أيضاً: «إن الشيعة يكرهون العدد عشرة، ولا يذكرون رواية فيها هذا العدد؛ لأنهم يكرهون العشرة المبشّرة إلّا علي بن أبي طالب»[٢]. ورحم الله الشيخ الأميني الذي تتبّع عشرات الروايات فيها العدد عشرة[٣].

فرى أخرى

وليس هذا فحسب، فلو نظرنا في كتاب (الفصل في الملل والنحل) لابن حزم لرأيت الغرائب، وكذلك الشهرستاني في مؤلفاته، والقصيمي في (الصراع بين الوثنية والإسلام)، وابن عبد ربّه الأندلسي في العقد الفريد، وغيرهم[٤]، فإن القارئ لا يجد فيها إلّا الافتراءات والكذب على الشيعة، ثم يقولون بعد ذلك: إن الصحاح لم ترو عن الشيعة؛ لأنهم يكذبون.

إن هؤلاء يروون في صحاحهم عن خالد بن مسلم المخزومي الكوفي الذي كان من المرجئة، وكان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب﵇. ويروون عن

---

(١) منهاج السنّة النبويّة ٤: ١٧٦ ـ ١٧٧. (٢) منهاج السنّة النبويّة ٤: ١٧٦.

(٣) الغدير ٣: ١٤٨ ـ ١٥٠، وانظر الخصال: ٤٢٥ ـ ٤٥٤ / باب العشرة.

(٤) انظر كل ذلك مفصّلاً في المجلّد الثالث من الغدير.

عمران بن حطّان الذي يقول في عبد الرحمن بن ملجم:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا[1]

بالله عليك، لو كان عمران بن حطان يمدح أبا لؤلؤة قاتل الخليفة عمر، فهل كان البخاري يروي عنه[2]؟ فلم هذا اللون من التعامل مع أمير المؤمنين عليه السلام، وهو على أقل التقادير خليفة من خلفاء المسلمين؟

إن من الضروري أن نقوم بتسليط الأضوء الكاشفة على هذا الركام في تأريخنا وعلى ما يلفّه من زيف، وإلّا فإلى متى نبقى هكذا؛ الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون؟ ولمصلحة من هذه التركة السوداء الثقيلة والعبء القاتل في تأريخنا؟ وما ذنب من ينشأ على كلمة «لا إله إلّا الله» ليلغم فكره بمثل هذا؟ فإن أردنا أن نصفّي أفكارنا ونغربلها، فعلينا أن نزيح هذا الركام من الفرى والاختلاق، وأن يعاد النظر في هذه الكتب التي تقف عقبة في طريق المسلمين، وهو أمر ضروري جدّاً ولا بدّ منه.

---

(١) تاريخ الإسلام ١: ٧١٠، الاستيعاب ١: ٣٤٨، الإصابة ٥: ٣٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٣٨٠، ٤٣: ٤٩٥، المواقف ٣: ٦٩٨، الحور العين: ٢٠١.

(٢) فقد روى عن عمران هذا، انظر صحيح البخاري ٧: ٤٥. وهو إنما يسبّ رجلاً يقول فيه رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق». مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨. ويقول فيه: «حربك حربي، وسلمك سلمي». شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وأحاديث كثيرة غيرها بهذا المعنى، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤، ويقول أيضاً: «من أحبّك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام». مسند أبي يعلىٰ ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقد نقل عن البوصيري قوله: رواته ثقات.

يروي الإمام الحسين عن جده رسول الله ﷺ قـوله: «**الزمـوا مـودّتنا أهـل البيت؛ فإنه من لقي الله عزّ وجلّ وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا. والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقّنا**»[1].

وهذا الرواية مروية في كتب السنة أيضاً، وبإمكان القارئ أن يراها في كتاب (الصواعق المحرقة)، وغيره[2] من الكتب.

ويقول النبي ﷺ في أمير المؤمنين ﷺ: «**لا يجوز أحد على الصراط إلّا مـن كتب له علي الجواز**»[3].

وإن كان الأمر كذلك، فهل يسعنا إلّا أن نفضّل من تنزل فيه هـذه الروايـات والأخبار والآيات؟ وكيف لا نرتّب على قول النبي ﷺ آثاراً؟

إذن فالذي يشتم غيرنا، وإلى الآن ما يزال الشتم يصيبنا منهم، وكلّ من ألّف كتاباً منهم لا يسعه أحياناً إلّا أن يفتتحه بشتمنا والافتراء علينا، ولا يقدر إلّا أن يبهتنا، فلم كلّ هذا؟

وعليه فإن الحكم في الآية الكريمة ترتّب على قـيد هـو الإيـمان، فـيكون الوصف علّة له. فالصحابة المتّصفون بهذا الوصف هم موضع احترامنا وتـقديرنا وتقديسنا، وأما إذا كان الأمر على غـير ذلك، فـإن النـبي يـقول: «**لو عـصيت لهويت**»[4].

المبحث الرابع: صفة صحابة الإمام الحسين ﷺ على ضوء الآية

ثم قالت الآية: ﴿**فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾،

---

(١) الأمالي (المفيد): ١٣٩ ـ ١٤٠ / ٤. (٢) المعجم الأوسط ٢: ٣٦٠.

(٣) جواهر المطالب ١: ١٨، ١٠١، ينابيع المودّة ٢: ١٦٣، ٤٠٤.

(٤) الإرشاد ١: ١٨٧، شرح نهج البلاغة ١٠: ١٨٤.

فما المقصود بالفتح؟ يروى أن عمر قام للنبي ﷺ حينما نزلت هذه الآية، فقال له: أهو فتح يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: **«نعم»**[١]، أي أن هذا الصلح الذي حصل بينه ﷺ وبين قريش هو فتح.

ونفهم من هذا أن النبي ﷺ يقول: إن وصولنا إلى أهدافنا هو الفتح؛ فالإنسان عندما يحقّق هدفه يكون قد فتح عليه. والإسلام لا يحبّ سفك الدماء، وعندما يقرّر الجهاد فإنه إنما ألجأته إليه الظروف؛ لأنه يريد أن يهيّئ أرضيّة صالحة؛ ليمرّ عبرها الدين الإسلامي. وعقيدة الإسلام تعني الرفاهية والحرية والخير والعطاء، ومن يقف في وجه ذلك فلابدّ من إزاحته من طريق سعادة الناس. يقول النبي ﷺ: **«لا تتمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، وإذا لقيتموهم فاثبتوا واصبروا»**[٢].

ومن مجمل هذه الصفة من الصحبة علم الله تعالى ما في قلوبهم، وكان الجزاء أن أنزل السكينة عليهم، فكانوا مستعدّين لملاقاة الموت بنفس مطمئنة. وهذه هي صفة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام. وأودّ أن أُلفت النظر إلى أن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام فيهم مجموعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، وقد قتلوا معه يوم الطف، أمّا الباقون فكانوا حملة القرآن والعلم والأخلاق. ومن يرد الاطّلاع أكثر فعليه بمراجعة سيرة عابس بن أبي شبيب الشاكري، وبنو شاكر بطن من همدان التي يقول فيها أمير المؤمنين عليه السلام:

جَزَىٰ اللهُ همْدانَ الجِنانِ فإنهم ... سمام العدىٰ في كلّ يوم خصامِ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤: ٥٦.

(٢) صحيح البخاري ٤: ٩، ٨: ١٣٠، صحيح مسلم ٥: ١٤٣، سنن الدارمي ٢: ٢١٦، سنن أبي داود ١: ٥٩٢.

لهـمْدانَ أخـلاقٌ وديـنٌ يـزينُهُمْ ... وليـنٌ إذا لاقـوا وحسـنُ كـلامِ
متى تأتِهِمْ في دارِهِـمْ لضـيافةٍ ... تبِتْ عندهُمْ في غـبطةٍ وطـعامِ
ولو كنتُ بوّاباً على بـابِ جـنّةٍ ... لقلت لهمدانَ ادخُلوا بِسـلامِ[1]

ويقول عنهم يوم صفين: «**لو تمّت عدتهم ألفاً لعُبد الله حقّ عبادته**»[2]. وكانوا من حملة السنة والقرآن وشرف الجهاد. فعابس هذا كان منهم، وكان بـالكوفة، فلمّا دخل مسلم بن عقيل﵇ الكوفة كان ممّن يتردّد عليه، وممّن قام بالبيعة له، ودعا الناس إلى بيعته، وممن موّن الحملة واشترى السلاح. وكان قد قام خطيباً بعد أن أعلن مسلم﵇ دعوته عند دخوله، وقرأ على الناس كتاب أبي عبد الله﵇، فقال: أنا لا أُخبرك عمّا في قلوب الناس، ولكني أُخبرك عمّا في نفسي، والله أنا أُقاتل دونك وأُجيب دعوتك، حتى ألقى الله، ولا أُريد بذلك إلّا وجهه.

لكن الظروف ألجأت مسلماً﵇ إلى أن يخرج قبل موعد الحركة، وكان عابس لا يزال خارج الكوفة، فلمّا عاد ودخلها وجد الأمر قد استتبّ لعبيد الله، فلحق بالحسين﵇، وخرج معه شوذب مولاه. يقول بعضهم: كان شوذب أفـضل مـن عابس، لأنه كما نقل السماوي في (إبصار العين) كان أفضل علماً وأكثر حـملاً للـقرآن، وكـان يـجلس للشـيعة فـيأتونه للـحديث الذي أخـذه عـن أمـير المؤمنين﵇[3].

وكان يوم الطف يحمل سيفه على عاتقه ويتبع سيّده عابساً الذي كان شـديد الولاء لآل النبي ﷺ. يقول تميم بن ربيعة ـ وكان صديق عابس ـ: رأيته نازلاً إلى الحرب وهو ينادي: ألا رجل ينازلني؟ ألا من مقاتل؟ فلم يقترب منه أحد.

---

(١) ديوان الإمام علي ٧: ٨٧ ـ ٨٨، شرح نهج البلاغة ٥: ٢١٧، ٨: ٧٨.
(٢) الجوهرة: ٢٥، إبصار العين: ١٢٧. (٣) إبصار العين: ١٢٧.

فلما تحاشاه الناس؛ خوفاً منه، أمرهم ابن سعد أن يرضخوه بالحجارة، فلمّا رأى الأمر كذلك ألقى درعه وبزّته ونزل حاسراً إلى الحرب، فناديته: أجننت يا عابس؟ قال: ويحك، إن حبّ الحسين أجنّني. ورأيته يطرد أمامه أكثر من مئتين. حتى استشهد هو وغلامه (رضوان الله عليهما) في المعركة[1].

ومن جملة الأنصار حبيب بن مظاهر ـ أو مُظَهَّر ـ الأسدي، وهو من الصحابة، وممّن لازم أمير المؤمنين عليه السلام في كلّ حروبه، وكان هو ومسلم بن عوسجة الركيزة التي قامت عليها دعوة مسلم. ولما قتل مسلم أخفاه بنو أسد عندهم في الأرياف. فلمّا وصله الخبر بقدوم الإمام الحسين عليه السلام تهيّأ للالتحاق به، فنادى أحد غلمانه، وطلب إليه أن ينتظره خارجاً بين النخيل، وأن يكون معه جواد، على أن يتبعه فيما بعد. ثم دخل على زوجته وأطفاله يودّعهم، وقال لزوجته: إني ذاهب إلى الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقالت له: أبلغ حسيناً عني السلام، وخذ لي لحظة من لحظات رضاه عني، ثم ودعها وجزاها خيراً وخرج.

فلما وصل إلى الموضع الذي تواعد فيه مع الغلام سمع الغلام يتحدث، فأصغى إليه، فإذا به يخاطب الجواد ويقول له: يا جواد سيدي، لقد أبطأ سيدي، والله لئن لم يأتِ لأمتطينّك وأذهب إلى نصرة أبي عبد الله. فلما سمعه حبيب اعتز به كثيراً، واهتزّ كثيراً لموقفه، ثم أقبل إليه وقال له: ويحك، جزاك الله خيراً، ارجع إلى أهلك. فقال له: سيدي أنت تذهب إلى الجنة وتردّني إلى النار؟ خذني معك، لأُقاتل بين يدي أبي عبد الله عليه السلام. وأصرّ على حبيب في أن يصطحبه، فاصطحبه معه.

وأقبل حبيب والغلام من ورائه، إلى أن التحقا بالحسين في كربلا.

---

(١) إبصار العين: ١٢٨.

وكان الإمام الحسين عليه السلام جالساً إزاء المخيم، فأطلّ حبيب عن بعد، فلمّا وقع بصره على حبيب التفت إلى أصحابه قائلاً: **«قوموا بنا، هذا حبيب بن مظاهر»**. وقام ومن معه من أصحابه لاستقبال حبيب الذي ما إن وقع بصره على الحسين عليه السلام حتى ترجّل عن جواده وانحنى على قدميه يقبلهما، وقال: سيدي أبا عبد الله، ايذن لي في أن أُسلّم على بنت أمير المؤمنين عليه السلام. فقال له الإمام الحسين: على الرحب والسعة. فأقبل وجلس بباب الخيمة، وجلست زينب داخلها، فقال: آه لوجدك يا زينب، يوم تحملين على بعير ضالع.

ووقف طويلاً عند بيت آل الرسول صلى الله عليه وآله، وصاحبَ الإمام الحسين عليه السلام حتى نزل إلى المعركة يوم الطفّ، وقاتل قتال المستميتين الأبطال إلى أن سقط، فأقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام، وذاد عنه الخيل، وجلس عند رأسه وقرأ: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[1]، ثم قال: **«أين أبطال الصفا؟ أين حبيب وأين زهير وأين برير؟ مالي أُناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون، أولستم قد طلّقتم حلائلكم لأجلي، وأعرضتم عن زهرة دنياكم؟»**[2].

گضوا حگّ العليهم دون الخيام ... ولا خلّوا خوات حسين تنضام

لمن طاحوا تفايض منهم الهام ... تهاووا مثل مهوى النجم من خر

وخرجت إليهم الحوراء زينب بعد منتصف الليل.. بعد أن هدأت العيال والأطفال، مرّت ما بين المصارع تقوم وتقع، وتخاطب الشباب الذين قتلوا مع الإمام الحسين عليه السلام، فقد كانوا كلّهم شباباً باستثناء بعض الصحابة، وكان أكبرهم سنّاً العباس عليه السلام فقد كان عمره (٣٤) عاماً:

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) معالي السبطين ٢: ١٩، شجرة طوبى ٢: ٣١.

يا هل نايمين على الشرايع   كـلمن بـطبراتـه يـنازع

* * *

تـلك الوجـوه المشـرقات كأنـها الـ   أقـمار تسـبح فـي غـدير دمـاءِ

خـضبوا ومـا شـابوا وكـان خـضابهم   بـدم مـن الأوداج لا الحـنّاءِ

﴿١٤٣﴾

مسؤولية المسلم تجاه نهضة الحسين عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معالم النهضة الحسينية

نحن نعيش دائماً ثمرة مدرسة الحسين عليه السلام نتفيّأ ظلالها ونستوحي منها القيم الخالدة والمثل الأصيلة التي ترقىٰ بالإنسان إلى مصافّ الأحرار، وتسمو به إلى مستوى المسؤولية الشرعية تجاه المجتمع واحتياجاته، وإحداث ثورة التغيير فيه. ولذا فإن من الواجب على كلّ مسلم أن يفتح الأبواب إلى هذه المدرسة المعطاء؛ ليقوم كل بدوره، وهو السعي إلى تحقيق الهدف الذي قامت من أجله هذه الثورة العالمية المباركة. وهنا نقطتان ينبغي الالتفات إليهما هما:

النقطة الأولى: الجوانب العاطفية في الثورة

إن الحسين عليه السلام بهذا الجانب من جوانب الثورة، وضع المجتمع الإسلامي أمام

---

(١) آل عمران: ١٧٩.

المسؤولية، فنجده يخاطب المجتمع لأنّه حامل الرسالة ويحاول أن ينفذ إلى نفس كل مسلم؛ لأنّ المسلمين جميعاً هم حملة الرسالة السماوية التي يجب أن تصل إلى الناس جميعهم. وبهذا فإن الإمام الحسين﵇ أراد أن يجسّد رسالة الإسلام؛ إذ أنّ هدف النهضة الحسينية هو إحياء رسالة الإسلام التي كادت تموت على يد يزيد وأعوانه. فكان الإمام الحسين﵇ يردّد هذه الآية في مثل هذه الليلة، يقول الضحاك بن قيس المشرقي: بتنا الليلة العاشرة، فقام الحسين وأصحابه الليل كلّه يصلّون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون، فمرّت بنا خيل تحرسنا، وإن الحسين﵇ ليقرأ: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١)، فسمعها رجل من تلك الخيل فقال: نحن وربِّ الكعبة الطيّبون، ميّزنا منكم وأنتم الخبيثون. قال: فعرفته، فقلت لبرير: أتعرف من هذا؟ قال: لا. قلت: أبو حريث عبد الله بن شهر السبيعي، فعرفه برير، فقال له: أما أنت فلن يجعلك الله في الطيّبين. فقال له: من أنت؟ قال: برير. فقال: هلكت والله يا برير. فقال له برير: لا أراك تحسن من كتاب الله آية (٢).

ووجه الاستشهاد هذا أن الإمام الحسين﵇ يريد أن يضع الأُمم الإسلامية التي تدّعي الإسلام وتتلبّس بلباسه أمام مسؤوليّاتها الجسام في حمل مبادئ الإسلام،

---

(١) آل عمران: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) مقتل الحسين (أبو محتف): ١١١، إبصار العين في أنصار الحسين﵇: ١٢٢ ـ ١٢٣، لواعج الأشجان: ١٢٣ ـ ١٢٢، تاريخ الطبري ٣: ٣١٧.

ليبرهنوا عمليّاً على إسلامهم بوقوفهم بوجه حاملي ألوية الكفر والعناد والفساد ممّن يريدون الرجوع بالإسلام إلى زمن الجاهلية وعاداتها المقيتة. فهذا هو وجه استشهاد أبي الأحرار عليه السلام بهذه الآية الكريمة، أي أنّه لابدّ من أن يتميّز الطيب من الخبيث الذي يهزأ بعواطف الناس ويسخر منها، ويدّعي الإسلام وهو لا يصلي ولا يؤدّي فرائضه التي افترضها الله تعالى عليه.. يدّعي الإسلام وهو لا يقدّم للإسلام شيئاً، بخلاف الطيّب الذي يجسّد الإسلام موقفاً وبطولة وتطبيقاً، ويعرف أنّ الجهاد من أوّل واجبات المسلم وأهم تشريعات الإسلام.

والغريب أنّ هذه الظاهر ـ قضية موقفنا من يزيد ـ تعيش بين الناس حتى في هذه الأيام، مع أن المفروض بهذا المعترض أن يمتلك الوعي في هذا المجال، ومن لم يكن كذلك فلينظر في كتب المسلمين ككتاب (حياة الحيوان) للدميري في باب (فهد) وليرَ ما ينقل عن يزيد وما يقول فيه، وهو ينقل ذلك عن علماء المسلمين [1] من غير الشيعة.

ونحن لا نبتغي من وراء احتفالاتنا هذه بثّ روح الفرقة بين المسلمين، وليس هذا في حسابنا أبداً، بل إن هدفنا هو خدمة الإسلام والحفاظ على وحدة المسلمين وفق الضوابط الشرعية والآيات القرآنية. وهذه أصواتنا تخرج لوسائل الإعلام وليس عندنا ما يقدح بوحدة المسلمين، بل العكس هو الصحيح؛ لأننا ندعو إلى النبع الذي شرب منه المسلمون وهو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الكرام عليهم السلام، ولا ندعو إلى نبع الجاهلية. ونحن عندما نتمسّك بالحسين عليه السلام فإنّما نتمسّك برافد من روافد الإسلام التي لم تلوّث.

فالإمام الحسين عليه السلام يريد أن يضع المسلمين على مفترق الطرق، ويقول لهم:

---

(١) حياة الحيوان ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦.

ادرسوا أسباب هذه النهضة؛ فـ: **«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي ﷺ، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»**[١]. فالحسين ﷺ هو ابن رسول الله ﷺ والرسول ﷺ جاء بشيراً ونذيراً للمسلمين كافّة، كما أنه ﷺ ابن القرآن والقرآن الكريم كتاب المسلمين كافّة. ولو أننا حكّمنا العقل لرأينا أن سيّد شباب أهل الجنة[٢] أولىٰ بالاتباع ممّن كان يتغنّىٰ:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزلْ[٣]

فليحاول كل من يطلب الحقّ والحقيقة أن يكسر حاجز التعصّب المقيت والجمود على التاريخ المزوّر وأن يقرأ بموضوعية ومنهجيّة علمية ليطلع على الحقائق، وليطلق الحرّيّة لفكره، وليسمع صوت الحسين ﷺ مجلجلاً يهزّ أعماق الكون ويرعب مخلوقات الشرّ والظلام، وهو يهدر في مثل هذه الليلة: **«ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكّرَ معروفُها، وذهبت حذّاء، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يُعمل به، و إلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب امروٌ في لقاء ربه مُحقًّا. إني لا أرى الموت إلّا**

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٣) انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاءً وبرماً»[١].

فالحياة ليست عبارة عن طعام وشراب ولباس؛ لأن من يرَها كـذلك لا يـعدُ الحيوان في شيء؛ إذ أن الحيوان يشاركنا في هذا الجانب البهيمي، بل الحياة هي المواقف النبيلة، وأن يقال للحق: إنك حقّ، وللـباطل: إنك بـاطل، يـقول أحـد الشعراء:

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغـ ـيان موتى على الدروب تسيرُ

ذلك أن الميت ليس من تخرج روحه من بدنه، فكثير ممّن فارقوا الدنيا لكنهم يعيشون معنا بما خلّفوه من أثر كبير في الحضارة والعلم والفكر والتقدّم البشري، بل إن الميت هو من لا يحمل الوعي، فتراه جثة تسير على سطح الأرض لا تعي ما حولها ولا تبصر أكثر مما هو تحت قدميها، فلا تحسّ بالعالم ولا تشعر.

النقطة الثانية: الجوانب غير العاطفية

وهذه الجوانب كثيرة يمكن أن نذكر منها:

أوّلاً: معادلة الخير والشر

ففي مثل هذه الليلة تتّضح لنا معالم معادلة حساسة جداً، ويعتمد هذا الأمـر على معرفة طرفي المعادلة:

الطرف الأوّل: خطّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

ففي الطرف الأوّل من المعادلة أبو الأحرار وسيّد الشهداء وسيد شباب أهـل الجنة الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وابن أوّل الناس إسلاماً وإيماناً بدعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وابن علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو عصارة مبادئ الإسـلام، وكـان

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢٤، المعجم الكبير ٣: ١١٤، نزهة الناظر: ٨٨.

رسول الله ﷺ يحمله على صدره ويقول: **«حسينٌ منّي وأنا من حُسين»** [١].

ويقول: **«أحبّ الله من أحبّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً»** [٢]. مرّ أبو بكر بالرسول ﷺ فرآه يحمل الحسنين ﷺ على عاتقيه، فقال: نِعمَ الجمل جملكما. فقال النبي ﷺ: **«ونعم الراكبان هما، وأبوهما خير منهما»** [٣]. فأخذهما أبو بكر من حجر النبي ﷺ.

الطرف الثاني: الخطّ الجاهلي المعتم

أما في هذا الطرف فتتضح معالم الجاهلية المقيتة وخلاصتها، وطرف الأحقاد الأُموية والانحراف عن خطّ الإسلام الحنيف. وهذا الطرف تجسّد في شخص كان يصعد المنبر وهو يترنح تحت وطأة سكره، وينشد:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم	**وداعي صبابات الهوى يترنّمُ**
خذوا بنصيب من نعيم ولذّة	**فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ** [٤]

إذن في المعادلة رافد من راوافد الإسلام ورافد من روافد الجاهلية، وهذا هو سبب الصراع؛ فالإسلام على خطّ موازٍ للجاهلية ولا يمكن أن يتقاطعا أو يلتقيا أبداً. فهنا نحن ننظر إلى رمز بارز من رموز الإسلام وإلى رمز آخر بارز

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

(٢) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

(٣) سنن ابن ماجة ١: ٤٤ / ١١٨، المعجم الكبير ٣: ٣٩ / ٢٦١٧، ٦٥ / ٢٦٧٧، ١٩: ٢٩٢، وليس فيها إشارة إلى أبي بكر.

(٤) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروّي فؤادي	ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زيادِ
موضع العدل والأمانة مني	ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

لكن من رموز الجاهلية، وبهذا يتقرّر أن دعوى كون يزيد يشكل حلقة من حلقات الحكم الإسلامي هي دعوىٰ باطلة وفارغة من أي مضمون؛ فالنظرية الإسلامية لا تقوم على أساس تقديم الدم واللحم: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[1].

فالمسألة هي مسألة فكر، والمسلم هويته الإسلام، فيجب على الآخرين ألّا يدخلوا عوامل أجنبية ويقولوا: أنتم ضد العرب، وأنتم شعوبيون، فنحن عرب ونعتزّ بعروبتنا وبتاريخنا الإسلامي، وبمن حمل الإيمان والدين من العرب. كما أننا لا نتخلّىٰ عن دورنا في الحفاظ على اللغة العربية في عبادتنا، وهو ما ليس موجوداً عند غيرنا؛ فعند غيرنا أنّ الصلاة تجوز بغير العربية والعقود كذلك، وكذلك عندهم أن الخليفة لا بأس بأن يكون غير عربي في حين أننا لا نقول بذلك، بل نشترط كونه عربياً.

فكل ما يثار في هذه المجال لا يعدو كونه لعبة عاطفيّة، فهويتنا «لا إله إلّا الله محمد رسول الله»، ونحترم الشعوب الأُخرىٰ والقوميات كافّة، لكن لا نقدّس أحداً لا يستحقّ التقديس لمجرد أنّه قد حكم، فالحكم وجوده وعدمه سواء فيما يخصّ قدسية الرجل واستحقاقه للطاعة والحب والتقدير والإكرام، يقول أحد الشعراء مخاطباً أمير المؤمنينعليه السلام:

هو عدل السماء أعطتك عرشاً ... لا يدانيه عرشك المغصوب

فعرشهعليه السلام الذي وهبته إياه السماء هو قلوب المؤمنين، فما قيمة كرسي مصنوع من خشب حينئذٍ؟

---

(١) الحجرات: ١٣.

ثانياً: أهل بدر والأحزاب

وهنا يتّضح لنا كذلك من هم الذين كانوا مع الحسين عليه السلام، ومن هم الذين كانوا مع يزيد في معادلة الخير والشر ممّن وقفوا إلى جانب الرمز. وبه يتّضح لنا هذا البعد الهام من أبعاد هذه المعادلة التي يمكن رسمها بالشكل التالي:

الطرف الأوّل: صحابة الرسول ﷺ

فممّن وقف إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام في هذه المعادلة بعض من صحابة النبي الأكرم ﷺ، وكان في طليعة هؤلاء حبيب بن مظاهر الأسدي. وكان لهؤلاء سابقة وقدِم في الإسلام والجهاد ونصرة الله تعالى ورسوله الكريم ودينه الحنيف.

الطرف الثاني: أصحاب الخندق

إن في جيش يزيد بقية باقية من معسكر الأحزاب، وقد صوّر لنا هذا الأمر بأروع صورة عقيل بن أبي طالب حينما راح يصف جيش أخيه أمير المؤمنين عليه السلام وجيش معاوية لهذا الأخير إذ طلب منه ذلك وقال له: قد مررت بجيش أخي علي بن أبي طالب عليه السلام فما رأيت فيهم إلّا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً كأنه جيش رسول الله ﷺ ولكن الرسول ﷺ ليس فيهم، ومررت بجيشك فما رأيت إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله ليلة العقبة حيث يوجد الطليق وغيره[1].

يقول أحد الشعراء مخاطباً الحسين عليه السلام:

يا أبَا الطفّ ساحة الطفّ تبقى	وعليها مَشاهدٌ لا تزولُ
فهنا والنبيّ يرقب شلواً	مزّقته قناً وداست خيولُ
يزدهيه بأنه وحسين	قصّة الأمس والغد الموصولُ
وبأن الروح الذي حمل السبـ	ـط تراث من النبي أصيلُ

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥، بحار الأنوار ٤٢: ١١٣.

وهنا حشد آل حرب وللخسّـ ـة في كلّ ما به تذليلُ
وهنا حشد هاشم وهو جذر ينتمي للشذا وطبع نبيلُ
وستبقى الدنيا وللوضر النتـ ـن قبيل وللسموّ قبيلُ [١]

فهناك مجموعة خيّرة فيهم بقية من الصحابة التفّت حول رمز الإسلام، فكانوا حماة الإسلام، عاشوا على المبدأ وماتوا دونه وهم يتمنّون لو أنهم نشروا ثم قتلوا ثم نشروا ثم قتلوا يفعل بهم ذلك ألف مرّة لما تركوا رمز الإسلام، فكيف وهي ميتة واحدة؟ هؤلاء المضحون هم الذين جمعهم هذا الرمز الإمام وخطب فيهم قائلاً: **«هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»** [٢].

فكان جوابهم ما جاء على لسان مسلم بن عوسجة رضي الله عنه حيث قال مخاطباً الإمام أبا عبد الله عليه السلام: أنخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقّك؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة. والله لا نخلّيك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لو علمت أني أُقتل ثم أحيا ثم أُحرق ثم أحيا ثم أُذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟

وعلى لسان زهير بن القين رضي الله عنه حيث قال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرّة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

(٢) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

أتفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وعلى لسان محمد بن بشير الحضرمي ﷺ إذ قال له: أُسر ابني بثغر الري فما أُحبُّ أن أبقىٰ بعده حيّاً. فقال له الحسين عليه السلام: **«أنت في حلّ من بيعتي»**. ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: **«اعمل علىٰ فكاك ابنك»**. فقال له: أكلتني السّباع حيّاً إن فارقتك يابن رسول الله[1].

أما الطرف الآخر فمجموعة من الأشرار المرتزقة ممّن اشتروا دنياهم بدينهم، يقول أحدهم:

املأ ركابي فضّة أو ذهبا ... إنّي قتلت السيّد المهذّبا

قتلت خير الناس أمّاً وأبا[2]

وهذا هو الفرق بين هذين الطرفين اللذين يمثلان معسكري الحقّ والباطل.. بين معسكرين يحمل أحدهما روح الإيمان والتضحية في سبيل الدين ومعسكر يعشّش الحقد في قلبه، ويتراءى الطمع له أمام عينيه.

ثالثاً: المبادئ التي اصطرع عليها المعسكران

إن هناك فرقاً واضحاً وبيّناً بين معسكري طرفي المعادلة، ويتمثّل هذا الفرق بالمبادئ التي كانت العامل الوحيد وراء نشوب الصراع بينهما، وهو ما يمثل رمزاً جديداً في هذه المعادلة. فالمبادئ التي حملها الإمام الحسين عليه السلام ومعسكره جلية واضحة لكل أحد ـ كما أن مبادئ يزيد ومعسكره واضحة جلية لكل أحد كما سيأتي ـ وكان على رأس هذه المبادئ قول أبي عبد الله عليه السلام: **«حدثني أبي عن**

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٢٧، الاستيعاب ١: ٣٩٣.

جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرمات الله، ناكثاً لعهد الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بقول ولا فعل كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[1]. فالذي لا يدافع عن الإسلام ضد الظلم والظالمين يكون مصيره مصيرَ الظالم عينه يوم القيامة؛ حيث يؤتى بالظلمة وأعوانهم ومن برىٰ لهم قلماً أو ألقى إليهم دواة فيلقون جميعاً في نار جهنم.

أما المبادئ التي حملها يزيد فكانت الحقد على الدين وعلى صاحب الدين صلى الله عليه وآله، وطلب الثأر منه ومن أهل بيته عليهم السلام؛ حيث إنّ يزيد كان يردّد بعد ذلك:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسلْ
لاستهلّوا وأهلّوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تُشلْ
قد قتلنا القرم من ساداتهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدلْ
لعبت هاشم بالملك فلا	خبر جاء ولا وحي نزلْ[2]

وهل في بدر إلّا دماء صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وناصري دين الله من جهة، ودماء من حاربوا دفاعاً عن الصنم من جهة أُخرىٰ؟ إن البعض من الكتّاب يعزون سبب الحرب بين الإمام الحسين عليه السلام وبين يزيد إلى وجود عداوة قديمة بين الأُمويين والهاشميين من أيّام الجاهلية، وبعض آخر يعزوه إلى أنّه صراع على الحكم. ونقول لهؤلاء: إن هذه غفلة أو هو تغافل عن الحقيقة والواقع، فالحسين عليه السلام لم يكن يسعىٰ وراء الحكم[3] أبداً، وإلّا فإنّه (سلام الله عليه) ما الذي

---

(١) انظر: بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٠٤.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، الأخبار الطوال: ٢٦٧.

(٣) وإلّا لما قال عليه السلام لأصحابه ليلة العاشر من المحرم: «هذا الليل قد غشيكم» كما مرّ.

كان يبتغيه من كرسي يجلس عليه أياماً ثـمَّ يـخلّفه وراءه؟ كـان أحـد الخـلفاء الأمويين حينما يريد الحجّ أو السفر لمكان ما يسوق معه ستمئة جمل لحمل ثيابه فقط، أما أمير المؤمنين عليه السلام فكان يقول وهو على سـدّة الحكـم: **«ولقـد رقـعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ»**[1].

وكان عليه السلام يقول: **«ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟»**[2].

إذن ما الذي كان الحسين عليه السلام سيجنيه من وراء الحكم؟ وما الذي سينتفع به منه؟ هل كان عليه السلام يريد الأموال أم أنّه كان يريد الشهرة؟ كلا إنّه عليه السلام كان في غنىً عن كل ذلك؛ فالأموال كان من الممكن أن ينالها بسهولة بمداهنة نظام الحكم، فضلاً عن صدقات أبيه عليه السلام، أما الشهرة فهو عليه السلام لا يريد أكثر من هذه الشهرة التي حازها بعد الشهادة، حيث إنّه ليس هناك شخص يؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ وليس فـي قلبه حبّ ومكانة له، فهو ريحانة رسول الله ﷺ، وحبيبه ونحن نحبّ من يحبّه الرسول الأكرم ﷺ. فعرش الحسين عليه السلام في قلوب المؤمنين منذ (١٤٠٠) سنة، وهذا ثراه شاهداً على ذلك وهو يزداد ألقاً وبريقاً، ويغزو كل أنحاء المعمورة.

رابعاً: الإسلام بين حفاظ الحسين وتضييع يزيد

وهنا يبرز وجه رابع لهذه المعادلة وهو إصرار الإمام الحسين عليه السلام على تثبيت نظم الإسلام وقواعده وأُسسه، وإصرار يزيد على محق الإسلام وحامليه. وهكذا فإن سيّد الشهداء والأحرار عليه السلام اجتمع مع عمر بن سعد ليلة العاشر من المحرّم وقال له: **«أتزعم أنك تقتلني ويولّيك الدعيّ ابن الدعيّ ملك الريّ؟ والله لا تتمتّع بعدي**

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

بِرّ العراق إلّا قليلاً». فقال له عمر: أخشىٰ أن يأخذ ابن زياد أموالي. فقال له الحسين عليه السلام: **«أنا أعوّضك عنها»**. قال ابن سعد: أخشىٰ أن يهدم داري. فقال له عليه السلام: **«أنا أبني لك خيراً منها»**(١).

فالإمام عليه السلام يلفت نظره إلى الفارق بينهما وبين موقفيهما، هو أنه لم يخرج لقتاله إلّا طلباً للدنيا ولإشهار سيفه بوجه المجاهدين في سبيل اللّه، والجهاد ديدن الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، أمّا يزيد فهو ابن أبي سفيان الذي قال حينما دخل المدينة: تلاقفوها يابني أُميّة تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك(٢). وهذا النموذج المخزي إلى الآن هناك من يسميه شيخ الأرض، وهناك من يطلق عليه صبغة الإسلام ويترحّم عليه، أمّا من يقول:

فاصدع بأمرك ما عليك مخافة وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البريّة دينا(٣)

وهو الذي بذل كل ما عنده من مال وطاقة في خدمة الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم فيطلق عليه لقب كافر، وهذا هو ديدن التاريخ الجائر الظالم، وهذه

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٠، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام): ٤٢٥، مقتل الإمام الحسين (الخوارزمي): ٦٠٢.   (٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٨٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥. وقد قال ابن أبي الحديد ولله دَرّه:

ولولا أبو طالبٍ وابنُهُ لما مُثّل الدّين شخصاً فقاما

فذاك بمكّة آوىٰ وحامىٰ وهذا بيثرب جسّ الحماما

فلله ذا فاتحاً للهدىٰ وللّه ذا للمعالي ختاما

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

هي مصيبتنا بمن كتبوه وأرّخوه.

المبحث الثاني: الحسين ﷺ وليلة العاشر من المحرم

لقد كان لهذه الليلة خصوصية كبيرة وأهمية قصوىٰ عند الإمام أبي عبد الله الحسين ﷺ؛ حيث إنّه ﷺ أعطى فيها مثلاً رائعاً في الصبر والإيمان والانقياد لله تعالىٰ والرضا بقضائه والتسليم بقدره. وهنا عدّة نقاط يمكن إجمالها بالتالي:

أوّلاً: إحياؤه ﷺ إياها بالعبادة

إنّ الإمام الحسين ﷺ أحيا هذه الليلة بالعبادة وقراءة القرآن والتهجّد حتى الصباح، جاعلاً شأنها في ذلك شأن ليلة عيدي الفطر والأضحىٰ وليلة النصف من شعبان. وعندنا روايات عديدة حول إحياء هذه الليلة بالعبادة والذكر والتهجّد، وبتذكّر مصيبة الحسين ﷺ وأصحابه وأهل بيته وتضحياتهم وما جرىٰ عليهم صبيحتها. فإحياؤها؛ للتأسّي بالإمام الحسين ﷺ وتذكّر مصيبته وتضحياته، وبالكم الهائل من الدماء النقية الطاهرة التي أُريقت من أجل الإسلام ورفعة شأنه، فهي ليلة عبادة وورع وتفكّر واقتداء بفعل أبي الأحرار ﷺ.

ثانياً: صيام يوم عاشوراء

هناك روايات عند أهل السنة، بل وحتى عند الشيعة تنصّ على صيام عاشوراء أو في صبيحته، دخل الفضل بن عبد الله الهاشمي على الإمام الصادق ﷺ فقال له: ماأعظم هذا اليوم! فقال له ﷺ مبيّناً له هذا الأمر: **«هذا اليوم أُدمي فيه قلب النبي، وهو يوم حزن ويوم لوعة»**. فقال له: فلماذا يعتبره بعض الناس يوم فرح؟ فقال ﷺ **«حينما قتل الحسين ﷺ أراد الناس أن يتقرّبوا إلى بني أُميّة؛ فرووا لهم روايات في هذا الشأن»**.

ونقول في هذا الصدد: إن الصيام فريضة من الله تعالىٰ، بل من أجلّ فرائضه،

فيجوز حينئذٍ الصوم من غير نيّة مبيّتة، وبهذا يكون المرء قد عمل عملاً يتقرّب به إلى الله تعالىٰ ويحصل عليه الأجر والثواب. غير أنّ هناك من يصوم تشفّياً بالحسين عليه السلام وفرحاً بقتله وقتل أهل بيته وأصحابه، وهذا الصوم باطل، بل إن من يفعل ذلك لا يمكن أن يكون مسلماً؛ لأن المسلم لا يفرح بقتل ابن بنت رسول صلى الله عليه وآله وسلم وريحانته وسيد شباب أهل الجنة[١]؛ لأنّه بذلك يعاند القرآن[٢] والإسلام، ومن عاندهما خرج عن الملّة. ومع كل هذا نجد في باب (صرد) من (حياة الحيوان) روايات تنصّ على عدم جواز قتل الصرد؛ لأنّه كان يصوم عاشوراء[٣]، وهذه إحدى الروايات المضحكة التي وردت في هذا الباب.

فروايات صوم عاشوراء تصحّ إن كان الداعي إلى الصوم طلب القربة إلى الله تعالىٰ وابتغاء رضاه، لكن على كراهة لأنّه يوهم بالفرح في يوم حزن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يحزن في مثل هذا اليوم الذي فقد فيه ريحانته وولده وبقية أهل بيته وأصحابهم.. يحزن فيه لمقتل السبط الذي قال فيه وفي أخيه الحسن عليه السلام: **«اللهم إني أُحبّهما ،فأحبّهما »**[٤]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبَّ الله ، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»**[٥] وقال: **«أحبّ الله من أحبَّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً»**[٦].

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٢) حيث أمرنا بمودّة أهل بيت النبي وطاعتهم.

(٣) حياة الحيوان ١: ٦١٣ ـ ٦١٤، ونقل عن الحاكم أنه من وضع قتلة الإمام الحسين عليه السلام.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٢٦..

(٥) المصدر نفسه.

(٦) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

وهكذا فإن صوم يوم عاشوراء إن جاء بنيّة معاندة أهل البيت عليهم السلام وفرحاً بمصائبهم كان صوماً باطلاً؛ لأن معاندة أهل البيت عليهم السلام معاندة لحملة الإسلام والقرآن بل ومعاندة للإسلام والقرآن أنفسهما، ومراغمة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وبهذا يكون خارجاً عن الدين والملّة. أمّا إذا كان صوم عاشوراء لسرّ ما يطمئن إليه الصائم ويتقرّب به إلى الله تعالىٰ دون أن يُشم منه رائحة المراغمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام فلا بأس؛ ذلك أنّ الصوم شعيرة مستحبّة.

ثالثاً: الاعتبار بهذه الليلة ويومها والإفادة من دروس النهضة

وفي مثل هذه الليلة وصبيحتها يمكن أن نستجلي التاريخ لنستفيد منه نعتبر به، ولنتّعظ، ونتذكّر أهداف هذه الثورة المباركة والنهضة الشريفة. إن الواجب علىٰ كل مسلم ألّا ينساق وراء الجانب العاطفي فقط، وألّا يقع تحت طائلته أو يكون فريسة له دون أن يغلب عليه الجانب الواقعي ويحقّق الأهداف الكريمة والنبيلة التي من أجلها قام الإمام الحسين عليه السلام بنهضته المباركة هذه، ودون أن نتأسّىٰ بما يواسي رسول الله صلى الله عليه وآله ويتأسّىٰ به. إنّ الجانب العاطفي مطلوب هنا لكن ليُقتصر منه بما نعبّر عنه بقولنا ونحن نزوره عليه السلام: «**السلام على الحسين بن علي المظلوم الشهيد، قتيل العبرات وأسير الكربات**»[1]. وقد قال الإمام الحسين عليه السلام مصوّراً هذه الحال: «**أنا قتيل العبرة**». ومعناه ما ذكرت عند أحد إلّا استعبر وبكى[2].

فنحن نستعبر ونبكي لمصيبة سبط الرسول صلى الله عليه وآله؛ لأن الجانب العاطفي جذوة لا يمكن إخمادها أو تجاهلها مهما امتد الزمن، لكن هل نقتصر من هذه النهضة النبيلة على البكاء فقط دون أن نستجلي أبعادها ومضامينها؟ طبعاً لا؛ إذ أننا لابدّ أن

(١) المزار (المشهدي): ٤٢٤، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢.

(٢) مجمع البحرين ٣: ١١١ ـ عبر. قال: ومنه حديث الحسين عليه السلام.

نستجلي الموقف الذي وقفه أبو الشهداء والأحرار عليه السلام يوم العاشر من المحرّم، وأن نستفيد من دروس هذه النهضة المباركة في حياتنا الجهادية والدينية والاجتماعية. ودروس هذه المدرسة وهذه الحركة الحسينية كثيرة، نذكر منها:

الدرس الأوّل: الصبر

يذكر المؤرّخون أن الإمام الحسين عليه السلام كان يصبّر نفسه على ما سيقع عليه يوم العاشر من المحرّم الحرام؛ لأنه يعلم ما سيقع عليه، فضرب لنا أسمىٰ المواقف وأروع الأمثلة في ذلك، كان عليه السلام يشير برأسه الشريف إلى السماء ويقول: «**اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدّة، كم كرب يضعف منه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلته بك وشكوته إليك؛ رغبة مني فيه إليك عمن سواك، ففرّجته وكشفته وكفيته! فأنت ولي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة**»[(١)].

وبهذا فإن الإمام الحسين عليه السلام أعطى درساً عظيماً بالغ الأهمية في التضحية والفداء والتسليم لله تعالى والرضا بقضائه وقدره عند نزول النكبات بنا؛ كي نلجأ إلى الله سبحانه وتعالىٰ ونزرع الثقة في نفوسنا به، ونضرع إليه تعالى عند حدوث ذلك.

وهكذا وقف الإمام السبط الشهيد وصبر وتحمّل مع علمه بكل ما سيجري عليه وعلى عائلته.. العائلة التي كانت معه والتي تعرّضت لأقسى المواقف وأعتاها من قبل زمر يزيد وأزلامه.

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٢٢.

الدرس الثاني: المفاداة

لقد قدّم الحسين عليه السلام نفسَه وأهل بيته وأصحابه وعائلته فداءً لدين الله تعالى ونصرة للحقّ، وقد وضع ثقته كلّها بأُخته العقيلة زينب عليها السلام لتحمل أعباء هذه النهضة بعد مصرعه وأصحابه وأهل بيته؛ لعلمه بما سيقع عليه وعليهم، ولعلمه بأن جذوة هذه النهضة لن تنطفئ، ولأنّه عليه السلام عزم على ألّا تنطفئ وتذهب هذه التضحيات سدى؛ ولذا فإنّه عليه السلام جلس في ليلة العاشر من المحرم إلى أُخته زينب عليها السلام يوصيها بما ينبغي أن تقوم به من بعده حيث إنها عليها السلام كان لها نيابة خاصّة عنه عليه السلام وكان مما أوصاها به أن قال على ما يرويه الشيخ الصدوق رحمه الله: «دخلت زينب على الحسين عليه السلام ليلة العاشر وهو يقرأ القرآن، فوضع القرآن على المحراب وتوجّه إليها واشترك معها في المصائب. ثم أوصاها. يقول السجّاد عليه السلام: **«فلمّا سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقّة والجزع، لم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أُمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أُخية، تعزَّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان.**

وترقرقت عيناه بالدموع، وقال: ولو ترك القطا ليلاً لناما»[1].

فهو عليه السلام قد وضع زينب أمام الصورة الحقيقيّة وأخبرها بأنها ستواجه نهار العاشر من المحرّم أمرين: الأول أجساد صرعىٰ ودماء، وأنها ستراه قتيلاً على التراب مغسّلاً بدمه، والثاني السبي وآلام السياط.

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، وانظر: الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ ـ ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ ـ ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩.

فهو عليه السلام يريد منها أن تقف إلى جانبه كما وقفت جدّتها خديجة الكبرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكما وقفت أُمها فاطمة الزهراء مع أمير المؤمنين عليه السلام، وطلب إليها أن تشرح أسباب النهضة ودواعيها، ثم أوصاها بألّا تخاطبه بلغة الدمع. وكانت فعلاً على مستوى المسؤولية التي أناطها بها أخوها الشهيد عليه السلام، ووقفت مواقف صلبة ينهار فيها وأمامها أشدّ الرجال:

لا يـنشغل بـالك عـليه وحكّك لارجّ الغـاضريه

وكان لها موقف عظيم حتىٰ قبل أن يستشهد الحسين عليه السلام؛ فقد كان عليه السلام يأتي بالقتلى من بني هاشم في اليوم العاشر من المحرم إلى خيمتها، وهي صامدة لا يعتريها شيء من الوهن.

وكان عليه السلام قد قصد خيمة السجّاد عليه السلام بعد أن أوصىٰ زينب، وبيّن له بأنه الامتداد لخطّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وخط الحسنين عليهما السلام، وأن عليه أن يرعىٰ العائلة من بعده. ثم خرج من عنده تحت جنح الليل قاصداً خيمة أصحابه، ليصارحهم بحقيقة الموقف، فجلس إليهم وقال لهم: **«اجلسوا جزاكم الله خيراً، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»**[(١)].

فأجابه أصحابه بما أدخل السرورر على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له ابنه الأكبر: وما قيمة الحياة بعدك يابن رسول الله؟

فخرج الحسين عليه السلام وهو مملوء ثقة بأهل بيته وأصحابه، فأحيا هذه الليلة معهم، وكان لهم فيها دوي كدوي النحل وهم بين قائم وقاعد وراكع وساجد.

---

(١) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

ثم جاء دور الدموع، فمرَّ على ابنته سكينة ورآها مطرقة واضعة رأسها بين ركبتيها فقال لها: «**بنية ما هذا؟**» قالت: أبه وكيف لا أبكي وسيرحل عنا كفيل الأرامل والأيتام؟ فقال عليه السلام لها:

«سيطول بعدي يا سكينه فاعلمي ... منك البكاء إذا الحمام دهاني

لا تحرقي قلبي بدمعك حسرة ... ما دام مني الروح في جثماني

وإذا قتلت فأنت أولى بالذي ... تأتينه يا خيرة النسوان» [١]

مسح عليه السلام دموعها وأمرها بالتعزّي والصبر، ثم رجع إلى الخيمة ليودّع زينب، فتعلّقت بثوبه وانفجرت بالدموع والبكاء:

وصيت من ياحسين بينه ... من تجبل الغاره علينه

حريم وغرب شنهو حچينه ... لا تعتذر يابو سكينه

* * *

يا خويه وصوا بنا گبلن ترحلون ... گبلن على الغبره تنامون

يا حسين منته نور العيون

وكانت له جلسه مع الرباب، فأخذ رضيعها وقال: «**غداً ستفارقينه، وترينه مضروباً بسهم حرملة**».

ثم مرّ عليه السلام بأصحابه فسمعهم يقولون: أنحن نتقدّم بني هاشم، أم ندع ساداتنا يتقدّمونا؟ فقال لهم حبيب: إنما طلّقتم حلائلكم وأعرضتم عن زهرة دنياكم من أجل أن تفدوا الحسين عليه السلام وأهل بيته، إني أحبّ أن أرىٰ دماءكم دون دماء ساداتكم. ثم مرّ بمخيّم بني عبد المطلب فسمع العباس يقول: ليس بينكم وبين لقاء القوم إلّا سواد هذه الليلة، فإذا أصبح الصباح فتقدّموا أصحابكم، ولا

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧، ينابيع المودة ٣: ٧٩ ـ ٨٠.

تجعلوهم يتقدمونكم. فلما سمعوا ذلك رموا عمائمهم، وأخذوا صوارمهم، وقالوا: إنما خرجنا لنضحّي بين يدي أبي عبد الله. فقال: هلمّوا معي لنسكّن رعب النساء. وتبعه حبيب ومن ورائه الرجال، ووقفوا عند مخيم الحوراء زينب:

آه يــاليل كـلّك ولم ونـياح   عسى لا يمرّ عليك مـصباح

عدنا اشبدال حسين لو راح





﴿١٤٤﴾

نعم الله على خلقه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأول: وجوب شكر المنعم

في هذه الآيات الكريمة يذكّر الله تعالى عباده بالنعم التي أنعم بها عليهم، وهذا يسمىٰ بتقرير النعم[2]. وهنا نتوقف عند هذا التقرير الوارد هنا، فنحن مثلاً عندما نريد أن نذكّر الآخرين بإحساننا فإنّ الهدف غالباً شخصي؛ فإمّا أننا نريد أن نقول: إننا تفضّلنا، وإما أن نريد مقابل ذلك مكافأة. لكن هذين المعنيين لا يمكن أن

---

(١) البلد: ٨ ـ ١٠.

(٢) فائدة نحويّة: قد توسّع العرب فأخرجوا الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربوه تلك المعاني، وقد عدّها ابن هشام الأنصاري ثمانية معانٍ، أمّا السيوطي فأوصلها إلى اثنين وثلاثين معنى، منها الإقرار، وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده، ويجب أن يليها الشيء الذي تقرّره به. وهي للتقرير بالفعل، كقولك: أضربت زيداً؟ وللتقرير بالفاعل، كقولك: أأنت ضربت زيداً؟ وللتقرير بالمفعول، كقولك: أزيداً ضربت؟ مغني اللبيب ١: ١٧ ـ ١٩، الإتقان في علوم القرآن ٢: ٢١٢ ـ ٢١٧.

يتصوّرا على الله تعالى؛ لأن كل منحه تعالى عطاء ونعمة، وكله جود وكرم، فلا يريد أن يمنّ علىٰ عباده، ولا يريد جزاء مقابل ذلك؛ إذ أنه لا قيمة للإنسان أمام الله تعالى حتى يكون عنده شيء يقدّمه له، بل إن ما عنده من الله لا من غيره.

وكذلك فإن الله تعالى لا يريد أي هدف من الأهداف ذات الطابع الشخصي، نعم يريد أن يدفع الإنسان نحو طريق التكامل، والتكامل هو أن يقابل تلك النعمة، فإذا لم يقابلها فهذا يعني أن عنده نقصاً، في حين أن الله تعالى يريد لعبده الكمال الممكن.. الكمال الذي هو شكر نعمة الله عز وجل. فالله تعالى يريد الإنسان مخلوقاً سويّاً، ومن ضمن مستلزمات المخلوق السوي أن يقابل النعمة بالشكر.

غير أن الواقع أنه يوجد من الناس من لا يقابل النعمة بالشكر، بل يسيء إلى المنعم إليه، حتى قيل: «اتّقِ شرّ من أحسنت إليه»[1]. فعوض الخير الذي تمنحه إيّاه يقابلك بالشرّ والجحود والكفران. ومثل هذا المخلوق غير سوي؛ لأن شكر المنعم واجب عقلاً؛ فالعقل يستقلّ بوجوب شكر المنعم.

وهنا نسجّل ملاحظة تشكّل ظاهرة ثابتة وسمة عامّة، وهي أنه ليس هناك من أنعم علىٰ هذه الأُمّة بقدر ما أنعم عليها رسول الله ﷺ، فقد حمل الإسلام الذي نقلها من الضلال إلى الإيمان والسعادة والنور، وغيّرها نحو الأحسن، لكن

---

(١) قال الفتني: «في المقاصد: اتق شرّ من أحسنت إليه، ولا أعرفه، ويشبه أن يكون كلام بعض السلف، وهو محمول على اللئام». تذكرة الموضوعات: ٦٨ ـ ٦٩.
وقال العجلوني: «اتق شرّ من أحسنت إليه، وفي لفظ: من تحسن إليه. قال في (الأصل): لا أعرفه، ويشبه أن يكون من كلام بعض السلف، قال: وليس على إطلاقه بل هو محمول على اللئام دون الكرام؛ ويشهد له ما في (المجالسة) للدينوري عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لطف». كشف الخفاء ١: ٤٣ ـ ٤٤ / ٨٦.

المسلمين قابلوا رسول الله ﷺ بغير ما يستحقّ، ولم يشكروه كما ينبغي، فنجد أن أبناء الأجانب يحظون بحبّ المسلمين ورعايتهم، لكن أبناء رسول الله ﷺ لايحظون بحبّهم ورعايتهم، وليس لهم في هذا نصيب أبداً. وهذا كفر للنعمة، وعدم الشكر لها، فرسول الله ﷺ علّمنا بعد جهل، ووحّدنا بعد تجزئة، وأغنانا بعد فقر، سئل شخص: لماذا لاتصلّي على آل محمد إذا ذكروا عندك؟ قال: أخشىٰ أن أتّهم بالرفض.

وقد ذكر في بعض الأحاديث [1] أن الصلاة علىٰ محمّد ﷺ دون «آله» هي صلاة بتراء، فلماذا نتعمّد أن نجعل صلاتنا بتراء، مع أن النبي أمر بذلك؟ فأي عقوق أعظم من هذا العقوق؟ أليس المرء يحفظ في ولده؟ وفي باب «الوفاء» أنّه إذا كان لرجل صديق توفي عن أولاد فإن من الوفاء المأمور به هذا الصديق أنه إذا أراد أن يدخل السرور علىٰ قلب صديقه فعليه أن يرعىٰ أولاده.

المبحث الثاني: نعمة البصر

نعود للآية حيث تقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾، فأول نعمة تذكّرنا بها هذه الآية الشريفة هي نعمة البصر؛ لأن الإنسان إذا سلب منه البصر فقد الإحساس بما حوله. ومن لطف الله تعالى أنه يعوّض هذا الإنسان مقابله.

نوع الجزاء عند المصيبة

وهذه المسألة يبحثها الفلاسفة وعلماء الكلام، فيقولون: إذا ابتلىٰ الله العبد بشيء، فهل يعطيه عوضاً عن هذا الابتلاء أم لا؟ يقولون: نعم، إنه يجب تعويضه، لكن يبرز هنا تساؤل آخر هو: ما هو نوع هذا العوض؟ هل هو تعويض بالمثل،

---

(١) كشف الغمّة (الشعراني) ١: ٢١٩.

وهذا لا يجوز؛ لأنه عبث يُنزّه الله تعالى عنه، فلا معنى لأن يؤخذ منه شيء ويعطى بعد ذلك بقدره؛ فلا ثمرة في البين، او أنه يعوّض بالأقل، وهذا لا يجوز كذلك؛ لأنه ظلم، وهو تعالى عادل، أم أنه يعوّض بالأفضل؟

وهنا يجيبون بأنه لابد أن يكون التعويض بما هو أكبر؛ حتى يتحقّق العدل والحكمة الإلهيّان. فالله تعالى لا يمكن أن يسلب من الإنسان نعمة دون أن يعطيه مقابلها شيئاً، وهذا الشيء أكبر من النعمة المسلوبة [(١)].

فإذا سلب الله أحداً بصره عوّضه عنه بالبصيرة، يقول حبر الأُمة عبد الله بن عباس، وكان قد ابتلي بفقد البصر:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي فؤادي وقلبي منهما نورُ [(٢)]

وحدث يوماً أن ابن الزبير صعد المنبر وأراد أن ينال منه فقال: إن هاهنا رجلاً أعمى الله قلبه كما أعمىٰ عينيه. فقال له ابن عباس: يابن الزبير: «أمّا عينيّ فقد أخذ الله نورهما، ولكن عوّضني اليقين في قلبي والنور في بصيرتي...» [(٣)].

فلابدّ أن يعوّض الله عبده بمقتضى عدله ولطفه. مع أنه تعالى إذا أخذ من عبده شيئاً فإنما يأخذه لمصلحة، وهو مع هذا في الوقت نفسه لايترك تعويضه.

لكن نعمة البصر من أهم النعم التي أنعم الله بها علىٰ عباده، ولذلك ورد في الدعاء الشريف: «**اللهم متّعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني**» [(٤)].

---

(١) هذا مع أن هذه النعم نعم ابتدأ الله تعالى بها المكلّف، وليست نعم استدامة.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٥٨، اختيار معرفة الرجال ١: ٢٧٢ / ١٠٣.

(٣) أنساب الأشراف ٤: ٥٥ ـ ٥٧، شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٢٩ ـ ١٣١، الدرجات الرفيعة: ١٣٢، ١٣٤.

(٤) مستدرك وسائل الشيعة ٥: ٩١ / ٥٤١٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٤٢ / ٣٦٨٠.

يروي البزاز في مسنده عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: **«يُخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه في ديوان النعم: خذي ثمنك من عمله الصالح. فتستوعب عمله الصالح كلّه، ثم تنحّى وتقول: وعزّتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم، فإذا أراد الله أن يرحمه قال: يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت لك عن سيئاتك، ووهبت لك نعمي»** [(١)].

ولو أن الإنسان يملك أكبر ثروة، ويعطيها لأضخم المستشفيات وأحدثها، فهل يمكن أن تعوّض عيناً له تالفة؟ ولو قدر الله سبحانه وتعالى لأجل الإنسان أن ينتهي، فهل تستطيع ثروته أو هذه المستشفيات أن تمدّ في عمره لحظة واحدة؟ فكيف نقابل نعم الله تعالى إذن؟ إنّ أكبر الأعمال عندنا لاتقابل أصغر نعمه كما في الحديث. فالباريُ جلّ وعلا يريد أن يذكّرنا بهذه النعم فيقول: **﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾**.

ضريبة النعم

إننا يجب أن نعرف أن لكل نعمة ضريبة، فالعقل عليه ضريبة هي المشورة الحسنة، واللسان عليه ضريبة هي الإصلاح بين الناس وذكر الله تعالى، والعين كذلك. والله تعالى حينما أعطىٰ العينين للإنسان جعل باستطاعة غيره أن يدرس سلوكه من عينيه، فالعين تكشف عن مشاعر صاحبها وأحاسيسه، يقول الشاعر:

تأمل مساقط لحظ المريب ... فإنّ العيون وجوه القلوب [(٢)]

والعين تبصر له ما يريد، ويقرأ بها ويهتدي إلى حوائجه. لكن ضريبتها هي أن

---

(١) المصدر غير متوفّر لدينا. انظر المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ١٦١، العهود المحمدية: ٩٠٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٧٩.

تسهر في طاعة الله وخلافه، هو عدم الشكر له تعالىٰ. وهذا مثله مثل المال الذي يمكن أن يصرف في الحرام أو يصرف في الحلال، فالعين يمكن أن نقرأ بها القرآن ونسهر الليل لأداء فريضة أو صلاة ركعة، وفي الوقت نفسه يجبّ أن نعفّها عن محارم الله، فلا نسلّطها على عورات الناس، وعلىٰ ما لم يحلّه الله لنا، وإلّا كانت جارحة حرام؛ لأنها عضو سيشهد على صاحبه يوم يلقىٰ الله تعالى، فإن الأعضاء تنطق يوم القيامة [1].

المبحث الثالث: نعمة اللسان ومسؤوليّة الكلمة

ثم قالت الآية الكريمة التي بعدها: ﴿وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾، واللسان أيضاً من النعم؛ فهو المعبّر عن الإرادة التي لا يمكن إبرازها إلّا عبر الكلام، والإنسان لا يستطيع أن يفصح عمّا في داخله إلّا باللسان، فهو وسيلة البيان التي تميّز الإنسان.

وللكلام جهتان متعارضتان، وهنا يُطرح هذا السؤال: أيها أفضل الكلام أم السكوت؟ وهذا طبعاً لانستطيع أن نجزم به بمعزل من الحال التي يكون عليها الإنسان، لكننا نعرف أحياناً أن السكوت أفضل من الكلام، كأن يسكت إنسان عن الغيبة، فلو دار الأمر بين كلام مؤدّاه الغيبة، وبين سكوت مؤدّاه التعفّف عن أعراض الناس فإنّ السكوت هنا يصبح واجباً إلّا إذا كان فيه ردع لفاعل الغيبة ونصرة للمأخوذة غيبته. وهكذا نجد أن السكوت هنا له قيمة، ويجعل لصاحبه كرامة. إذن السكوت هنا أفضل من الكلام.

وكذلك السكوت عن الفضول ـ أي تدخّل الشخص فيما لايعنيه ولا يعود عليه

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يس: ٦٥.

بخير - فهو هنا أفضل [١]، أو أن شخصاً يقحم نفسه في قضية علميّة ليست من اختصاصه، فالسكوت هنا أفضل له؛ لأنه يؤدي به إلى الانهيار أمام جلسائه، ويكشف عن فراغ مكنوناته.

تروى في هذا الصدد رواية مشكوك في صحّتها، تقول: **«كان النبي موسى بن عمران عليه السلام يرى رجلاً من بني إسرائيل يطول سجوده ويطول سكوته، وكان ظاهره يدلّ على أنه ذو وقار وهيبة، وكان مظهره الخارجي يوحي بذلك، فكان عليه السلام لا يكاد يذهب إلى موضع إلّا وهو معه. وبينا كان عليه السلام يوماً في بعض حوائجه إذ مرّ على أرض معشبة تزهو وتهتزّ، فتأوّه الرجل فقال له النبي موسى عليه السلام: على ماذا تأوّهت؟ قال: تمنّيت أن يكون لربّي حمار أرعاه هاهنا. فأكبّ النبي موسى عليه السلام طويلاً يبصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانحطّ عليه الوحي، فقال له: ما الذي أكبرت من مقالة عبدي؟ أنا أؤاخذ عبادي على قدر ما أعطيتهم من العقل»** [٢].

فهذا هو مقدار إدراكه. على أية حال فإن هذا لو ظلّ ساكتاً لبقي محافظاً على احترامه. والغرض من ذلك أن السكوت في حالات معيّنة يكون أفضل من الكلام.

لكن في مقابل هذا يكون الكلام أحياناً - في حالات معيّنة - أفضل من السكوت، فيما لو كان هذا السكوت سكوتاً عن كلمة حقّ، حيث إنه يستطيع أن ينطق بكلمة الحقّ لكن لا يتكلّمها، لأنها تصطدم بمصالحة، فالسكوت هنا يصبح جريمة والكلام واجباً. وهنا يأتي دور الأثر: «الساكت عن الحقّ شيطان

---

(١) مرّ أمير المؤمنين عليه السلام برجل يتكلّم بفضول الكلام، فوقف عليه، ثم قال: «إنك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربّك، فتكلّم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك». الأمالي (الصدوق): ٨٥ / ٥٣.

(٢) المحاسن ١: ١٩٣ / ١٠، شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٧.

أخرس»[١]. فإذا كان المرء يقوىٰ علىٰ قول كلمة الحقّ، دون أن يمسّه ضرر من ورائها، ويستطيع أن يقوّم بها انحرافاً فالواجب يقتضي ألّا يسكت.

والواقع أن كلمة الحقّ أفضل الجهاد حسب ما قال الرسول الأكرم ﷺ: **«أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر»**[٢]. فالكلمة مسؤولية نبيلة، وهي هنا تترتّب على الإنسان، والسكوت عنها يعتبر رذيلة وذلّة.

إذن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رذيلة، لأن الكلمة أحياناً قد تترك أكبر الأثر، كان الإمام موسى بن جعفر ﷺ مارّاً بطريقه في المدينة على بيت (بشر الحافي)، وبشر كان رجلاً غير ملتزم، منشغلاً باللذائذ والفجور، فسمع ضرب الأعواد وأدوات الطرب، فقد كان يعيش حينها ليلة صاخبة من ليالي اللهو واللعب، فلفت نظر الإمام ﷺ هذه الأصوات والضوضاء والغناء، وهنا خرجت جارية لبشر من الدار، وبيدها فضلات الطعام والشراب ممّا خلّفه هؤلاء السكارىٰ، فسألها الإمام ﷺ: **«لمن هذه الدار؟»**. قالت: لسيدي. قال: **«سيدك حرّ أم عبد؟»**. قالت: بل حرّ. قال: **«صدقت لو كان عبداً لله لاستحىٰ من الله»**.

فرجعت إلى البيت مضطربة، فسألها بشر: ماوراءك؟ قالت: مرّ عليّ رجل تكاد تميله الريح إذا مرت عليه، وسألني... ثم روت له القصّة كاملة.

فأخذت هذه الكلمة منه مأخذها، وأثّرت فيه تأثيراً بالغاً، ووقعت في قلب له استعداد لأن يتغيّر، فأخذ أواني الخمر وكسرها، وأخرج رفقته من البيت، وطهّره من دنس الخمر، حتى ضرب به المثل في الزهد والالتزام والتديّن[٣].

---

(١) الأذكار النوويّة: ٣٣٥.

(٢) عوالي اللئالي ١: ٤٣٢، مسند أحمد ١٩، ٦١، ٤ ٣١٥، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٢٩.

(٣) الكنى والألقاب ٢: ١٦٨.

فهذه الكلمة أخذت أثرها من نفسه؛ لأنها خرجت من إنسان متّعظ.

وبهذا نجد أنه أحياناً يكون الكلام أفضل من السكوت، وفي أحيان أُخرى يكون السكوت أفضل من الكلام. سئل السجّاد عليه السلام: أيهما أفضل؛ الكلام، أم السكوت؟ فقال عليه السلام: **«لكل واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات، فالكلام أفضل من السكوت»**. قيل: وكيف ذاك يابن رسول الله؟ قال عليه السلام: **«لأن اللّه عزّ وجلّ ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، وإنما يبعثهم بالكلام، ولا استُحقّت الجنّة بالسكوت، ولا استُوجبت ولاية اللّه بالسكوت، ولا توقّيت النار بالسكوت، ولا تُجنب سخط اللّه بالسكوت، إنما ذلك كله بالكلام. وما كنت لأعدل القمر بالشمس؛ إنك تصف فضل السكوت بالكلام، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت»**[1].

فهذه الكلمة حدّدت الفرق بينهما تحديداً رائعاً، فالكلام له آفات ومشاكل والسكوت كذلك، لكن إذا جرّدناهما من المشاكل والآفات، فإنّ الكلام يصبح أفضل لأن الله لم يبعث الأنبياء ساكتين، والكلام وسيلة الدعاء إلى الله، وولاية الله تعالى لا تنال إلّا بالكلام. فالإنسان لا يصلي حتى يتكلّم، ولا يقرأ القرآن ويقول كلمة طيّبة إلّا بالكلام، والكلام تصف به السكوت، فعندما يسأل سائل: ما هو السكوت؟ يجاب بأنه إطباق الشفتين وعدم التكلّم، لكن هل يستطيع أحد أن يصف الكلام بالسكوت؟

فالنطق ثمرة هامّة عند الإنسان، وهو من دون نطق يصبح عاطلاً؛ لأن الكتب كلام، والدراسة والتعلّم والقرآن والدعاء كلّها مصادر لا تتأتّى بغير الكلام. لكن يراد من الكلام والسكوت أن يكونا وفق مقاييس وضوابط معيّنة؛ فالكلمة فيها

---

(١) الاحتجاج ٢: ٤٥ ـ ٤٦، وسائل الشيعة ١٢: ١٨٨ ـ ١٨٩.

شعور بالمسؤولية، وعلى الإنسان أن يفكّر قبل أن يتكلّم، يقول الإمام علي عليه السلام: **«إذا تمّ العقل نقص الكلام»**[١]. فعلى الإنسان أن يدرس الكلمة وتأثيرها وفائدتها، فإن كان كذلك، قلّ كلامه. فالله يضع على الإنسان رقيباً، يقول نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: **«يقول الله تبارك وتعالى لابن آدم: يابن آدم إذا نازعتك عينك إلى بعض ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليها بطبقين، فأطبق** ـ أي أدر وجهك عن الحرام ـ **ولا تكلّم. وإذا نازعك لسانك إلى بعض ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق** ـ أي فاسكت ـ **ولا تكلّم. وإذا نازعك فرجك إلى بعض ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق»**[٢].

فالإنسان يستطيع أن يصبر على الكلام، المحرّم والنظر المحرّم، والفعل المحرّم، والإنسان ملاك المسؤولية، فالله لم يكلّف الحيوان؛ لذلك يجب مراعاة أن تكون الكلمة موزونة وفيها شعور بالمسؤولية.

جراحات السنان وجراحات اللسان

وغالباً ما يكون للكلمة أثر مروّع؛ فقد يجرح شخص بالسلاح فيختفي أثره، لكن الكلمة الخبيثة يبقى أثرها[٣]؛ لأن الجرح الذي له علاقة بالجسد ينسى بمجرّد برئه، أمّا الكلمة فلها علاقة بالروح. ولذلك فإن مسؤولية الكلمة كبيرة سيّما تلك التي تزرع في الكتب، حيث إن صاحبها يضعها ويذهب ويبقى الكتاب يفعل فعله في العقول. والنتيجة أن كلّ من يقرؤه سيحمل الحقد على من افتُري عليه فيه،

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٧١. (٢) الكافي ٨: ٢١٩ / ٢٧٠.

(٣) قال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسانُ

عمدة القاري ١: ١٣٢، تحفة الأحوذي ٧: ١٧٣.

وينفعل انفعالاً لا حدود له.

وتوجد في تاريخنا كلمات عجيبة من حيث افتراؤها وأثرها، وليس هناك أي محاولة جدّيّة لتصفيته من هذه الكلمات وإخراجها من قاموسه. بل إنه توجد هناك مفاعلات في تاريخنا تتفجّر، وهي مفاعلات صادرة من أُناس لهم علم واسع، مثلاً تجد مفسّراً يقول: «إن الشيعة يبيحون الأكل إلى طلوع الشمس في شهر رمضان». فهل الكذب علينا حلال؟ وعلى اي مصدر اعتمد هذا؟ ولماذا افترى على طائفة كبيرة من المسلمين؟ وهي فرية إذا قرأها مسلم من فرقة أُخرى فسيقول: إن هؤلاء كفرة؛ لأنهم يخالفون القرآن الكريم الذي ينهى الإنسان عن الأكل بعد طلوع الفجر. فالإمساك يجب أن يكون قبل الفجر. وهكذا نرى أن هؤلاء سيحكمون علينا بالكفر عند قراءة ذلك في أمثال هذه الكتب.

وهناك كلمات عديدة من هذا القبيل بالعشرات، فتجد فرقة تعتدي على فرقة أُخرى، فمثلاً الخطيب البغدادي يقول: زقّ خمر أفضل عند الله من أبي حنيفة. وهذا كلام شخص لا يشعر بالمسؤولية ولا يحترم الناس، فأبو حنيفة له مذهب ومقام، وإذا خالفني في العملية الاستنباطيّة فلن يضير ذلك. إن المفروض أن نتحلّى بجنبة أدب الكلام.

ونظام الإسلام يتميّز بمسؤوليّة الكلمة، ومجتمعه يجب أن تتوفّر فيه هذه الحالة، فالقرآن يقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

المبحث الرابع: الإنسان بين نجدين

ثم تقول الآية التي بعدها: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وهذه الآية فيها رأيان للمفسّرين:

---

(١) ق: ١٨.

الرأي الأوّل: طريق الخير وطريق الشر

ويستند هؤلاء إلى رواية عن النبي ﷺ حيث يقول: **«انما هما نجدان: نجد الخير والشر»**. والنجد في اللغة: الطريق المرتفع [١]. فالخير والشرّ نجدان، أي بارزان، فكلاهما معروف لدى الناس. يقول الله تعالىٰ: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾** [٢]، أي أننا لم نطبع عليه سلوكاً معيّناً، وحاشا لله أن يجبر أحداً على سلوك معين، ويعذّبه عليه؛ فهذا ظلم والظلم قبيح على الله عزّ وجلّ. إذن هذا غير ممكن، فإنّ الله تعالى منح الإنسان هداية وعقلاً، ووضّح له السبل، وقال له: هذا طريق الخير، وهذا طريق الشر، فابتعد عن الشرّ واسلك طريق الخير.

ويكمل النبي ﷺ قوله: **«فلا يكن نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير»** [٣]. فالنبي ﷺ يرشدنا أي السبيلين يجب أن نختطّ.

الرأي الثاني: هما ثديا الأم

وهو مروي عن سعيد وابن عباس والحسن؛ لأن الثديين مرتفعان عن سائر الجسم، فسميا بالنجدين. وعلى هذا الرأي يكون معنى **﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾** أن القرآن الكريم يهدينا إلى مصدر الغذاء قبل أن نتعلّم الطرق الكفيلة بتحصيله. وهو يصف حال الإنسان عندما يخرج من بطن أُمّه بقوله: **﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [٤]. فعندما ينزل فإنه ينزل خالي الذهن، فمن الذي علّمه التقام الثدي وامتصاصه بحركة رحوية، وكأنما درّب عليها؟ إنها الغريزة التي تولد معه، والتي هداه الله

---

(١) الصحاح ٢: ٥٤٢ ـ نجد. (٢) الإنسان: ٣.
(٣) تفسير الثعلبي ١٠: ٢٠٩، التفسير الكبير ٣١: ١٨٤، وانظر الأمالي (المرتضى) ٤: ١٩٧.
(٤) النحل: ٧٨.

تعالى إليها. ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، فعندما يولد يلتقم الثدي ويأنس به.

وهنا نقطتان يريد الله تعالى أن ينبّهنا إليهما:

الأولى: أنه تعالى يريد أن يذكّرنا بأننا قد خرجنا من نطاق الأم الكبرى (الأرض)، ثم صرنا أجنّة، ثم خرجنا من نطاق الأم الثانية. والغاية من هذا أنه تعالى يريد أن يذكّرنا بالأم الصغرى؛ فإنّ أول من يكفل لنا الغذاء والمحبّة والدفء هو ثدي هذه الأم؛ لأن ما يوفّره هذا الثدي ليس لبناً فقط، بل هو يغذّينا مع اللبن المحبّة والدفء. لكن الكثير من الأُمّهات حفاظاً على رشاقتهن يعمدن إلى أن يعطينه اللبن الصناعي، وهكذا سينشأ ولم يأخذ كفايته من حنان الأُم. فالولد لا يشرب اللبن فقط، ولبن الأُمّ لايضاهيه لبن آخر في الدنيا؛ لأنه من صنع السماء، وليس فيه أي ضرر أو مضاعفات.

إذن فالله تعالى قد كيّف لبن الأُمّ، وقد كتب عنه العلماء وخصوصاً في أيّامه الأُولى وذكروا أن فيه مادة مطهّرة للمعدة. لكن البعض يخرج عن اختصاصه، والإنسان متى ما خرج عن اختصاصه وتكلّم خارجه، فإنه سوف يقع في مشكلة؛ لأنه حينها سوف يخبط خبط عشواء، وسيطأ أرضاً ليست بأرضه. ومن هذا ما يذكره ابن قيم الجوزيّة حيث يقول: إن لبن الأُمّ في أيّامه الأُولى يضرّ الطفل؛ لأن فيه موادّ تؤذيه. ونقول له: إن هذا ليس من اختصاصك، فاترك هذا للأطباء الذين كتبوا تقارير ضخمة عن أهمّية هذا اللبن.

الثانية: أن هذا اللبن غذاء نفسي، فكلّما أخذ منه الرضيع مصّة فإنه يأخذ معها مصّة من الحنان والعاطفة، فيلتصق بصدر أُمّه، ويشعر بحنانها، يقول أحد الشعراء:

أمّي لصدرك عندي ألف منقبة	هيهات تغرب ذكراها وتندثرُ
أيام يحملني صدر ويطعمني	ثدي وبينهما أُطوىٰ وأنتشرُ

أمّي إذا كانت الجنّات مصدرها | من تحت رجليك فيما ينقل الخبرُ
فما بصدرك من خير ومن كرم | يظلّ أكبر ممّا تحدس الفكرُ (١)

فهذه لحظات عطاء، ويبقىٰ الطفل يحنّ إلى أُمّه حنيناً لا حدود له عند التصاقه بالثديين؛ حيث يمتصّ الغذاء المعنوي والمادي.

فالقرآن يريد أن يذكرنا بهذه النعمة، والرضيع يتلهّف لتلك اللحظات، ويبتسم للثدي، وهذا أحد شعراء الطفّ يصوّر لنا موقفاً من مواقف الطفّ، وذلك حينما مرّ السهم بطفل الحسين ﷺ، فقد حسب أن بريق السهم هو بريق حلية علىٰ صدر أُمّه، فتبسّم له، فيقول:

وكل رضيع يغتذي ثدي أُمّه | ويرضع من ألبانها ثم يفطمُ
سوىٰ أن عبد الله كان رضاعه | دماء وغذّته عن الدرّ أسهمُ
تبسّم لما جاءه سهم حتفه | وكلّ رضيع للحلوبة يبسمُ
تخيّله ماء ليروي غليله | ففاض عليه الغمر لكنه دمُ

رجع الإمام الحسين ﷺ بعد أن وقف أمام القوم ودعاهم قائلاً: **«ويحكم لقد جفّ ثدي أُمّه من اللبن؛ فإنْ كنتم تخافون أن أشرب الماء، فخذوه بأيديكم واسقوه قليلاً منه».**

فدعىٰ الأقوام ياللّه للخطب الفظيعْ
نبّئوني أأنا المذنب أم هذا الرضيعْ
لاحظوه فعليه شبه الهادي الشفيعْ
لا يكن شافعكم خصم لكم في النشأتينْ (٢)

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦.

(٢) نيل الأماني ديوان الشيخ حسن الدمستاني (قصيدة أحرم الحجّاح): ١٩٠.

يقول حرملة: فانقسم المعسكر بين موافق على أن يسقى، وبين رافض، فخشي ابن سعد الفتنة، فصاح بي وقال: ياحرملة، اقطع نزاع القوم. فجعلت أتأمّل أين أضرب الرضيع، فجاءت ريح كشفت البرقع عن عنقه، فتراءىٰ لي، فضربته وذبحته من الوريد إلى الوريد. ونرىٰ أُمّه ليلة الحادي عشر عندما حملته وكانت بين مصرعه ومصرع زوجها الحسين، يقول الإمامعليه السلام: **«لقد كان طفل جدي الحسين في قماطه لما أحسّ بحرارة السهم، فانتزع يديه من القماط واعتنق رقبة والده وجعل يرفرف كالطير المذبوح»**.

ولو تــراه حــاملاً طــفله ... رأيت بــدراً يــحمل الفــرقدا

مُـخضّباً مـن فـيض أوداجـه ... ألبسه سهم الردى مجسدا[1]

---

(١) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

﴿١٤٥﴾

أُمّيّة الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّـيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأول: وجه الجمع بين النبي والرسول

يفرق العلماء بين النبي والرسول، فالرسول هو من يرسل ويبعث للناس عامّة، أما الذي يبعث إلى منطقة خاصّة كأن تكون مدينة أوقرية فهو نبي. والرسول يجمع الاثنين؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول.

لكن يرد هنا سؤال هو: لماذا جمعت الآية بين الرسول والنبي؟ وما هي الحاجة للنصّ على النبوّة والرسالة؟ إن هذا سيتّضح من خلال البحث إن شاء الله تعالىٰ، إن وجه التأكيد على (الرسول النبي) في الآية هو أنها تريد أن تبيّن أن الأشياء التي

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

يأمر بها وينهىٰ عنها ليست من عنده، بل هو مجرّد رسول يحمل رسالة السماء، أي أنه واسطة وقناة بيننا وبين السماء التي تأمره وهو ينفّذ. وهذا الجانب له أثر نفسي، فعندما يعرف الإنسان أن هذه الأحكام من الإنسان نفسه وليست من السماء، فليس من السهل أن يتّبع صاحبها؛ لأنه بشر يخطئ؛ ولهذا فإننا حينما نتّبع الفقيه فليس لشخصه، بل باعتباره ممثّلاً للشرع ولرأي الإسلام، فهو إنما يستنبط الأحكام الشرعية من الآية أو من الرواية.

فعندما نعرف أن الحكم من الله، وأن الرسول هو ناقل للحكم، فحينها نقول: إن الله هو الذي يحكمنا ويوجّهنا، وإن الرسول مجرّد واسطة بين الأرض والسماء. وهذا المعنىٰ يخفّف الوطأة على النفوس.

تقول الآية الكريمة: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ**﴾، وهي تصف النبي ﷺ بالأمية، فما هو وجه الوصف هذا؟ وربما يقول قائل: إن الأُمية جهل وعمىٰ، ولذلك فإن الدول الراقية ترصد أموالاً ضخمة لتخليص شعوبها من الأُمية، فالأُمي يعيش في ظلام الجهل، فكيف يكون هذا الحال مع الرسول ﷺ؟ إن عندنا نوعين من الأُمية، هما الأُمية الحضارية، والأُمية الأبجدية. والمقصود هنا في هذه الآية الكريمة الأُمية الأبجدية، والأُميّة الأبجديّة هي التي لا يجيد صاحبها القراءة والكتابة، في حين أنه حضارياً يمتلك معلومات لا حصر لها، أما الأُميّة الحضارية فيقصد بها الأُمية التي لا يملك الشخص معها مقوّمات المعرفة، والمعلومات، بل إن ذهنه خالٍ من أي شيء، ويفتقر إلى الفكر الثقافي.

إذن فالآية الكريمة إنما تنعت النبي ﷺ بالأُمية الأبجدية، أي أنه ﷺ لا يقرأ ولا يكتب.

لكن مع هذا يبقى الإشكال وارداً، وهو أن الأُمية نقص، والنقص لا يمكن أن

يكون في النبي، فلماذا أرسل الله نبيّاً أُميّاً؟ إن هناك أُمية عند البعض، لكن مع قدرته على ممارسة القراءة والكتابة لو أراد ذلك، فنعبّر عنه بأنه أُمّي؛ لأنه لم يمارسها، لكن القابلية على القراءة والكتابة موجودة. وهناك من يميل لهذا الرأي، فيقرّر بأن النبي ﷺ يستطيع أن يقرأ ويكتب لكنه لم يمارسها.

إن الأُمية إذا كانت عند الناس نقصاً، فإنها عند النبي فضيلة؛ لأن قريشاً ستتّهمه بأن القرآن كان من عنده، وهكذا فلو أنه ﷺ كان يقرأ ويكتب فإن التهمة ستثبت عليه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[1]، فأراد الله جلّ وعلا أن يبيّن أن النبي ﷺ أُمي لا يعرف القراءة والكتابة، ولأجل هذا فالقران ليس منه؛ لأن الذي يخطّه لابدّ أن يحسن القراءة والكتابة. فالله تعالى يريد أن يدفع هذه الشبهة. ومع كلّ هذا فإننا لازلنا إلى الآن نسمع من المستشرقين وأعداء الإسلام وبعض الغربيين أن النبي ﷺ هو الذي اخترع القرآن ليحكم العرب، ووعدهم بالجنة وخوّفهم بالنار. فالعرب تنقصهم روضة خضراء، وأنهار وثمار متنوّعة؛ لأنهم يعيشون في الصحراء، فصوّر لهم جنة الله الواسعة التي فيها هذه الأشياء.

فانظروا إلى هذا التفكير الأبله، فإنّ النبي ﷺ لم يبعث للعرب فقط، وإنما بعث للدنيا كلّها، ومن جملته أُوروبا، وأوروبا عبارة عن جنّات بالنسبة لبعض بقاع الأرض، فما قيمة وعدهم بالجنة؟ هذا فضلاً عن أن كل الكتب السماوية تصوّر الجنّة بالصورة نفسها التي يصوّرها القرآن، مع أن التوراة والإنجيل نزل قسم منهما في أوروبا. ثم إن هؤلاء ليسألوا أنفسهم عن هذه المفاهيم الحضارية الموجودة

---

(١) الفرقان: ٥. ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾. العنكبوت: ٤٨.

في القرآن من أين جاء بها النبي ﷺ، وهو يعيش في الجزيرة العربية التي كانت تعيش الجاهلية، ولا تمتلك مصادر العلم والمعرفة، فكانوا يعيشون أنماطاً من العقائد التافهة في الجزيرة العربيّة؟ ومن هذه الأنماط أن أحدهم إذا مرض فإنهم ينجّسون ملابسه حتىٰ يطردوا الشرّ أو الجنّ عنه، يقول أحدهم:

فلو أن عندي جارتين وراميـاً　　　وعلّق انجاساً عليّ المعلق(١)

فمن أين جاء النبي ﷺ بهذهِ المعلومات الضخمة الموجودة في القرآن لو لم يكن من الله عزّ وجلّ؟ فهؤلاء يطعنون في القرآن ولم يتنبّهوا إلى الثغرات التي ترد عليهم. فالإسلام يحمل للدنيا زاداً لاينقطع، ويضع لها مبادئ ليصلحها، وفي القرآن قواعد عامّة لكل ذلك.

إذن فالاُمية التي أشار إليها القرآن فضيلة بحق النبي ﷺ؛ لأنها تنفي وتطرد تهمة أنه ﷺ قد خطّ القرآن بيده.

المبحث الثاني: كتمان الحقّ

ثم قالت الآية: ﴿**الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**﴾، أي أن هؤلاء قد اطّلعوا على وصف النبي ﷺ في التوراة ووصفه في الإنجيل، لكنهم لا يبشّرون به؛ لأنهم إذا بشّروا به فقدوا مراكزهم الدينية ووظائفهم، ثم إنهم بعدُ لا تهمهم الحقيقة. سألوا مروان: هل تعتقدون أن الإمام علياً قد اشترك في الأحداث ضدّ الخليفة الثالث عثمان؟ قال: معاذ الله، وإن الإمام علياً أبرأ الناس من هذا، بل إنه بعث أولاده للدفاع عنه. فقيل له: فلماذا تشيعون بين الناس بأنه قد شرك في دم الخليفة الثالث؟ قال: لأن أمرنا لا يستقيم الّا بهذا(٢).

---

(١) البيت للمزق العبدي. شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٩٨.
(٢) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

فهذا الرجل صادق مع نفسه، ونحن نرىٰ في تاريخنا الكثير ممّن إذا مرّ بذكر الإمام علي عليه السلام أعرض عنه، وإذا مرّ برواية له أعرض عنها، مع أنه تراث إسلامي كبير؛ فإنّ أهل البيت عليهم السلام للناس كافّة، وإن آل محمد عليهم السلام عطاء للأُمّة الإسلامية كلّها. ومعلوم أن ترك ذلك وعدم ذكره لأجل المكانة والمال، مع أن المفروض بهذا أنه يكتم علماً، وسيحاسبه الله عليه [1]. فنحن نأخذ الحكم الشرعي من أي مذهب إسلامي إذا استكمل الشرائط.

والأغرب من هذا أن الرشيد يبعث إلى جماعة من القضاة والمفتين ويقول لهم: إذا مررتم برأي لعلي بن أبي طالب فلا تأخذوا به. فهؤلاء وقفوا موقفاً معادياً لعلي بن أبي طالب عليه السلام بكل ما في كلمة عداء من معنى.

بل إن الرشيد قال لهم: إذا مررتم بآية في القرآن تنّوه به فأعرضوا بوجوهكم عنها. وغير خفي أن هناك روايات عديدة لأعداء أهل البيت عليهم السلام تشهّر بالإمام علي عليه السلام، لكن هذا لا يضيره، يقول الشاعر:

عِـداي لهـم فـضل علـيّ ومِـنّة ... فـلا أبـعد الرحمن عـني الأعـاديا

هُـمُ فـتّشوا عـن زلتـي فـاجتنبتها ... وهم نافسوني فارتقيت المعاليا [2]

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وهنا مكمن المشكلة، حيث إنه ﷺ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يسكت؛ لأنه وضع

(١) قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ البقرة: ١٥٩، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٤.

(٢) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

يده على مكامن النقص في حضارتهم، فوقفوا بوجهه، فقد فنّد مزاعمهم، وأبطل الكثير من معتقداتهم.

المبحث الثالث: معنى الطيّبات والخبائث

نأتي إلى المقطع الأخير من الآية الكريمة، وهو مركز الثقل فيها، حيث يقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، إن للمفسّرين هنا آراء حول هذا المقطع الشريف، سوف أُجمله ببعض النقاط:

النقطة الأولى: أن الإسلام مساوق للفطرة

يقول بعض المفسرين: إن الإسلام مساوق للفطرة، أي أن المستلذّات النفسية يبيحها الإسلام، أما الأشياء التي تنفر منها الطباع والنفس فإنه يحرّمها، فالطيّبات هي ما كانوا يستطْيبونه، والشيء الطيّب محلّل لهم، أما الخبائث فهي الأشياء المستقذرة، فقد حرّمها الإسلام عليهم. وهو بهذا يساوق الفطرة، أي يسير مع الطبع. وهذا الرأي غير مقبول؛ لأن هذه القضايا أُمور نسبية، فقد تجد بعض الأُمم تستطْيب شيئاً، في حين أن أُمماً أُخرى تنفر منه، فالأوروپيون مثلاً يأكلون حيوانات عجيبة يستخرجونها من البحر، بل إننا نجد هذا حتى عند بعض المسلمين، كما أن بعض المسلمين يأكلون الأرنب والضبّ في حين أن بعض المسلمين لا يطيقون أكل ذلك كله.

وبغضّ النظر عن آراء الفقهاء في حلّيتها وحرمتها، فإن هناك شعوباً تتذوّق هذه الأكلة، وغيرها لا تتذوّقها. فالطيّبات إذن لا يمكن أن نعتبرها عنواناً عامّاً، والقرآن عندما يذكر الطيّبات والخبائث لا يترك الذوق يتحكّم بهذا؛ فنحن نتبع ما قاله الله في الطيبات والخبائث من أن هذا طيّب وهذا خبيث حسب ما قاله الله تعالى لنا؛ لأننا لا نعرف أسرار الأشياء.

الآثار الوضعيّة للأطعمة

ومن المعلوم أنه توجد آثار نفسية لبعض الأكلات، وقد تُعرّض آكلها لإصابته بالمرض بعد ذلك. ولذا فإننا يجب ألّا نتدخّل في تخطيط السماء، ولا في تكليفها، فما هو حجم الإنسان من الدنيا لكي يقابل الله؟ إن هذا هو منتهى الغرور.

وعليه فهذا الرأي ـ وهو أن الدين مساوق للفطرة فيما نحب ونكره ـ لا يمكن أن نقبله، فإن هناك أشياء قد ترفضها الفطرة، مع أنها تترتّب عليها مصلحة جسدية لا نعرفها.

فعلينا إذن أن نتّبع ما رسمته السماء لنا، فالمشرّع الإسلامي أعطانا مواصفات السمك الحلال، وحيوانات البر إذا لم تكن من الحشرات ومن السباع، وليس لها ناب أو ظفر فهي حلال، أما إذا كانت من الحشرات والسباع فهي من الخبائث. وكذلك أعطى مواصفات الطير فإذا كان صفيفه أكثر من دفيفه أو إذا لم يملك حوصلة فهو حرام. فالله تعالى بيّن لنا ذلك كلّه، وهو الحكيم، بل هو خالق الحكمة.

النقطة الثانية: في الحسن والقبح الذاتيين

إن قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ يقرّر أن هناك حسناً وقبحاً ذاتيين للأشياء. وهذه المسألة موضع نزاع بين المذاهب الإسلامية، فمتى نسمي هذا الشيء حسَناً ومتى نسميه قبيحاً؟ المذاهب الإسلامية تقول: إن القبيح ما قبّحه الله، والحسن ما حسّنه الله؛ فإنه يجوز لله أن يعذّب المطيع، ويرفع العاصي ويدخله الجنّة، فالذي يقضي عمره بالصلاة والصوم والعبادة لا ضير في أن يضعه الله في النار، والذي يقضي عمره بالفجور والرذائل لا ضير في أن يضعه الله في الجنة. فهو تعالى يفعل ما يشاء.

وهذا الكلام غير مقبول، لأن هذا ظلم، والظلم قبيح، والله تعالى لا يقدم على القبيح، وبالتالي لا يقدم على الظلم. فإذا نعّم العاصي فإنه فرّق بين المقاييس، والله تعبّدنا بالعقول والمقاييس. ولذا فإن ابن قيم الجوزية (وهو تلميذ ابن تيمية) يذهب إلى الحسن والقبح العقليين، أي أنه لا يذهب إلى أن الحسن والقبح هما ما حسّنه وقبّحه الشرع. فالشرع يرشد إلى الحسن والقبح العقليين، وهذا الذي عليه الشيعة. سألوا أعرابياً: بماذا بعث الرسول ﷺ؟ قال: إنه لم يجئ بشيء وقال عنه العقل: إنه قبيح، ولم ينهَ عن شيء وقال عنه العقل: إنه حسن؛ فهذا دليل علىٰ أنه علىٰ حقّ. فهذا الأعرابي أفضل من هؤلاء الذين يقولون: إن الحسَن ما حسّنه الشرع، والقبيح ما قبّحه الشرع، ومن يقل بأن الله يمكن أن يأتي بشريعة ثم يأتي بضدّها فليراجع متبنياته العقلية والفكرية.

فهذا المقطع من الآية نستدل منه على أن الأشياء لها صفة ذاتية، أما الأشياء المادّية أو بعض الأعمال فنحن نعرف أن بعضاً منها قبيح، كالسرقة والخيانة قبل أن يقول الشارع لنا ذلك، وكذلك الإحسان إلى الناس فهو أمر حسن قبل أن يقول لنا الشارع بأنه أمر حسن. والشرع إنما يرشد لهذا؛ فإنّ العقل نبي داخلي والشرع نبي خارجي.

ومن لم يكن لديه عقل فإن الله لا يكلّفه، فالأبله لا يكلّف، ذلك أن العقل مناط التكليف وملاكه، أي أن له القابلية على تمييز الأشياء، ومعرفة القبح والحسن، وأن الله تعبّدنا بهذا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، و: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾[2]، أي ذي عقل، و: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ

(١) الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤. (٢) الفجر: ٥.

﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

فالله يأمرنا أن نحكّم عقولنا ونفكّر، ولو لم يكن العقل حجّة ما أحالنا إليه، ومن هذا نعرف أن الله تعالى تعبّدنا بالعقول، والإنسان إذا جُرّد من العقل فإنّ الحيوان يصبح أفضل منه، وإذا أُلغي العقل أُلغي التكليف، والله لا يأمرنا بما يخالف العقول، فإنّ الله عُبد وعُرف بالعقل.

سأل النبي ﷺ عجوزاً: كيف عرفت ربك؟ قالت: إن عندي دولاباً ألفّ عليه المغزل، يشتغل بحركة يدي، ويتوقّف إذا لم أُحرّكه، وأنا أرىٰ الشمس تطلع وتغرب، والأرض تمرّ بأحوال مختلفة حيث الليل والنهار، والمراسم كلاًّ في وقته، فعلمت أنه لابدّ من وجود أحد يديره، فإذا كان هذا الدولاب لايتحرّك إلّا إذا حرّكته فكيف بهذا الكون؟ فهذا تحكيم للعقل، فالأشياء لها حسن وقبح عقليان.

النقطة الثالثة: الحرية الفكرية

إن هذا المقطع الشريف يدلّ على تحرير البشر من المؤسسات التي تتحكّم في تفكيره؛ لأن السماء هي التي تحدد لنا الطيّب والخبيث بمساعدة عقولنا. فالله تعالى خلق لنا هذه العقول ومنحنا القدرة على التفكير، ووضع لنا القواعد التي نستطيع عبرها أن نعرف الصحيح من غيره. فهذه الضوابط هي من وضع السماء، وليست من هؤلاء الذين يطرحون رأيهم بلا دليل كالأحبار والرهبان، فهؤلاء مثلاً كانت أغلب آرائهم مناطها التحكّم[2]، كما في مسائل الزواج والطلاق، حيث أباحوا زواج المحارم كالمجوس، فإن المجوسي يباح له أن يتزوّج بنت أخته وبنت أخيه. وهذا بخلاف الإسلام الذي يأمر بالزواج من الأباعد؛ لأن هذا الفعل

---

(١) الحجّ: ٤٦.

(٢) التحكّم: هو كل دعوى بلا دليل يعضدها.

سيؤدّي إلى أن يغرس المحبّة بين عائلتي الزوجين، فحينما يضمّ الزوج أُسرة جديدة إلى أُسرته، فإنه يكون قد نشر المحبّة بينهما، وهذا من جملة أهداف الزواج. فبهذا الزواج تقترب هذه القبيلة من تلك القبيلة، وتتبادل المحبّة والولاء بينهما، ويُتخلّص من البلايا التي تحدث عند الزواج من الأقارب.

فهؤلاء الأحبار والرهبان يتحكّمون بالزواج كما يتحكّمون بالطلاق، حيث يمنعونه ولا يبيحونه. وليس هذا مقتصراً على هؤلاء، فبعض المذاهب الإسلامية لها أُمور عجيبة في الطلاق، فمثلاً إذا قال الرجل لزوجته: أنت بتّة فقد طلقت(١)، أما عندنا فلا يقع الطلاق إلّا بلفظ الطلاق. كما أنهم يجيزون طلاق السكران(٢) الذي يفقد عقله، فتنهدم الأُسرة بقول السكران. وقد اُلغيت الطلقات الثلاث في جمهورية مصر مؤخّراً، واعتبرت واحدة، ذلك أن عندهم لو طلّق الزوج زوجته بالثلاث أصبح طلاقاً بائناً، وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره.

فالأحبار والرهبان كانوا يتحكّمون بالطلاق والزواج، ونحن نشاهد مقدار المفاسد التي تترتّب على بعض الزيجات، فربما لاتنسجم حياة الرجل مع المرأة، فلابد من الطلاق حينها، صحيح أنه أبغض الحلال عند الله(٣)، لكن إذا تعذّرت الحياة فلابدّ منه.

إذن فبيان الحلال والحرام من اختصاص السماء وليس من اختصاصنا نحن، فالعرب مثلاً كانوا يتحكّمون بالسوائب والفواصل، فالبعير إذا خرج من ظهره عشرة اعتبروه سائبة فلا يأكلونه، ويقولون: إنه حامٍ، أي حميَ ظهره، وكذلك

---

(١) الأُم ٥: ١٢٤، الشرح الكبير ٢: ٤٠٢، المبسوط (السرخسي) ٦: ٧٩.

(٢) مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

(٣) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

الحال مع البحيرة التي هي ناقة تلد خمسة بطون، فيبحرون أُذنها، ويرسلونها فلا يستفيدون من لحمها. فهؤلاء كانوا يتحكّمون بهذا. فجاء الدين وقال لهم: إن الله هو الذي يبيّن لكم الحلال والحرام، فشأنه ليس لكم ولا بأيديكم: ﴿قُلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[1].

إن بعض المذاهب الإسلامية تذهب إلى أنه لا يوجد حكم ثابت عند الله، وإنما الحكم ماحكم به المفتي، ونحن نقول: إن الله له حكم في كل واقعة، والفقيه أو المفتي إنما يبحث عن الحكم، فإنّ أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، فهي إنما تقرّر أن السلطة بيد الله، ولو أنها أُعطيت للإنسان فإنه سيتحكّم بغيره من أبناء جلدته، صعد الحجاج على المنبر وقال: اسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلّت لي دماؤهم وأموالهم. والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً[2].

وهذا لون عجيب من التحكّم بعباد الله، وهذا وأمثاله[3] هو الذي دفع بالحسين عليه السلام إلى أن يقف بوجه هذا التيار الجاهلي الذي حاول أن يظهر مرّة أُخرى علىٰ الساحة الإسلامية، ويقف بوجه رسالة السماء، فاستحلّ أصحابه به المحارم، فرأىٰ الحسين عليه السلام أنه لابدّ من جولة للوقوف بوجه الطغيان الذي تحكّم بعباد الله،

---

(١) يونس: ٥٩.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٤٠٠ / ٤٦٤٣، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٥٩، البداية والنهاية ٩: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٣) كفعل مسرف بن عقبة حينما أخذ البيعة ليزيد من أهل المدينة بعد وقعة الحرّة، حيث إنه كان يقول للمبايع: تبايع علىٰ أنك عبد قِنّ ليزيد. تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

وقد كلّفه هذا ثمناً غالياً دفعه من بيوت آل محمد ﷺ كافّة، فقدم قرابين من أجل تحقيق إرادة الله، وضحّىٰ هذه التضحية لأجل رسالة السماء.

كان عمرو بن سعيد الأشدق والياً على المدينة، وكان آباؤه وأجداده قد قتلوا في واقعة صفين، فبعث إليه يزيد برأس الحسين عليه السلام إلى المدينة؛ حتىٰ يشمت به ويبرد غليل قلبه، فأخذ الرأس وصعد على المنبر وقال: يا محمّد، ثار بثارات بدر. ومرّت عليه مواكب النساء الأرامل واليتامىٰ من آل محمد فتمثل بهذا البيت:

عجت نساءُ بني علي عَجةً ... كعجيجِ نِسوَتِنا غداةَ الأرنبِ[1]

وبالفعل تشفّىٰ منهم، في حين أن بيوت آل محمد يمرّ عليها الليل وهي تعانق الأسى واللوعة، فهذه زينب عليها السلام تأتي إلى مكان الحسين عليه السلام فتجده خالياً، وأُم البنين تخرج للبقيع وتندب أبناءها، وقد بكىٰ مروان لها مرة حينما سمعها، وكانت تخطّ بإصبعها أربعة محاريب وتقول: كان لي أولاد محاريبهم عامرة بذكر الله، والآن محاريبهم خالية، ثم تندبهم:

لا تدعونّي ويكَ أمّ البنينْ ... تذكّريني بليوثِ العرينْ

كانت بنون ليَ أُدعىٰ بهم ... واليوم أصبحت ولا من بنينْ

أربعة مثل نسور الربىٰ ... قد عالجوا الموت بقطع الوتينْ

يا ليت شعري أكما أخبروا ... بأن عباساً قطيع اليمنْ[2]

---

(١) الإرشاد ٢: ١٢٣.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨١.

﴿١٤٦﴾

اليهود في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: فيمن يحمل الكتاب ولا يعمل به

إن الهدف من التمثيل هو تقريب المعنى لذهن السامع، فالمسألة إذا كان فيها خفاء يضرب لها مثل محسوس حتى تقرّب إلى ذهن السامع. فوظيفة المثل تبيانية، ومن الأمثلة التي جاء بها القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[2]، فإنه يريد أن يبيّن أن هؤلاء الذين يجمعون أموالهم من السحت والحرام هي أموال أشبه شيء بالنبات اليابس الذي يقع عليه المطر ويحطمه، وتأتي الريح القوية فتأخذه وترميه في الفضاء، فيتبدّد يميناً وشمالاً. فالثروة التي

---

(١) الجمعة: ٥.
(٢) الكهف: ٤٥.

يكون مصدرها الحرام فإنّ مصيرها التبدّد. فالله تعالى يضرب لنا مثلاً حسياً ليقرّبه إلى أذهان الناس.

فالآية الكريمة موضوع المقام نزلت في اليهود الذين حملوا التوراة، أي كلّفوا بحملها، فحمّل الشيء: كلّف به. فالله تعالى حينما حمّلهم التوراة كلّفهم أن يعملوا بمضمونها، فقال لهم: إن التوراة هي دستور الحياة، فيجب عليكم أن تطبّقوا المفاهيم الواردة فيها على ساحة الواقع، فتطبّقوا الحدود والوصايا والنظم التي احتوتها.

فلمّا نزلت التوراة وقرأها الأحبار، رأوا فيها أشياء لا تروقهم، فمثلاً جاء فيها تبشير بالنبي محمد ﷺ، وليس من مصلحتهم أن يدعوا لنبوّته، بل إن عندهم مؤسسات قائمة على اليهودية، تدرّ عليهم أموالاً، وهي مرتبطة بالدولة. وعليه فإنّ مصالحهم ستذهب إذا أخبروا أتباعهم بالأحكام التي تلتقي مع الإسلام، وهم يريدون كياناً متميّزاً. وهنا جاء القرآن الكريم مخبراً عنهم: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾**.

إن هذه المسألة لا تخص اليهود فقط، فليسوا هم وحدهم من لم يحملوا مضامين كتابهم، فهناك الكثير ممّن نزل عليهم القرآن ولم يعملوا به، وكأن القرآن نزل للقراءة صباحاً فقط أو لتحلّى به الأعناق للبركة. إن القرآن فيه مضامين عالية علينا أن نطبّقها، فنحن حُمّلنا القرآن للتكليف، وحكمنا عندما نترك القرآن كحكم اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة، وسيلحقنا الذمّ. فعلينا أن نعرف مضامين القرآن ولا نقع ضمن دائرة قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾**[1].

والعلاقة بين الإعراض عن ذكر الله وبين ضيق المعيشة أن تطبيق مبادئ غير

---

(١) طه: ١٢٤.

مبادئ القرآن كالرأسمالية والاشتراكية وتطبيق المذاهب ومجموعة النظم الاقتصادية الدخيلة ـ وكلها لا تحلّ أي مشكلة ـ هو الذي يؤدّي إلى حصول هذا الضنك في المعيشة. فلماذا لا نجرب الاقتصاد الإسلامي وننزله إلى الساحة، فنعالج نظريات التوزيع، ونظريات الإنتاج، ونظريات البيع والتبادل، على ضوء النظام الإسلامي، ولنرَ حياتنا هل ستصبح مرفّهة أم لا؟

فنحن نجد الآن في أرقى الدول أُناساً لا يملكون مأوى أو طعاماً، فنجد إنساناً يفترش الأرض ويلتحف السماء، ونجد الجوع منتشراً، ونسمع بالمشاكل الاقتصادية تنتشر في كل مكان في حين أنهم ينفقون الأموال لأجل إطعام كلب وتنظيفه. يحدّثنا التاريخ أن الناس في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز كانوا مكتفين اقتصادياً، فكانت السلطات تأخذ الزكاة من الأغنياء فلا تعثر على مستحقّ لها في بعض المناطق لعدم احتياجهم لذلك.

فهل قمنا بدراسة العلاقة بين الإعراض عن ذكر الله تعالى وبين ضنك العيش في الآية: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾ دراسة جدية وواقعية؟ بل أكثر من هذا نجد أن جامعاتنا لا تدرّس الاقتصاد حسب رأي الإمام الصادقعليه السلام أو رأي أبي حنيفة أو مالك، فلماذا لا نأخذ رأي محمد بن عبد اللهصلى الله عليه وآله وسلم، وهو رأي الإسلام؟ إن الواجب علينا أن ننظر إلى ما كتبه فقهاء المسلمين حول المسائل التي لها علاقة بالاقتصاد، وأن نضع لنا منهجاً في دراستها.

إذن يوجد عندنا أُناس يحملون القرآن ولا يعرفون مضمونه، بل يوجد أُناس لا يعرفون ماذا يوجد في القرآن، كالبعير يحمل الأثقال ولا يعرف ما هي، فهو يحمل القرآن ولا يعرف نسبته إلى المذاهب الاجتماعية الأُخرى. إن في القرآن أكثر من (٧٠) آية نزلت في حقّ علي بن أبي طالبعليه السلام، وهذا الأمر تذكره حتى

المذاهب الإسلامية الأُخرى[١]، ومع كل هذا نجد من يقول: إن علي بن أبي طالب بدري، وحاطب بن أبي بلتعة بدري أيضاً، أي كلاهما سواء. فصحيح أنهما بدريان، لكن من يقول: إنهما سواء؟ إن من يقول: **«سلوني سلوني، فوالله لا تسألونني عن آية من كتاب الله إلّا حدثتكم عنها بمن نزلت بليل أو بنهار، أو في مقام أو في سهل أو في جبل، وفيمن نزلت؛ أفي مؤمن أو منافق»**[٢]، هل يمكن أن نضعه في مصافّ من لا يعرف أبسط الأحكام؟

وصحيح أن حاطباً له صحبة لكنه ارتكب خطأً كبيراً حينما أراد النبي ﷺ أن يفتح مكّة، فقد كانت عائلة حاطب بن أبي بلتعة في مكّة، فعرف أن النبي ﷺ سيفتح مكّة فأراد أن يفعل جميلاً لقريش، فيخبرهم أن النبي ﷺ استعدّ لغزوهم؛ حتى يحفظوا له الجميل، ولا يؤذوا عائلته.

فكتب رسالة وأعطاها لسارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، وكتب فيها: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم.

فأخذت الرسالة ووضعتها في عقيصتها (شعر رأسها) وخرجت، فهبط جبرائيل عليه السلام، وأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ لها من يأتي بالكتاب منها، فأخبرتهم بأن لا كتاب معها، وحلفت على ذلك. فعادوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أن ليس معها كتاب، وأنها قد حلفت على ذلك، فأرسل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعماراً والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وعمر

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنه: «نزل في علي ثلاثمئة آية». الصواعق المحرقة: ١٢٥، كفاية الطالب: ٢٣١، تاريخ الخلفاء (السيوطي): ١٧٢، نور الأبصار: ٧٣، إسعاف الراغبين: ١٦٠.

(٢) سعد السعود: ١٠٩، وهو عليه السلام القائل: «أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض». نهج البلاغة / الكلام: ١٨٩.

والزبير وطلحة، وكانوا كلّهم فرساناً، وقال لهم: **«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[١]، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها»**.

فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحّوها وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرجوع، فقال الإمام علي عليه السلام: **«والله ما كَذبنا، ولا كُذبنا»**. ثم سلّ سيفه في وجهها وقال لها: **«أخرجي الكتاب وإلّا والله لأضربن عنقك»**. فلما رأت الجدّ عند أمير المؤمنين عليه السلام، أخرجته من ذؤابتها وأعطته إيّاه، فرجعوا به إلى رسول الله ﷺ.

فأرسل ﷺ إلى حاطب فأتاه، فقال له: **«هل تعرف الكتاب؟»**. قال: نعم. قال: **«فما حملك على ما صنعت؟»**. قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت لك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكّة من يمنعه، وهم عشيرته، وكنت عريراً فيهم ـ أي غريباً[٢] ـ وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول الله ﷺ وعذره، وقال له: **«قم، فقد وكلتك إلى ظاهر إسلامك»**[٣].

فهذا يخاف من أن تتعرّض عائلته إلى سوء، فأين هذا من الذي يصبح عليه الصباح وقد شهر سيفه بوجه الكفر وأخذ يضربهم يميناً وشمالاً حينما بات في

---

(١) خاخ: موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة. وذكر في أحماء المدينة، والأحماء: جمع حمي، وهي التي حماها النبي ﷺ والخلفاء بعده. معجم البلدان ٢: ٣٣٥ ـ خاخ.

(٢) لسان العرب ٢: ٧٤٤ ـ عرر.

(٣) مجمع البيان ٩: ٤٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٥٠.

فراش رسول الله؟ وهو يعرف ما الذي ستتعرّض له عائلته، لقد تعرضت عائلة علي بن أبي طالب ﵇ للإبادة، فكان الأُمويون يواجهون قبر النبي ﷺ ويقولون: يا محمّد، ثار بثارات بدر.. بدر التي قتل فيها الإمام علي ﵇ (٣٥) بسيفه، والجيش الإسلامي والملائكة قتلوا (٣٥)، فهل كلاهما سواء؟

يجب أن يكون عندنا مقاييس علمية وموضوعيّة، ونحن بهذا الشكل لا نعمل بمضامين القرآن. كان مروان بن أبي حفصة يقول:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيّدها إلا كعلم الأباعرِ

لعمرك ما يدري المطي إذا غدا ... بأسفاره إذ راح ما في الغرائرِ[1]

فالبعير لا يدري بالغرائر، لكن أنت يا مروان إذ تنتقد هؤلاء، هل أنت أفضل منهم؟ وهل أنت تحسن أن تحمل القرآن وتعمل بمضمونه؟ إنك تعرف ظلم العباسيّين وجورهم، فكيف تخاطب الرشيد بقولك:

خليفةَ الله إنَّ الجودَ أوديةٌ ... أَحلَّك اللهُ منها حيث تجتمعُ

إن أخلفَ الغيثُ لم تخلف مخائلُه ... أو ضاق شيءٌ ذكرناه فيتسعُ

من لم يكن ببني العباس مُعتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ[2]

فأين علمك الذي حملته بصدرك؟ إن هذه هي مصيبتنا، وهذه ظاهرة عامة، يرى أحدنا القذى في عين غيره ولا يرى الجذعة في عينه.

فالمسألة لا تقتصر على التوراة، بل تشمل حتى حامل القرآن، فهو معرّض لمؤاخذة عند عدم العمل به، فالقرآن إمامنا ومرشدنا ومصدر حضارتنا، فعلينا أن نأخذ من مضامين القرآن الذي ملأ كل أركان الحياة.

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٨، تفسير الثعلبي ٩: ٣٠٧، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٩٥.

(٢) لم نعثر عليها لمروان، بل لمنصور النمري. انظر تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢، ١٣: ٦٩.

فالقرآن حياة المجتمع، وعندما نزل فإنه نزل على أُناس أموات؛ فلا علم ولا أخلاق ولا استقامة، فبعثهم وأحياهم من جديد. فعلينا الآن أن نتعلم ونحيي المجتمع بأن نأخذ من تعاليمه وآدابه وأخلاقه.

المبحث الثاني: لماذا التشبيه بالحمار

وهنا يبرز هذا السؤال: لماذا ضرب الله عزّ وجلّ المثل بالحمار؟ يذكر العلماء سببين لذلك:

أولاً: يقول علماء الحيوان: إن هذا الحيوان أعنى الحيوانات، ويخضع لما يراد به، يقول أحد الأُدباء:

ولا يـقيم عـلى ضيم يـراد بـه ... إلا الأذلّان عـير الحـي والوتـدُ

هـذا عـلى الخسف مـربوط بـرمّته ... وذا يشـجّ فـلا يـرثي له أحـدُ[1]

ثانياً: أنه سهل التحميل سهل الانقياد، وإن كانت هذه ظاهرة عامّة حيث سخّر الله لنا جميع الحيوانات، لكن هذا الحيوان أكثر يسراً وسهولة من غيره عند الحمل، يقول تعالىٰ: **﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾**[2]، فصنّفها على أن بعضها للحمل وبعضها للزينة، فالفرس للزينة، والحمار للحمل. ومعنى هذا ألّا نجعل ما للزينة للحمل، ولا نجعل ما للحمل للزينة، والله تعالى إنما يعلمنا أن نضع الشيء المناسب في مكانه المناسب.

إن معظم مشاكلنا التي نعيشها جاءت من وضع الرجل المناسب في المكان غير المناسب، ووضع الرجل غير المناسب في المكان المناسب. وهذا معناه اختلاف

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٢٢، ٣: ٢٤٧، ٣: ٢٤٧، تاريخ الطبري ٢: ٤٤٩، الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٦، تفسير الآلوسي ٢٩: ٢١.

(٢) النحل: ٨.

المقاييس، فلا يوصل إلى نتيجة مطلقاً؛ لأن معناه أن تضيع الكفاءات وأهلها والعلم وأهله. يروىٰ أنه صعد أحد علماء النحو في سفينة، فأخذ يداعب الملّاح فقال له: هل تعرف كيف تعرب «سارت السفينة في الماء؟». قال: لا. قال: ذهب نصف عمرك. وبعد قليل جاءت ريح عاتية، فأوشكلت السفينة على الغرق، فقال له الملّاح: هل تعرف العوم؟ قال: لا. قال: ذهب عمرك كلّه.

إذن لكل مخلوق ميدان، فالواجب ألّا نخلط بين الميادين. فلو عرف كلّ واحد منّا تخصّصه لما أصبحنا نعيش هذه المشاكل، فالكثير من الأشخاص يدّعون ما ليس فيهم، سئل أحد العلماء عن مسألة، فقال: لا أعرفها. فقال له أحد أصحابه: لا تقل: لا أعرفها. فقال له: أنا لا أتدخّل في أمر ليس من اختصاصي، أو أنك تريدني أن أُضلّ غيري؟

فمن كان مجال عمله وتخصّصه الفقه والأُصول فليبقَ عليه، وكذلك غيره، فكل واحد له خطّة في الحياة يسير عليها. والقرآن الكريم يريد أن يعلّمنا هذا المعنى، ولذلك ضرب لنا المثل بهذا الحيوان المعدّ للحمل.

المبحث الثالث: ثغرة (العالم غير العامل)

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ﴾[1]، أي الذين حمّلوا الآيات وكذّبوا بها، وعارضوا مضمونها، وهم اليهود ونظائرهم. وهذه الحالة تعتبر إحدى الثغرات التي توجد في تاريخنا، وهو ما يسمى بـ(العالم غير العامل)، أي يحمل الحكم الشرعي ولا يعمل به، يقول أحد الشعراء:

---

(١) الجمعة: ٥.

يـا أيـها الرجـل المـعلّم غـيره ... هـلا لنـفسك كـان ذا التـعليمُ
تـصف الدواء لذي السـقام وذي الضـنا ... كـيما يـصح بـه وأنت سـقيمُ
ونـراك تـصلح بـالرشاد عـقولنا ... أبـداً وأنت مـن الرشـاد عـديمُ
ابـدأ بـنفسك فـانهها عـن غـيّها ... فـإذا انـتهت عـنه فـأنت حكيمُ
فـهناك يُسـمع مـا تـقول ويـقتدى ... بـالقول مـنك ويـنفع التـعليمُ
لا تـنهَ عـن خـلق وتأتـي مـثله ... عـار عـليك إذا فـعلت عـظيمُ [(١)]

يقول الإمام علي: **«ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بـالإجلال مـن مـعلم النـاس ومؤدّبهم»**[(٢)]. وقال: **«معلم الناس ومؤدّبهم بسيرته أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم بلسانه»**. فعلى السيرة أن تطابق اللسان، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«كونوا دعاة لنا صامتين»**[(٣)]. فكيف يكون داعياً وهو صامت، الداعية الصامت هو مـن يدعو الناس بأخلاقه، فإذا رآه الناس مستقيماً عفيفاً متأدّباً بآداب الإسلام، وليس في سلوكيّاته شذوذ وميل للاعتداء على الآخرين، فإنهم سيتبعونه لأخلاقه هذه، وسيتأثّرون به، وهذا أفضل من كثير من الدعاة ممّن يصعد المنبر ويدعو النـاس للصلاح وهو يعيش في بؤرة الفساد. فمثل هذا لن يكون لكلامه أدنى تأثير؛ لأنه

---

(١) أعيان الشيعة ٧: ٤٠٤، وانظر: جامع بيان العلم وفضله ١: ١٩٦، التفسير الكبير ٣: ٤٨.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٧٣.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٥٠٦ / ١٤٥٢، وتمامه: قالوا: وكيف ذلك يـابن رسـول اللـه؟ قـال: «تعملون بما أمرناكم به من طاعة الله، وتنتهون عما نهيناكم عنه من معاصيه، فـإذا رأى الناس ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا فسارعوا إليه. أشهد لقد سمعت أبـي عليه السلام يـقول: شيعتنا فيما مضى خير من كان، إن كان إمام مسجد في الحي كان منهم، وإن كان مؤذن في القبيلة كان منهم، وإن كان موضع وديعة وأمانة كان منهم، وإن كان عالم يقصد إليه الناس لدينهم ومصالح أُمورهم كان منهم. فكونوا أنتم كـذلك، حـبّبونا إلى النـاس ولا تـبغّضونا إليهم».

واعظ غير متّعظ، يروى أن التستري دخل عليه رجل وقال له: أنا عبد مملوك، وعندك نادٍ للموعظة، وهذا الذي يملكني يجلس كلّ ليلة تحت منبرك، فأُريدك أن تتناول فضيلة العتق حتى يرقّ لحالي فيعتقني.

فمرّت على المحاورة ستة أشهر ولم يتكلم التستري بذلك، وبعد مرور هذه الفترة، صعد المنبر وتناول فضيلة العتق والأجر المترتّب عليها، وفي اليوم الثاني أعتق المالك عبده هذا، فجاء العبد للتستري وقال له: جزاك الله خيراً؛ فقد أعتقني سيدي، لكن أُريد أن أسألك عن سبب تأخير موعظتك هذه التي طلبتها منك ستة أشهر، فلماذا لم تتكلم بها إلّا بالأمس. فقال له التستري: أنا لم أعتق عبداً من قبل، لكني خلال هذه الفترة جمعت مالاً فاشتريت به عبداً ثم أعتقته؛ حتى أعظ بما أكون قد سبقت الناس إليه وطبّقته، وحتى أكون قد مارست التعاليم عملياً، فتأخذ موعظتي أثرها من النفوس. فأنا لم أُقدم على الكلام حول هذا الأمر حتى طبّقته عملياً[1].

وهذا هو السبب في أننا لا نملك رجالاً في غاية الأهمية كما كانوا من قبل، فأيمّتنا ﷺ يطبّقون الشيء عملياً قبل أن يقولوه، ولذلك نجد أن أثرهم على السامع لا حدود له، فنحن قد نقول كثيراً ممّا لا نطبقه ونجسده؛ ولذلك تصبح كلمتنا غير مؤثّرة؛ وهذا هو الدافع الذي يقول القرآن الكريم من أجله: ﴿**بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾.

المبحث الرابع: الإنسان والقرآن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾، فالتوراة

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ الصف: ٢ ـ ٣.

دعت الناس لاتّباعها، والقرآن دعا الناس لاتّباعه، والذين سمعوا القرآن صنفان:

الأول: المعاندون

فهذا الصنف من الناس يقول: **﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[١]، فهذا صنف معاند، وليس له استعداد ليتأثّر بالقرآن، أي أنه لا يريد الحقّ. يقول أحد الكتاب: إن الحجاج صعد على المنبر وقال: إني أرى عيوناً طامحة، وأعناقاً ممتدّة، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وليس لها إلّا السيف[٢].

ثم يتساءل هذا الكاتب فيقول: لماذا يخاف الحجّاج من العيون الطامحة والأعناق المشرئبّة؟ ولماذا هذا القلب المملوء حقداً ولظى؟ ألا تريد أُمة لها عنفوان وإنسانية؟ فهذا لون من البشر نزع منه الوعي والفهم، والاستعداد للتلقّي والقبول.

الثاني: المسارعون

أما الصنف الآخر فيعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: **﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾**[٣]، فعندما نزل القرآن الكريم أخذ أثره في نفوسهم، وانفعلوا بالقرآن واستجابوا له بصورة كاملة، فوصفهم بهذه الآية الكريمة: **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**[٤]، فؤلاء آمنوا بما عند الله عزّ وجلّ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممّا رزقهم الله.

---

(١) الأنفال: ٣٢.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٥: ٤١، الإمامة والسياسة ٢: ٢٦، وفيات الأعيان ٢: ٣٣.

(٣) الشورى: ٣٨. (٤) البقرة: ٣.

وقد وصل الأمر في واقعة اليرموك حدّ التضحية بالنفس، يقول أبو جهم بن حذيفة: أُنبئت أن ابن عم لي سقط جريحاً في المعركة، وهو في نزعه الأخير، فجئت أبحث عنه بين جثث القتلىٰ، وقلت: لآخذ له ماء.

فلما وصلت إليه وجدته في لحظاته الأخيرة وفي حالة نزع، فقلت له هنيئاً لك الجنة لأنك بذلت دمك في سبيل الله. فقال: إني عطشان. فلمّا دنوت منه وأردت أن أسقيه ماء، أشار إلى جريح آخر كان إلى جنبه وقال لي: هذا أحوج مني. فذهبت إلىٰ هذا فقال لي: إن هذا الجريح الثالث أحوج مني. فذهبت إلىٰ الثالث فوجدته قد مات، فرجعت إلىٰ الذي قبله فوجدته قد مات أيضاً، فرجعت إلىٰ ابن عمي فوجدته مات أيضاً[1].

فهذا هو مجتمع القرآن. وهذا يذكّرنا بأبي الفضل العباس ﷺ يوم العاشر من المحرم عندما وصل إلى الفرات وركز لواءه علىٰ حافّة الشريعة، فحسر ذراعه وأراد أن يشرب، لكنه تذكّر عطش أبي عبد الله الحسين ﷺ، فرمى الماء من يده، ثم قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشان. ثم حمل الماء، ليوصله إلىٰ المخيّم، فصاح ابن سعد: اعصوصبوا عليه. فاشتبكت عليه الرماح، وكمن له رجل من وراء نخلة، فضربه على يمينه فبراها، فقال:

والله إن قطعتمُ يميني ... إنّي أُحامي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادق اليقينِ

ثم اعصوصبوا عليه فقطعوا شماله فقال:

يا نفس لا تخشَي من الكفّارِ ... وأبشري برحمة الجبارِ

---

(١) نصب الراية ٢: ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٨٠.

مع النبي المصطفىٰ المختارِ	قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلهم يا ربُّ حرّ النارِ

يقول الشاعر:

يوم أبو الفضل تدعو الظاميات به	والماء تحت شبا الهندية الخذمِ
والخيل تصطكّ والزغب الدلاص علىٰ	فرسانها قد غدت ناراً على علم[(١)]

* * *

يگله أيّست سكنه من الماي	تجي يمّي ذليله وتوچب احذاي

(١) ديوان الحاج هاشم الكعبي: ٨٠.

﴿١٤٧﴾

الشهر الحرام والقصاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الحكمة من جعل الأشهر الحرم

قد يخفى على من لم يطّلع على الحضارة العربيّة معنى الشهر الحرام، وهو ما ورد في قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ من هذه الآية الكريمة؛ ولذلك فإن المفسّر العربي يختلف عن غيره من المفسّرين من القوميّات الأُخرى التي تدين بالديانة الإسلاميّة، فابن اللغة يعرف اللغة أكثر من غيره. ومن هذا أننا عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[2] نعرف أن العرب تؤكّد باستخدام أساليب مختلفة منها نسبة العمل إلى الأعضاء أو الذات، وهذه زيادة في تحميل المسؤولية. وعليه فإن هناك معاني تكمن وراء الألفاظ في كلّ لغة، ولا يعرفها إلّا ابن تلك اللغة.

---

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) البقرة: ٧٩.

إذن فمن لا يعرف تاريخ اللغة العربيّة أو فقهها لا يعرف الشهر الحرام، ولا العلّة التي اعتبرها المشرّع الإسلامي؛ فجعل منها (الأشهر الحرم) بهذه العلّة أشهراً حرماً. إن الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية كان قائماً على بحر من الدماء، وكانت الزراعة وغيرها من المهن كافّة عدا مهنة الغزو والسلب عندهم أمراً معيباً، فليس هناك من صناعة أو غيرها من أعمال، فكلّها مهن محتقرة في عرفهم. ولهذا السبب فإن أفضل طريق كان ابن الجزيرة يختطّه ويأكل منه آنذاك هو طريق الرمح والسيف، وبهذا فإن سفك الدم كان من أيسر الأُمور عنده، بل كانت العرب قاطبة تفتخر بذلك، فحينما أنشد الشاعر قوله:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ردّ عليه بعضهم من ضمن ما انتقده فيه بقوله: كان الأولى أن تقول: «يجرين» بدلاً من «يقطرن»[1].

حرمة الدم في الإسلام

فتأمّل المستوى الذي كان عليه مثل هذا المحيط.. إنه محيط بحاجة للنقل من هذا المستوى الحيواني إلى المستوى البشري أو العقلي؛ ومن هنا كانت الضرورة تحكم باحترام هذه الأشهر وتحريم الدم فيها. إن الإسلام أراد أن يعالج وضعهم الذي كانوا عليه علاجاً تدريجيّاً، وأن ينقلهم إلى مرحلة مراجعة العقل قبل الإقدام على أي خطوة لا مراجعة التقاليد، فأراد لهم أن يثوبوا إلى عقولهم، فشرع تحريم القتال في فترة هذه الأشهر الأربعة.

وهذه الفترة وإن كانت موجودة قبل الإسلام لكنها كانت تتعرّض لكثير من

---

(١) البيت لحسّان بن ثابت، والمعترض هو الأعشى. خزانة الأدب ٨: ١١٤.

الخرق بما يسمى النسيء [1]، ولذا فإن الإسلام أقرّها وشدّد على ضرورة احترامها ضمن نطاقها الزمني فقط دون السماح بتأجيلها. فالإسلام لم ينسخ جميع ما عند العرب؛ لأن بعضه يتماشى مع العقل الذي هو نبي من الداخل، كما أن النبي ليس إلّا عقلاً من الخارج. فالله تعالى يرسل الأنبياء عليهم السلام حتى يسدّدوا الناس في حياتهم بما أنهم الشريحة الكاملة التي تمثّل العقول من الخارج. فكان العرب إذا حلّ زمان هذه الأشهر الحرم احترموها فامتنعوا عن القتال فيها مع أنهم مولعون بسفك الدماء، فتتوقّف الثارات وغيرها. والإسلام الحنيف أقرّ هذا المعنى مع أن هناك بعضاً من الأحداث وقعت فيها، لكنها كانت ممّا هو خارج عن إطار إرادته. فالإسلام يحافظ على الدم، ودم الإنسان محترم عنده: **«لأن تزول السماوات والأرض أهون على الله من قطرة دم حرام تسفك»**.

الإسلام والمستشرقون

ومع هذا فإننا نجد أن بعض المستشرقين وخاصّة اليهود منهم قد عمدوا إلى شنّ حملات على الإسلام كلّها تجنٍّ، وهي حملات غريبة، فالكاتب «بول» مثلاً يقول في كتابه (سياحة في بلدان الإسلام): «إن الإسلام ريح همجيّة جافّة اجتاحت ما أمامها من حضارات».

أمّا «تريفور» فنشر في إحدى الصحف الأمريكيّة، موضوعاً تطرّق فيه إلى ما أسماه «born again» ـ أي المولّد مرّة أُخرى ـ يشير به إلى الإسلام، وإلى أنه هو الهمجيّة وقد عادت مرّة أُخرى بعد دور الحضارات، فالإسلام عنده ظاهرة همجيّة عادت من جديد، وليس لها من مهمّة إلّا سفك الدم.

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ التوبة: ٣٧.

وهذا في حقيقته تعدٍّ وحقد لاحدود لهما؛ إن الإسلام الحنيف يعلّم أتباعه الموضوعية ومراعاة الواقع والحق عندما يريد أحدهم أن يكتب. فليس هناك من هو أكثر حرصاً من الإسلام على الدم، فتعاليم الاسلام وتشريعاته في هذا الجانب واضحة لكل من يطلّ عليها.

وربما يقول قائل: هل إن الإسلام مجرّد نظريّات مكتوبة، أم إنه تجسيد عملي؟ إن تاريخكم كلّه عبارة عن حالة متواصلة من سفك للدماء؛ فبسر بن أرطاة مثلاً قد قتل (٣٠) ألفاً من أبناء المدن التي مرَّ بها خلال ذهابه إلى اليمن ومجيئه منها حينما أرسله معاوية إليها[1].

ونقول: إن علينا أن نفرّق بين الإسلام والمسلمين، فالمسلم الذي يشرب الخمرة لا يمكن أن نحمل الإسلام عليه، وهو حينما يفعل ذلك لا يحمّل الإسلام مسؤوليّته. فمثل هذه التصرّفات الشخصيّة ليس للإسلام فيها ذنب، فلا يمكن لأحد أن يحمّل القانون ذنب الناس حينما يعتدون على نظمه أو يخرجون عليه. فالقانون قد وضع على أُسس إنسانيّة، وعنما يخالفه أحد فالخطأ في المخالف نفسه وليس في القانون. وكذلك الحال هنا مع الإسلام، فلا يمكن أن نحسب تصرّفات الحجّاج أو بسر عليه، فهذا الأمر لا يقبل به الإسلام أو أي أحد منصف؛ لأن مقاييس الإسلام تأبى الاعتداء على الكرامات والأعراض. وعليه فلا يجوز الخلط بين المسلمين والإسلام على مستوى التنظير أو التطبيق، وهذه الأُمور تحتاج إلى زمن طويل لمعالجتها.

والإسلام حينما أقرّ تشريع الأشهر الحرم وحرّم القتال فيها، لم يُرِد من هذا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧، الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥، مروج الذهب ٣: ٣١ ـ ٣٢.

التشريع أن يكون المسلم كائناً رخواً، بل إنه يريد أن يصنع منه ذلك الإنسان ذا البطولة والكرامة، لكن بشرط احترام ما يأمره به من وقف القتال واحترام الدماء إلّا فيما إذا تعدّى عليه أحد فيها، فعليه هنا أن يرد الاعتداء عن نفسه: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾. أي أن المسلم ممنوع عليه أن يسفك الدماء في الشهر الحرام، لكن إذا اعتدى عليه شخص فعليه أن يردّ الاعتداء عن نفسه؛ كيلا يصبح موطئاً للأقدام؛ لأن الله تعالى يريد من الفرد المسلم أن يكون عزيزاً، فيدّخر شجاعته للدفاع عن دينه ووطنه ومقدّساته، يقول الفند الزماني:

فلمّا صرّح الشرّ وأمسى وهو عريانُ
ولم يبقَ سوى العدوا ن دِنّاهم كما دانوا
وبالشرّ نجاةٌ حيـ ـن لا ينجيك إحسانُ
وبعض الحلم عند الشـ ـرّ للذلّة إذعانُ[1]

فالإسلام يريد أن يربّي الفرد المسلم على النجدة والكرامة والشهادة، فسوّغ له فيما لو اعتدى عليه أحد في الشهر الحرام أن يردّ الاعتداء عنه، ولم يعتبره انتهاكاً لحرمة الشهر الحرام. فالدفاع عن النفس من حقّ المسلمين إذا اعتدى عليهم أحد في أحد الأشهر الحرم.

المبحث الثاني: الأثر الإيجابي للقصاص في الحياة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾، أي أنه حتى في موضوع الحرمات فإن للمعتدى عليه أن يأخذ ما يقابلها، فمثلاً إذا كان على رجل دَين وهو لغيره ولا يعطيه إيّاه، واتّفق أن يده وقعت على أموال المدين، واستطاع أن

---

(١) أمثال الحديث (ابن خلّاد): ٢٤، شرح نهج البلاغة ١٧: ٤٠، ١٩: ٢٢١.

يأخذ منها، فإن له أن يقتطع منها بقدر الدين الذي له، فيقتصّ منه. والشريعة المقدّسة تعطي هذا الحق؛ لأن في القصاص حياة.

أقسام العمل في المنظور الاقتصادي الإسلامي

لكنْ هناك نقاش في أن للدائن أن يستردّ ماله عن طريق القضاء، أو مباشرة عن طريق القصاص، فالمسألة مردّدة بين هذين الطرفين، وهي خاضعة لاجتهادات الفقهاء؛ على ضوء آرائهم في اعتبار وحدة المطلوب وعدمها في العمل. فابن حزم صاحب (المحلّى) ـ وهو من فقهاء الظاهريّة، وله نظريّات رائدة في الفقه ـ يستدلّ من هذا المقطع الشريف على جواز استرداد أبعاض الأجر فيما لو لم تكن الأعمال مأخوذة على نحو وحدة المطلوب [1]. وعليه فالعمل قسمان:

الأول: ما لا يؤخذ فيه وحدة المطلوب

وهو مثل ما لو استأجر شخص شخصاً عنده راحلة ليوصله إلى مكّة أيّام الحجّ، فلو أن هذه الراحلة ماتت بعد قطع مسافة (٢٠٠) ميل مثلاً، فهل يستحقّ المؤجّر على هذه المسافة أُجرة توازي أُجرة المئتي ميل؟ هنا يرى البعض أنه لا يستحقّها؛ لأنه استؤجر على عمل يعتبر واحداً، أي أنه مأخوذ فيه وحدة المطلوب، وهو ما لم يتحقّق، بل إن هذا قد تضرّر؛ لأن الطريق انقطع به في الصحراء.

الثاني: ما يؤخذ فيه وحدة المطلوب

أمّا إذا استؤجر شخص لبناء دار فبنى منها غرفة كاملة ثم مرض الأجير، فلم يستطع أن يتمّها، فهو هنا يستحقّ أُجور عمل الغرفة؛ لأنها ممّا يمكن أن ينتفع به بمفردها. فالعمل هنا لم يؤخذ على نحو وحدة المطلوب. ومن هنا نعرف حرص

---

(١) انظر المحلّى ٨: ١٨٠ / المسألة: ١٢٨٤، ١٩٠ ـ ١٩١ / المسألة: ١٢٩٩، ٢٢٦ / المسألة: ١٣٣٧.

الإسلام على عرق العامل وألّا يبخس حقّه حتى لو كانت أبعاض أجر: **«أعطِ الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»**(١).

فالآية الكريمة تقول: **﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾**، والدم محرم، لكن إذا اعتدى على مسلم عدوّ فإن له أن يسفك دمه إن أراد قتله. ومع هذا فيجب ألّا تنسى أن بالإسلام المتمثّل بشهادة **«لا إله إلّا الله، محمد رسول الله»** تحقن الدماء. لكن للأسف هناك ثغرات في تاريخنا خُرقت فيها تعاليم الإسلام، ومنها ما فعله الخوارج بعبد الله بن خباب حيث اعترضوا طريقه، ولمّا رأوا المصحف الشريف معلّقاً في عنقه قالوا له: ما هذا الذي تضعه في عنقك؟ قال: القرآن. قالوا: إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك(٢). هذا في حين أن المسلم أخو المسلم، وعليه أن يحافظ على دمه وماله وعرضه وحقوقه.

إذن فالقرآن الكريم إذ يقول: **﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾** فإنما ينبّه إلى أن الأشياء التي أعطاها الله تعالى حرمة فإنها يجب أن يقتصّ فيها، وأن الاقتصاص على الحرمات هو لحفظ النظام.

هل ترفع الحدود في الدنيا عذاب الآخرة؟

إن هناك خلافاً بين الفقهاء حول من يُقتصّ منه في الدنيا؛ هل إنه يعاقب على جريمته في الآخرة، أم لا؟ وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من معرفة أن هناك حقوقاً خاصّة وحقوقاً عامّة، فالسارق حينما يردّ المبلغ الذي سرقه يسقط الحقّ الخاصّ، لكن هذا لا يعني أن الأمر قد انتهى عند هذا الحدّ؛ إذ أنه يتبقّى في ذمّته

---

(١) الكافي ٥: ٢٨٩ / ٢، سنن ابن ماجة ٢: ٨١٣ / ٢٤٤٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨٢، وانظر: الهداية الكبرى: ١٣٦، مسند أحمد ٥: ١١٠، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٨٥.

الحقّ العامّ، وهو حقّ الهيئة الإنسانية. فالسارق عمل على الاستهانة بحقوق الآخرين والاعتداء على الناس وعلى حقّهم العام، وهذا ما يعبّر عنه الفقهاء بحقّ الله عزّ وجلّ. فالذي يعتدي على حقّ غيره، ويردّه إليه في الدنيا يجب أن يعلم أن وراءه رقابة إلهيّة وملاحقة يتبنّاها الله عزّ وجل.

إن الإنسان ضخم بعقله، فلا يستهن بحقوق الناس، وعلى قدر عقله يكون تكليفه وحسابه، فـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١]، فالجاهل غير العالم، أي أن العالم الذي يعتدي على غيره يكون عقابه مضاعفاً[٢]؛ ولذا فقد ورد في الأثر أن «ذنب العالِم كالعالَم»[٣]؛ لأن المفترض بالعالم أنه هو الذي يهذّب الجاهل ويعلّمه. ولكننا الآن لا نجد من هذا شيئاً؛ ذلك أن هناك علماء ذوي ثقافة وإدراك لكنهم أسرع من غيرهم إلى ارتكاب الجريمة.

إذا لم يزد علمُ الفتى قلبَه هدى ... وسيرتَه عدلاً وأخلاقَه حسنا

فبشّره أن الله أولاه فتنة ... تغشّيه حرماناً وتوسعه حزنا[٤]

وهذا ما يعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[٥]. فمثل هذا سواء كان عنده علم أو لم يكن عنده علم، فهو على حدّ سواء؛ لأنه لم يستفد من علمه، مع أن المفروض أن يأخذ العلم أثره من السلوك في العمل، وأن يأخذ بيده إلى الصواب.

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) انظر شرح أُصول الكافي (المازندراني) ٢: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٣) وقال الصادق عليه السلام: «يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد». الكافي ١: ٤٧ / ١: وأرسله في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦: ٤٨٠ / ٩٦٥٧ عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) شرح رسالة الحقوق: ٥٠٩.

(٥) الأعراف: ١٧٦.

المبحث الثالث: العفو عند المقدرة والمثليّة في القصاص

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾، هناك قاعدة أُصولية تقول: «إن المورد لا يخصّص الوارد»[١]، أي أنه إذا أُنزلت آية في موضوع خاصّ فإنها لا يقصر حكمها على ذلك الموضوع، بل لنا أن نعدّيَه إلى كلّ ما يتوفّر فيه وحدة الملاك. فمثلا قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾[٢]، نزل بسبب سارق بعينه، لكن ليس معناه أن هذا السارق فقط تقطع يده، بل إن كلّ من يسرق تقطع يده، فالآية الكريمة حكمها عام. وكذا آية المقام: ﴿**فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ فإن فيها عموماً، فليس الاعتداء في الشهر الحرام فقط هو المسوّغ للردّ عليه، بل إنها شاملة لكلّ اعتداء حتى لو كان في غير الشهر الحرام.

وربما يقول قائل: ألا يتناقض هذا مع قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[٣]؟

ويجاب بأن هذا لا ينفي حقّ المعتدى عليه في الردّ، فهو يملك حق ردّ الاعتداء لكن لا يجب عليه تنفيذه، أي أنه يجوز له أن يترك هذا الحقّ، ويجوز له أن يردّ الاعتداء. فترك الاعتداء من حسن الخلق لكن ينبغي ألّا يتحوّل إلى حالة من الضعف، كما أنه أمر يتبع المزاج، فهناك من يطغى عليه مزاج الردّ:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا[٤]

---

(١) جواهر الكلام ١: ٢١٥، حقائق الأُصول ٢: ٤١٢.

(٢) المائدة: ٣٨.
(٣) فصلت: ٣٤.

(٤) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته. أمالي السيد المرتضى ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٣٥٦.

في حين أننا نجد مقابله مزاجاً يذوب رقّة ورحمة، فيقول صاحبه:

إنـي شكـرت لظـالمي ظـلمي ... وغـفـرت ذاك لـه عـلى عـلمي

ورأيـــتـه أســدى إليَّ يـداً ... لمـــا أبــان بـجهله حـلمي

رجـعـت إسـاءتـه إلـيـه وإحـ ... ـساني فعاد مضاعف الجرمِ

ورجـعـت ذا أجـرٍ ومـحمدةٍ ... وغـدا بكسب الوزر والإثـمِ

مـــازال يـظلمني فأرحـمه ... حتى بكيت له مـن الظـلمِ[1]

إذن فالأمر في الآية الكريمة: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْه﴾ هو للإباحة لا للوجوب، أي أن المعتدى عليه يملك الحقّ في ردّ الاعتداء، فهو بالخَيار إن شاء اقتصّ وإن شاء عفا وقابل بالإحسان.

موقف الإمام السجّادﷺ من مروان

وهناك في تاريخنا أمثلة سامية في عدم مقابلة الإساءة بمثلها، فمثلاً مروان بن الحكم الذي لم يُسئ أحد من المسلمين إلى الإسلام بقدر ما أساء إليه هو، فـقد خلق ألف مشكلة للإسلام، كما أنه هو الذي سبّب مشكلة للخليفة الثالث مع الناس ممّا أدّى إلى مصرعه، وخلق حالة من الشقاق بين المسلمين[2]. وهو الذي كان يضرب رأس الإمام الحسينﷺ بالعصا ومع ذلك فإنه حينما حدثت الثورة على الأُمويّين في المدينة وقف الإمام زين العابدين يحمي عائلته وعوائل الأُمويّين. فأين يمكن أن نجد مثل هذا الخلق العالي؟ لقد كان الإمامﷺ يـصلهم بـالطعام، ويوفّر لهم الحماية ويأمر أبناءه بذلك[3].

---

(١) الأبيات لمحمود الورّاق. شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٣: ٣٩٧، الإمامة والسياسة ١: ٣٥، شرح نهج البلاغة ٢: ١٤٦ ـ ١٤٨، ٩: ٢٦.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

فهذه مشاعر آل محمد ﷺ التي تترفّع على الحقد. وكان بعض الجماعة يسيئون للإمام علي عليه السلام، فيشتمونه تحت منبره، وقد قال لهم مرّة وهو على المنبر: «**أما إني أعلم الذي تريدون ويقيم إوَدكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي**»[1]. فيسكت عنهم ويسامحهم، ولكن الجاهل لا يعي أن العفو عفو، وإنما يسميه ضعفاً، مع أن على الإنسان أن يصنع الفضيلة للفضيلة.

ثم إن الاعتداء يجب ان يأخذ صفة المماثلة، فلا تجمح العاطفة بالإنسان فيتعدّى الحدود المشروعة في الاقتصاص، قتل ولد لأحد من بني تميم، فلما جاءه أهل القاتل ليدفعوا له الدية، قال: أنا أُخيّركم إحدى ثلاث: أن تعيدوا لي ولدي حيّاً. فقالوا: إن هذا غير ممكن. فقال: إذن عليكم أن تُنزلوا لي نجماً من السماء. فقالوا: وهذا غير ممكن كذلك. فقال: إذن أبيدكم عن آخركم، فإن قطرة واحدة من دمه تعدل دماءكم كلّها. فعاطفة هذا الأب جامحة، وهو في حالة غضب كذلك؛ ولذا طلب منهم ما طلب، لكنه يتعارض مع ضوابط الإسلام والإنسانيّة.

فالقرآن الكريم يريد أن يقيّد هذه العواطف الجامحة، فأمر بأن تراعى المثليّة في القصاص، فلا ينتقل إلى حكم آخر إلّا إذا لم يكن بالإمكان إحراز المماثلة، كالضرب مثلاً؛ فإنه إذا خيف أن يفقد المقتصّ منه سمعه أو بصره مثلاً عند الاقتصاص منه، فليس من المعلوم أن يسلما له إن هو ضُرب، فحينها ينتقل إلى حكم آخر كما قلنا. فالمماثلة أُوجدت لحفظ النظام وكيلا تكون حياة المجتمع غابة يأكل أبناؤها بعضهم بعضاً.

المبحث الرابع: حرمة الأشهر الحرم عند المسلمين

إذن فالله تعالى أكّد على حرمة هذه الأشهر فلا يسفك فيها دم ولا يعتدى فيها

---

(١) الكافي ٨: ٣٦١ / ٥٥١.

على أحد، وكان العرب يحترمونها كذلك وإن كانت هناك بعض الخروقات المعلّلة بالنسيء الذي حرّمه الله تعالى، ولكننا مع ذلك نجد أنه قد اعتدي في أحدها على قدسيّة حامل الرسالة ﷺ، وعلى عائلته.

وهذا الأمر غير متوقّع في تاريخ الإسلام، فالفترة بين بعثة النبي ﷺ وبين واقعة الطفّ كانت قليلة، فهي بحدود (٦٠) سنة، أي أن من أبنائها الجيل عينه الذي عايش النبي الأكرم ﷺ، فقد كان مع الإمام الحسين ﷺ قسم من صحابة رسول الله ﷺ، ومع هذا فقد فُعل به ما فُعل، مع أن الرسول الأكرم ﷺ جاء منقذاً؛ فقد كانت الجزيرة عند نقطة الصفر من الناحية الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهذا المقطع من خطبة الزهراء ﷺ يوضّح حياتهم خير توضيح، تقول ﷺ: **«وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلّة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرَق فأنقذكم الله بأبي محمد ﷺ منها»**[1]. فقد كانوا يأخذون دم الذبيحة ويشربونه، ويشربون الطرق، وهو الماء الآسن الذي تبول فيه الإبل، ويزدحمون على البئر الواحدة؛ فتسفك الدماء وتسقط في البئر، فيضطرون لشرب مائه، ولمّا جاء الإسلام بدّل ذلك الخباء الممزّق الذي عبّرت عنه ميسون بقولها:

لبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ[2]

فالبيت تلعب الريح فيه، ولمّا جاء الإسلام استبدله بعروش كسرى وقيصر، فأوطأهم إيّاها، وجعل الأنهار تجري من بين أيديهم، وفتحوا الدنيا بأكملها، ووضعت بين أيديهم أنواع الأطعمة، ونالوا الكنوز العظيمة. هذا من الناحية الماديّة أمّا من ناحية أُخرى فقد استطاع أن يجعل منهم عباقرة ينظر إليهم التاريخ بإعجاب. فهل جزاء ذلك كلّه الاعتداءُ على أبناء رسول الله ﷺ بعد أن رحل

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٣٣ ـ ١٣٤.

عنهم؟ إننا نعرف مدى حرمة الدم في الإسلام، فكيف إذا كان دم النبي ﷺ نفسه؟ حينما جاؤوا بالرؤوس إلى الشام اختفى خالد بن معدان ـ وهو من الفقهاء ـ فكان يجلس في بيته ويردّد:

جاؤوا برأسك يابن بنت محمد … متزمّلاً بدمائه تزميلا
ويهلّلون بأن قتلت وإنما … قتلوا بك التكبير والتهليلا[١]

فهو يعجب كيف أنهم قتلوه فأراقوا به دم النبي ﷺ. وكان الشافعي يقول:

تأوّه قلبي والفؤادُ كئيبُ … وأرّق نومي فالسهاد عجيبُ
ذبيح بلا جرم كأن قميصه … صبيغ بماء الأرجوان خضيبُ
فمن مبلغ عني الحسين رسالة … وإن كرهتها أنفس وقلوبُ[٢]

فكان يندب الإمام الحسين عليه السلام ويبكيه أشدّ البكاء. وكان الحسن البصري يقول: «أذلّ الله أُمّةً قتلت ابن بنت نبيها»[٣].

فهؤلاء كان عندهم ضمير يقدّر الواقعة، في حين أن البعض يقول: إن الحسين خرج على إمامه وقتل، بل أكثر من هذا نجد أن ابن العربي يقول: «إن الحسين قتل بسيف جدّه؛ حيث إن جدّه ﷺ حمل القرآن، والقران يقول: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾[٤]...»[٥]. وهذا كلام غريب؛ فهل إن الإمام الحسين عليه السلام باغٍ؟ إنه الحسين

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٣ تهذيب الكمال ٦: ٤٤٨.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٩، بحار الأنوار ٤٥: ٢٥٣ / ١٢، ٢٧٣ - ٢٧٤، معارج الوصول إلى معرفة فضل آل الرسول عليهم السلام (الزرندي الشافعي): ١٠١، ينابيع المودّة ٣: ٤٨ - ٤٩. وستأتي تتمّتها في محاضرة (السبط المخلّد عليه السلام) ج ٨ من كتابنا هذا.
(٣) ينابيع المودّة ٢: ٣٩٨.
(٤) الحجرات: ٩.
(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

الذي عبّر عنه رسول الله ﷺ بأنه **«سيّد شباب أهل الجنّة»**[1].

ثم إنه ﷺ ألم يكن يعرف أنه سيقاتل حينما قال فيه ما قال؟ فهل يريد هذا المعترض أن يصحّح لرسول الله ﷺ رأيه؟ إن هذا الأمر من الثغرات العجيبة في تاريخنا، ولابدّ من ملئها، ومن عودة المسلمين جميعاً لأُسس الإسلام.

وكما قلنا فإن من المفارقات الغريبة في تاريخنا أن هذا الشهر الحرام تنتهك حرمته، وبمن؟ بدماء أبناء رسول الله ﷺ[2]؛ ولذلك فإن شهر المحرم إذا مرّ أخذ من قلوب أهل البيت ﵈، كان الإمام الباقر ﵇ يدخل عليه الشعراء والخطباء فيردّدون واقعة الطف بقصيدة أو كلمة، وكان الإمام الصادق والكاظم والرضا ﵈ كذلك، وحذا شيعتهم حذوهم في هذا، وكانوا ﵈ يؤكّدون على هذا، ويأمرون به: **«أحيوا أمرنا؛ رحم الله من أحيا أمرنا»**[3]. فما هو الهدف من ذلك؟ ولماذا يصرّ الإمام الصادق ﵇ على أن يستعيد واقعة الطفّ؟ إن الإمام الحسين ﵇ لم يكن دمعة فقط، وإنما كان سيفاً، ولا يصحّ أن يُحوّل السيف إلى دمعة؟ يقول الأديب:

أبا الثورة الكبرى صليلُ سيوفها	**نشيدٌ بأبعاد الخلود مُرجَّعُ**
تُشير وإيماضُ القواضبِ مشعلٌ	**وتحدو بركب الثائرين فيتبعُ**
أبا الطف ما جئنا لنبني بلفظنا	**لمعناك صَرحاً إن معناك أرفعُ**

---

(١) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، شرح النووي على صحيح مسلم ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٢) قال الشاعر:

قتلوا الحرامَ من الأيمّـ ـة في الحرامِ من الشهورِ

مثير الأحزان: ٦١.

(٣) الخصال: ٢٢ / ٧٧، الأمالي (الطوسي): ١٣٥ / ٢١٨.

متى بنت الألفاظُ صرحاً وإنما الـ ـصروح بمقدود الجماجم تُرفعُ
الا إن بُـرداً مـن جـراحٍ لبستـه بنى لك مجداً من جراحك يُصنعُ
وضعناك في الأعناق حِرزاً وإنما خُلقت لكي تُنضى حساماً فتُشرعُ
وصُغناك من دمعٍ وتلك نفوسنا نـصوِّرها لا أنت إنّك أرفـعُ[١]

إن الإمامعليه السلام ليس بحاجة لأن تحشد كلّ تلك الناس لأجل دمعة، فالدمع إفراز طبيعي عند تأجّج العاطفة، كما أن «أحيوا أمرنا» لا يكون بالبكاء، لقد كان الإمام يودّ أن يجعل من الحسينعليه السلام أنشودة ومثلاً؛ لأنه رفع مبادئ الإسلام، ووقف يصارع مبادئ الجاهليّة، ليُخرج المسلم من قوقعته وليقف ثائراً بوجه الظلم، وليرفع كلمة «لا إله إلّا الله»، ومن أجل حرّيّته. فوقعة الحرّة بيّنت الموقف الحقيقي والشائن للأُمويين من المسلمين، حيث فرضوا عليهم أن يبايعوا كعبيد أقنان ليزيد[٢]، أي أن يزيد يتحكّم بدمائهم وأموالهم وأعراضهم. وهذا ما لا يرتضيه الإسلام للإنسان، فهو مكرّم عنده ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٣].

كان عمر بن عبد العزيز يأخذ الأموال من بني أُميّة ويرجعها الى الناس، فتقول له عمّته: ألا تخشى منهم؟ قال لها: «كل يوم دون يوم القيامة لا أخشاه»[٤]. فهؤلاء نهبوا أموال المسلمين وسأُرجعها إلى أهلها.

فالأموال سرقت، والأعراض والدماء انتهكت، فقد قتل بسر بن أرطاة (٣٠) ألفاً في يوم واحد، كما ذكرنا أول المحاضرة، حتى قام عقيبة الأسدي وقال:

مـعاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنا فجردتموها فهل من قائمٍ أو من حصيدِ

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٣٢.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.
(٣) الإسراء: ٧٠.
(٤) انظر الطبقات الكبرى ٥: ٣٩٨.

ذروا جورَ الإمارةِ واستقيموا وتأميراً على الناس العبيدِ
فهبنا أُمّةً ذهبت ضياعاً يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
أتطمعُ في الخلافةِ إذ هلكنا وليس لنا ولا لك من خلودِ
وأعطونا السويّةَ لا تزرْكم جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[(١)]

فالإمام الحسين عليه السلام خرج ليقارع الظلم، وليصارع قيم الجاهلية؛ فهو أكبر من أن يعامل بالدموع، لكن يبقى الدمع يفرز عندما تمرّ الواقعة شئنا أم أبينا، فنحن حينما ندرس الواقعة وننتهي إلى نتيجة هي أن واقعة الطفّ جعلت بيوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالية، فإن الإنسان حينئذٍ لا يمكن أن يتمالك دمعه دون أن يتركه يسيل من عينيه، ورحم الله سليمان بن قتّة إذ مرّ بديار الحسين عليه السلام ورآها خالية فأنشد:

مررت على أبياتِ آلِ محمدٍ فلم أرَها أمثالَها يومَ حلّتِ
ألم ترَ أن الشمسَ أضحت مريضةً لفقدِ حسينٍ والبلادَ اقشعرّتِ
وكانوا رجاءً ثم صاروا رزيةً لقد عظمت تلك الرزايا وجلّتِ
وإن قتيلَ الطفِّ من آلِ هاشمٍ أذلّ رقابَ المسلمين فذلّتِ[(٢)]

وهنا كانت زينب تجول في تلك الديار الخالية، وتمرّ بمحاريب إخوتها فتجدها خاوية، وتمرّ بالبيوت فلم تجد غير الأرامل واليتامى، فتختنق بعبرتها:

هذي القبورُ ومنها في الحشا شعلُ فيها مناسكُ أحبابٍ بها نزلوا
من طيبةٍ بلغوا في كربلا أفلوا (بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا
وخلّفوا في سويدا القلبِ نيرانا)

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٧.
(٢) أُسد الغابة ٢: ٢١، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٨.

فهرس العناوين الرئيسة

المحتويات